شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦١ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
منى السعودي

المحتويات

صفحة ٤ شؤون فلسطينية ·

٦ المسالة الفلسطينية بين احتمالات التسوية او الحرب ، غـــازي الخليلي ·

٢٦ الجنوب في مواجهة الحلف الصهيوني ـ الفاشي ، جهاد سلامة

٤٩ موقف اسرائيل من احداث لبنان ودورها فيها ، أحمد خليفـة ·

٦٣ الافكار والتحالفات والمباديء والمناورات ، محجوب عمر ·

٧٤ التعبير في الحرب الاهلية ، الياس خوري ·

١٠٦ ٧٦،٧٣ : قصيدتان ، مؤيد الراوي

١١١ ابوجابر الخليلي (قصة) ، ترفيق فياض

١٢٩ ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي بعد ثلاث سنوات من حرب تشرين ، المقدم الهيثم الايوبي

صفحة ١٤٤ بين الكلمة « الوثرية » والفعل الثوري : حـــول مناقشـــات البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحريـر فلسطيـــن ، داود تلحمـي ·

١٦٤ التكامل الاقتصادي العربي لبناء الصناعة الحربية العربيـــة ، الدكتور خيرات البيضاوي ·

١٧٦ اشارات على مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ، سميح سمارة

١٨٩ وثيقة كنيغ والمازق الصهيوني ، حسين ابو النمل ·

٢٠٥ رسالة من نيويورك : الحزب الاهلية اللبنانية في الاعـــلام الاميركي ، سلمى حداد ·

٢٠٩ تقرير : سفينة التجسس « ليبرتي » : مثال للتواطؤ الاميركي ـ الاسرائيلي ، يوسف خضر ·

٢١٦ دراسة تاريخية: الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البـــراق ، شريف ماهر ·

شؤون فلسطينية

خلال سنتين من الحرب الاهلية التي عصفت بلبنان ، كنا في « شؤون فلسطينية » نحاول المحافظة على رسالتنا الفكرية والثقافية والتزامنا الوطني الفلسطيني من خلال ممارستين :

الاولى : هي الالتصاق بقضية الشعب ، في فترة هي من اخصب واخطر واهم فترات النضال الوطني الفلسطيني المعاصر ضد العدو الصهيوني ، وضد محاولات تصفية ارادة شعب فلسطين او تحجيمها او ابتزازها بالتنازلات ، « شؤون فلسطينية » حريصة على تاكيد هويتها بوصفها منبرا ديمقراطيا ملتزما بقضية الشعب والثورة ، قادرا على ان يشكل ارضية حوار نضالية بين مختلف اطراف النضال الوطني الفلسطيني ٠

الثانية : هي التغلب على الصعوبات التقنية التي فرضتها تطورات الحرب ٠ فكانت معركة الكلمة الملتزمة مع الظروف المستجدة تنطلق من ضرورة ان تكون الكلمة سلاحا راهنا ، وليس فقط سلاحا مستقبليا ٠ اداة للتحليل والتغيير في آن واحد ٠

ان بعض الاضطراب في مواعيد صدور اعدادنا الاخيرة هو نتيجة المعادلة الصعبة هذه التي حاولنا صياغتها خلال الحرب ٠ ونامل اليوم وابتداء من هذا العدد ان تعود « شؤون فلسطينية » الى ثبات مواعيد صدورها كما عودت قارئها ٠

ولم يكن اضطراب مواعيد الصدور هو الخلل الوحيد الذي طرا على « شؤون فلسطينية» فلقد لاحظ القراء خارج لبنان ، بل وربما حتى في بعض المناطق اللبنانية ، القطاع وصول المجلة اليهم ، وربما ظن بعضهم انها توقفت عن الصدور ٠

والحقيقة ، انه برغم الظروف القاسية التي سادت الشهور العشرين الاخيرة في لبنان ، والتي عصفت بكل مظاهر الحياة والنشاط بما فيها «شؤون فلسطينية» كانت الدورية الشهرية الوحيدة التي واظبت على الصدور الذي كاد ان يكون منتظما ، فانا تمكنا من التغلب على كل العقبات الا عقبة واحدة هي المواصلات ، فكانت المجلة تصدر ، ولكنها توزع في اضيق نطاق ممكن ، وهذا في رأينا مايعطي الاعداد التي صدرت في هذه الفترة من ٤٤ الى ٦٦ مزيدا من الاهمية ، ليس لان وصولها لم يكن ممكنا الى كل القراء في تلك الفترة ، بل لان هذه المجموعة من الاعداد قد غطت احدى اخطر واخصب واهم الفترات في حياة الثورة الفلسطينية وحياة الكيان اللبناني ٠

فعلى مدى شهور الازمة العشرين (من نيسان ١٩٧٥ الى تشرين الثاني ١٩٧٦)

اصدرت «شؤون فلسطينية» ستة عشر عددا (منها عددان مزدوجان) ، تشكل في مجموعها احد المراجع المهمة عن الازمة اللبنانية بكل جوانبهـــا ٠

فقد نشر في هذه الاعداد ـ وبرغم كل صعوبات الكتاب والكتابة ـ تحليلات للجانـــب اللبناني من الازمة بمجالاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعيـــة والطائفيـــة والفكرية ، وتحليلات للجانب الفلسطيني من الازمة مع مقارنات بين احداث لبنان الاخيرة واحداث الاردن (عامي ٧٠ ـ ٧١) ٠ كما شملت هذه المجموعة مقالين تسجيليين تحليليين عن مسار الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها اليومية ٠ وفي المجموعة معالجة لثلاث محطات هامة فيمسيرةمعارك الحرب اللبنانية عن تل الزعتر ، والجنوب والجبل ، ومعالجتان للدور الاسرائيلي في احداث لبنان ٠ كما تضمنت هذه المجموعة ثلاث وثائق مهمة احداها فصل من مذكرات روبرتمورفي، المبعوث الاميركي للبنان في اواخر ازمة ١٩٥٨ ، وفصل من كتاب لاليرت حوراني عنالتركيب الطائفي ـ السياسي للبنان في الاربعينات ، وترجمة حرفية لوثيقة كنيسة الاسرائيلية عـن تهويد الجليل ٠

كما تضمنت المجموعة اكثر من مقال يحلل الازمة اللبنانية من خلال علاقتها بالتسوية العامة المطروحة للصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ اتفاقية سيناء ٠

وبرغم سيطرة الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها على هذه المجموعة من « شؤون فلسطينية» فهي زاخرة بمعالجات مفصلة لجميع المواضيع التي عودت قراءها على متابعتها ، ولعل ابرز مجهود في هذا المجال الندوة المطولة حول انتفاضة الارض في منتصف هذا العـام ٠

شيء واحد كان ينقص هـذا المجهود المتواصل والمتحدي لاصعب الظروف ، هو وصوله الى القراء الذين تعودوا على متابعة « شؤون فلسطينية » ، وهذه هي العقبة الوحيـــدة التي لم نستطع تذليلها ٠ لذلك فان قسم التوزيع التابع لمركز الابحاث ، مستعد لتلبية كل طلب متعلق بمجموعة الاعداد التي صدرت فيالغاء الازمة اللبنانية او اي عدد منفرد منها ٠

ومع العدد القادم من «شؤون فلسطينية » نامل ان نعاود سيرتنا الاولى مع القارىء من حيث النظام الصدور والنظام التوزيع ٠

هيئة التحرير

المسألة الفلسطينية بين احتمالات التسوية او الحرب

غازي الخليلي

ماهي ملامح المرحلة القادمة بعد فوز جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة؟ هل سيغير هذا الفوز من حسابات بعض الدول العربية ومواقفها حول احتمالات عقد تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ام لا ؟ ذهاب كيسنجر ، مهندس معادلات واتفاقات التسوية ومبتدع سياسة الخطوة ـ خطوة ، هل سيغير في الحسابات ويفرض اعادة جمع اوراق الازمة وخلطها من جديد ؟ اسئلة كهذه تطرح نفسها الان ، والاجابة عليها قد تبدو مبكرة او غير مشجعة ـ نوعا ما ـ لو اخذنا منطق هذا البعض من الدول العربية الذي وضع البيض كله في سلة واحدة ، وراهن على كيسنجر وعلى فوز فورد بانتخابات الرئاسة الاميركية ، للتقدم خطوة كبيرة ،وكبيرة جدا في مسيرة التسوية . ولكن منطقا كهذا لا يصمد امام الواقع ، لانه يسقط الرغبات الذاتية على هذا الواقع ، ويقوم على التمنيات اكثر ما يقوم على التحليل العلمي للوقائع والاحداث . ولا يعني قولنا هذا ان فوز كارتر لن يحدث بعض التغيير في الصورة ، لا بل ، سيحدث بعض التغيير ، ولكنه تغيير لا نراه الا بحدود ضيقة ،ويتناول الاسلوب والشكل ولا يتناول الاهداف الثابتة للسياسة الاميركية ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ذلك ان الموقف الاميركي من هذا الصراع لم يتغير بوجود كيسنجر او عدم وجوده ، بل ظل ـ ولا يزال ـ ملتزما بثوابت محددة ، يجري التعبير عنها باشكال مختلفة وباساليب متنوعة ، وفقا لما يطرأ من تطورات على هذا الصراع نفسه من ناحية،ولما يطرأ من تطورات على الصعيد الدولي من ناحية اخرى . وسياسة « الخطوات الصغيرة » في مسيرة التسوية تمهيدا لخطوة كبيرة ـ نوعا ما ـ لم تكن باي شكل من الاشكال ، خروجا عن هذه الثوابت ، بل كانت شكلا من اشكال متعددة لتنفيذ السياسة الاميركية في الشرق الاوسط على ضوء ما طرأ من تطورات بعد حرب تشرين .

ثوابت الموقف الاميركي

الثوابت في الموقف الاميركي ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، باتت

واضحة ، ولا تحتاج الى جهد كبير للتدليل عليها او التعريف بها ، ويمكن اجمالها بما يلي :

١) دعم وتقوية اسرائيل باستمرار ، وذلك للحفاظ عليها قوية وقادرة على مواجهة اية تطورات محتملة في الوضع العربي • ولذلك ففي الوقت الذي كانت فيه ادارة نيكسون أو تقدم نفسها لبعض الدول العربية بثوب جديد ، كانت تقدم لاسرائيل مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة • وعقدت ادارة فورد قبيل انتخابات الرئاسة ، صفقات كبيرة من الاسلحة مع اسرائيل لتزويدها بافضل الاسلحة الاميركية واكثرها تطورا •

٢) ضرب علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول العربية • بالتاثير على هذه العلاقات وتقليص حدود فعلها وتأثيراتها الى ادنى حد ممكن • وفي هذا المجال فقد عمدت السياسة الاميركية خلال السنوات الماضية الى ايجاد نوع من التوازن النسبي بين الدفع في مسيرة التسوية خطوة ، وبين التراجع في العلاقات السوفياتية ـ العربية خطوة او خطوات مقابلة • ولتكريس هذا التوازن ، اوجدت نوعا من الوهم لدى بعض الدول العربية بأن كل « اوراق اللعبة » اي اوراق التسوية بايدي الولايات المتحدة • وبهذا المنظار ، فان اتفاقية سيناء كانت في احد مظاهرها تعبيرا عن تراجع كبير في العلاقات السوفياتية ـ المصرية وتقدما اكبر واوضح في العلاقات الاميركية ـ المصرية •

٣) حماية المصالح الاميركية الاستراتيجية في المنطقة ، من نفط وعلاقات اقتصادية وسياسية وطرق مواصلات عالمية • وذلك بدعم القوى الاكثر رجعية في المنطقة ، وتمتين علاقات هذه القوى فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين الولايات المتحدة من الجهة الاخرى • وايضا بالعمل على توسيع شبكة العلاقات الاميركية مع الدول العربية الاخرى ، التي كانت علاقاتها مع اميركا تتسم بعداء نسبي في الماضي ، والتي باتت اكثر تقبلا الان ، لمد جسور قوية من التفاهم والعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الولايات المتحدة ، وذلك على قاعدة استيعاب الدور الاميركي في المنطقة ، وتقبل دور الولايات المتحدة المميز والخاص في تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي •

٤) العمل على تهدئة الصراع العربي ـ الاسرائيلي طالما ان امكانات الوصول الى تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة لهذا الصراع ، وفق المنظور الاميركي ، لم تتوفر بعد • وذلك بالتهديد تارة ، وبالوسائل الدبلوماسية وسياسة الخطوات الصغيرة تارة اخرى •

٥) الالتزام بالموقف الاسرائيلي من المسألة الفلسطينية ، وربط احتمالات حدوث اي تغيير في الموقف الاميركي من هذه المسألة بتفاهم او تنسيق واتفاق مسبقين بين اسرائيل والولايات المتحدة ٠

لقد جرى التعبير عن هذه الثوابت بوسائل مختلفة واساليب متنوعة خلال السنوات العشر الماضية ، والى ما قبل حرب تشرين اتسم التعبير عن هـــذه الثوابت بالتعنت ، في حين انه اتسم بمرونة نسبية بعدها ، وذلـك بهـــدف استيعاب الحالة الساخنة للصراع التي نجمت عن هذه الحـرب ، وامتصـاص النتائج الايجابية التي ولدتها ومحاولة استيعابها ضمن السياسة الاميركية في المنطقة ٠ ويمكن القول بدون تردد ، ان الدبلوماسية الاميركية نجحت الى حـد كبير في محاولتها هذه ، وذلك نتيجة مواقف بعض الانظمة العربية التي اندفعت وراء العربة الاميركية دون تبصر ودون حسابات واضحة ، مكتفية بالوعـــود « وبحسن نية » فورد وكيسنجر ٠

سياسة الخطوة ـ خطوة اسقاطات اغراضها ٠

على الرغم من ان سياسة « الخطوة ـ خطوة » ارتبطت باسم كيسنجـــر باعتباره مبتدعها ومنفذها ، فان هذه السياسة طرحت اكثر من مرة قبل حرب تشرين كمدخل او مقدمة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وكان المحور في هذه السياسة يدور حول فتح قناة السويس ، وموشيه ديان هو اول من طرح هذه الفكرة في العام ١٩٦٩ ، ثم طرحها كمشروع ، الرئيس انور السادات في شباط « فبراير » ١٩٧١ ، الا ان هذه الفكرة لم تجد طريقها الى التنفيذ لانهـــا اصطدمت آنذاك باكثر من عقبة ٠ فمصر كانت تؤكد على ضرورة ربط الحـــل الجزئي بفتح قناة السويس بالتسوية الشاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وتطالب بالحصول على ضمانات مسبقة بالتزام اسرائيل بهذا الربط ، في حين كانـــت اسرائيل ترفض اعطاء اية ضمانات وترفض الالتزام بطرح اية آفاق محـــددة للكيفية التي ستتم بها تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل شامـــل ٠ لقد كانت اسرائيل ـ آنذاك ـ مأخوذة بجذون انتصارها في حرب حزيران «يونيو» ١٩٦٧ ، ولم تكن على استعداد لابداء اية مرونة في الوصول الى تسويـــة ، حتى ولو كانت جزئية ٠

لقد طرأ تعديل على هذه الصورة بعد حرب تشرين ، فاسرائيل « القويـــة والقادرة والتي لا تقهر » تعرضت لضربة لم تكن تتوقعها ، والولايات المتحـــدة

التي كانت تراهن على عامل الزمن واسرائيل القوية ، فوجئت بالحرب ـ والى حد ما ـ بنتائجها ، فتحركت بهدف تطويق أية مضاعفات قد تحدث ولا يمكن السيطرة عليها • وكان كيسنجر محور هذا التحرك ، والذي يحب كما يشاع عنه ، ان يتعامل مع الاحداث وهي ساخنة • كانت اسرائيل بحاجة الى فترة ولو قصيرة من الهدوء لاستيعاب الصدمة النفسية للجمهور الاسرائيلي،ولاعادة ترتيب اوضاعها العسكرية والاقتصادية والسياسية بعد حرب لم تكن داخلة في تقديراتها السياسية • اما الولايات المتحدة فقد وجدت في اندفاع بعض الدول العربية نحوها لحل الازمة فرصتها للدخول الى الازمة بوضع قوي ، يتيح لها التفرد بالبحث عن حلول لها، مستقبلا وبعد جسور قوية من العلاقات مع هذه الدول ، وهو ما يتفق مع استراتيجيتها وسياستها في المنطقة • ومنذ البداية اتسم التحرك الاميركي بالحفاظ على حالة من التوازن النسبي بين مسيرة التسوية وبين ما يجري من تطورات اقتصادية واجتماعية في بعض البلدان العربية،كانت تنعكس تلقائيا في تقدم علاقات هذه الدول مع الولايات المتحدة بشكل خاص والبلدان الراسمالية بشكل عام ، وفي تراجع بل وتدهور علاقات هذه الدول مع الاتحاد السوفياتي •

ولدت هذه المعطيات وتحديدا سياسات انظمة حرب تشرين بعد الحرب ، امكان تنفيذ سياسة الخطوات الصغيرة ، فكانت اتفاقيتا فك الارتباط على الجبهتين المصرية والسورية ثم كانت اتفاقية سيناء التي مثلت خطوة اكبر من اتفاقيتي فك الارتباط ، وكانت تعبيرا عن الاندفاع المصري الاوضح نحو العربة الاميركية ، اضافة الى انها جاءت بمثابة اعلان عن نهاية سياسة الخطوات الصغيرة والبحث عن امكانات لسياسة تتعامل مع الآفاق الشاملة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي •

بعد عقد اتفاقيتي فك الارتباط دار جدل واسع حول مسار التسوية •كانت انظمة التسوية تحاول الوصول الى خطوة أخرى من التسوية على الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية • لكن خطوة كهذه كانت تصطدم باكثر من عقبة ، منها ، ان خطوة كهذه كانت تصطدم بالمسألة الفلسطينية ، وهي مسالة كانت مواقف اطراف الصراع المختلفة ، تتصادم خلالها بحدة ، فبرنامج الحد الادنى العربي بخصوص هذه المسألة كما جرى التعبير عنه في مؤتمر قمة الرباط ، كان يتصادم مع الموقفين الاسرائيلي والاميركي اللذين يرفضان فكرة الدولة الفلسطينية ، وفكرة اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني • ومن هذه العقبات ايضا ، ان اسرائيل لم يكن لديها استعداد لتقديم اية تنازلات للانسحاب من مساحة ، معقولة ، من الاراضي على الجبهة السورية •

وامام عقبات كهذه كان النظام المصري امام خيارين : اما الانفراد بحل على الجبهة المصرية ، حيث ان امكانات حل كهذا متوفرة لاعتبارات عديدة ، واما الاستمرار في سياسة البحث عن خطوة من التسوية على الجبهات الثلاث . لقد حاول النظام المصري البحث عن امكانات للخيار الثاني بمحاولة حل معضلة التمثيل الفلسطيني عبر حل معضلة الخلاف الاردني ـ الفلسطيني حول هذا التمثيل . فكان بيان الاسكندرية الذي صدر في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٤ اثر زيارةقام بها الملك حسين الى القاهرة . والبيان هو عبارة عن اتفاق مصري ـ اردني ، باقتسام التمثيل الفلسطيني بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . فالاردن يمثل الفلسطينيين من رعايا المملكة الاردنية الهاشمية ، في حين تمثل المنظمة البقية الباقية من الفلسطينيين . والبيان كان غامضا حول فلسطينيي الضفة الغربية والمجنسين بالجنسية الاردنية ، هل يعتبرون رعايا اردنيين وبالتالي يشملهم التمثيل الفلسطيني ام لا ؟ لقد اوضح اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصري ، بعد الضجة التي اثيرت حول البيان ، ان الضفة الغربية تعتبر وديعة لدى الاردن ولكنه لم يوضح الموضع التمثيلي لفلسطينيي الضفة .(١)

رفضت منظمة التحرير الفلسطينية المعادلة المصرية للتمثيل الفلسطيني واصرت على اعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وقد تاكد هذا الاصرار في قرارات قمة الرباط التي نصت على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وكان نتيجة ذلك ان طويت ـ مؤقتا ـ مسالة التمثيل الفلسطيني ، وانكفا النظام الاردني على نفسه ، وقذف بسلاح « سياسة الاردنة » لافشال قرارات الرباط بصدد التمثيل الفلسطيني .

مثلت قرارات الرباط نوعا من الاتفاق العربي على ضرورة البحث عن مسار للتسوية يشمل الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية ، عبر مؤتمر جنيف . ولكن القرارات اثارت معارضة اسرائيلية واميركية . واعتبرها الاسرائيليون والاميركيون معرقلة لمسيرة التسوية ، وتضع المصري في عجلاتها . وهنا تاتي دبلوماسية كيسنجر ، التي التفت على هذه القرارات وعلى مؤتمر جنيف ، وعملت عبر الاتصال الثنائي الاميركي ـ المصري على ارجاع مصر الى الخيار الاول ، عبر الاكتفاء بخطوة كبيرة ـ نوعا ما ـ على الجبهة المصرية مقابل الوعد بقطع خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وتاجيل البحث في المسالة الفلسطينية الى مرحلة قادمة .

كانت اتفاقية سيناء حصيلة مساومة غير متكافئة بين اطراف ثلاثة هي اسرائيل والولايات المتحدة ومصر . وكانت الولايات المتحدة اكبر رابح في هذه

الاتفاقية والتي اعتبرت من الانجازات الكبيرة للدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط • ولا نود هنا اعادة كل ما قيل عن هـذه الاتفاقيـة ونتائجهـا ومدلولاتها ، فقد قيل وكتب الكثير عنها ، ونحن مع التقييم السلبي جدا لها • ولكن ما يهمنا تاكيده هنا ، ان الاتفاقية اخلت بالتوازنات العربية التي كانت قائمة والتي سادت خلال وبعد حرب تشرين ، وتحديدا في العلاقات بين سوريا ومصر ، قطبي هذا التوازن بين انظمة التسوية • وتولد عن هذا الاخلال وضع عربي جديد اتسم بغلبة الصراع على العلاقات بين الدول العربية واشتداد حدة هذا الصراع مع اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، والتي كانت في احد مظاهرها تكثيفا لهذا الصراع على الارض اللبنانية •

حسب ما اعلن الرئيس السادات بعد عقد اتفاقية سيناء ، كان من المفروض ان تتم خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وذلك بناء على وعد اميركي للسادات بذلك • غير ان خطوة كهذه لم تتم ، لعدم توفر اية امكانية عملية لتنفيذها • فاسرائيل رفضت شروط سوريا التي طالبت بانسحاب اسرائيلي « معقول » من الجولان بحيث يشمل انسحابا من المستوطنات الاسرائيلية في الجولان واخراج مدينة القنيطرة من اطار الحصار الاسرائيلي لها • غير ان اسرائيل لم تبد استعدادا الا لانسحاب «تجميلي» ومحدود جدا من الجولان • دون التعرض لاي من مستوطناتها هناك او لمواقعها على التلال المحيطة بمدينة القنيطرة •

تعذر عقد اتفاق سوري ـ اسرائيلي مماثل او شبيه لما جرى على الجبهة المصرية وضع النظام السوري امام خيارات صعبة • فباتفاقية سيناء لم تعد مصر قادرة على توظيف ثقلها العسكري في الضغط على اسرائيل والولايات المتحدة للوصول الى اتفاق معقول يرضي الحد الادنى من الشروط السورية • وكان اكثر ما يمكن ان تقوم به مصر هو توظيف علاقاتها مع الولايات المتحدة لتنفيذ الوعد الذي اعطي لها • ومصر كانت تشعر انها بحاجة لاتفاق سوري ـ اسرائيلي حتى لا تتهم بالانفراد • ولكن التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية لم تجعلا من الممكن ابرام اتفاق كهذا • ولذا فقد وجدت سوريا نفسها تقف منفردة في مواجهة التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية ، ولم يكن امامها الا ان تقبل بالشروط الاسرائيلية وتكتفي بالانسحاب التجميلي لتغطية اتفاقية سيناء ، او ان توسع اطار حركتها تكون اقدر على المناورة والمساومة مع اسرائيل والولايات المتحدة •

ان اقتصار الحركة السورية على الجولان دون تجميع اوراق ضغط اخرى في يدها ، لن يؤدي بسوريا الا لاحد خيارين: اما القبول بتجميد الوضع على

الجبهة السورية وانتظار الحركة المصرية لانقاذ الموقف ، واما الاندفاع الى حرب مع اسرائيل ، كحرب الجولان التي سبقت عقد اتفاقية فك الارتباط • وكانت لدى السوريين قناعة كبيرة بان اسرائيل لن تنسحب من الجولان ، وان انسحابا اسرائيليا كبيرا من الجولان قد يتم في حال الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني • وعلى المدى المنظور ليست هناك امكانية لتسوية كهذه ، وان كان هناك امكانية ، فانها لن تكون متوفرة الا باتفاق عربي عام حولها •

اما القبول بتجميد الوضع فقد رات سوريا فيه اضعافا لموقفها مما يجعل منها ذيلا للحركة المصرية • اضافة الى ان القبول بموقف كهذا يتعارض كليا مع تطلعات البورجوازية السورية في السيطرة والامتداد ، والحفاظ على موقعها القيادي عربيا • والاندفاع الى حرب مع اسرائيل كحرب الجولان ، كان يتطلب توفير بعض الشروط اهمها ، الاستعاضة عن الثقل العسكري المصري بثقل عربي اخر مواز له على اقل تقدير • ولا سيما ان مصر اعلنت بوضوح انها لن تدخل حربا مع اسرائيل تكون سوريا هي البادئة بها ، بينما ستدخلها في حال هجوم اسرائيلي على سوريا •

لقد فشلت ـ لاسباب عديدة ـ كل محاولات تشكيل القوة البديلة لتكون اداة ضغط على اسرائيل ، واخذت سوريا تسعى لتنفيذ مشروع خاص بها ، يقوم على اساس الامساك والتحكم بالمسالة الاساسية في التسوية وهي المسالة الفلسطينية• فطرحت لذلك مشروع الكونفدرالية السورية ـ الاردنية ـ الفلسطينية ، لتكون بمثابة الاطار الذي تحل من خلاله مسالة التمثيل الفلسطيني والتناقض الاردني ـ الفلسطيني بخصوص هذه المسالة ، ولتشكل هذه الكونفدرالية بعد الامساك والتحكم بطرفيها الاردني والفلسطيني، الهامش الواسع للمناورة السورية بصدد التسوية حول الجولان والمسالة الفلسطينية • ومع اندلاع الحرب الاهلية في لبنان ، دخل لبنان في المشروع السوري ، باعتباره الارض التي تتحرك عليها الثورة الفلسطينية بحرية نسبية •

كان اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، ايذانا بان سياسة الخطوات الصغيرة قد استنفدت اغراضها ، وان ما يجري الان هو التمهيد لتسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي «٢» • فمباشرة سوريا التمهيد لتنفيذ مشروعها الكونفدرالي ، كان نوعا من الاعلان عن يأسها من الوصول الى اتفاق سوري ـ اسرائيلي ، كذلك فان مصر بعد اتفاقية سيناء كانت لا ترى ان هناك امكانية لخطوة صغيرة اخرى على الجبهة المصرية • وهذا ما اعلنه السادات اكثر من مرة • ولكن تسوية شاملة او شبه شاملة ، تتطلب

اولا ايجاد حل للمعضلة المركزية في هذه التسوية ، وهي المسالة الفلسطينية • ولقد كانت الحرب الاهلية الوطنية التي اندلعت في لبنان ، المقدمة لمباشرة البحث عن حلول لهذه المعضلة ، ضمن الظروف والاوضاع الجديدة التي قد تتولد عن هذه الحرب •

الحرب الاهلية الوطنية في لبنان والمسالة الفلسطينية •

عوامل عدة تفاعلت وكانت سببا في اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، واستمرارها فترة تزيد عن ثمانية عشر شهرا حتى الان • ويأتي في مقدمة هذه العوامل ، ازمة النظام اللبناني الاقتصادية والاجتماعية • وقد عبرت هذه الازمة عن نفسها ، في الاضطرابات الاجتماعية التي شهدها لبنان خلال السنوات الماضية ، وفي عجز النظام الطائفي ـ شبه الاقطاعي عن استيعاب تطلعات البرجوازية اللبنانية الناشئة في الخروج من بوتقة العلاقات الطائفية الى نظام حكم يتجاوز الطائفية ويضع مقدمات لحكم برجوازي ديموقراطي •

لقد تفاعل هذا العامل مع عاملين اخرين هما: (١) محاولة بعض الانظمة العربية قسر المد الوطني الفلسطيني ومصادرة القرار السياسي الفلسطيني لصالح هذا الطرف العربي او ذاك ، من اجل تطويع الموقف الفلسطيني وادخاله في معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي مجردا من اية فعالية او تاثير (٢) محاولة العدو الاسرائيلي ـ الاميركي ـ الرجعي ضرب الثورة الفلسطينية وتصفيتها لاخراجها من معادلة التسوية كعامل ثانوي او رئيسي •

ونحن هنا سنسقط من تحليلنا العامل اللبناني ، وسنركز بشكل اساسي على العاملين الاخرين ، لنرى كيف جرت صياغتهما على ضوء النتائج التي اسفرت عنها هذه الحرب بعد ان اوشكت على نهايتها اثر قرارات مؤتمر القمة السداسي في الرياض ، وقرارات مؤتمر القمة العربي الاخير في القاهرة •

المسالة الفلسطينية هي في المركز من التسوية للصراع مع العدو الصهيوني ، ومركزية المسالة الفلسطينية في التسوية ، امر لا تفرضه حقيقة الصراع مع العدو الصهيوني بل جرى تاكيده والاعتراف به من قبل مختلف اطراف الصراع • والخلاف الدائر الان بين اطراف الصراع لا يدور حول هذه المركزية او عدمها ، بل يدور حول كيفية حل المشكلة الفلسطينية •باتفاقيتي فك الارتباط واتفاقية سيناء ، امكن تجاوز هذه المسالة بعدم التعرض لها ، يمكن ايضا ، تجاوزها اذا كان هناك امكان لخطوة صغيرة اخرى من التسوية على الجبهة السورية او المصرية • ولكن لا يمكن تجاوز هذه المسالة لدى البحث عن تسوية سواء بخطوة صغيرة او كبيرة على الجبهة الاردنية ، او لدى البحث

عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي • وحيث ان البحث عن مناقذ للتسوية بعد اتفاقية سيناء * يدور بشكل رئيسي عن حل شامل او شبه شامل ، فان البحث عن حل كهذا سيصطدم بالمسالة الفلسطينية • اطراف الصراع المختلفة تتعارض بشكل حاد ، والبعض الاخر بشكل اقل حدة حول هذه المسالة • والعصب في استمرار هذا التعارض ، هو الثورة الفلسطينية • في العام ١٩٤٨ ، تابت ، الدول العربية عن الفلسطينيين وارست حلا ـ هدنة ، للصراع مع العدو الصهيوني ، والحقت ما تبقى من الارض الفلسطينية والشعب العربي الفلسطيني ببعض الدول العربية • كانت القيادة الوطنية للشعب الفلسطيني ـ انذاك ـ غائبة وشبه ضائعة • اما الان فالوضع يختلف ، فمن ناحية توجد ثورة وتوجد قيادة وطنية للشعب الفلسطيني اعادت الحياة والاعتبار للشخصية الوطنية الفلسطينية ، ومن ناحية اخرى فان المطروح الان ليس حلا ـ هدنة ، بل حل شامل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ليس بهدنة بل باعتراف عربي باسرائيل كدولة وكيان • ولا نريد ان ندخل في متاهات امكانات الحل الشامل او عدمها في المدى المنظور ، فهذا ليس موضوعنا بل نريد فقط ان نبحث امكانات حل المسالة الفلسطينية ضمن ما يطرح من حلول بحثا عن حل شامل او شبه شامل •

الدخول الفلسطيني في الحرب الاهلية الوطنية في لبنان كان مفروضا على الثورة الفلسطينية ، لانها هي المستهدفة بشكل اساسي من هذه الحرب • فلبنان هو اخر اهم موقع للثورة الفلسطينية على الارض العربية بعد ان فقدت موقعها الهام في الاردن • وفي هذا الموقع ، كانت الثورة تتحرك بحرية نسبية، ترفض ، تقبل ، تتحرك ضد مشاريع معينة ، ضد اتفاقات تمسها وتمس وجودها، تتابع نضالها ضد العدو الصهيوني • اذا فقدت هذا الموقع ، فقدت الكثير من فعاليتها وقدرتها النضالية • لانها لا تفقد فقط امكانات الفعل المستقبلي على مدى سنوات قد تكون طويلة ، بل وايضا ، امكانات الفعل في اطر التسوية المطروحة •

تناقض اطراف الصراع المختلفة حول المسالة الفلسطينية وضع التسوية الشاملة او شبه الشاملة امام الطريق المسدود • الخطوات الصغيرة او سياسة الخطوة ـ خطوة استنفدت اغراضها ولم تعد ممكنة • اذن ، لا بد من حل هذا التناقض اذا اريد لقطار التسوية ان يتابع سيره • فكيف يكون ذلك ؟ الثورة الفلسطينية بما تمثله من امكانات فعل وتاثير ، عامل غير قابل للذوبان في

---

* هذا اذا تجاوزنا امكان تسوية من نوع الخطوة الصغيرة على الجبهة السورية خلال الفترة القادمة •

المعادلة · والبرنامج الذي طرحته منظمة التحرير الفلسطينية كاساس لدخولها معادلة التسوية ، مرفوض اسرائيليا واميركيا ولا ترى فيه كل « انظمة التسوية» برنامجا معقولا او ممكن التنفيذ في هذه المرحلة · اذن ، من اجل استمرار اندفاع قطار التسوية لا بد من افقاد الثورة الفلسطينية فعاليتها وتاثيرها اي تحجيمها ، او نفيهاكعامل من المعادلة · وفي المسافة الضيقة بين هذين الخطين، التقت احيانا وتصادمت ـ بحدود ـ في احيان اخرى ، كل القوى التي كانت ترى في الثورة الفلسطينية عاملا يعيق مسيرة التسوية ·

كانت الحرب الاهلية الوطنية في لبنان وسيلة هذه القوى للتعامل مع الثورة الفلسطينية باعتبارها عاملا يعيق مسيرة التسوية · وخلال هذه الحرب طرحت هذه القوى مشاريعها المتصادمة مع المشروع العربي الفلسطيني للتسوية · وكل هذه القوى كان يحاول شد خيوط الحرب الى جهته لتتفق نتائجها مع مشروعه ·

فالحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، كانت في احد ابرز مظاهرها * صراعا على مشاريع التسوية للمسالة الفلسطينية · القوى الانعزالية طرحت مشروعا يقوم على نفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية ، بانهاء اي وجود للثورة الفلسطينية على ارض لبنان ، وهذا المشروع يلتقي بالكامل مع المشروع الاسرائيلي ـ الاميركي ومع مجمل مواقف النظام الاردني · النظام السوري طرح مشروعا يقوم على الامساك بالمسالة الفلسطينية ، عبر التحكم باداة هذه المسالة وقوتها الرئيسية وهي منظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك عبر اخضاع المنظمة للسيطرة السورية المباشرة · واستخدمت سوريا اكثر من وسيلة لتنفيذ مشروعها هذا · فقد حاولت في البداية ادخال المنظمة في مشروعها الكونفدرالي الاردني ـ الفلسطيني ـ السوري ، ولما تعثرت محاولة كهذه بسبب المعضلة الاردنية ـ الفلسطينية ، سارت في خطى تحجيم الثورة الفلسطينية · ولما استعصت امكانات التحجيم بوسائل الضغط الباشردون الصدام العام ، لجات في مرحلة لاحقة الى الصدام المباشر والعام الذي اخذ يتارجح في الصدامات الاخيرة بين حدي التحجيم والتصفية النهائية للثورة الفلسطينية ·

اما مصر ، فقد اتسمت سياستها في البداية بالمراقبة الحذرة لمجريات

---

* نعود للتاكيد اننا هنا اسقطنا العامل اللبناني والمسالة اللبنانية من تحليلنا ، ليس لان هذه المسالة لا تدخل في حسابات الحرب ، بل لاننا نبحث هنا فقط العلاقة بين هذه الحرب والمسالة الفلسطينية · والاسقاط هنا لا يعني باي شكل من الاشكال نفي المسالة اللبنانية او التقليل من اثرها في هذه الحرب ·

الحرب ، ثم دخلت فيها بشكل غير مباشر غير مشروع يلتقي مع هدف التحجيم، ملخصه العام : منظمة تحرير فلسطينية معتدلة واكثر انسجاما مع « عـــرب التسوية » تكون طرفا في معادلة التسوية ، يثير معارضة اسرائيلية اقل ، ويلقى مرونة اميركية اكبر • وهذا المشروع كان هو الاقرب الى بقية « انظمة التسوية العربية » باستثناء سوريا والاردن •

لقد جرى خلال الحرب في لبنان تجربة امكانات هذه المشاريـــع عبـــر صدامها الحاد مع المشروع الوطني الفلسطيني سواء بحده الاقصى الرافض لاي اشتراك فلسطيني في معادلة التسوية او بحده الادنى كما عبر عنه فـــي البرنامج المرحلي الصادر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة في العام ١٩٧٤ • والان وبعد ثمانية عشر شهرا من الحرب الطاحنة ومن صـــراع الارادات ، هل يبدو ان تجربة امكانات اي من هذه المشاريع قد استنفدت ، وان الاطراف العربية التي التقت في الرياض اتفقت على مشروع موحد ، يتم على اساسه انهاء الحرب في لبنان ؟

يبدو من القراءة الاولى لقرارات مؤتمر الرياض السداسي ثم لقرارات مؤتمر القمة الاخير ، ان « انظمة التسوية العربية » التقت على ضرورة انهاء الحـــرب بشكلها العنيف في لبنان ، على قاعدة مشروع لتسوية المسالـــة الفلسطينيـــة هو بشكله العام ، اقرب الى المشروع المصري منه الى المشروع السوري • ويبدو لنا ايضا ان هذه الانظمة اتفقت ــ ضمنا ــ على عدم التعرض لتحديد تفاصيـــل هذا المشروع العام الان لتجري صياغتها مستقبلا على ضوء التطورات التـــي تنجم عن ترتيبات انهاء القتال في لبنان ، والتطورات التي يمكن ان تطرا على مسيرة التسوية للصراع العربي ــ الاسرائيلي •

وعلى ضوء كل ذلك ، فاننا نرى ان الحرب بشكلها العنيف في لبنـــان ، وان شارفت على النهاية بدخول قوات الامن العربية ، فان صراع الارادات حول المسالة الفلسطينية لم ينته بعد ، وان اشكالا من الصراع متعددة ومتنوعة حول هذه المسالة ستكون السمة المميزة للمرحلة القادمة • وذلك لعدة اسباب منها :

(١) ان ترتيبات انهاء القتال في لبنان لا تزال في بدايتها ، واستنـــادا الى تجارب ماضية ، وكذلك استنادا الى الكيفية التي جرى فيها تشكيـــل قـــوات الامن العربية وقيادتها ، فاننا نقول ان هذه الترتيبات كما جرت وتجري حتـــى الان تترك المجال لاحتمالات عديدة يمكن حدوثها خلال الاشهر القادمة • ومما يجدر ذكره هنا ، ان الكيفية التي ستترسو عليها العلاقات الفلسطينية ــ السورية خلال الفترة القادمة ، ستشكل احد اهم المؤشرات في تحديد مسار الاحداث، وباي

اتجاه سقسين وضمن اية احتمالات ٠

(٢) ما يجري من تطورات في جنوب لبنان لا يدع مجالا للشك ان الحلف الاسرائيلي ـ الانعزالي والمدعوم اميركيا ، لم ييأس بعد من امكانية تنفيذ مشروعه بنفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وبالتالي فان الطريقة التي سيعالج بها الوضع في جنوب لبنان ستترك تأثيراتها على مسار الاحداث خلال الفترة القادمة ٠

(٣ على الرغم مما يقال او يشاع ان موقفا فلسطينيا اكثر اعتدالا ويشكل انقلابا على الموقف الفلسطيني السابق بخصوص الدور الفلسطيني في التسوية على وشك الصدور قريبا من اجتماع المجلس الوطني * فاننا لا نرى هذا الاحتمال بهذه الشدة ٠ فالموقف الفلسطيني الرسمي من التسوية لا يزال يقوم على الالتزام بالبرنامج المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وان كانت هناك نية لدى بعض الاطراف لادخال تغييرات اساسية على هذا الموقف ، فتقديرنا ان هذه

---

* يجدر بنا هنا التنويه الى الخبر الذي وزعته وكالة رويتر في ١٩٧٦/١١/٣ ونسبته الى مصدر فلسطيني عال في القاهرة ، ونشرته صحف لبنانية (النهار ١٩٧٦/١١/٥)٠ والخبر يشير الى نية من سماهم بالمعتدلين الفلسطينيين سياسة القوة لاسترجاع فلسطين واكتفاؤهم بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة قد تكون « في نطاق اتحاد كونفدرالي مع سوريا والاردن »٠ كذلك يجدر بنا التنويه ببعض التصريحات التي صدرت عن مسؤولين فلسطينيين حول دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد ، حيث ربط بعض هذه التصريحات بين دعوة المجلس للانعقاد وبين احتمال ادخال تغييرات على الموقف الفلسطيني على ضوء نتائج الحرب اللبنانية ٠ ونرى ان الاستناد فقط الى مثل هذه التصريحات او التحليلات لتحديد مؤشرات معينة ومواقف معينة ، سيوقعنا في الخطأ الذي وقعنا فيه بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ٠ ففي الوقت الذي كانت تتهض فيه دلائل كثيرة ـ انذاك ـ على عدم امكانية قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال سنوات قادمة ، اندفعت اطراف فلسطينية للتبشير بكل حماس بهذه الدولة وكانها اصبحت قاب قوسين او ادنى من قيامها ، في حين اندفعت اطراف اخرى في المعارضة الشديدة لهذه الدولة وكانها اصبحت حقيقة قائمة ٠ ولقد ولد كل ذلك ، صراعات داخلية فلسطينية ، كانت سابقة لاوانها واضرت بالنضال الوطني الفلسطيني ٠ والان وامام احتمال تجدد طرح المسألة الفلسطينية مع نهاية الحرب في لبنان ، فاننا قد نشهد عودة للاجواء التي سادت عقب حرب تشرين حول هذه المسألة٠ ولذا فاننا نرى انه من الاجدر بنا ان لا نكرر التجربة ، وان نحدد سياساتنا ومواقفنا ليس باقتناص تصريح قيل هنا او هناك بل بالاستناد الى التحليل العلمي لمجريات الاحداث واحتمالات تطورها ٠ ويمكن القول بكل ثقة ، ان قطار التسوية لا يحتمل حتى الان وربما لسنوات قادمة ، ضم عربة الدولة الفلسطينية المستقلة اليه ٠

التغييرات لن تتم قريبا • اضافة الى ان تغييرات كهذه لا يمكن ان تتم في وقت لا يزال فيه مسار التسوية غير محدد وغير واضح • ونرى ان الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة سيتم بالحذر الشديد ، والاستمرار في سياسة « اللاموقف» بصدد حضور مؤتمر جنيف او عدم حضوره • اضافة الى ان الموقف الفلسطيني كما ظهر خلال السنوات الثلاث الماضية ، كان يتسم بالحرص الشديد بعدم الاندفاع في الدخول في « اللعبة » قبل ان يعرف ما هو الدور الفلسطيني في هذه اللعبة • ولا نرى ان الحرب اللبنانية بكل نتائجها نفت هذا الحرص او الغته •

وقولنا هذا لا ينفي ان اصواتا فلسطينية من هنا او هناك قد ترتفع مطالبة بادخال تعديلات اساسية على موقف المنظمة من التسوية ومن وضع المسألة الفلسطينية فيها • ومثل هذه الاصوات وان كنا لا نقلل من اثارها وخطرها ، الا اننا نرى ان من الخطأ اعتبارها المؤشر شبه الوحيد الذي سيحدد مسارات الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة • ونحن لا نستبعد امكانات او احتمالات ان يخرج المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعه القادم بموقف اكثر وضوحا نحو القبول بدولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة دون الاشتراطات التي نص عليها البرنامج المرحلي الذي اقر في الدورة الاخيرة •

مؤشرات المرحلة القادمة :
حرب ام تسوية •

لخص احد قياديي الثورة الفلسطينية ملامح المرحلة القادمة بكلمات قصيرة بقوله : ان المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق المحموم بين الحرب والتسوية ، وقال : ان الحرب والتسوية ستكونان فرسي رهان ولا يمكن التنبؤ من الان ايهما سيفوز اولا • على الرغم مما في هذا القول من حقيقة ،فاننا نرى ان مجريات الاحداث الان واحتمالات تطورها خلال المرحلة القادمة لا تشيران الى ان السباق بين الحرب والتسوية سيكون متكافئا وعلى درجة واحدة من القوة • فعلى الرغم من ان ملامح المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق ـ ولكن غير المحموم ـ بين الحرب والتسوية،فان فرس التسوية ستكون هي الاقوى ، وبالتعبير الشعبي فان فرس التسوية « حمرا وجراية ويتاكل شعير» في حين ان فرس الحرب لا تعلف جيدا ولم تدرب بعد بشكل جيد على الجري السريع •

هل يعني هذا ان احتمالات التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي هي

---

* اي حمراء قوية ومدربة على الجري وتعلف جيدا •

الاقرى خلال المرحلة القادمة ؟ لا ، فما نعنيه بالضبط هو ان مؤشر التوجه نحو التسويه بدلا من الحرب لحل الصراع مع العدو الصهيوني سيظل هو الاقوى في المدى المنظور اي خلال السنوات العدث او الاربع القادمة • فليس ثمة ما يشير الى ان تغييرا جذريا سيطرا على الموقف العربي على ضوء تعثر محـــاولات الوصول الى تسوية • كذلك فان ما طرا من تطورات على مجمل الوضع العربي بعد حرب تشرين ، لا يشير الى ان احتمالات اللجوء للحرب ستسود قبـــل استنفاذ كل الوسائل الممكنة لتسوية هذا الصراع سلميا ، واحتمالات كهـــذه لا ترى في مدى ابعد من المدى المنظور • اضافة الى ذلك ، فعلى الرغم مـــن ان التناقض بين الموقفين العربي والاسرائيلي حول التسوية وطبيعتها ، يشمـــل اكثرمن نقطة واحدة ، فان مركز هذا التناقض هو المسالة الفلسطينية • ولايبدو لنا ان دول « المواجهة » العربية على استعداد لان تذهب لحرب اخرى مـــع اسرائيل ، اذا ابدت اسرائيل مرونة في النقاط الاخرى وتصلبت حول المسالة الفلسطينية • ففي هذه الحالة ستكون الدول العربية اكثر استعدادا لحل هذا التناقض على حساب المسالة الفلسطينية بدل استعدادها كله على حساب الذهاب الى حرب مع اسرائيل • ولعل هذا ما يفسر لنا اشتداد الضغط العربي على منظمة التحرير الفلسطينية الى درجة الصدام العسكري معها ، كلما لاحت في الافق امكانية لقطع ولو خطوة صغيرة في مسيرة التسوية •

كل هذه العوامل تجعلنا نؤكد ان مؤشر التوجه نحو التسوية سيظل هـــو الابرز خلال المرحلة القادمة • ولكن باي اتجاه سيسير هذا المؤشر ؟ وما هـــي مساراته الممكنة ؟

هل ستكون هناك امكانية للعودة الى سياسة الخطوات الصغيـرة ام ان المسار سيكون بحثا عن تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة ؟ •

مع فوز كارتر رئيسا للولايات المتحدة ، يبدو ان كل الاطراف تنتظر التعرف على ملامح السياسة التي ستنتهجها الادارة الجديدة ازاء الصراع العربـــي ـ الاسرائيلي ، قبل ان تقدم على طرح مشاريع محددة او اتخاذ مواقف معلنـة من مشاريع مطروحة ويجري تداولها منذ فترة • ولكن كما اوضحنا في بداية مقالنا، فاننا لا نرى ان فوز كارتر يحمل اي امكانية لاجراء تغيير اساسي في السياسة الاميركية • وعلى هذا الاساســـس فـــان السياســـة الاكثـــر احتمالا للادارة الاميركية الجديدة هي متابعة الموقف من النقطة التي انتهـت اليها الادارة السابقة ، اي متابعة البحث عن تسوية سياسية شاملة او شبـــه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان فترة من الوقت ـ عدة اشهر ـ ستمضي قبل ان تباشر الادارة الجديدة دبلوماسيتها

الفاعلة في المنطقة · وهي فترة تنظر اليها اطراف الصراع باعتبارها امـــرا طبيعيا تفرض نفسهافي الانتقالمن عهد الى اخر ، ولذلكفانها لا تحمل اية دلالات·

والسؤال الذي يطرح نفسه منا هو : ما هي ملامح هذه التسوية الشاملـــة او شبه الشاملة ؟ لقد طرحت الادارة الاميركية السابقة فكرة انهاء حالة الحرب بين العرب واسرائيل كاطار لهذه التسوية · ويبدو ان الفكرة التي وضعهـــا اندلاع الحرب في لبنان على الرف مؤقتا ، ستعود الى البروز من جديد مع نهاية هذه الحرب وبداية البحث عن منافذ لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ولكن هل هناك امكانية لجعل هذه الفكرة حقيقة واقعة ؟ اي تجري صياغتهـــا على ارض الواقع باتفاق عربي ـ اسرائيلي ·

يبدو ان « عرب التسوية » متفائلون بامكانية كهذه على الرغم من فوز كارتر واحتمال ذهاب كيسنجر · ولعلهذا ما يفسر لنا تلك التصريحات الكثيرة التي اطلقها الرئيس السادات خلال الشهر الماضي حول انهاء حالة الحرب وعقـــد معاهدة سلام معاسرائيل · وهي تصريحات تشكل نوعا من جس النبض للموقف الاسرائيلي ولتوجهات الادارة الاميركية الجديدة · ومن وحي هذا التفاؤل فان ثمة مشروع عربي لتسوية سياسية شاملة او شبه شاملة اخذ في التبلور مؤخرا بعد الاتفاق العربي علىانهاء الحربفي لبنان ، باعتبار ان هذه الحرب استنفدت اغراضها ضمن الحدود التي انتهت اليها ·

ففي اعقاب مؤتمر القمة السداسي في الرياض ومؤتمر القمة العربي الاخير فيالقاهرة ، اخذت دلائل تنهض على ان ثمة موقفا عربيا شبه جماعي يصـــدد البحث عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني ، اخذ في التبلور · وهذا الموقف الذي يشكل التحالف المصـــري ـ السعودي ـ السوري سنده الاساسي يقوم على اساس : الدعوة لمؤتمر جنيف بحضور جميع الاطراف بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية مع امكان دعوة لبنان للحضور ، وصـــولا الى تسوية تنهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل بمعاهدة سلام يترتب عليها انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ ، مع ما يترتبعلى هذه المعاهدة وهذا الانسحاب من احتمال قيام دولة فلسطينية عـلى الضفـــة الغربية وقطاع غزة (٣) · وحيثيات الموقف العربي هذا تقوم على : ان الحـرب في لبنان اضعفت منظمة التحرير الفلسطينية وجعلتها اكثر طواعية ، وبشروط كهذه ستكون الولايات المتحدة اكثر مرونة في التعامل مع المسالة الفلسطينية · وهي مرونة قد تصل الى درجة الاعتراف الاميركي بمنظمة التحرير الفلسطينية·

وكاستناد لهذا الموقف فان استراتيجية التحالف المصـــري ـ السعودي ـ

السوري ، خلال المرحلة القادمة ستقوم على اساس تمتين هذا التحالف وضم دول عربية اخرى اليه ، تصعيد لهجة الحرب كاحتمال يمكن اللجوء اليه في حال تعثر التسوية ، الضغط على الولايات المتحدة للتجاوب مع الموقف العربي هذا ، اضافة الى مد بعض الجسور مع الاتحاد السوفياتي كوسيلة ضغط وكاحتمال لا بد منه امام تعثر محاولات التسوية ٠

واحد الاشكالات الرئيسية في الموقف العربي هذا هو حل عقدة التمثيل الفلسطيني واشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل في مؤتمر جنيف٠ حتى الان يبدو ان الموقف العربي ، وتحديدا المصري ، كما هو معلن ، يطالب باشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل ولكن اذا كان هذا الاشكال سيضع التسوية امام الطريق المسدود ، فان بعض الدول العربية لا تمانع في ان يجري تجاوز هذا الاشكال بالذهاب الى مؤتمر جنيف بوفد عربي موحد تشارك به منظمة التحرير الفلسطينية « ٤ » ٠

الموقف الاسرائيلي

ولكن ما هو مدى التجاوب الاسرائيلي مع مشروع عربي كهذا ؟ استقراء الموقف الاسرائيلي كما هو الان واحتمالات تطوره خلال السنتين القادمتين، لا يشير الى انه تجديدا في الموقف ٠ولخص يتسحاق رابين الموقف الاسرائيلي في رده على تصريحات السادات الاخيرة بقوله « ان اسرائيل اكثر من مستعدة للتجاوب مع دعوة الرئيس انور السادات الى اتفاق سلام ، لكنها لن تقبل بدولة عرفات في جوارها » (٥) وهذا يدل على ان « العقدة » الفلسطينية هي التي ستتحكم في الموقف الاسرائيلي خلال الفترة القادمة ٠ فكل القوى الاسرائيلية* تجمع على رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني، كما تجمع على رفض قيام دولة فلسطينية على اي جزء من ارض فلسطين٠وحتى الان لم تطرح اسرائيل حلا محددا للمسالة الفلسطينية ، وكل ما طرح من تصورات اسرائيلية حول هذه المسالة ، لا يتعدى احيانا كونه اراء شخصية لهذا المسؤول او ذاك مثل مشروع ييجال آلون ، او اراء وافكارا عامة مثل رفض قيام الدولة الفلسطينية والبحث عن منافذ لحل هذه المسالة من خلال

---

* باستثناء حزب راكح وبعض المجموعات الاسرائيلية الصغيرة والهامشية مثل مجلس «السلام » والذي اجتمع مندوبون عنه مع فلسطينيين في باريس في تشرين الاول « اكتوبر » الماضي ٠ وقد اثار هذا الاجتماع ضجة في الاوساط الاسرائيلية على الرغم من انه ليس الاجتماع الاول بين فلسطينيين واسرائيليين من هذه المجموعات ٠ انظر يديعوت احرونوت بتاريخ ١٩٧٦/١١/٥ ٠

المسار الاردني او الاطر البديلة ٠

ولكن هل تستطيع اسرائيل الاستمرار في سياسة الهروب من مواجهة المسالة الفلسطينية ، في وقت تبذل فيه المحاولات لتسوية شاملة او شبه شاملة؟ لقد اكد ييجال الون في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف (٢٤ ـ ٩ ـ ١٩٧٦) « انه مقتنع بانه دون حل المشكلة الفلسطينية لن يكون السلام ممكنا » ٠ اذن لا بد من ايجاد حل لهذه المسالة حتى يكون السلام ممكنا ، وطالما ان اسرائيل لا تطرح الا حلولا قسرية للمسالة الفلسطينية ، فان امكانية السلام او التسوية السياسية الشاملة تبدو مستحيلة او بعيدة جدا ٠ فهل من خيارات اخرى امام اسرائيل لمواجهة « حملة السلام » العربية الجديدة ؟

المعلق الاسرائيلي امنون روبنشتاين حذر الحكومة الاسرائيلية من سياسة اللاقرار وقال « بعد الحرب (اي حرب تشرين) كان يبدو ان اسرائيل ستكون مضطرة لاتخاذ قرارات حاسمة وان فترة اللاقرار قد انتهت (والان) يسود في الحكومة قرار صلب بعدم اتخاذ قرار » واكد على ضرورة اتخاذ قرارات حاسمة « لئلا تقع اسرائيل في مطب حرب اكتوبر مرة اخرى » (٦) ٠

وسياسة اللاقرار الاسرائيلية كانت ممكنة ، عندما كانت كل القوى بانتظار ما ستسفر عنه الحرب اللبنانية من نتائج ٠ والان وامام بداية النهاية لهذه الحرب، وامام السياسة العربية الجديدة في « شد خيوط التسوية » التي ارتخت بفعل الحرب في لبنان ، هل يمكن لاسرائيل ان تستمر في سياسة اللاقرار ؟ ٠

بتاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ كتب يهوشوع تدمور في صحيفة «دافار» مقالا حول الخيارات امام اسرائيل لدى تجدد مساعي التسوية فاشار الى ثلاثة خيارات او امكانات وقال «تعتقد احدى المدارس الفكرية ـ رئيس الوزراء ووزير الخارجية وغيرهم من الوزراء ـ باتباع اسلوب الاختزال بشكل عام ٠ فالامكانية الاولى لهؤلاء هي استمرار حالة الجمود ٠٠٠ ولكن هذه الامكانية ليست في الحسبان لانها سوف تؤدي ان عاجلا او اجلا الى حرب لا ترغب فيها اي جهة لها ثقلها ٠ والامكانية الثانية هي انتقال ساطع من الوضع الحالي الى مفاوضات حول سلام شامل ٠ وتلك هي الامكانية الملائمة لاسرائيل، ولكن العرب يرفضونها، ولهذا فهي ليست امكانية واقعية ٠٠٠ اضافة الى ان محاولة كهذه سوف تعني مواجهة حتمية مع واشنطن حول ماهية الحدود النهائية ٠ تبقى الامكانية الحقيقية الوحيدة وهي السعي نحو سلام يحكم الواقع على صورة اتفاق لانهاء حالة الحرب بمختلف بنوده ، (واشار) ان اتفاقا لانهاء الحرب هو الخيار الوحيد المتبقي الذي من شانه ان يكون مناسبا ومريحا لاسرائيل على المدى القريب

والبعيد » ٠

غير ان اتفاقا لانهاء الحرب بالمفهوم العربي يعني تسوية شاملة ـ الى حد ما ـ تدخل فيها المسالة الفلسطينية باعتبارها اساس هذه التسوية ٠ وهذا ما يبدو ان اسرائيل ليست مستعدة بعد لمواجهته ٠ ولذلك فان السياسة الاسرائيلية خلال الفترة القادمة ستحاول تجنب قرارات « حاسمة » ، وسيكون الخط الرئيسي لهذه السياسة هو استمرار حالة الجمود من خلال المناورة بالاختلافات العربية والاسرائيلية حول تفسير انهاء حالة الحرب ودلالاتها العملية ٠ وهي مناورة تستهدف فيها اسرائيل كسب المزيد من الوقت حتى تدفع ببعض خيارتها بخصوص المسالة الفلسطينية الى المقدمة اما من خلال انتظار عودة المسار الاردني الى الواجهة كما يتوقع بيجال الون (٧) او من خلال تنشيط بعض القوى الفلسطينية داخل الارض المحتلة كاطار بديل او موازٍ على اقل تقدير لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وستعمد اسرائيل الى توسيع هامش مناورتها هذه بالادعاء انها لن تستطيع اتخاذ قرارات حاسمة قبل اجراء انتخابات الكنيست المقررة في اواخر العام ١٩٧٧ ، وكذلك بالضغط على الادارة الاميركية الجديدة لتنفيس « حملة السلام » العربية الجديدة ٠

اذا كانت هذه هي حدود الموقف الاسرائيلي واطار حركته، فان اطراف الصراع الاخرى ستحاول كسرها ٠ فالاتحاد السوفياتي يبدو مستعجلا عقد مؤتمر جنيف بحضور منظمة التحرير الفلسطينية وسيحاول دفع سياسة « شد خيوط التسوية » التي بدأتها بعض الدول العربية مؤخرا للضغط على الولايات المتحدة ٠ اضافة الى أن الولايات المتحدة لن تستطيع تجاهل التحرك العربي الجديد ، ولا سيما ان هذا التحرك شمل دول النفط العربية التي عادت للحديث عن احتمال العودة الى سياسة « حظر النفط » اذا لم تثمر محاولات التسوية ومواجهة تحركات وضغوط كهذه كيف ستكون الحركة الاسرائيلية ؟

هنا، لا نستبعد امكانية لجوء اسرائيل الى تنشيط احتمالات الوصول الى اتفاق تسوية جزئي على الجبهة السورية ، اذا وجدت ان سلام الامر الواقع بانهاء حالة الحرب سيكون ثمنه اتخاذ قرار لا ترغب فيه بخصوص المسالة الفلسطينية، حيث ان اتفاقا كهذا سيعطيها المزيد من الوقت لتجنب مواجهة المسالة الفلسطينية قبل ان تستنفد امكانات خياراتها بخصوص هذه المسالة ٠

المسالة الفلسطينية مفتاح الحرب والسلام

من كل ذلك نخلص الى نتيجة مؤداها ان المسالة الفلسطينية كانت وستظل القلب

والمركز في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وان ما جرى ويجري حتى الان هو محاولة الهروب من مواجهة هذة المسالة مواجهة حقيقية · وكلما اقتربت محاولات التسوية من هذة المسالة كلما ازداد تباعد اطراف الصراع وازدادت حدة تعارضها حول هذه المسالة · وبذلك تعود المسالة الفلسطينية لتكون مفتاح الحرب او السلام في المنطقة · والسؤال هنا ، هل اقتراب التسوية من المسالة الفلسطينية ، سيلغي امكانات التسوية وينقل الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى الامر الذي لا مفر منه وهو الحرب ؟

يبدو لنا ان استمرار وجود حركة وطنية فلسطينية قوية وفاعلة ، تلغي وتنفي باستمرار ، الخيارات الاسرائيلية وبعض الخيارات العربية لحل المسالة الوطنية الفلسطينية ، سيجعل من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي الاسرائيلي · وستظل ثيما لذلك محاولات التسوية تدور في اطار « الخطوات الصغيرة»او سياسة التاجيل لحل هذا الصراع حلا شاملا اذا لم يكن خيار الحرب ـعربيا ـ ممكنا · ولم نقل خيار الحرب ـ اسرائيليا ـ لان الخيار الاسرائيلي هذا لن يقدم حلا لهذا الصراع كما اثبتت حرب حزيران « يونيو» ١٩٦٧ · وبهذا المنظار ، فاننا نرى ان افاق الموقف الفلسطيني مما يجري من احداث وتطورات يجب ان تظل واسعة · ومن الخطأ جدا ان تجد القيادة الفلسطينية نفسها مجبرة ـ تحت ضغط الاحداث ـ على اتخاذ قرارات لا تعطيها هامشا واسعا من المناورة والحركة ، ولا تأخذ في الاعتبار تطورات المستقبل ·

بعد معارك ايلول سبتمبر ١٩٧٠ ، وما تلاها في الاردن ، بنت قوى كثيرة احلاما ومشاريع على ان الثورة الفلسطينية انتهت او ماتت · ولكن لم تكد تمض سنتان على هذه الاحداث حتى استعادت الثورة الفلسطينية قوتها وفعاليتها وبرزت من جديد في المقدمة · والان وعقب الحرب الاهلية الوطنية في لبنان يبدو ان اسرائيل لن تكرر العودة الى احلامها ومشاريعها ، فمصادرها تعترف وتؤكد انه على الرغم من الحرب في لبنان وما تعرضت له الثورة الفلسطينية من خسائر بشرية وربما سياسية فانها ستعود الى الواجهة من جديد وستقف على قدميها · وهذا يؤكد لنا ان المسالة الفلسطينية لما تزل بعيدة عن امكان تسويتها ، وانها ستظل المسالة التي تشعل فتيل الحرب في المنطقة اذا لم يتم الوصول الى حل وطني لها · لانه في ظل استمرار وجود حركة وطنية فلسطينية فاعلة وقوية ، تبدو الحلول القسرية واللاوطنية لهذه المسالة شبه مستحيلة مهما كان الثمن الذي قد تدفعه اسرائيل للدول العربية مقابل تسويته كهذه ·

١ ـ انظر البيان وتوضيح اسماعيل فهمي حوله ، الاهرام بتاريخ ١٩ـ٧ـ١٩٧٤ ٠

٢ ـ انظر تعليق اخبار اليوم المصرية حول انتهاء سياسة الخطوة ـ خطوة ـ اخبار اليوم بتاريخ ٣ـ٣ـ١٩٧٦ ٠

٣ ـ انظر حديث الرئيس انور السادات لوفد من اعضاء الكونجرس الاميركي زار مصر مؤخرا ، النهار بتاريخ ٩ـ١١ـ١٩٧٦

٤ ـ ذكرت نيويورك تايمز بتاريخ ١٠ـ١١ـ١٩٧٦ ، ان مجموعة الدول العربية التي تشمل مصر وسوريا والعربية السعودية والاردن ، ستسعى الان لعقد تسوية شاملة مع اسرائيل ٠ واضافت ان هذه الدول تفكر بارسال وفد عربي مشترك الى جنيف لتجاوز قضية تمثيل م٠ت٠ف٠ نقلا عن ر٠١٠ العدد ١٠٨٤ ٠

٥ ـ النهار بتاريخ ١٥ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٦ ـ هارتس بتاريخ ٢٤ـ٩ـ١٩٧٦ ٠

٧ ـ انظر دافار بتاريخ ١٤ـ٦ـ١٩٧٦ ٠

الجنوب : في مواجهة التحالف الصهيوني ـ الفاشي

جهاد سلامة

الجنوب !

جغرافيا غاب اسمه قليلا وسط احتدام المعارك في بيروت والشمال والبقاع والجبل ، وبدا للوهلة الاولى امنا وادعا ·· لكنه بشريا كان هناك ·· كان فحم ووقود المعارك اللاهبةفي المسلخوالنبعة وتلالزعتر والشياح · وفي الاونةالاخيرة اعتذرجغرافيا عن وداعته الظاهرة ، عاد ليحتل صدر الصفحات الاولى كما كان دائما ، وكما سيظل ، ما دام هناك وطنيون في لبنان يناهضون ويقاتلون الامبريالية والعدو الصهيوني ·

يردد ويستخدم اسمه الجميع : الفاشيون يتذرعون به للحديث عن « السيادة » الرجعية التي لا تزعج الحليف الامبريالي الصهيوني وتوفر له حدودا « آمنة » · العدو الصهيوني يسعى بكل الوسائل العسكرية والسياسية و« الانسانية » لكي يثبت مثل هذه« الحدود الامنة » التي لا تتعارض مع مطامعه التوسعية · الانظمة العربية تعبر عن قلقها اللفظي « العميق » لما يدور في الجنوب ·· وتفض الطرف عن التحالف الصهيوني الفاشي ! « المحرومون » يرتبط اسمهم بالجنوب ، ويجدون من يستغل اسمهم بافظة لمصالح طبقية ضيقة ، ويخونون معها الوطن و « المحرومين » !

الفدائيون والوطنيون يرونه امتدادا لارض فلسطين ، ينطلقون منه وتمتزج دماؤهم بترابه ، فيصبحون ترابه الاحمر وثكير ارض فلسطين ·

يرتحل ابناؤه في كل اتجاه ولا يستقرون ·· لقد جعلهم الكومبرادور بدو لبنان المعاصر !

اخر الانباء السياسية والعسكرية تحدد لهم المكان الاخير الذي سيبقون فيه · ارض الجنوب رجراجة لم تكتمل صلابتها بعد ·· لا تكتمل صلابتها بمعزل عن بزوغ

فجر وطن ديمقراطي ٠

سابقا ، أحاط ابناء الجنوب العاصمة « بحزام البؤس » الشهير ، فوجدوا من يرفض حتى بؤسهم وفقرهم ، لان مشهد البؤس حين يكون مسيسا ، الى هذا الحد او ذاك ، يخيف العدو الطبقي ويثير احقاده وانتقامه ٠

انه عاشوراء دائمة التجدد ما دام الوطن لم يكتمل بعد ٠٠ وما دام جرح فلسطين يتسع كعدوى ، وما من مقاومة عربية ثورية حاسمة ٠ تعبق ارضه المرتجلة برائحة التبغ والعرق والغبار والتعب، ويختلط هواؤه بدخان القذائف والحرائق والتربص والحذر ٠

يردد معظم الاعداء الرجعيون امام الفدائيين : « توجهوا الى الجنوب ٠٠٠ نحو « العدو الرئيسي » لا تتدخلوا بالشؤون العربية الداخلية ، هناك العدو الرئيسي « المشترك لكل العرب » ٠ يتوجه الفدائيون والسكاكين مغروسة في ظهورهم من الخلف ، فيصعب الوصول الى الحدود ٠ من يحول دون تطور نضال جدي ضد اسرائيل ، من حافظ على « العدو الرئيسي » رئيسيا ؟ ما هي جملة السياسات العربية التي ادت ، وما زالت ، الى وجود وتثبيت العدو الرئيسي ٠ العدو الرئيسي خارجي فقط ام انه شبكة علاقات داخلية وخارجية ترتبط بالامبريالية ومصالحها حيث تمثل اسرائيل وزنا ودورا نوعيا خطيرا ؟ من اجهض دوما النضال الشعبي الفلسطيني والعربي ضد العدو الرئيسي وباسم النضال ضد العدو الرئيسي ؟!

هكذا يتساءل الفدائيون وهم يتوجهون الى الجنوب والرؤية تتبلور في أذهانهم واضحة وضوح الشمس ، هل يمكن تطوير نضال جدي ضد اسرائيل دون وجود نظام تقدمي عربي او اكثر لحماية المقاومة له مصلحة حقيقية للمشاركة الفعلية في القتال ضد اسرائيل ؟

الجنوب اليوم ، واقع وخدعة ، واقع يتدهور يوميا وعلينا ايقاف تدهوره بالتصدي للتحالف الصهيوني الفاشي الرجعي ، وخدعة تحاك يوميا وواجبنا فضحها وتعريتها ٠

تلتف حول ارضه الحلقة الاخيرة من المؤامرة الامبريالية الصهيونية الفاشية الرجعية التي تستهدف هذا الجسد الفتي المثخن الجراح من المقاومة الوطنية المسلحة الفلسطينية واللبنانية ٠

الكتابة عن الجنوب شاسعة ومرهقة · من اين نبدأ ؟ الموضوع مزمن وشائك، متعدد الاطراف ، وجديد باستمرار ·

الا اننا سنسلط الاهتمام ، اساسا ، على تحالف الفاشيين السافر مع العدو الصهيوني في منطقة القطاع الاوسط بشكل خاص ومن خلال المعلومات التي استطعنا الحصول عليها من مصادر متعددة موثوقة ، وبالتالي ، القيام بايضاح الدور الخاص المناط بالعدو الصهيوني واهداف النشاط المحموم الذي يبذله مؤخرا ، وقد اجرينا بعض التحقيقات الميدانية اضافة الى بعض اللقاءات مع عدد من الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية ، ومع عدد من المواطنين اللبنانيين المطلعين على تطورات الاوضاع هناك · وسنعمل على تثبيت بعض هذه الاحاديث تبعا لاهميتها السياسية والتحليلية ، مستفيدين ، فقط ، من المعلومات المتضمنة في اللقاءات الاخرى ·

علاقة الجنوب بالوضع اللبناني العام :

استفحل النشاط الصهيوني ـ الفاشي في الجنوب ، في اثر تلقي الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية عددا من الضربات الموجعة على ايدي التحالف الفاشي ـ الرجعي العربي ·

فبعد معركة تل الزعتر الاسطورية الصمود ، خرجت العناصر الفاشية في بعض قرى الجنوب من اوكارها بتشجيع مباشر من العدو الصهيوني ، واخذت تمارس نشاطها السياسي والعسكري مستغلة بعض الاخطاء والثغرات المسؤولة عنهما المقاومة والحركة الوطنية ، وتدهور الوضع التمويني وسوء التنظيم الذي رافقه في اثر الحصار الذي مارسه العدو الصهيوني والفاشيون والنظام السوري على المناطق التي كانت تسيطر عليها الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ·

اذ لا يمكننا فهم توقيت تردي الوضع في الجنوب دون ربطه بالوضع السياسي العام · فقد نشأ في لبنان وضع ثوري جديد تماما بعد فشل الحلقات الاولى من المؤامرة ازاء الصمود البطولي اللبناني ـ الفلسطيني · وكان من ابرز سمات هذا الوضع الثوري انهيار مؤسسات النظام ، ولا سيما اجهزة القمع ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على ما يزيد عن ثلاثة ارباع الاراضي اللبنانية ·

ومع ذلك لم تستطع الحركة الوطنية ، ومن ورائها المقاومة الفلسطينية ، الاستجابة النضالية لمهام المرحلة الثورية الجديدة سواء من حيث طرح الشعارات السياسية الملائمة او اساليب

العمل الثورية • فالتراث الاصلاحي التردينوني والمواقف الانتظارية السلبية من قضية السلطة السياسية للحركة الوطنية ، ظل يرزح بثقله على المرحلة السياسية مفوتا فرصا تاريخية نادرة قل تكرارها في اتجاه حسم مسالة السلطة السياسية وتثبيت الشرعية الثورية •

اما المقاومة الفلسطينية ، فان الخلل الاساسي في استراتيجيتها هو التصور انه يمكن شن نضال جدي ضد اسرائيل « العدو الرئيسي » دون وجود نظام تقدمي عربي او اكثر ، خاصة في المناطق المحيطة بفلسطين المحتلة •

وقد ادرك مختلف الاعداء مدى خطورة هذا الوضع الثوري ، فعملوا بسرعة وبكافة الوسائل لاجهاضه ، وواد اية امكانية لتحويله الى ثورة حقيقية • وذلك من خلال توجيه عدد من الضربات العسكرية والسياسية الموجعة للحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بغية سحب بساط الارض الثورية القوية من تحتهما ، واعارة « الشرعية » الزائفة للنظام الكوميرادوري جهازا عسكريا للقمع بدل جيشها المنهار المنقسم على نفسه •

ان الاساس السياسي لتفاقم المشاكل الاجتماعية والمعيشية والامنية انما يكمن في عدم اقامة الحركة الوطنية مؤسسات السلطة الوطنية الديمقراطية الشعبية • فمثل هذه المؤسسات هي وحدها القادرة على تعبئة الشعب تعبئة ثورية، وتنظيم شؤون حياته المختلفة على اسس عادلة وديمقراطية ووضع حد لاستغلال مراكز النفوذ والاثراء غير المشروع • ان مثل هذه المؤسسات الديمقراطية الشعبية تعكس ديمقراطية ارقى بما لا يقاس من الديمقراطية البرجوازية •

ان كافة الشعار المرة ، ناجمة عن عدم اتباع سياسة ثورية شاملة الوضع اللبناني ـ الفلسطيني ككل تعتمد على تعبئة وتنظيم الجماهير في مؤسسات ديمقراطية شعبية في اتجاه اقامة نظام وطني ديمقراطي • فلا يمكن الحديث عن ضرورة اتباع سياسة ثورية في الجنوب او اي مكان وموقع اخر بمعزل عن شمول هذه السياسة للوضع العام برمته •

ولذا ، لم يكن مستغربا أن تشرئب القوى الفاشية والرجعية في الجنوب برؤوسها في اثر ميل ميزان القوى لصالح الحلف الفاشي الرجعي العربي • وقد لعبت اسرائيل دورا اساسيا في دعم هذا النشاط المعادي • الا ان توقيت نجاحهابه مرتبط بتدهور موقف القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية بوجه عام • فما كانت هذه القوى تجرؤ ، في اي وقت مضى ، على المجاهرة بعدائها وقيامها بنشاطها السياسي والعسكري المعادي من خلال التحالف السافر مع العدو الصهيوني ، لو

ان ميزان القوى كان يميل بشكل عام لصالح الحركة الوطنية والمقاومة ، وكما كان الحال في السابق ٠

دور اسرائيل في المخطط الامبريالي :

لعبت القوى الفاشية احتياط النظام الكومبرادوري في لبنان دور قارع ناقوس الخطر ضد المقاومة والحركة الوطنية ٠ لقد بذلت هذه القوى الفاشية جهودا مستميتة لاستدعاء الرجعية العربية والقوى الامبريالية والصهيونية لكي تقوم بمساعدتها لمواجهة الخطر الماثل على نظامها وقواها المسلحة والمهدد بقطع طريق التسوية الامبريالية في المنطقة ٠ ان الهجمة الفاشية السعورة التي قامت بها هذه القوى لم تكن تستمد قوتها من موازين القوى الداخلية في المنطقة ، بل من توطيد دعائم الامبريالية في المنطقة والجو السياسي الاستسلامي الذي تقوم به الانظمة البرجوازية العربية ٠

وفي اللحظة المناسبة قامت الانظمة الرجعية العربية بمنع انهيار القوى الفاشية ووقفت الى جانبها ضد المقاومة والحركة الوطنية حيث تم الحاق عدد من الضربات الموجعة لهما في اكثر من مكان ٠ لقد كان من الصعب على اسرائيل والامبريالية الامريكية القيام بالتدخل المباشر وعلى نطاق واسع لدعم حلفاءهما من الفاشيين ٠ لان هذا من شانه ان يؤدي الى زعزعة الاسس السياسية للتسوية الامبريالية واحراج الانظمة العربية كافة امام شعوبها ٠

والآن ، بعد قيام النظام السوري تحت غطاء عربي بفرض هيمنته السياسية على الوضع اللبناني بغية تحسين شروط تسويته الخاصة فيما يتعلق فقط بانسحاب اسرائيل من بعض الاراضي السورية المحتلة ، هل تسمح له اسرائيل بتحسين هذه الشروط على حسابها ؟ فبينما يلوح النظام السوري للامبريالية الامريكية بورقة سيطرته وامكانية قدرته على تصفية المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية مقابل ممارسة ضغط امريكي على اسرائيل للانسحاب من بعض الاراضي السورية التي تتعدى الحدود « التجميلية » المعروضة سابقا ، هل تقدم اسرائيل بالتواطؤ مع الولايات المتحدة (او بشكل مستقل نسبيا) على القيام بعمل عسكري ما في الجنوب او سواه من شانه ان يضعف الموقع التفاوضي للنظام السوري ؟ ام ان اسرائيل ستقوم ، بالتحالف مع الفاشيين في الجنوب والتذرع بهم ، بتوجيه ضربة عسكرية في الجنوب ضد المقاومة والحركة الوطنية وخلق وضع جديد من شانه ان يدفع النظام السوري والفاشيين للاسراع بمعدل تصفية المقاومة سياسيا وعسكريا ؟

ام انها ستعمل على ضرب عصفورين بحجر واحد : اضعاف الموقع التفاوضي

للنظام السوري في التسوية الامبريالية وتوجيه ضربة للمقاومة والحركة الوطنية في آن واحد ؟ ام ان الدور الاسرائيلي سيقتصر على توجيه ضربة عسكرية موجعة للمقاومة هناك وتمكين الفاشيين في الجنوب من توسيع رقعة سيطرتهم السياسية والجغرافية والعسكرية ؟ هذا ما ستجيب عنه تطورات الاحداث القادمة في الجنوب ٠

توقيت المؤامرة الصهيونية ـ الفاشية والوضع العربي :

يقول الاخ بلال احد المسؤولين في الثورة الفلسطينية بالجنوب : « لا يمكن فصل ما يحدث مؤخرا في الجنوب عن عموم الوضع في لبنان ٠ فالمؤامرة ليست على الجنوب والثورة هناك ، بل على المقاومة والقوى المناضلة الوطنية والتقدمية في كل لبنان ٠

ففي نفس الوقت الذي كان يتم فيه توجيه الضربات الى المقاومة والحركة الوطنية في البقاع ومنطقة صيدا والجبل وبيروت كانت التحركات المعادية في الجنوب تسير جنبا الى جنب مستفيدة من هذا الوضع فالمؤامرة متكاملة الحلقات ، والا ما معنى عملية تدريب القوى الفاشية في منطقة جزين وغيرها ، في ظل تواجد النظام السوري ،وقيام اسرائيل بتدريب الفاشيين في القليعة والعيشية وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب داخل الاراضي المحتلة ؟! نحن ندرك ، ايضا ، ان الانظمة بتركيبتها الحالية هي انظمة ليست مع التحرير ، لا تحرير فلسطين ولا تحرير الشعب العربي من كل ما يمارس ضده من اشكال القمع والارهاب وحجز الحريات ٠ هذه الانظمة لا يمكن ان تساهم في معركة التحرير ، فهي ليست حريصة ولن تسمح لنا ان نكون اقوياء لكي نتمكن من التصدي للمؤامرة ٠ انها ، على العكس ، تحاول ان تجرنا الى الرضوخ والقبول باهداف المؤامرة : ترتيب اوضاع المنطقة بما يتلاءم ومصلحة الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية ٠

نحن ندرك تماما ونؤمن ايمانا قاطعا ان قوتنا الحقيقية هي قوة الجماهير العربية المناضلة صاحبة المصلحة الحقيقية في التحرير والوحدة ٠ ونحن ندرك ايضا ، ان استمرار نضالنا هو السبيل الوحيد لتحقيق الاهداف الوطنية والقومية٠ ولن يتم ذلك ، بالطبع ، من خلال مؤتمرات القمة العربية ولا الدولية ٠ كما اننا نعتقد ان وحدة صفوفنا ورصها « **وحدة كافة القوى المناضلة على الساحة** » هي **الرد العملي والحاسم** بعيدا عن كل المهاترات والمكاسب التنظيمية الرخيصة ٠ ونحن ندرك ، ايضا ، ان الدور الذي يناط بالجيوش العربية لكي تلعبه في لبنان هو استمرار للدور الذي دفعت له هذه الجيوش من قبل انظمتها في اكثر من مرة او مناسبة ، وفي كل الحالات كان ليس هو الدور الحقيقي لها من وجهة النظر

الوطنية او القومية » ٠

مميزات الجنوب والثورة الفلسطينية :

« الجنوب له اكثر من ميزة » ، يضيف الاخ بلال ، وهي « ميزات جعلتـــه منطقة تجاذب وتركيز سواء من قبلنا كثورة فلسطينية وقوى وطنية لبنانية او من كافة القوى المعادية ٠ ابرز هذه الميزات ، ١ ـ التصاق الجنوب بارض فلسطيـن وقربه من منطقة الجليل حيث نجد اكبر تجمع بشري فلسطيني في الاراضي المحتلة٠ بالاضافة الى ميزات استراتيجية وعسكرية اخرى ٠ ٢ ـ ارتباط الجنوب التاريخي بشمال فلسطين على كافة الاصعدة التجارية والسياسية والاجتماعية ٠ ٣ ـ كون الجنوب منطقة تماس مباشرة بيننا وبين العدو الصهيونـي ، ٤ ـ التحركـــات السياسية الوطنية والفلاحية والمطلبية التي كان يقوم بها اهالي الجنوب بلا انقطاع خلقت تراثا نضاليا عريقا من الصعب على القوى المعادية ضربه بسهولـة ، ٥ ـ المحاولات المتكررة من قبل الاقطاع الديني والسياسي لركب موجـــة الجنـــوب « الحروم » والقيام بالنشاطات المشبوهة لمناهضة الثورة الفلسطينية والحركـــة الوطنية اللبنانية ٠

بالنسبة لنا ، كثورة فلسطينية ، نعتبر الجنوب كما نعتبر سائر المناطـــق العربية الاخرى شعبها شعبنا وارضها ارضنا ٠٠ فالجنوب منطقة شديدة الاهميـة بالنسبة لنا ، وخاصة في ظل الظروف العربية السائدة ، فهو يشكل نقطة انطلاق لمقاتلة العدو الصهيوني ٠ وقبل ظهور الثورة الفلسطينية كان الجنوب محرما على الفلسطيني دخوله دون اذن رسمي ، خاصة المناطق المحاذية لشريط الحدود مـع العدو الصهيوني ٠ وكان يعتبر الجنوب قبل انطلاقة الثورة الفلسطينية وابـــان سيطرة النظام الرجعي في لبنان منطقة عازلة ٠ والحاجز الامني الذي تسعـــى اسرائيل الان الى اقامته كان موجودا ، بصورة او باخرى ، قبل تواجد الثـورة في الجنـــوب ٠

الجنوب موقع استراتيجي بالنسبة لنا وللحركة الوطنية اللبنانية ولكـــل الوطنيين الذين يدركون خطر العدو الصهيوني ٠ ومن هنا تركيز اسرائيل دائمـا على جنوب لبنان » ٠

اساليب اسرائيل التقليدية لاخضاع الجنوب :

« القصف ، حرق المزروعات ، قتل المواشي ، توزيع المنشورات التي تطالب اهالي الجنوب بالتخلي عن الثورة الفلسطينية ٠ عمليات التهديد المستمرة وتسف

البيوت والقتل وخطف الوطنيين ، والقيام بعمليات الاحتلال المؤقت للارض ثم الانسحاب منها ، احتلال مواقع استراتيجية داخل الاراضي اللبنانية والتمركز فيها ، ممارسة شتى انواع الارهاب والتنكيل . الا ان الجنوب المناضل استطاع طوال الفترة الماضية ان يصمد في وجه كافة هذه الاساليب » .

اساليب المؤامرة الاخيرة :

لقد تعددت وتنوعت اساليب التركيز على المواطن الجنوبي لاخضاعه مؤخرا ودفعه الى التخلي عن المقاومة والحركة الوطنية . فمن محاولات بث النزعة الطائفية الى القيام بعمليات الحصار التمويني والتجويعي لاخضاع هذا المواطن الصامد . كما حاول الكثير من الانهزاميين ان يبثوا روح البلبلة والتشويش بغية تفتيت الموقع الوطني المناضل في الجنوب ، ثم هناك ممارسة الرموز الرجعية السياسية والدينية لمحاولات احداث شرخ في تلاحم الجماهير مع الثورة والحركة الوطنية .

وهكذا تلاقت سياسة القوى المعادية الداخلية والخارجية من اجل تصفية ما يمثله الجنوب من موقع وطني . داخليا من خلال الدور المتآمر للقوى الفاشية والرموز الرجعية المعادة ، وخارجيا من خلال فرض الحصار البحري (اسرائيل والفاشيين) والبري (النظام السوري) بهدف تجويع المناطق الوطنية واخضاعها ، وقد تقاطعت هذه المواقف والمحاولات، موضوعيا ، مع سياسة العدو الصهيوني واطماعه في الجنوب ، « ان لم تكن منسقة اصلا مع هذه المواقف » ، وحرص هذا العدو على ان ينتهي دور الجنوب كجنوب مناضل .

وقد مارست اسرائيل سلسلة من الاساليب الجديدة بغية تحقيق اهدافها :

١ ـ اقامة بعض المستوصفات لعلاج المرضى من اهالي الجنوب .

٢ ـ ادخال المواد التموينية المختلفة الى بعض قرى الجنوب واعتبار هذه القرى مرتكزا للتوسع في تسويق هذه المواد (اهم هذه القرى القليعة ورميش) .

٣ ـ افساح « المجال » امام بعض العائلات في الجنوب لزيارة اقاربهم في فلسطين المحتلة من تصاريح تمنحها سلطات العدو الصهيوني .

٤ ـ فتح « المجال » ، ايضا ، لسكان هذه القرى التي تتعامل معهم للعمل

في المصانع الاسرائيلية ٠

وكان العدو يهلل ويصف كل هذه الاجراءات بانها « انسانية » ومجـــرد محاولة منه « للتخفيف » من آلام اهل الجنوب ٠ ولما لم تجد كل هذه الاساليب نفعا في جر سكان قرى الجنوب الى الفخ الذي نصبه العدو ، بالرغم من كافـــة المصاعب التي عانى منها اهل الجنوب مؤخرا ، لجا العدو الى اتباع اسلوب اخر وهو قيامه بتسليح وتدريب سكان هذه القرى التي تشكل مرتكزا له ، وتوجيههـم بالتالي ، نحو خلق توتر معنوي وسياسي وعسكري في المنطقة ٠

لقد قام العدو الصهيوني بتعيين حكام عسكريين ومدنيين مرتبطين به فـــي هذه القرى ، فعين نقولا الحاج حاكما عسكريا في قرية رميش (وهو رقيب اول في الجيش اللبناني سابقا) وغسان حمصي حاكما عسكريا لقرية القليعة ٠ واصبحت الاجتماعات واللقاءات تتم بصورة دورية ومتبادلة بين العدو الصهيوني وهـذه القرى التي تتعامل معه ٠ وقد عقد عدد من الاجتماعات داخل الاراضي المحتلة في صفد ونهاريا وغيرهما » ٠

الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني :

يلخص الاخ نور ، احد الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية في الجنـوب الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني بما يلي :

١ ـ مد خط بشري مؤيد له على امتداد الشريط الحدودي موازٍ للخط الامني العسكري من الاسلاك الشائكة والالغام ٠

٢ ـ تحطيم امكانية عودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم في الجنوب من خلال خلق وقائع جديدة وارساء حالة من العداء السياسي والعسكري ضدهم ٠

٣ ـ تحطيم صيغة التعايش الاخوي بين الطوائف في الجنوب ، بهدف اعطاء المبرر الاخلاقي للغيتو الصهيوني ٠

لقد قاموا بتحريك الفاشين في القرى التي تتعامل مـعـهم للقيام باعـــمـال عسكرية وسياسية بغية تثبيت وتحقيق هذه الاهداف المباشرة ٠ فاخـــذت القليعة تتحرك ضد مرجعيون والخيام وكفركلا ، وتهدد باستمرار قريـــة دير ميماس ٠ وقام العدو الصهيوني بتحريك الفاشيين في رميش ودبل ضـــد قرية حانين والقرى الاخرى المجاورة كما قاموا «بزج» قرية عين ابل في حالة

العداء ، وعملوا على تحريك قرية علما الشعب « ولكن بحدود لم يستطيعوا تجاوزها حتى الان » ، كما يذكر الاخ بلال ، « من خلال الدور النشط الذي قمنا به مؤخرا هناك وقدرتنا على خلق حالة جيدة نسبيا داخل البلدة » ٠

« ان اسرائيل تسعى لمد الحزام الامني الحدودي وتعميقه بقواعد جماهيرية مسلحة معادية للمقاومة ، هذا لم يكن يحدث سابقا وله اسبابه الموضوعية ٠٠ ان هناك ربع مليون مهجر في الجنوب ، الاحوال الاقتصادية والمعيشية سيئة ، الحصار البحري الاسرائيلي ، والبري يجعل الارض التي تبذر اسرائيل فيها افكارها قابلة للخصب ، المؤامرة مستمرة على المقاومة ، هدفها استيعابها وتصفيتها ، الاسلوب قد يختلف عما تم في الاشهر الـ ١٨ الماضية » (ابو خالد العملة ، « السفير » ٨/١١/٧٦) ٠

ويضيف الاخ بلال : « ان الجو الرجعي العربي مساعد لتحرك اسرائيل من اكثر من ناحية ٠ فمثلا قضية التبغ ، وهو المصدر الاساسي لدخل اهالي الجنوب ، لم تتجه اية دولة عربية لشرائه بصورة شاملة ٠ معظم التبغ الان مخزون في بيوت الفلاحين ٠ كما لم يحاول احد في مؤتمري القمة الاخيرين الصغر والموسع تلمس ما يعاني منه الجنوب للمساهمة في مساعدته وانتشاله من حالة التجويع وفقدان المواد التموينية الاساسية وكافة مستلزمات الصمود الحقيقية امام الهجمة الصهيونية الفاشية ٠ لقد مروا جميعا على قضية الجنوب مر الكرام وكان الجنوب ليس جزءا من لبنان ، بالرغم من كل المحاولات التي قام بها الاخ القائد العام من اجل الاهتمام بوضع الجنوب على كافة الصعد ، او قيامه بابراز قضية مهجري النبعة والكرنتينا والمسلخ والزعتر وغيرها ، ولكن عبثا ٠٠ ويبدو ان ثمة تخطية عربية رجعية ، او تجاهلا لتحرك العدو الصهيوني مع الفاشيين في الجنوب »٠

اساليب الثورة الفلسطينية في مواجهة المخطط الصهيوني الفاشي :

لقد حاولنا ، يتابع الاخ بلال ، من خلال التعاون مع الحركة الوطنية اللبنانية ان نعزز صمود الجماهير في الجنوب امام الهجمة من خلال الاساليب التالية :

١ ـ التوجه لتشكيل لجان شعبية على مستوى قرى الجنوب لمتابعة القضايا اليومية والحياتية والمعيشية التي كان يعاني منها سكان الجنوب ٠

٢ ـ تأمين المواد التموينية لاهالي الجنوب باسعار منخفضة ٠

٣ ـ تامين الادوية وفتح بعض المستوصفات · تنشيط الخدمات الطبية من خلال « النجدة الشعبية » والصليب الاحمر والهلال الاحمر من خلال السعي لتشكيل لجان صحية في المناطق والقرى للحصول على الادوية اللازمة وتامين العمل في عدد من المستوصفات · وقد قطع العمل في هذا الاتجاه شوطا لا بأس به (هناك حوالي ٧٠ مستوصفا يعمل الان في الجنوب)· اضافة الى تقديم الثورة الادوية الى المستشفيات الرسمية مثل مستشفيات تبنين وصيدا ومرجعيون والنبطية ·

٤ ـ تامين المحروقات على الرغم من الظروف الصعبة وبعض السلبيات التي رافقت عملية توزيعها ·

٥ ـ القيام بالتعبئة الجماهيرية المستمرة لمواجهة النعرة الطائفية التي عمل الاسرائيليون والقوى الفاشية على اثارتها في بعض القرى الجنوبية ·

٦ ـ احباط وقطع الطريق على اي رد فعل طائفي ·

٧ ـ بذل المحاولات المتكررة مع القرى المسيحية في الشريط الحدودي بشكل خاص ، ومع كافة القرى المسيحية الاخرى بشكل عام بهدف تنبيه هذه القرى الى مخاطر الانزلاق في الشرك الصهيوني الفاشي · وقد عقدت في هذا الصدد اجتماعات عديدة ولم نلجأ كثورة فلسطينية وحركة وطنية لبنانية الى اسلوب « العنف المسيطر عليه والموجه » ، الا بعد حادثتين بارزتين : الاولى في عين ابل حيث اغتيل لنا اربعة مناضلين · والثانية في العيشية حيث اغتيل لنا ايضا ، اربعة مناضلين وجرح ثلاثة ·

ـ هناك محاولات متكررة يجري بذلها الان ، وبالرغم من كل ما حدث من مواقع معادية وخائنة ، بهدف انتشال البقية من جماهير هذه القرى ومنعها من الانزلاق في المخطط الفاشي الصهيوني · ولا تزال هذه المحاولات مستمرة» ·

النشاط الصهيوني الفاشي :

لا بد من التذكير بان النشاط الصهيوني المباشر في عدد من القرى الحدودية نشاط قديم · وقد اتخذ شكل تكوين شبكات تجسس اسرائيلية مقسمة بين عميل ومخبر · وهناك اكثر من دليل واثبات على وجود هذه الشبكات سواء ابان عهد السلطة اللبنانية السابقة ، او اثناء الاحداث الاخيرة · وقد

تركز نشاط هذه الشبكات في قرية رميش بالاضافة الى عدد من العملاء المنتشرين في معظم القرى الحدودية ٠

وقد حاول عملاء اسرائيل والقوى الفاشية المضادة اثارة الاهالي واستغلال بعض الثغرات الناشئة عن الحصار التمويني على مناطق الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، خاصة لجهة تعذر توفير بعض المواد التموينية الاساسية او سوء توزيعها في احيان اخرى ٠

واخذ عملاء اسرائيل في قرية رميش زمام المبادرة لتشجيع التعامل مع العدو الصهيوني والسير في سياسة الجسور المفتوحة ٠

وقد نشطت هذه التحركات ، كما اسلفنا ، واتخذت شكلا سافرا ابتداء من شهر اب ١٩٧٦ ، وبدا عدد من المسؤولين الفاشيين يزور بعض القرى عن طريق اسرائيل ٠ ومن بين هؤلاء ابو ارز ، بشير الجميل ، وشربل قسيس ٠

واستغلت العناصر الفاشية وعملاء اسرائيل في قرية رميش قضية عدم تسويق التبغ واخطاء وتقصير بعض المسؤولين في جيش لبنان العربي فيما يتعلق بقرية رميش ، لتطرح ضرورة بيعه الى اسرائيل ٠ وكذلك الحال بالنسبة لقضية شح المياه خلال فصل الصيف في عدد من القرى الجنوبية ٠فقد بادر عملاءاسرائيل فيرميش الى نقل المياه بواسطة جرارات علىاساس ثمن النقلة بـ ١٠ ليرات لبنانية ، وقامت هذه العناصر العميلة بتوزيع وبيع المياه على اهالي بعض القرى مثل دبل ، علما الشعب ، القوزح الخ ٠٠

وبدات اسرائيل تمد عددا من انابيب المياه من داخل اسرائيل الى بعض هذه القرى ٠ علما بان ازمة شح المياه في فصل الصيف في القرى الجنوبية ازمة مزمنة وكانت الدولة في السابق تؤمن مياه الشرب لهذه القرى بواسطة الشاحنات ٠ ثم تطور التعامل مع العدو ، وتم فتح مستوصف اسرائيلي بمحاذاة قرية رميش ٠ وحاولت اسرائيل فتح عدد من المستوصفات الاخرى المماثلة بموازاة عدد من القرى اللبنانية الاخرى ٠ ولكنها لم تنجح كثيرا في هذا المجال ٠ ففي منطقة قرية بارون ، مثلا ، لم يتجاوب الاهالي مع فتح المستوصف الموازي لقريتهم ، فنقلت اسرائيل المستوصف الذي وضعته هناك بعد ثلاثة ايام ٠

ولكن الاعلام الاسرائيلي بدا شن حملة اعلامية مركزة في التلفزيون

والاذاعة عن الخدمات « الانسانية » التي يجري تقديمها بهدف توسيع اطـــار التعاون معها في منطقة الحدود ٠

وقد تدرجت الخدمات « الانسانية » التي قامت بها اسرائيل على الشكـل التالي :

١ ــ تامين مياه الشرب ، ٢ ــ فتح المستوصفات ، ٣ ٣ــ توفير بعضـــ المواد التموينية ٠ ٤ ــ شق الطرقات الترابية بين اسرائيل وعـدد من القـــرى الحدودية (رميش ، علما الشعب) ٠ ٥ ــ مد شبكات الهاتف والبريد بين اسرائيل والقرىالتالية : رميش ، دبل ، عين ابل ٠ ٦ ــ تزويد عدد مـــن العملاء والفاشيين باجهزة لاسلكية ٠

سلمت اسرائيل بعض اهالي رميش ، وتحديدا العسكريين منهم ،العاملين في الجيش اللبناني سابقا ، مواد تموينية باسعار منخفضة نسبيا ٠وبعدها فتحت المجال لعدد من التجار المدنيين في رميش وغيرها لاستيراد بعضـــ المـــواد التموينية وتسويقها في قرى المنطقة ٠ والجدير بالملاحظة ان عملية تسويـــق قسم من محصول التبغ في قرية رميش وغيرهـــا من قبـل بعـــض العـــملاء والفاشيين ، لم تكن عملية عادلة او مربحة ٠ فالاهالي لم يقبضـــوا الثمـــن بصورة فورية ٠ كما ان ثمن الكيلو كان اقل من السعر الذي تدفعه شركـــة الريجي اللبنانية ٠٠ ولم تجر اسرائيل اية عملية تمييز في السعر بين اصناف الدخان المختلفة (الجيد والمتوسط والرديء) ، بل اشترت جميع هذه الاصناف بسعر موحد ٠

دور اسرائيل في التشكيلات المدنية والعسكرية للفاشيين

لم تكتف اسرائيل بدورها « الانساني » وخطواتها السابقة ، بل تعـــدت ذلك الى الاسهام المباشر في تنظيم شؤون كل قرية من القرى المتعاونة معهـــا على اساس تشكيل لجنتين في القرية الواحدة : لجنة للشؤون العسكرية ،ولجنة للشؤون المدنية ٠

اللجنة العسكرية قامت بتعيين حاكم عسكري واللجنة المدنيـة عينـــت مسؤولا سياسيا ٠

واخذت اسرائيل تسلم الاسلحـة لبعض العسكريين السابقين في الجيـــش اللبناني ٠ كما فرضت عـلى الحاكم العسكري المرتبط تنظيميا بهـا فـــــرض

التدريب والقيام بالحراسات وضرورة تدريب كل شخص قادر على حمل السلاح ٠ وقد عقدت سلسلة من الدورات العسكرية داخل اسرائيل تم فيها تدريب الفاشيين والمتعاونين على مختلف انواع الاسلحة وقيادة بعض الاليات ٠

ومما لا شك فيه ان دور المخابرات الاسرائيلية هو دور اساسي ٠ فقد انطلق النشاط المعادي من قرية (رميش) التي يتواجد فيها عدد لا يحصى من العملاء الاسرائيليين ٠

وابرز ضباط المخابرات الاسرائيليين الذين يقومون بنشاط مركز في قرية رميش هم : ابو داوود (اسمه أمنون وهو عمدة مستعمرة حانوتا) ورتبته ضابط استخبارات ، عازار ، والشويلي ٠

وقد بدا توجيه مختلف دعوات « حسن الجوار » من قرية رميش بدفع من الاستخبارات الاسرائيلية ٠ وكل المقابلات التي كانت تجري مع وفود من اهالي القرى المجاورة ، بحضور ضابط استخبارات اسرائيلي ، انما كانت تتم في قرية رميش او مستوصفها الاسرائيلي٠

والان سنعرض لتطور النشاط الصهيوني الفاشي المعادي في كل قرية من القرى التي استطعنا الحصول عن معلومات وافية عنها في هذا الصدد ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية رميش :

تعتبر هذه القرية « الممر الاسرائيلي » الى قرى الجنوب الاخرى في القطاعين الاوسط والغربي ٠ وتضم هذه القرية ما يقارب ٥٠٠ر٤ نسمة ٠ تعتاش هذه القرية اساسا من زراعة التبغ ويعمل عدد كبير من ابنائها (حوالي ١٣٠ عنصرا) في الجيش والدرك وهناك ما يقارب ٦٠ عنصرا من « انصار الجيش اللبناني »٠

القوى السياسية في البلدة : يشكل حزب الكتائب اقوى تنظيم سياسي يليه الوطنيون الاحرار وبعض العائلات المؤيدة لكامل الاسعد ٠ وزن القوى الوطنية ضعيف جدا في هذه البلدة وهو لا يتعدى بضعة افراد معظمهم يعمل في بيروت ٠ تحوي هذه القرية اكبر تجمع لعملاء العدو الصهيوني في عموم المنطقة ٠ وهي القرية التي بادرت الى اقامة الجسور المفتوحة مع العدو الصهيوني ٠ يتزعم النشاط السياسي والعسكري فيها نقولا الحاج وهو يملك مدرسة ويعمل سكرتيرا للويس ابوشرف عضو المكتب السياسي في حزب

الكتائب ٠

ابرز عملاء العدو الصهيوني في هذه القرية هم يعقوب موسى الحاج، الياس الحاج ، فضل غناطيوس الحاج ، الياس عقل جريس ، سعيد شبيب العميل (وهو عميل مزدوج لاسرائيل والمكتب الثاني اللبناني سابقا) ٠

كان المسؤول العسكري في رميش قد توجه بتاريخ ٧٦/٨/٩ الى جونيه عبر اسرائيل واجتمع مع عدد من جنود البلدةالمتواجدين في جونية وغيرها بهدف احضارهم معه الى البلدة ٠

تم تشغيل حوالي ٥٠ عاملا من هذه القرية في مصانع للسجاير في منطقة صفديفلسطين المحتلة ٠ وهناك حوالي عشر ممرضات في هذه البلدة يعملن في مستوصفات ومستشفيات اسرائيلية ٠

تلقى عدد كبير من العناصر الفاشية عدة دورات تدريبية داخل اسرائيل٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية دبل :

كانت هذه القرية هي المحطة الثانية للنشاط الصهيوني الفاشي الذي لعبت فيه العناصر العميلة والفاشية في قرية رميش دورابارزا ٠

تضم هذه القرية حوالي ثلاثة الاف نسمة ٠ تعتاش هذه القرية على زراعة التبغ والحبوب ، وهناك قسم يعمل في بيروت والمهجر ٠

القوى السياسية في البلدة : يمثل الوطنيون الاحرار (جماعة كميل شمعون) الوزن السياسي الاكبر ٠ وهناك حوالي ٣٠ عنصرا ينتمون الى حزب الكتائب ولهم ناد في البلدة ٠

واخذ العدو الصهيوني يمارس دعايته ونشاطه ٠ فقد ظهر على شاشة التلفزيون الاسرائيلي احد الاشخاص المسؤولين في رميش في مقابلة تلفزيونية حيث تساءل لماذا لا يأتي اهالي دبل لتسلم المعونات التي بعث بها «المسيحيون» في اسرائيل (المخابرات الاسرائيلية بالطبع) ، وفي اثر هذه المقابلة توجه بعض الفاشيين في دبل الى مختار البلدة وطلبوا منه الذهاب للتفاوض مع اسرائيل واستلام المواد ٠ ولكن المختار رفض ذلك اكثر من مرة ٠ فدعوا ، بعدها، الى عقد اجتماع لاهالي البلدة في ٧٦/٨/٢٧ فيمنزل الياس صقر رئيس البلدية للتداول في مجمل الاوضاع ، واسفر الاجتماع عنتشكيل لجنةللبلدة

وضعت ضمن مهامها الذهاب والتفاوض مع اسرائيل بخصوص « المعونـــات» ٠
وعند مقابلة اللجنة لبعض المسؤولين الاسرائيليين من ضباط الاستخبـــارات جرى نقاش واسع يتعدى مهمة تسلم المعونات المزعـومة اياها ! فقد طلـــب المسؤولـون الاسرائيليـون مـــن اللجنـــة ضـــرورة تشكيـــل لجنتين في البلدة :احداهما للشؤون العسكرية والاخرى للشؤون المدنية ٠ وتـم الاتفاق عـلى ان تقوم اسرائيـل بتأمين الدعـم العسكري الكامل لهم ٠ كما جرى ، في النهاية ، اعطاؤهم المعونات « الرشوة » لتوزيعـها عـلى الاهالي ٠

وقد تشكلت بالفعـل ،وبناء عـلى الطلب الاسرائيلي ، لجنتان في البلـدة ٠ تألفت اللجنة المدنية من الاتية اسماؤهم : مارون يونس ، مخايل ناصيـــف ، الياس صقـــر ، مخايل لوقـا ٠ وتألفت اللجنة العسكرية من الاتيـة اسماؤهـم (ومعظمهم من العسكريين السابقين في الجيش اللبناني) : الملازم حنـــا ناصيف ، الرقيب حنا سليم هاشم (وهو المسؤول العسكري)، الرقيب يوســف مشهـور ، العريف شبيب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعيد ديب سعيد، الجندي نخله عيد سعيـــد ٠

ويعتبر هؤلاء الاشخاص المحركون الاساسيون للنشاط المعـادي في هذه البلدة ٠

وقد تم تشكيل لجنة ثالثة ، اطلق عـليها اسم « لجنة ارتباط» ، وهي للاتصالات والتنسيق السياسي والعسكري المشترك ٠

وتتألف لجنة الارتباط من الاتية اسماؤهم :

عسكريون : الرقيب حنا هاشم ،الرقيب يوسف مشهور ، العريف شبيـــب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعيد ديب سعـيد ، مدنيون : مارون يـــونس، مخايل ناصيف ٠

وفي تاريخ ٧٦/٨/٩ استلمت اللجنة العسكرية في القرية كمية مـن السلاح الصهيوني كدفعـة اولى وتتألف من : ١٨ بندقية نوع فال ٧ قطع مضاد للدروع، ٢ هاون ٨١ ٠

اعدت اللجنة العسكرية حوالـي اربع دورات تدريبية لعـدد كبير من شبـــاب وفتيات البلدة ٠ كان من بينهـا دورةاولية فـي دبـل ودورة ارقى في رميـش، ودورة تخصص للتدريب عـلى الاسلحـة الثقيلة في اسرائيل (مدافـع وقيـادة اليات)٠ وبلغ تعـداد الاشخاص الذين تدربـوا حوالـي ١٢٠ شخصا ، بينهـم

حوالي ٥٠ فتاة ٠

ونذكر من الاشخاص الذين تلقوا بتاريخ ٧٦/١٠/١ دورة تدريبية لمدة ١٥ يوما على قيادة الدبابات في صحراء سيناء : خليل بطرس نداف ، خليل سعيد ، ابراهيم لوقا ، فايز يونس ٠

اما اللجنة المدنية ، فقد بدات اعمالها بتوزيع المواد التموينية والمعونات اياها (!) ،والقيام ببث الدعاية المضادة للمقاومة والقوى الوطنية والتحريض على عدم استلام اية مواد تموينية من اي مصدر كان دون موافقة اللجنة المدنية !

وفي ٧٦/٨/١ توجه مارون يونس الى اسرائيل وعاد منها في ٧٦/٨/٩ بعد ان تم تزويده بجهاز لاسلكي وثلاث سيارات مرسيدس مملاى بالاسلحة ٠ وباشر فورا ، باعتباره مسؤول اللجنة المدنية ، بتنظيم رحلات عمالية من القرية للعمل في اسرائيل ٠ ويقدر عدد العمال الذين يتوجهون للعمل يوميا هناك بحوالي ٦٠ عاملا وعاملة ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية عين ابل :

بدا التحرك الفاشي الصهيوني في هذه القرية ، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٦ الاف نسمة ، في ٧٦/٨/٥ حين قام احد عملاء اسرائيل المدعو الرقيب الياس حصروني بالاتصال مع ضابط المخابرات الاسرائيلية عازار عن طريق قرية رميش مكان الاجتماع ، ودار الحديث حول موضوع التنسيق وكيفية التحرك داخل عين ابل ٠ وبدات عملية التحريض الاعلامي وحث الاهالي للسير في ركاب قرية رميش ٠ وجرت عملية استقطاب للعناصر الفاشية وتنظيم صفوفها بصورة سرية في البداية ، وكان من ابرز العناصر الفاشية التي تم استقطابها: مارون رزق حصروني ، وطوني رزق حصروني ، وعيد مارون شحادة ، وفؤاد عتمة ٠ واستطاعت هذه العناصر الفاشية تحريك مسيرة مسلحة في المنطقة الجنوبية من البلدة بتاريخ ٧٦/٨/٢٠ ٠ وقد بلغ عدد المشتركين فيها حوالي ٣٠ عنصرا من الذين تم تسليحهم وتدريبهم بصورة سرية في اسرائيل ٠

وفي مساء نفس اليوم وصل من قرية رميش موكب مسلح الى عين ابل يرافقه جرار زراعي محمول عليه رشاش ٥٠٠ من النوع المتوسط ٠ وكان الموكب يضم ٢٠ مسلحا من رميش ، بينهم ٤ مسلحين قدموا من المنطقة الشرقية في بيروت عن طريق اسرائيل ، نذكر منهم لويس حصروني وطوني نعمة من قرية عين ابل٠

وقد توزعت هذه العناصر على اسطح الابنية المحيطة بالمدرسة ٠ وكان القائد المخطط لكل هذه العملية المدروسة الملازم مارون دياب من عين ابل

يساعده الملازم فرنسوا الحاج من رميش . وفي ٧٦/٨/٢١ ، عقد اجتماع في عين ابل ضم بعض الوجهاء وكاهني البلدة والشباب الوطني التقدمي هناك الذين قاموا بتحذير اهالي البلدة من مغبة الاستمرار في نهج التعامل مع اسرائيل والقيام بالنشاط المعادي للمقاومة والحركة الوطنية . وقد تم الاتفاق في هذا الاجتماع على ضرورة المحافظة على وضع قرية عين ابل كما هو عليه ، وتحجيم دور الفاشيين وطرد العناصر الفاشية الغريبة التي توافدت الى عين ابل عن طريق اسرائيل . وجرى الاتفاق ، ايضا ، على اعادة نشاط اللجنة الامنية التي تشكلت في القرية سابقا بمساعدة الحركة الوطنية والمقاومة. هذه اللجنة التي استطاعت الحفاظ على امن وراحة البلدة وتوفير المواد التموينية المختلفة طيلة الاحداث اللبنانية .

الا ان العناصر الفاشية والعميلة لم ترضها هذه النتيجة ، فقامت يوم ٧٦/٨/٣١ على نصب كمين واغتيال الشهداء الاربعة محمود قواص ، نزيه دياب ، عادل وطفة (لبنانيون) وابو ناصر وكلهم ينتمون الى حركة فتح ،بينما كانوا يمرون في البلدة .

لقد ارادوا أن يثيروا مخاوف الاهالي لكي يقفوا الى جانبهم متبعين نفس اسلوب اوتوبيس مجزرة عين الرمانة عام ١٩٧٥ .

وهكذا تمكن الفاشيون والعملاء من امكام سيطرتهم على قرية عين ابل.

ابرز الاشخاص الذين قاموا بالنشاط الفاشي المعادي في عين ابل هم : الياس شعيا ، حنا اسكندر دياب ، ميشال مخول بركات ، مارون شربل بركات ، شربل خريش ، عبدالله خريش .

اما العسكريون السابقون الذين التحقوا بالفاشيين وتسلح قسم منهم من اسرائيل منهم :

الملازم مارون حنا دياب ، الرقيب بشارة طانيوس حصروني ، (سلاحه من اسرائيل نوع ناتو)، الرقيب الياس رزق حصروني (سلاحه من اسرائيل، نوع ناتو) الجندي بولس حنا سلامة (سلاحه من اسرائيل نوع ناتو).

اما العناصر الفاشية التي قدمت عن طريق اسرائيل الى عين ابل وتزودت بسلاح اسرائيلي فهي :

١ ـ لويس حصروني ، مسؤول عسكري ، سلاحه ناتو من اسرائيل .

٢ ـ انطوان الياس نعمة دياب ، مسؤول سياسي ، سلاحه ناتو من اسرائيل.

٣ ــ جوزيف شعيا (من قرية دبل)، مدرب ، سلاحــه ناتو من اسرائيـل ٠

٤ ــ سوزان مطر (من قرية دبل) مدربة للفتيات في عين ابل وهي من سكـان ضبيـــة ٠

٥ ــ بطرس منصور حصروني سلاحــه ناتو من اسرائيل ٠

٦ ــ بطرس الاخ قتل في حادث استشهاد الفدائيين الاربعــة في عين ابل٠

٧ ــ دياب خليل دياب ، ٨ ــ انطوان طنوس دياب ٠ ويبلغ عدد هذه العناصر التي قدمت عــن طريق اسرائيل حوالي ١٥ عنصرا ٠

اما المقيمون في عــين ابل والذين تسلح معــظمهم من اسرائيل والتحقـــوا بالفاشيين فيبلغ عددهم ٣١ عنصرا ٠ نذكر منهــم ، فقط ، الذين تزودوا بسلاح اسرائيلي ومعــظمهم من الشباب المضلل :

غسان انطوان نعــمة ، يوسف انطوان نعــمة ، يوسف توفيق دياب، جــورج بطرس خليفة ، بولس حنا فرح ، يوسف شكرالله سليمان ، جورج الـيـــاس حصروني ، مارون الياس حصروني ، بشارة جورج عتمة ، رمزي نعــمة دياب ، عيد شحــادة ، بيار مارون دياب ، بول مارون دياب ، بركات جوزيف بركــات، بول حنــا بركات ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في علما الشعب :

يبلغ عدد سكان هــذه القرية حوالـــي ٤ الاف نسمة وهي تقع بجوار الناقورة على بعــد كلم واحــد من الحــدود الفلسطينية ٠

بدأ يستفحــل النشاط الفاشي في هــذه القرية ، ولكن ضمن حــدود ، فــي شهر اب ١٩٧٦ ٠ وقد ساهــم في احياء هــذا النشاط اللازمان في الجيـــش اللبناني الياس زعــرب ولويس بواري ، بعــد ان عــادا الى قزيتهما عــن طريق اسرائيل ٠ وقد عاونهمــا تحريضيا في عملهما المعــادي المعــاون اول المتقاعــد حنا بواري الذي كان يعــمل مع العــدو الصهيوني منذ ١٩٧١ ٠ وبدأ الشماس (معــاون الكاهن) خليل صقر يساهــم فــي بث النشاط الفاشي المعــادي ٠

ويعمل هــذا الشماس تحت امــرة المطران الماروني يوسف الخــوري الـــذي ارسل رسالة الى اهالـــي عــلما الشعــب عبر اسرائيل بتاريــخ ٧٦/٧/٣٠

يدعوهم فيها الى الالتفاف حول القيادة الفاشية في البلدة والابتعاد عن التيارات الوطنية ، ضامنا لهم وصول الاسلحة والتموين من العدو حيث يذكر في رسالته « انني قد اتفقت معهم على ذلك » فمن هو المعني في هذا الكلام ؟!

وفي شهر اب ١٩٧٦ اخذت الاسلحة تتدفق الى عملا الشعب من اسرائيل ٠ ومن الذين شاركوا في احضار هذه الاسلحة العريف جريس فرح وجورج فرح ٠واشرف على التدريب في البلدة كل من النقيب أنيس طوبيا والملازمان توفيق فرح وفزيه الصباح ، والمعاون اول حنا بواري (ابو ضرغام)٠ وقد دخل خليل صقر (الشماس) الى مستعمرة حانوتا عدة مرات لترتيب الامور بالتنسيق مع يعقوب موسى الحاج من بلدة رميش ٠

وفي ٧٦/٩/١٠ حضر كولونيل اسرائيلي اسمه ايلي حداد اصله من قرية عملا الشعب واجتمع مع عدد من اقاربه وبعض العناصر المتعاونة مع العدو الصهيوني ٠ ويتردد ضابط الاستخبارات الاسرائيلي ابو داوود باستمرار على قرية عملا الشعب يرافقه ضابط اسرائيلي اخر يدعى ابو يوسف ٠

اما العسكريون الملتحقون بالفاشيين والذين تسلحوا من اسرائيل فهم:

نقيب مغوار انيس طوبيا ، ملازم (كلية حربية) الياس بواري ، معاون اول متقاعد حنا بواري ، رقيب اول يعقوب عقل ، رقيب حبيب بواري (المسؤول العسكري) ، رقيب يوسف فرح ، عريف مخايل فرح ، الدركي ناصيف حداد ، رقيب منير فرح ، رقيب نعمة رؤوف ، عريف جريس فرح ، الدركي شكرالله طنوس ٠يضاف الى ذلك التحاق معظم « انصار الجيش اللبناني » بالفاشيين وعددهم حوالي ١٨ عنصرا ٠

اما الاسلحة الاسرائيلية فهناك ملالتان من اسرائيل وحوالي ١٥٠قطعة سلاح٠

خلال شهري ايلول وتشرين الاول ١٩٧٦٠ جرت ثلاث دورات تدريب في اسرائيل : دورة استخبارات لثلاث فتيات ٠ ودورة تدريب عسكرية على قيادة المدرعات بـ٦ عناصر ودورة تدريب عسكري لـ١٥ عنصرا ٠

وفيما يلي نص الاتفاقية السياسية والامنية والعسكرية المعقودة بين فاشيي رميش وعملا الشعب وذلك بموافقة وتشجيع اسرائيل وتحت اشرافها ٠

ففي ٧٦/٨/٢ اجتمعت اللجنة الممثلة لعدد من عائلات عملا الش...

المسؤول الكتائبي في رميش نقولا الحاج ، على اساس ممثلين عن العائلات التالية في علما الشعب : عائلة الغفري ، عائلة الصياح ، عائلة زعرب، عائلة فرح ، وممثل واحد عن عائلة سمور وبحضور خليل صقر (الشماس) بصفة شخصية . عقد الاجتماع في خيمة اسرائيلية بحضور ممثلين اسرائيليين على الحدود قرب بلدة رميش في الساعة الثامنة من مساء اليوم المذكور انفا وقد تم الاتفاق على ما يلي :

١ ـ ، يسمح لاهالي علما الشعب بالدخول الى الاراضي الاسرائيلية لشراء جميع المواد الغذائية وغيرها .

٢ ـ على كل شخص ان يحمل السلاح اذا استطاع من الدولة الاسرائيلية او على حسابه الخاص .

٣ ـ تبليغ السلطة المختصة (!)بكل ما يحدث في منطقة علما الشعب .

٤ ـ اقامة هاتف ما بين علما الشعب واسرائيل وتسليمه الى المختصين في علما مع تقديم اجهزة لاسلكية للطوارىء .

٥ ـ يعاقب كل شخص اذا تعاون مع العمل الفدائي او الشيوعيين او غيرهم .

٦ ـ حسن المعاملة مع الجيران في القرى المجاورة للحدود وعدم التعدي على المارة داخل البلدة .

٧ ـ لكل شخص الحرية بان يشتري او يبيع ما يشاء من القرى اللبنانية الاخرى .

٨ ـ لعلما الشعب الحق بان تطلب المساعدة العسكرية من اسرائيل عند الضرورة .

٩ ـ تجتمع اللجنة العسكرية المختصة في علما مع اللجنة العسكرية المختصة في رميش مرة كل اسبوع في مكان يتفق عليه في حينه .

١٠ ـ يعاقب كل شخص من قبل اللجنة العسكرية اذا تخلى عن هذا الاتفاق » .

توسيع النشاط الصهيوني الفاشي :

تشهد القرى اللبنانية الاخرى ضغوطا متزايدة تتراوح بين التهديد والوعيد لكي تحذو حذو القرى المتعاونة مع العدو الصهيوني · وغطاء التحرك الصهيوني ينطلق من القرى التي تسيطر فيها القوى الفاشية · ففي ٧٦/١٠/٢٦ استدعى الحاكم العسكري الاسرائيلي ابو داوود عن طريق الفاشيين في عين ابل ورميش وعلما وفودا من الضهيرة وياورين ومروحين والناقورة وبعض العملاء من بنت جبيل · وكان الاجتماع في حانوتا وذلك للتداول بشأن التنسيق والتعاون المتبادل · وقد طلب بعض العملاء الاسرائيليين في قريتي الضهيرة وبنت جبيل تزويدهم بقطع السلاح وقد تم ارسال بعضه عن طريق عملاء الضهيرة فيما بعد · ولكن الاجتماع لم يسفر عن نتائج حاسمة لانه كان يفتقد الى اية صفة تمثلية بالنسبة للقرى الاخرى ·

هذه القرى الجنوبية ما زالت ترفض ، بالرغم من كل التهديدات والاغراءات ، التعامل مع العدو الصهيوني · وقد تعزز موقف اهالي هذه القرى على اثر تحسن شروط التصدي للفاشيين والعدو الصهيوني · ولعل موقف اهالي كفرشوبا الوطني المشرف وعدد من القرى الاخرى يبرز فشل العدو الصهيوني، من خلال اساليبه المتنوعة التي اعتمدها حتى الان ، بخلق شريط بشري أمني على طول الحدود الجنوبية ·

فقد وجه ابو داوود ضابط الاستخبارات الاسرائيلية رسالة الى أحمد اسماعيل ذيب أحد وجهاء كفرشوبا الوطنيين ، يدعوه فيها الى التعامل مع اسرائيل ويعده بتعمير البلدة التي دمرت « وتقديم « كل شيء » في حال الموافقة على التعاون · وقد جاء في هذه الرسالة :

« نحن واياكم جيران ، ومن الضروري ان نتبادل الزيارات · ونحن نعلم ان بلدتكم قد تهدمت ، وكان ذلك في ساعة شيطانية نعتذر عنها ، ونحن مستعدون لان نوصل لكم التيار الكهربائي ، وننشيء مستوصفا للتطبيب العمومي في كفرشوبا ، كما نؤمن لكم كل ما تحتاجونه من مواد غذائية ، ونقدم لكم كل شيء تحتاجونه · لذلك ، فان كنتم توافقون ، فاننا نطلب منكم ان يأتي وفد من قبلنا اليكم في مستوصف « ميتولا » لنبحث الموضوع تفصيليا · الامضاء جيش الدفاع الاسرائيلي » ·

وقد رفض الاهالي بصورة قاطعة الرد على هذه الرسالة ، وكان جوابهم « ان لا عدو لنا غير اسرائيل ، ومن دمر كفرشوبا وقتل وجرح العشرات من

ابنائها لن يعمرها . لن تكون كفرشوبا بؤرة خائنة تتنكر لوطنيتها فتتعامل مع اسرائيل ، بل ستبقى صامدة شامخة معتزة بوطنيتها وعروبتها » .
(انظر «المحرر» ١٨/١١/٧٦) .

هذا هو الرد الوطني الساطع الذي يمثل ارادة وموقف اهل الجنوب الحقيقي . فهل ستنزع اسرائيل قفاز « الانسانية » و« حسن الجوار » وتشن هجوما عسكريا جديدا بالتنسيق مع الفاشيين لضرب الروح الوطنية الصامدة وتوجيه ضربة جديدة للمقاومة والحركة الوطنية ضمن سلسلة المخطط الامبريالي الرجعي المعادي ؟ هذا ما ستجيب عنه تطورات الايام القادمة في الجنوب .

موقف اسرائيل من احداث لبنان ودورها فيها

أحمد خليفة

يشكل الدور الاسرائيلي واحدا من اهم العوامل في الحرب الاهلية في لبنان . ويعرف الجميع ان موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، وتدخلاتها في الحرب اللبنانية اثرت تاثيرا هاما في مجرى الاحداث فيها ، وكانت هذه جميعا ، ولا تزال ، عناصر حاضرة في ذهن وحسابات وسلوك كل الاطراف المتحاربة والمساندة . والهدف من هذه المقالة هو تسليط الضوء على هذه العناصر ـ موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، ودورها في الحرب الاهلية في لبنان .

الموقف الاسرائيلي

صرح وزير الدفاع الاسرائيلي ، شمعون بيرس في احدى المناسبات ، ان الحرب اللبنانية كانت مفاجأة كبيرة لاسرائيل (١) . الا انه ليس من السهل تصديق ذلك . فقد كان الهدف الرئيسي (والمعلن) للسياسة الاسرائيلية تجاه لبنان في السنوات الاخيرة ، هو دفع السلطات والجيش اللبناني الى التصادم مع المنظمات الفدائية الفلسطينية ، وتاليب اوسع قطاعات ممكنة من الشعب اللبناني ضد حركة المقاومة الفلسطينية ونشاطاتها في لبنان . ومن الصعب التصور ان تشكيل ، تسليح وتدريب الميليشيات الانعزالية قبل الحرب تم كلية بمعزل عن اسرائيل ـ الجهة المعنية اكثر من غيرها بالهدف من وراء هذا الاعداد ، كما انه من الاصعب التصور ان اندلاع المعارك لتحقيق هذا الهدف ، مهما كان الشكل الذي اتخذه في البداية ، جرى دون ان تكون لاسرائيل يد فيه . وقد يكون من المستحيل الان وضع اليد على الاثباتات التي تؤكد الدور الاسرائيلي في اشعال المعارك ، او المعلومات التي توضح حجم هذا الدور واشكاله ، اذ تحيط الاطراف الانعزالية واسرائيل ، كما هو متوقع ، هذا الموضوع بستار من السرية المطلقة . ولا مفر هنا ، كما يبدو ، من الاكتفاء

بالاستنتاج ، وترك المعلومات الى المستقبل ٠

الا ان الموقف الاسرائيلي اصبح بعد فترة قصيرة من اندلاع المعارك واضحا ، وبالامكان تتبعه دون صعوبات خاصة ٠ ويمكن وصف رد الفعل الاسرائيلي ازاء التطورات في لبنان ، في الاشهر الاولى بعد اندلاع القتال ، بانه مزيج من الترقب والتوتر والقلق ٠ وهو مزيج عكسته بوضوح غالبية المقالات والافتتاحيات (الموجهة عادة) في الصحف الاسرائيلية الصادرة في تلك الفترة ، وبصورة لا تقل وضوحا ـ تصريحات المسؤولين الاسرائيليين ٠ فقد تطورت الاحداث ، كما يبدو ، بشكل مخالف تماما للتوقعات ٠ فبدلا من انفجار الوضع بصورة تضع السلطة اللبنانية بمجموعها ، والجيش والميليشيات الانعزالية في جانب من المتراس من جهة ، وحركة المقاومة الفلسطينية والجبهة السياسية المساندة لها في الجانب الثاني من المتراس من جهة اخرى ، وهو السيناريو الذي كانت السياسة الاسرائيلية تستهدف الوصول اليه ، تفجرت تناقضات الوضع الداخلي اللبناني ، احدثت انقساما عاموديا في السلطة ، اصيب الجيش اللبناني من جرائه بالشلل ، واكتسبت الحرب في لبنان ابعادا طائفية واضحة ، وانقسم البلد اجمالا الى معسكرين كبيرين ـ المعسكر «الاسلامي» ، الذي تحالفت غالبيته مع المقاومة الفلسطينية ، وانتظمت في داخله ميليشيات مسلحة ذات وزن عسكري لا يستهان به نظمتها بالاساس القوى التقدمية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية ، والمعسكر « الماروني » الذي التفت غالبيته حول ميليشيات الكتائب والاحرار ، والمنظمات المارونية المسلحة الاخرى٠ وبدلا من ان يبرز مع بداية الحرب هدف ضرب حركة المقاومة الفلسطينية او اخضاعها لسلطة الدولة اللبنانية ، أبرز انفجار الوضع الداخلي اللبناني المطالب الاسلامية بتحقيق مشاركة اكبر للطائفة الاسلامية في الحكم ، واضيفت اليها مطالب القوى التقدمية (التي ازداد وزنها بفضل نموها العسكري) بتحقيق برنامجها السياسي ٠ وتطورت المعارك بحيث وجدت اسرائيل نفسها ، بعد فترة قصيرة نسبيا من بدء القتال ، امام وضع لا يتجه نحو الابتعاد عن الحاق الهزيمة بالمقاومة الفلسطينية فحسب ، بل وايضا يهدد السيطرة المارونية على الدولة والجيش من اساسها ٠ وقد لامست افتتاحية لصحيفة « هاتسوفيه » ، في مرحلة مبكرة جدا من الحرب (عدد ٢٧ـ٥ـ٧٥) ، مكامن القلق الاسرائيلي بقولها : ان اسرائيل تتعقب الاحداث في لبنان من زاوية ـ اولا ، كبح « المخربين » او اتساع سيطرتهم ، وهذا يعني ، مشكلة الامن على الحدود الشمالية ، ثانيا ، « ان استمرار المحافظة على التوازن في لبنان يمنع على الاقل هذا البلد من الانخراط الفعال في دول المواجهة العربية ٠ اما اختلال التوازن بسبب سيطرة اسلامية ، فيخلق وضعا متوترا على الحدود ٠ وقد يجعل لبنان يتسبب في هزات في المنطقة باكملها » ٠ وفيما بعد ، برز ايضا احتمال التدخل السوري ، وامكان انضمام لبنان ، في حال تغير الوضع فيه تغيرا جذريا ، الى الجبهة الشرقية ٠ وهنا يكمن المنبع العميق للقلق الذي ذكرنا

اعلاه انه كان من سمات رد الفعل الاسرائيلي ازاء تطورات الحرب في لبنان في الاشهر الاولى ٠

وقد مال الموقف الاسرائيلي ، في البداية ، الى التحرك وفقا لنمط التحرك الاسرائيلي ازاء احداث الاردن في عام ١٩٧٠ ٠ ففي شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ ، عندما لاح ان لبنان قد يكون مقبلا على تغييرات جذرية في نظامه السياسي ، وبدا ان التدخل السوري بات محتمل الوقوع ، اطلق العديد من المسؤولين الاسرائيليين الكبار تحذيرات لسوريا من الاقدام على التدخل في لبنان ، واعلن رابين في منتصف الشهر « ان اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان كما هو ، بالصيغة السياسية والنظام الداخلي القائمين فيه ، وان كل محاولة لاحتلال لبنان «تمس امن اسرائيل » (٢) ٠ وشرحت افتتاحية « هارتس » ، الصادرة في اليوم التالي ، ان رئيس الحكومة استهدف تذكير كل من يهمه الامر « ان اية محاولة لتقويض النظام في لبنان ستثير بالضرورة شكوكنا وتزيد في قلقنا » ، وان « ما ينطبق على لبنان ، كما هو ، مماثل لما ينطبق على الاردن » (٣) ٠

وفي نهاية الشهر وبداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، كرر المسؤولون الاسرائيليون تحذير سوريا من التدخل ، وهددوا بالاقدام على خطوات عسكرية في حال حدوث ذلك ٠فصرح رئيس الوزراء الاسرائيلي ، يتسحق رابين، ان «اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية اذا ما تدخلت سوريا ، او اية دولة عربية اخرى ، اذ سيقوم عندها عدو محتمل جديد لاسرائيل على الحدود الشمالية » (٤) وصرح رئيس اركان الجيش الاسرائيلي ، مردخاي غور ، انه « سيكون من الضروري التمييز بين وضع يبقى فيه لبنان مستقلا ، وبين تغيير جغرافي ـ سياسي ٠٠٠ وسيكون الوجود العسكري السوري في لبنان بمثابة تغيير جغرافي ـ سياسي للوضع ٠ وستضطر اسرائيل ، بما في ذلك الجيش الاسرائيلي ، الى الرد » (٥) ٠ كما صرح السفير الاسرائيلي في واشنطن ، سمحا دينيتس ، « ان اسرائيل تدرس بجدية القيام بعمل عسكري ، اذا تدخلت اية دولة عربية في النزاع في لبنان » (٦) ٠

ولكن سرعان ما اتضح لاسرائيل ان الولايات المتحدة تنظر الى الامور بصورة مختلفة ، وان الموقف الاميركي ، الذي دفع اسرائيل الى حشد قواتها على الحدود السورية في عام ١٩٧٠ لردع السوريين عن الوصول الى عمان ، يتحرك هذه المرة بصورة مغايرة ٠

وقد ذكرت صحيفة « هارتس » الصادرة في ٢٠ـ١٠ـ٧٥ ، ان الولايات المتحدة حذرت اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري ، وابلغتها انها تنتظر عدم قيام اسرائيل باي عمل قبل التشاور مع الولايات المتحدة في حال

حدوث ذلك ٠ واعترف ممثل اسرائيل في الامم المتحدة ، حاييم هيرتسوغ ، في خطاب القاه في الجمعية العمومية في تشرين الثاني ١٩٧٥ ، ردا على كلمة مندوب م٠ت٠ف ان انقاذ لبنان ، كما تم انقاذ حسين بمساعدة اسرائيل في سنة ١٩٧٠ ، « يتوقف على نوايا واشنطن »٠ واضاف ان هناك شكا فيما اذا كانت واشنطن فورد مستعدة لتكرار مناورة نيكسون (٧) ٠

وفي ضوء هذا الاختلاف في الموقف الاميركي، بدأ الموقف الاسرائيلي في الابتعاد عن التعامل مع الاحداث في لبنان كما تم التعامل مع احداث الاردن في عام ١٩٧٠٠ وقد تمثل هذا الابتعاد ، اول ما تمثل ، في الموقف تجاه احتمال التغيير في النظام الداخلي اللبناني ٠ فقد صرح رئيس الاركان الاسرائيلي ، مردخاي غور ، في النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٥ ، انه « اذا ما بقي لبنان مستقلا ، يعتبر ما يجري فيه مسالة سياسية ، سواء حكمه المسيحيون ام المسلمون » (٨) ٠ وعاد فكرر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ ان اي تطور في لبنان ، « حتى ولو لم يكن محببا لنا » ، لا يهم اسرائيل ، واضاف انه لا يعتقد « ان حدوث اسلمه ، او تغيير في الاقلية او الاكثرية ، امر حسن ، ولكنه ليس من شأننا » (٩) ٠ وصرح وزير الخارجية ، يغئال الون ، في نفس الشهر ، انه لا يعتقد « انه يتوجب على اية دولة اجنبية ان تتدخل في الوضع الداخلي في لبنان ٠ وان اسرائيل لا تنوي فعل ذلك » (١٠) ٠ واعقبه بيرس في اليوم التالي ، فادعى انه « لم يخطر ببالنا قط ان نتدخل فيما يجري في لبنان » ، وذلك اذا لم يحدث تدخل اجنبي (١١) ٠

كما تمثل هذا الابتعاد عن نمط عام ١٩٧٠ ، ثانيا ، في تغير اللهجة والعبارات المستخدمة ازاء التدخل السوري ، في البداية ، ثم في تراجع تدريجي عن المواقف « القاطعة » المعلنة بهذا الخصوص ، فيما بعد ٠ ونورد فيما يلي نماذج من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين توضح تطور الموقف الاسرائيلي بهذا الصدد٠

في النصف الاول من كانون الثاني ١٩٧٦ ، صرح غور ان اي تطور داخلي لبناني ليس من شأن اسرائيل ، « بيد ان دخول قوات اجنبية ٠٠٠ ربما يقتضي اعادة نظر » (١٢) ٠ وصرح بيرس « أن اسرائيل لا تستطيع ان تقف لا مبالية ازاء اي تدخل سوري في لبنان ، مهما كانت دوافعه ٠وسيقتضيها ذلك (ان حدث) درس خطواتها » (١٣) ٠ وصرح رابين « انه اذا تدخلت قوات اجنبية في لبنان ، فلن تكون اسرائيل في وضع تستطيع معه احتمال ذلك » (١٤) ٠

(جوهر الموقف الاسرائيلي الرافض للتدخل السوري ، مهما كانت دوافعه ، لا يزال قائما - ولكن حلت محل العبارات من نوع « ان اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية الخ ، العبارات من نمط ان ذلك « ربما يقتضي اعادة نظره او ان اسرائيل لن تكون في وضع تستطيع معه احتمال ذلك الخ) ٠

وفي النصف الثاني من كانون الثاني ١٩٧٦ ، دخلت قوات نظامية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني من سوريا الى لبنان للمشاركة في القتال ضد قوى المعسكر الانعزالي • وتجنب المسؤولون الاسرائيليون الادلاء بتصريحات مباشرة حول الحدث ، واكتفوا بالتعليق عليه بصورة غير مباشرة • فصرح مردخاي غور « ان هناك اثباتات كافية على ان السوريين غير مستعدين اليوم للتدخل في لبنان اكثر من اللازم » (١٥) • واعقبه وزير الدفاع في اليوم التالي فصرح « ان مصادره لم تذكر شيئا عن دخول قوات سورية الى لبنان » (١٦) ، وعاد فقال بعد ايام ان الحكومة الاسرائيلية « لا تتوقع غزوا سوريا للبنان » (١٧) • وادلى وزير الخارجية يغئال الون ، قرب نهاية الشهر ، ببيان في الكنيست بخصوص الوضع في لبنان ، ذكر فيه : « اوضحنا جيدا ، في اثناء الحرب الاهلية في لبنان ، سواء عن طريق تصريحات علنية او عن طريق وسائل فعالة اخرى ، ان غزو جيش سوري للبنان سيشكل اضرارا بالغا بالمصالح الحيوية الاسرائيلية • ولا شك ـ ولا اقول ذلك على سبيل الافتراض غير المرتكز الى اساس ـ في ان ايضاحاتنا ، باننا سننظر بخطورة كبيرة الى غزو كهذا ، شكلت ، ولا تزال تشكل ، عاملا مهما ـ ان لم يكن الاهم ـ في ردع سوريا عن غزو لبنان ••• وهذه التوضيحات التي ادلينا بها لا تزال قائمة كما هي » (١٨) •

(فضلت اسرائيل عدم اعتبار جيش التحرير الفلسطيني « جيشا اجنبيا »ينبغي التعامل معه وفقا للموقف المعلن سابقا ، وعدم اعتبار دخوله ، رغم قناعتها بعكس ذلك ، « خطوة عسكرية » سورية ، وتمسك وزير الخارجية بالاعتقاد ان مصداقية الردع الاسرائيلي لم تمس) •

وفي اذار (مارس) ١٩٧٦ حدثت جملة من التطورات الهامة ـ انهار الجيش اللبناني ، واعلن عن قيام جيش لبنان العربي ، ودخلت قوات اضافية من جيش التحرير الفلسطيني ، ودخلت ـ اخيرا ـ قوات عسكرية سورية • وبدا ان سوريا هذه المرة ، تجاوزت « الخط الاحمر » الاسرائيلي • ولكن التخوف من تحرك رادع اسرائيلي لم يتجسد ، وصرح رئيس الاركان ، مردخاي غور ، ان « ••• السوريين نشيطون في اطر مختلفة في لبنان ، ولكن لم نصل بعد الى وضع يعمل فيه الجيش السوري في لبنان كجيش سوري • واذا ما اتى يوم ودخل جيش سوري الى لبنان ، سنقرر ما نفعله » (١٩) • وصرح وزير الدفاع ، شمعون بيرس ،«ان الجيش السوري لم يدخل بكامل قوته الى لبنان ، نظرا الى ان اسرائيل اعلنت انها ستتخذ ، في هذه الحالة، تدابير الامن التي ترتئيها» (٢٠) • وتحدثت الصحف الاسرائيلية عن وجود « خط احمر» ابلغت الحكومة الاسرائيلية المسؤولين السوريين ، بواسطة واشنطن ، انها لن تسمح لقواتهم بتجاوزه • وفسر العديد من المراقبين « الخط الاحمر » بانه يعني نهر الليطاني •

(تراجعت اسرائيل عن موقفها « القاطع » برفض التدخل السوري ، « مهما كانت دوافعه » ، وحاول المسؤولون تغطية الارتباك الناشيء عن اقدامهم على هذه الخطوة بعبارات من نمط « ان السوريين نشيطون في اطر مختلفة » و « الجيش السوري في لبنان لا يعمل كجيش سوري » و « الجيش السوري لم يدخل بكامل قوته الى لبنان » الخ) ٠

وفي حزيران ١٩٧٦ دخل الجيش السوري الى لبنان ، «كجيش سوري» ،وبقوة وقام ببعض النشاطات في العرقوب (اي جنوبي الليطاني) ، وقررت الدول العربية ارسال قوة امن عربية الى لبنان ٠ وفي هذه المرة كان لدى اسرائيل استعداد للقبول بالتدخل العسكري السوري ، واخذت تصوغ مواقف جديدة ، اكثر عمومية فيما يتعلق بالتدخل السوري او العربي ، ولكن اكثر تحديدا فيما يتعلق بجنوب لبنان ، الذي يبدو انه اصبح المحط الرئيسي لاهتمامها ٠ فقد صرح يغئال الون ، في حزيران ١٩٧٦ ، ان اسرائيل لم تتحدث اطلاقا عن « خط احمر » كخط عرض جغرافي (يقصد نهر الليطاني) ، بل ان « الخط الاحمر » هو مزيج من عدة عوامل ، كحجم التوغل السوري ، وحجم القوة العربية التي سترسل الى لبنان ٠ ويشمل ايضا عناصر اخرى كمدة بقاء القوات الاجنبية في لبنان ، وصورة التشكيل الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك ، بعد التوصل الى وقف اطلاق النار (٢١) ٠ واقتصرت تصريحات المسؤولين الاسرائيليين اللاحقة لهذا التاريخ ، فيما يتعلق بالتدخل العسكري السوري ، على تحذير سوريا « من التمادي في بسط نفوذها على لبنان ، وبالتالي ضمه باكمله اليها ، او ابتلاع اجزاء منه » (٢٢) ، (الون) ، وايضاح ان سوريا وعدت الولايات المتحدة بعدم ادخال قوات سورية الى جنوب لبنان (٢٣) ، (رابين) ،والتحذير من السماح لـ م٠ت٠ف بالعمل ضد اسرائيل من الاراضي اللبنانية (٢٤) ٠ (دينيتس) ، وقد توصل الصحفي الاسرائيلي ماتي غولان ، في مقالة نشرها في هارتس اثر التدخل السوري المكثف ، وغياب رد فعل اسرائيلي معاد له ، الى النتيجة ان « الخط الاحمر »قد تلاشى عمليا ،وحلت محله مجموعة مقاييس مطاطة ٠ (٢٥) ٠

وفي صدد تفسير هذا التحول الكامل في الموقف الاسرائيلي بخصوص التدخل السوري من النقيض الى النقيض ، نجد في متناول اليد التحول المعروف في التوجه السوري في لبنان ، من تحالف مع القوى الوطنية اللبنانية و م٠ ت٠ ف الى استخدام القوات العسكرية السورية لاخضاعهما ، وسحق القوى المسلحة التابعة لهما ٠ونجد ايضا ، بصورة اقل ظهورا ، الموقف الاميركي ، الذي لعب الدور الاساسي في كبح ردود فعل اسرائيلية متطرفة قبل آذار ١٩٧٦ ، اي قبل ان يبدأ التحول في الموقف السوري يتخذ اشكالا ملموسة ، ولعب دورا هاما بعد ذلك في تطمين الاسرائيليين ٠ ففي تشرين الاول ١٩٧٥ ، حذرت الولايات المتحدة

اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري (٢٦) • وفي كانون الثاني ١٩٧٦ ، على اثر دخول قوات جيش التحرير الفلسطيني الى لبنـــان ، رفضت الولايات المتحدة تاييد صيغة تحذير اسرائيلي لسوريا من التدخل في لبنان ، المسح الى ان الجيش الاسرائيلي قد يرد على خـطوة كهذه (٢٧) • وفي اذار ١٩٧٦ ،في اعقاب انهيار الجيش اللبناني ودخول قوات سورية الى لبنان ، رفضت الولايات المتحدة بعد مشاورات جرت بين المسؤولين في الخارجية الاميركية ومجلس الامن القومي ، طلبا بان تظهر الولايات المتحدة « نشاطا اكبر في تثبيت الحكم في لبنان ، وحماية النفوذ المسيحي » ، ومارست ضغطـــا على اسرائيـل للمحافظـة على الاعتدال (٢٨) • وكتب ناحوم بارينغ ، مراسل دافار في واشنطن ، في صحيفته ، ان واشنطن طلبت من الحكومة الاسرائيلية « عـدم الادلاء بتصريحات ، وعدم جعـل لبنان موضوعا للدعاية » • واضاف ان الطلب نفذ بصورة او باخرى (٢٩) • وفي حزيران ١٩٧٦ ، في اعقاب الدخـول العسكري السوري المكثف ، كـرر وزيـر الخارجية الاميركي على مسامع السفير الاسرائيلي في واشنطن التقدير الاميركي « ان اسرائيل تحسن صنعا بعدم التدخل في لبنان ، في هذه المرحلة ، وبالابقاء على الملامح العربية للامور »(٣٠) • وفي اب ١٩٧٦ ، عقب توقيع الاتفاقية بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ، اجتمع كيسنجر بالسفير الاسرائيلي في واشنطن، وحاول ان يبدد مخاوف اسرائيل من سيطرة سوريا على جنوب لبنان ، ومن توقيع اتفاق بين سوريا و «ت ف ف يسمح باستئناف الاعمال « التخريبية » عبـر الحـدود اللبنانية • واضافت صحيفة دافار ، التي نشرت هذا النبأ ، ان كيسنجر اوضـح للسفير الاسرائيلي انه ، بحسب التقديرات الاميركية ، لا يوجد احتمال كبير لان يدخل الاتفاق المشار اليه حيز التنفيذ (٣١) • وقد اعترف وزير الدفاع الاسرائيلي، شمعون بيرس ، في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف في آذار ١٩٧٦ ، بصـورة غير مباشرة ، بالتاثير الهام للموقف الاميركـــي على السياسة الاسرائيلية ازاء احداث لبنان ، عندما اجاب ردا على سؤال واضح ، لماذا اختلف موقف اسرائيل سنة ١٩٧٦ عنه في سنة ١٩٧٠ ، قائلا : « الذي حدث في سنة ١٩٧٠ يختلفـتماما عما يحدث الآن • كان هناك ، آنذاك ، تهديـد سوري للاردن ، وكان الاردنيـون مستعدين للتصدي ومقاومته • وقد وقف الاميركيون الى جانب الاردن ، وفعـلوا اكثر مما صرحوا • واليوم ، كل شيء مختلف • فليس من الواضح تماما ماذا يريد فرنجية • فقد نشا الانطباع انه بين عرفات والاسد ــ فانه يفضل الاسد ، ولا يلاحظ تحفظ اميركي من محاولات الوساطة السورية » (٣٢) •

اما بعد اذار ١٩٧٦ ، فبات واضحا ان ضبط النفس الاسرائيلي ، والتوجه نحو القبول بالتدخل السوري ،اخذ يعكس قناعات ذاتية اسرائيلية • فازاء ازديادموجة القلق والتوتر في المستوطنات الاسرائيلية ، نتيجة التطورات في ذلك الشهر ، اعلن بيرس انه على اسرائيل « التصرف بضبط النفس ، وعدم الانجرار وراء عمـــل

متسرع » ، واضاف : « ان التغييرات الاخيرة في لبنان اثبتت ان المصلحة السورية تتناقض مع مصلحة المخربين » (٣٣) • واوضح بعد ايام « انه ليس من الواضح ابدا لاسرائيل نفسها ، بان التدخل من اجل عرفات ، وضد فرنجية والاسد ، سيكون سليما ، ولمصلحة قضيتها » (٣٤) • وكتبت دافار في افتتاحيتها ، في ١٢-٤-٧٦ ، ان « اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان ضمن توازن داخلي ما ، وبالمحافظة على سلامة الطائفة المسيحية ونفوذها في تركيب القوى ، وانتخاب رئيس ليبرالي •

وليس بالامكان ضمان كل ذلك ، في ضوء ميزان القوى ، كما اصبح داخل لبنان • وبحسب جميع الدلائل ، تسعى سوريا ••• لتحقيق هذه الاهداف » • ونابعت « انه ما دام هذا دورها ، وما دامت هذه هي الاهداف السورية ، فلا مصلحة لاسرائيل في القضاء عليها » • وربما كان رئيس الحكومة ، اسحاق رابين ، ابلغ واصرح من الجميع ، عندما صرح «انه على اسرائيل الا توقف الثور السوري ، ما دام يدرس على الفلسطينيين » (٣٥) •

واذا قمنا بمحاولة لتجميع وتركيز التفسيرات الواردة في الصحافة الاسرائيلية لدوافع الموقف الاميركي ، والموقف الاميركي ـ الاسرائيلي المشترك ، فاننا نحصل على الصورة التالية : رغبة ادارة فورد في تجنب الانجرار الى التورط في مغامرة عسكرية في الشرق الاوسط ، خصوصا في سنة الانتخابات الاميركية (٣٦) • التخوف من تعريض الاتفاق المرحلي بين اسرائيل ومصر ، وهو واحد من اهم انجازات السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، للخطر (٣٧) ، توقع ان يؤدي التدخل السوري في لبنان ، على ضوء الخلافات العربية (وخصوصا بعد اصطدام سوريا بالمقاومة الفلسطينية) ، الى اضعاف سوريا ، وهذا قد يجعلها ، بالتالي ، « مستعدة للتوقيع على اتفاق اخر في الجولان بشروط ملائمة » (٣٨) • التقويم الاميركي « بان الاسد ، على الرغم من علاقاته الوثيقة بالسوفيات ، يتبع سياسة براغماتية متزنة ، تنطوي على تعاون مع الانظمة المحافظة والمعتدلة في العالم العربي ، مثل الاردن والسعودية وعلى صدام مع الفلسطينيين » (٣٩) ، التوجه السوري ، بعد شباط ١٩٧٦ ، الى تدعيم الطائفة المارونية والمحافظة على نفوذها في تركيبة القوى اللبنانية الداخلية ، وسد الطريق امام تغيير النظام القديم تغييرا جذريا (٤٠) • التوجه السوري ، بعد اذار ١٩٧٦ ، الى تحجيم المقاومة الفلسطينية ، وضرب قوتها العسكرية (٤١) • الامل في ان يؤدي التنسيق السوري ـ الاردني ، وجملة التطورات الاخرى ، الى تعزيز امكان حل هاشمي للقضية الفلسطينية • اي دمج الكيان الفلسطيني (بما في ذلك الضفة الغربية) في الاردن ، وليس اقامة دولة فلسطينية مستقلة » (٤٢) •

وينبغي الا يفهم من السياق الذي اتبع لعرض الموقف الاميركي ، والمعلومات

الموردة حوله ، ان الولايات المتحدة كانت جازمة ان سوريا ستقدم ، في مرحلة متقدمة من الحرب اللبنانية ،على ضرب المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية ، وبالتالي شجعت تدخلها العسكري وعملت على ازالة « العراقيل » الاسرائيلية من طريقه ، او انه كان هناك تامر خفي بين الولايات المتحدة وسوريا لتحقيق ذلك • فقد مرت فترات وجهت فيها الولايات المتحدة الى سوريا ايضا تحذيرات شديدة من التدخل العسكري في لبنان ، والارجح ان سوريا انساقت الى سلوك الطريق الذي اتبعته لاعتبارات لا نرغب هنا في الخوض فيها ، منها الرغبة في الحصول على « الضوء الاخضر » الاميركي ، وبالتالي الاسرائيلي ، لاكمال الشوط الذي بدأت السير فيه •

ولكن اذا كانت اسرائيل قد ابدت مرونة بخصوص موضوع التدخل العسكري السوري ، فان موقفها بخصوص موضوع جنوب لبنان ، وامكان عودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم من الاراضي اللبنانية ضدها ، اتسم بالتشدد والتصعيد • وزاد من خطورة هذا الموقف اقدام اسرائيل في الجنوب على ممارسة نشاطات عسكرية واقتصادية وسياسية مكشوفة توقت خلق وضع جديد في الجنوب يخدم اهدافها • وسنقتصر هنا على عرض الموقف الاسرائيلي الرسمي من موضوع الجنوب والنشاط الفدائي من لبنان ضد اسرائيل ، على ان نتطرق للنشاطات العملية لاحقا ، في سياق الحديث عن الدور الاسرائيلي • ففي كانون الثاني ١٩٧٦ ، في اعقاب دخول قوات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، اعلن وزير الخارجية ، يغئال الون ، في الكنيست « انه قد ازداد خطر ان تحاول منظمات الارهاب والتخريب السيطرة على الجزء الجنوبي من لبنان »، و« اننا لن نسلم بهذا الخطر ، ولن نتجاهله اذا تجسد » و« سنستمر في الاحتفاظ بحقنا في الاقدام على الخطوات اللازمة ، بحسب ما تفرضه الظروف ، من اجل ضمانة مصالحنا الامنية في مناطق الحدود ، وسلامة سكانها » (٤٣) • وفي حزيران ١٩٧٦ ، عاد الون فصرح «ان اسرائيل لا تستطيع ، باية حال ، الموافقة على اعادة تشكيل المخربين في لبنان ، بعد انتهاء المعارك ، ولن نسلم بتجدد اعمالهم ضدنا » • واضاف « ان اسرائيل لن تتحمل اية عودة لفترة المواجهة مع المخربين على طول الحدود اللبنانية » • (معاريف ١٥/٦/ ٧٦) • وفي ايلول ١٩٧٦ ، كرر الون الموقف نفسه بتشديد اكبر قائلا « انه يجب ان يكون واضحا ، دون اي ظل لشك ، ان اسرائيل لن تسمح بحل الصراع الداخلي اللبناني عن طريق تفويض يحف بالسماح لها بالعمل ضد اسرائيل من الاراضي اللبنانية • ومن المحظور السماح لـ يحف بالسيطرة من جديد على مناطق او قواعد قريبة من الحدود ، بغرض ممارسة نشاط ضد اسرائيل • واعتقد ان سياستنا ، حتى الان ، تكسبنا رصيدا كافيا لان يجعل رد فعلنا مفهوما اذا حاولت يحف اعادة الوضع الى صورته السابقة » •

... فالوضع الذي كان قائما في السابق لن يعود بعد » (٤٤) . اما شمعون بيرس ، فقد صرح من ناحيته ، في اب ١٩٧٦ ، ان الحدود مع لبنان هي الحدود الاسرائيلية الوحيدة والثابتة والمعترف بها دوليا ، وان هناك « فراغا عسكريا » في جنوب لبنان ، و« قد قام نموذج للتعايش ، مفعم بالتفاهم والتقدير المتبادلين بين سكان اسرائيل ، وسكان جنوب لبنان »(٤٥) . واوضح لاحقا « ان تقلص وجود هتف في المنطقة ترجمته اسرائيل الى نموذج مدروس للجوار ... وتبين ان السكان يريدون علاقة تختلف عن تلك التي فرضت عليهم من فوق ، ومن قبل عناصر خارجية » . واضاف« ان في وسع لبنان التأكد ان اسرائيل ستمكنه ... من التخلص من القاس التي تسلطها عليه هتف » (٤٦) . وعاد بيرس فكرر ، بعد مؤتمر القمة العربية في القاهرة ، ان اسرائيل تعترف بحدود لبنان ولا تنوي تغييرها ، ولكنها ستنظر بخطورة شديدة جدا الى دخول «مخربين» الى جنوب لبنان ، وستبذل اقصى جهدها لكي يستمر الوضع الحالي فيه .(٤٧) .

ومغزى تصريحات بيرس الاخيرة هذه هو ان اسرائيل لم تعد تكتف حتى بمنع الفدائيين من العودة الى الجنوب ، وانما تتطلع الى تثبيت « الوضع الحالي »، الذي تسيطر فيه الميليشيات الانعزالية على معظم الجنوب اللبناني، وتقوم في اطاره شبكة من العلاقات بين اسرائيل وقطاع كبير من السكان .

هذا بخصوص الموقف ازاء الوضع في الجنوب . وتبقى امامنا مسالة تتعلق بالموقف الاسرائيلي العام ، لا يكتمل فهمنا لدور اسرائيل دون توضيحها ، وهي انه وجدت هناك ، في الحقيقة ،طوال فترة الحرب ، اوساط سياسية واسعة لم تكن مرتاحة لتسليم اسرائيل بالتدخل العسكري السوري ، او ساورتها الشكوك حول الرضى الذي ساد الاوساط الحاكمة في اسرائيل نتيجة التطورات في لبنان . وقد عرضت رئيسة تحرير صحيفة دافار، منازيمر ،في مقال نشر مؤخرا ، الاسباب التي تجعل من هذا الرضى،بحسب رايها امرا مشكوكا في سلامته ، فقالت ان المركز المتفوق الذي اكتسبته سوريا في لبنان ينطوي على مغزى عسكري واضح ، ليس ايجابيا من زاوية اسرائيل في حال مواجهة مع سوريا ، ويشكل تحولا نحو الاسوا في وضع اسرائيل الاستراتيجي على الحدود الشمالية ، وانه ليس هناك اساس للافتراض ان سوريا ستترى نفسها ملزمة بتقديم مقابل لاسرائيل من نوع اتفاقية سيناء ، وانه مقابل الوضع العسكري الخطير الذي سيقت اليه هتف ، اكتسبت قواتها خبرة عسكرية عملياتية ، في وحدات نظامية مقابل وحدات نظامية ، وهي خبرة لم تكن لديها من قبل ، وان المشكلة الفلسطينية لم تصغر نتيجة حرب لبنان ، بل على العكس ، ازداد الدافع العربي لايجاد حل سياسي للمشكلة ، وسيشغل مكانة اعلى في سلم الافضليات العربية مما كان في السابق ، واخيرا ان احساس الفلسطينيين

بانهم مواطنون من الدرجة الثانية في كل مكان في العالم العربي قد ازداد نتيجة الحرب ، وان المعاناة والهزائم والمواجهات لا بد وان تكون ادت الى تقوية تميزهم القومي واحساسهم بهويتهم المستقلة ـ وكل هذا ليس « حسنا لليهود (٤٨) » ٠

الدور الاسرائيلي

قد يكون من المستحيل في الفترة الراهنة ، وربما لسنوات طويلة قادمة ، الاحاطة الشاملة بالدور الذي لعبته اسرائيل في الحرب اللبنانية ، او معرفة جميع تفاصيله ٠ وعندما نتحدث عن الدور الاسرائيلي هنا ، فاننا نعني بذلك بعض الخطوط العامة ، وما كشف الستار عنه ٠ ونبتديء بالاعم ، ثم ننتقل الى الاخص ٠

اننا نعتقد ، دون الدخول في الشرح ، ان الموقف الاسرائيلي ، في حد ذاته ، لعب دورا هاما في تطور التوجه السوري فيلبنان على النحو المفجع الذي ال اليه ٠ كما تشير الدلائل الى ان الموقف الاسرائيلي ردع ، وسيردع اجمالا ، السوريين عن الدخول الى جنوب لبنان٠

ولكن هذا يظل تدخلا غير مباشر ، والاخطر منه التدخل المباشر على صعيد المساعدة العسكرية التي قدمتها اسرائيل للفريق الانعزالي عموما ، وللقوى الانعزالية في الجنوب خصوصا ، اضافة الى المخطط الجاري تنفيذه حتى الان في جنوبي لبنان ، وباشراف مباشر من الاسرائيليين ، وتنسيق معهم ٠

لقد حرصت اسرائيل على احاطة موضوع التعاون العسكري مع الفريق الانعزالي بالكتمان الشديد ، ويبدو ان هناك رقابة على الصحف الاسرائيلية بهذا الخصوص ، اذ تنشر الصحف الاسرائيلية انباء هذا التعاون دوما نقلا عن الصحف الاجنبية ، ودون اضافات ٠ وقد بدأت الصحف الاجنبية ، اعتبارا من اب ١٩٧٦ بالاخبار عن هذا التعاون واشكاله ٠ اتخذت المساعدة العسكرية الاسرائيلية للفريق الانعزالي الاشكال التالية : التعاون مع القوات البحرية السورية والانعزالية في فرض حصار بحري على مرفأي صور وصيدا ، لقطع طرق امداد الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بالسلاح والذخيرة والمواد الحيويه ٠ وقد تم في نطاق هذا الحصار مهاجمة واسر واغراق العديد من السفن بواسطة سلاح البحرية الاسرائيلية (٤٩) ، امداد الفريق الانعزالي بالسلاح والذخيرة والاعتدة الحربية ، واقامة دورات تدريبية لتشكيلات وافراد تابعين للقوات الانعزالية داخل اسرائيل (٥٠) ٠ مساعدة تشكيلات وافراد تابعين للقوات الانعزالية على الانتقال من مناطق السيطرة الانعزالية في

وسط لبنان وشماله الى جنوبه عن طريق البحر ـ اسرائيل الجنـــوب (٥١)، الاجتماع بقادة الفريق الانعـزالي من اجل التنسيق ووضع الخـــطط (٥٢) ، مساندة هجمات القوى الانعزالية في الجنوب عـلى قرى الحركة الوطنية وثكنات جيش لبنان العربي بالمدفعية ، وربمـا بالاليات والجنود (٥٣) ٠

اما بالنسبة لجنوب لبنان فتمارس فيه اسرائيل نشاطا ذا شقين : الشق الاول يندرج تحت ما اصطلح عـلى تسميته « بالسياج الطيب »، والشق الثاني استهدف بناء قوة عسكرية مشكلة من القوى الانعـزالية المحلية لملء « الفراغ العسكري» في الجنوب ، ومساعدة هذه القوة على السيطرة على الجنوب باكمله ٠

وقد قدمت اسرائيل في سياسة « السياج الطيب » خدمات طبية ومعونـــات غذائية وسمحت للمزارعين اللبنانيين ببيع التبغ داخل اسرائيل ، وللتجار بشراء المواد التموينية والسلع الحيوية الاخرى وفتحت امام الراغبين مجالا للعمل في اسرائيل ثم مجال الزيارة ٠ وقد ركزت اسرائيل في دعايتها على الدوافع الانسانية التي حـدت بها الى فتح بوابات « السياج اللطيف » امام اللبنانيين المحتاجين الى المعونة ، ولكن وزير التجارة والصناعة «حاييم بارليف » اعترف ان لاسرائيل مصلحـــة سياسية في مساعدة «جيرانها» (٥٤) ٠ وكان اتيان هيفـر ، احـــد كتـــاب صحيفة « يديعـوت احرونوت »، اكثر صراحـة عـندما قال « انه مع كل الاحترام والتقدير للجانب الاخـلاقي ـ الانساني ، الذي تنطوي عـليه المساعـــدة لقرى جنوب لبنان ، فليس العـلاج الطبـي ، والعـمل ، والتموين ، وخدمـات البريد وزيارات الاقارب ، الا منتوجات فرعية ، والهدف الحقيقي ٠٠٠ هـــو خلق وضع جديد في المنطقة ، عـلى الحدود الفاصلة بين الدولتيـن (٥٥) » ٠ وصاغ يوئيل ماركوس ، من كتاب صحيفة «هارتس » ، بدقة اكثر الهـدف الاسرائيلي من وراء سياسة « السياج الطيب » بقوله : « وفي المرحلـة الثالثة، شنت اسرائيل ٠٠٠ حملة مكافحة الفلسطنة في القطاع اللبناني المجاور الحدود الاسرائيلية ، مكافحة الفلسطنه ، اساسا ، في مشاعـر سكان المنطقة وتفكيرهم، وبينهم مسلمون معتدلون ابدوا استعدادا للتجاوب مع حملة من هـذا النـوع ٠ وقد افادنا « السياج الطيب » على الصعـيد العـالمي ، ولكن اهميته الجوهريـة تكمن ، في الواقع ، فـي الالتزام الثنائي الذي تشكل على جانبي الحـــدود، للمستقبل (٥٦) » ٠

وفي مجال بناء القوة العسكرية الانعـزالية ، صرح وزير الدفاع ، شمعـون بيرس ، في اوائـل تشرين الثاني ١٩٧٦ ، انه اصبح للمسيحيين والشيعـة في جنوب لبنان جيش تعداده حوالي الفي جندي ٠ واضاف ان هذه القـوة معنيـــة بالمحافظة على جنوب لبنان «نظيفا» من المخربين ، وهي قادرة عـلى فعل ذلك ، وعلى تحويل هـذه المنطقة الى حاجز امام التدخل الاجنبي التخريبي والسوري٠ واوضح بيرس انه من الهـام جدا الامتناع عـن خـلق الانطباع بان هذا الجيش

يعمل بتوجيهات اسرائيلية (٥٧) ٠

ان هذه التصريحات والكتابات ، اضافة الى التصريحات التي اقتبسناها اعلاه من الموقف الاسرائيلي تجاه الوضع في جنوب لبنان ، توضح الهدف الرئيسي من وراء النشاط الاسرائيلي في الجنوب ــ خلق منطقة تعايش سلمي اخرى مع اسرائيل في جنوب لبنان ، واقامة حاجز امني في وجه الفدائيين الفلسطينيين ، مشكل من قوة عسكرية محلية فعلية ، وقائم على شبكة علاقات متشعبة تشتمل على الالتزام بابعاد الفدائيين ،وحتى السوريين عن الحدود ويمكن القول ان استكمال تحقيق هذا الهدف،سيكون المجال الرئيسي الذي سينصب عليه اهتمام اسرائيل في المرحلة القادمة ، بينما القوات السورية مشغولة باحكام طوق « السلام العربي » على لبنان ٠

المصادر

(١) يديعوت احرونوت، ١٩٧٦/٩/٢٠ ٠
(٢) معاريف ، ٧٥/١٠/١٥ ٠
(٣) هارتس ، ٧٥/١٠/١٦ ٠
(٤) هارتس ، ٧٥/١٠/٣١ ٠
(٥) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٦) معاريف ، ٧٥/١١/٣ ٠
(٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ـ زئيفشيف
(٨) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٩) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٠) معاريف ، ٧٦/١/٢١ ٠
(١١) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٢) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٣) معاريف ، ٧٦/١/٨ ٠
(١٤) عال همشمار ، ٧٦/١/١١ ٠
(١٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢١ ٠
(١٦) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٧) دافار ، ٧٦/١/٢٥ ٠
(١٨) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(١٩) معاريف ، ٧٦/٣/٢٤ ٠
(٢٠) هارتس ، ٧٦/٤/٧ ٠
(٢١) معاريف ، ٧٦/٦/١٥ ٠
(٢٢) هارتس ٧٦/٧/١٦ ٠
(٢٣) دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠
(٢٤) دافار ، ٧٦/٧/٣٠ ٠
(٢٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ٠
(٢٦) هارتس ، ٧٥/١٠/٢٠ ٠
(٢٧) هـارتس ، ٧٦/١/٢٣ ــ دان مرغنيت ٠
(٢٨) دافار ، ٧٦/٣/٣٠ ٠
(٢٩) دافار ، ٧٦/٤/٢ ٠
(٣٠) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٦/١٦ ــ نسيم كويتي
(٣١) دافار ، ٧٦/٨/١ ٠
(٣٢) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٣) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٣/٢٢ ٠
(٣٤) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ــ ماتي شولان ٠
(٣٦) هارتس ، ٧٦/٤/٢ ــ يوئيل ماركوس
(٣٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ ، زئيف شيف ٠
(٣٨) هارتس ٧٦/٦/١١ ــ ماتي شولان
(٣٩) هارتس ، ٧٦/٨/٣ ٠
(٤٠) دافار ، ٧٦/٤/١٢ ٠
(٤١) عال همشمار ، ٧٦/٩/١٥ ــ مردخاي غور
(٤٢) هارتس ، ٧٦/٩/٥ ــ زئيفشيف
(٤٣) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(٤٤) دافار ، ٧٦/٩/٢٤ ٠
(٤٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٨/٢٥ ٠
(٤٦) عال همشمار ، ٧٦/٨/٢٧ ٠

(٤٧)دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠
(٤٨) دافار ، ٧٦/١٠/٢٢ ٠
- الفان هيفر ٠
(٥٠) «تايم (الاميركية) ، ٧٦/٩/١٣،
«لمتزر» (الالمانية) ٧٦/٨/١٢ ٠
(٥١) المصدر السابق ٠

(٥٢) « تايم » ، ٧٦/٩/١٣ ٠
(٥٤) عال همشمار ، ٧٦/٨/١٢ ٠
(٥٣) المصدر السابق ٠
(٥٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٩/٥ ٠
(٥٦) هارتس ، ٧٦/٩/١٠ ٠
(٥٧) دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠

الأفكار والتحالفات ، والمبادئ والمناورات

محجوب عمر

النضال الفلسطيني القومي ينمو عاما بعد عام ، ويتسع ليشمل اليوم العالم كله ..

وبينما يتركز الجهد المسلح العنيف من هذا النضال على ارض فلسطين المحتلة ، ويتناثر هنا وهناك احيانا ، فان الجهد السياسي والفكري لا يتوقف عند حدود الارض المحتلة وانما يتخطاها الى كل مكان حيث يعيش العرب ،وحيث ينتشرون في ارجاء الارض ، وحيث تسعى قوى الثورة الفلسطينية الى ضم كل الجهود المؤيدة لها ، حولها ، على اختلاف درجات هذا التأييد وتنوعه ودوافعه ..

وكلما تقدم النضال كلما ازددنا تعلما ، وازددنا حاجة الى التعلم . فنحن لا شك نؤثر بنضالنا فيما حولنا ، ولكننا ايضا لا بد نتأثر في نضالنا بما حولنا ..

فمع اتساع الجبهة العريضة العربية والعالمية التي تناصر قضية فلسطين وتشارك في نضالها بشكل او بآخر ، تطرح عشرات الاسئلة والقضايا السياسية الفكرية نفسها امام المناضلين ، يطرحها احيانا حلفاء مخلصون واحيانا اخرى وسطاء محايدون .

وتتعدد الاجتهادات للاجابة على الاسئلة المطروحة ، وتبرز الاختلافات في وجهات النظر ، ويصبح حيويا ان لا تؤدي هذه الاختلافات الى تفتيت الجهود ، بل على العكس تكون محاولة الوصول الى اجابة واضحة وصحيحة سبيلا

الى مزيد من توحيد الجهود ..

بذلك يزداد الفكر الثوري تعمقا ووضوحا ، كما تزداد الارادة الثورية وحدة وتصميما ..

★ ★

من بين عشرات القضايا والاسئلة الفكرية فان هذا المقال سيتوجه لسائلين منها فقط ، تتعلقان بما تتعرض له الافكار والمبادىء ، النشاط اليومي وبالذات فيما يخص التحالفات والمناورات .

فلا شك ان الاجتهاد التجريبي يحكم معظم التصرفات والاجراءات للعديد من قوى الثورة الفلسطينية على تلك الساحات والافاق الجديدة التي انفتحت امامنا بعد الانتصارات التي حققناها . فقد اتسعت رقعة التحالفات والصداقات لتشمل قوى معادية للصهيونية وان لم تكن معادية للكيان الصهيوني نفسه ، وقوى معادية للكيان الصهيوني وان لم تكن حتى الان مقتنعة بامكان الانتصار عليه ، وقوى اخرى واخرى ، نجح نضالنا المسلح المستمر المنتصر ان يفرض عليها وعلى جداول اعمالها قضية فلسطين ، وان يحاول كل منهم ، من موقع انتصاره لنا ، ان يطرح ما يراه من حلول وبرامج هي ، وان لم تكن في مستوى ما نطرح نحن ، كسب لنا لا شك ، فقد كانت كل هذه القوى تقريبا تناصر عدونا او تسلم بوجوده يأسا من جهودنا .

لقد انتصرنا اذن ، وفتحنا بابا واسعا للتحالف مع اوسع القوى المعارضة للاستعمار والمعارضة للعنصرية والمناضلة من اجل التحرر الوطني بل وتلك التي تأبى عليها برامجها الاصلاحية ان تقف موقف اللامبالاة من نضال جماهيري مسلح يشغل بال العالم ليل نهار الا وهو نضال الشعب العربي الفلسطيني من اجل استعادة وطنه فلسطين .

كل هذه القوى على اختلافها وتنوعها تحمل افكارا مختلفة عن بعضها وعنا ، ولها ايضا دوافع مختلفة عن بعضها وعن دوافعنا ، ولما كان واجبنا هو ان نعمق التحالف والصداقة مع هذه القوى كلها ، فان مسالة « الفكر والتحالفات » تطرح نفسها بشدة ، بل ان قوى كثيرة تجتهد الان اجتهاداتها الخاصة لحل ما يترتب على اختلاف الافكار من اختلاف في المواقف وتاثير ذلك على التحالف القائم بالفعل فقط او

بالاتفاق والفعل معا ٠

مسالة ثانية تطرح نفسها بشدة خصوصا بعد حرب اكتوبر / تشرين ١٩٧٣٠ تلك هي مسالة المناورة «بالمباديء» والتي وصلت الى درجة دفعت بعض القوى والتنظيمات لتغيير برامجها الاساسية واستبدالها ببرامج جديدة غامضة العبارات ، تخلو من الشعارات والمباديء الواضحة التي سبق لها ان تبنتها ٠ان مسالة « المباديء والمناورات » تبرز في ظل شيوع الاسلوب « البراجماتي » في عالم السياسة الدولية اساسا بحيث اصبحنا نسمع ونقرأ همسا وعلنا تبريرات التنازل عن المباديء باعتبارها «شطارة» او «تكتكة » والهجوم على المتمسكين بها باعتبارهم شعراء او مثاليين او غير عمليين ٠

هذه هي القضايا الفكرية التي سيحاول هذا المقال التعرض لها في محاولة لمزيد من الاتفاق او على الاقل مزيد من الوضوح ٠

* *

اولا : الفكر ٠٠٠ والتحالفات :

ان كلمة تحالف تعني في نفس الوقت اختلافا ٠٠٠

اذ لولا وجود قوى مختلفة المصالح والدوافع وبالتالي مختلفة الافكار لما تطلب الامر تحالفا بينها ضد عدو مشترك لها جميعا يهددها ويهدد مصالحها مجتمعة ٠

فلو كانت القوى المتعددة التي تشترك فقط في معاداة عدو واحد لو كانت هذه القوى ذات مصالح واحدة واصول ودوافع واحدة لما احتاجت الى « تحالف » لكي تنسق جهودها معا ضد هذا العدو بل توجهت الى وحدة اندماجية فيما بينها ٠

بمعنى اخر لو ان « المصلحة » واحدة ، والدافع واحد ، والظرف واحد لكل من هذه القوى المتحالفة ، لكان مستقبل تحالفها هو اندماج وانصهار فيما

★ تستخدم عبارة التحالف والتحالفات في هذا المقال بتحفظ بالنسبة للمعنى الشائع لها ٠ اذ من الضروري التفريق بينها وبين الصداقة والتقاء المصالح مؤقتا التي تعطي مدلولا ادق على مواقع علاقات الثورة مع البلدان والشعوب والقوى غير العربية ٠

بينها او انتصار لواحدة منها على غيرها بحيث ينتهي من يرفض هذه الوحدة وتنفض عنه الجماهير لتلتف حول « القوة » الانسب والاقدر والاكفأ والاسلم ممارسة ٠

الحديث الى هنا ، سهل ، وواضح ، ولا خلاف عليه ٠

ولكن المشكلة تبدأ عند وضع هذه الصيغة في التطبيق ، فكما ذكرنا يؤثر « الفكر » الداعي الى التحالف في افكار الحلفاء ويتاثر بها ايضا خلال العمل اليومي ٠ وينعكس هذا التاثير على افكار العاملين بها مع العاملين بافكار اخرى ، وتبرز اتجاهات تدعو الى مهادنة فكرية ، تتمشى مع التحالف السياسي والعملي ٠ وتكون هذه الدعوات ثغرة خطيرة في « افكار » المناضلين تؤدي الى عدم التشدد في جلاء ووضوح الافكار والتمييز بينها والحفاظ على تمايزها ٠ وينتهي هذا التمييع الى انحراف الخط السليم وفقدانه القدرة القيادية في التحالف ولان يصبح « ذيلا » لقوى اخرى هي الاقل منه تعبيرا عن المصلحة ، ونضالا من اجل الهدف ووضوحا في الطريق الى تحقيقه ٠٠

ولنضرب امثلة على ذلك ٠٠ ان قوى الثورة الفلسطينية مثلا تؤمن بتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني بحرب الشعب الطويلة الامد ٠ ولكن فكرة تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني هذه ، فكرة متقدمة على كثير من القوى السياسية الحليفة سواء في الساحة العربية او الساحة الدولية ٠ ان بعض القوى الحليفة يرى ـ لاسباب ودوافع مختلفة ـ « ان من الضروري ضمان امن دول وشعوب المنطقة وبالذات اسرائيل » وفي نفس الوقت يؤيد نضال الشعب الفلسطيني من اجل « استعادة حقوقه المشروعة » ٠ مثل هذه العبارات تصلح لان تكون حدا ادنى للاتفاق على مواقف سياسية معينة ضد العدو الصهيوني وضد الاستعمار الاميركي ولكنها بالتاكيد ما تزال شديدة التخلف عما يفكر به الثوار العرب ، وما وصلوا اليه بنضالهم ٠٠ لذلك يتوجب التحالف بين قوى الثورة الفلسطينية وبين مثل هذه القوى ولكن في نفس الوقت يجب ان تشدد قوى الثورة الفلسطينية من التاكيد على افكارها وبرامجها الكاملة دون اي تردد او تهاون ، والا فان الجماهير والمناضلين سيفقدون السلاح الاساسي في سبيل النصر عندما يفقدون وضوح الافكار والاهداف التي يضحون من اجلها ٠٠

ان تعميق وتاكيد الافكار الصحيحة داخل التنظيم الثوري ، وتوضيح ملاحظاتنا النقدية على افكار الحلفاء من شانه رفع القدرة على القتال والتضحية وايضا تاكيد مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلالية ٠ وهو موقف سيحترمه ولا شك الحليف ـ حتى وان اختلف معنا في افكارنا ـ كما سيساهم مع استمرار

وفي كل الاحوال فان « الحفاظ على اسلحتنا الفكرية قوية وحادة » وابـــداء الملاحظات النقدية الاخوية على افكار الحلفاء يتم ــ ويجب ان يتـــم ــ بـــروح **دعم وحدة الموقف العملي** اي دعم التحالف ، لا بروح العداء والانشقاق ٠٠

ولنضرب مثلا آخر ٠٠ نحن نؤمن بأن حرب الشعب طويلة الامد هـــي طريق تحرير فلسطين ٠٠ ولكن كثيرا من القوى ، وعلى الاخص العربية منها، لا تؤمن بهذا الطريق ، بل تخشاه لانها تخشى الجماهير المسلحة ، وهي تبني جيوشا نظامية ليست مهمتها الوحيدة الحرب ضد العدو الصهيوني ، وانما لها مهمة اخرى هي حماية النظام المعين ٠ وكثيرا ما يسخـر منظروا هذه النظم من فكرة حرب الشعب طويلة الامد ، ودائما ما تلجأ هذه النظم الى تجريد الجماهير من سلاحها ٠٠ ومع ذلك فطالما هناك جانب من كل ما يفعلون يتعلق بالحرب ضد العدو الصهيوني فان من مهامنا العمل على ان يتحقق هذا الجانب وان تقوم الجيوش العربية بهذه المهمة ٠ عندئذ تكون معنا في خندق واحد ضد العدو الصهيوني ٠ في هذه اللحظات بالذات ، عندما تخطف الطائـــرات والدبابـات والصواريخ واجهزة الاعلام الضخمة انظار الجماهير ، وتبدو الجيوش والحرب النظامية السريعة القصيرة مؤثرة وفعالة ، فان علينا ان نشدد من تأكيدنا على فكرة « حرب الشعب » وان نمارسها بشجاعة ، ونتمسك بها بثقة ، وان نذكـر قواعدنا وانصارنا وجماهيرنا دائما بان مثل هذه « الحرب النظامية الخاطفة » لا يمكن الا ان تكون «محدودة » ٠ وان الحرب التي لا حدود لها الا التحريـــر الكامل هي « حرب الشعب » وحدها ٠ ذلك دون ان نقلل من **ايجابيات** اشتـــراك الجيوش في الحرب ومن ايجابيات الحرب نفسها ٠

وهكذا ، فليس اعمق من التحالف القتالي في خندق واحد ، ومـــع ذلـــك فـــان التحالف القتالي لا يجب ان يؤدي الى التهاون ولو للحظة واحدة فيما يخص افكارنا الاساسية ٠ فستتوقف الحرب النظامية وستستمر حرب الشعب فـــان تهاونا في افكارنا فكاننا نتهاون في اهدافنا ٠٠

ان اي تحالف عملي ، او حتى تهادن تفرضه الظروف ، لا يعني ولا يجب ان يؤدي الى ما يمكن ان يسمى « **بالتحالف الفكري** » وهو امر مستحيل ولا الى **التهادن الفكري وهو الاستسلام بعينه** ٠

★ ★

ثانيا : المبادىء والمناورات :

الثورة حرب ، وللحرب اسلحتها · واهم اسلحة الحرب الثـــورة هـــي المبادىء والشعارات العامة التي يحارب من اجلها الثوار ·· وكلما كـــان تحديد هذه المبادىء والشعارات العامة صحيحا كلما كانت اقوى واعضى · والمبدأ الصحيح يفوق في قوته كل سلاح ، وكل قوة العدو ، ذلك ان قوة العدو انما تأتي من تفتت صفوف الجماهير المضطهدة ، والمبدأ الصحيح هو الـــذي يوحدها لتصبح اقوى منه وتنتصر ·· فالمبدأ الصحيح هو المعبر عن القضيـــة العادلة بلا شك ، ولكن ذلك لا يتم في لحظة ، وانما هو معركة طويلة تتم خلال تعبئة طاقات الجماهير وتوحيدها · وتوسيع نطاق التحالفات وتنسيق جهودها حول الثورة ، وتحييد قوى كثيرة عند لحظة انطلاق الثورة متعاطفـــة او ذات مصالح متشابكة مع العدو · يتم شق صفوف العدو لنفسه بحيث تنقلب الموازين في النهاية لصالح قوى الثورة ، ويقف العدو وحيدا معزولا وضعيـــفا ·· فيهـزم ·

بكلمات اخرى ان المبدأ الصحيح سيمكن الثوار من توسيع وتوحيد جهود الاصدقاء ، وشق واضعاف صفوف الاعداء ··

وفي البداية ، عند الانطلاق ، يكون الثوار قلة ، ولكن ايمانهـــم بالمبـــدأ الصحيح الذي يحملونه يجعل لهم قوة تتحمل ما يواجههم به العدو من محاولات ابادة ، فالعدو في بادىء الامر يرفض حتى مجرد الاقرار بان ثمة ثوارا يطالبون بحق الشعب ··

ولكن مع نمو النضال وتطوره واتساعه يلجأ العدو ـ مجبرا بطبيعـــة الحال ـ الى استخدام اساليب متنوعة لمواجهة الثورة النامية ، فعندما تنتشـــر المبادىء والشعارات العامة بين الناس ، وتكتسب قوة فعـــالة بتحركهم وتـــزداد صفوف الثوار عددا وعدة ، يلجأ العدو بسرعة الى محاولة نزع هذا السـلاح القوي من ايدي الجماهير ،اي الى محاولة اسقاط الشعـــار العـــام الصحيـــح ، واضعاف ثقة الجماهير في امكان تحقيقه او حتى في صحته ·· وفي نفس الوقت يلجأ العدو للمناورة كي يتخلى الثوار عن مبادئهم وشعاراتهم العامـــة ملوحا بتنازلات مختلفة ان هم تخلوا عن هذه الشعارات ··

والذي ، يجعل الامر معقدا وصعبا امام الثوار هـــو ان العـــدو عندما يلجأ الى فرض هذه الوسائل فانه ليس فقط يثير بين صفوف قوى الثورة نفسها جدالا حول امكان قبول عروضه،وانما هو ايضا يسعى لعزلها عن تلك القوى التي تحالف الثوار

ولكنها صاحبة مصالح مختلفة عنها ، او التي لا تتمتع بالنفس الطويل في الحرب الطويلة او التي كانت في البدء تتعاطف مع العدو ثم غير النضال ونموه مواقفها · اي باختصار بعض القوى التي لم تزل بعد بحكم مصالحها، لا تتفق مع الثوار حول كل المبادىء والشعارات العامة ، وان ايدتهم في بعضها ·· والعدو في كل الاحوال يسعى بمحاولاته هذه لوقف الحرب « كشرط من شروطه لبدء المساومة » ·

في مثل هذه الاحوال تعلو اصوات من داخل قوى الثورة تطالب بمناقشة « عروض » العدو ، وربما كانت عروض من اصدقاء في نفس الوقت ، مدفوعة الى ذلك بدوافع مختلفة لا مجال لنقاشها ، ولكنها تبرر موقفها بضرورة « المناورة » ، وبالهجوم على « الجامدين والمتطرفين » ·· الخ ·

وهكذا فان وقع الثوار في الفخ تخلوا عن شعاراتهم الصحيحة الواضحة واوقفوا في نفس الوقت حربهم ·· فانهم سيفقدون على الفور قوتهم الا وهي الجماهير التي التفت حول شعاراتهم ونضالاتهم ··

ان الاصوات التي تدعو من داخل « التحالف الثوري » الى المناورة بالمبادىء تغلف حججها على الدوام بان « السياسة هي فن الممكن » ، وان «المناورة» ليست وسيلة مرفوضة بل هي ضرورية ، وان موازين القوى ليست في صالحنا مثلا ·· وهكذا ··

ولنلاحظ ان هذه الحجج جميعا تنطلق من يأس من امكان تغيير الواقع، ومن قصر نفس لا يمكن لاصحابه تحمل الطريق الطويل ومشاقه ، والاخطر من ذلك ان مثل هذه الدعوات تؤكد عدم ايمان الداعين بها بحتمية النصر النهائي على العدو اي عدم ايمانهم بالمبادىء والشعارات العامة التي يعلنون انهم يؤيدونها ··

فلئن كانت « السياسة هي فن الممكن » في العمل اليومي ، فان الثورة هي فن جعل « الضروري ممكنا » ·

ولئن كانت « المناورة » هي فن ضروري للمحارب لكي يحافظ على قواه ويبيد العدو ، فان المناورة التي تتنازل عن المبادىء لن تبقى محاربة ولن تهاجم العدو فضلا عن ابادته ··

ولئن كانت « موازين القوى » في لحظة ما ليست في صالح الثورة فان المناورة بالتنازل عن اهم اسلحة الثورة يعني تأكيد وترجيح الميزان ضد الثورة ،بتقوية اعدائها وخصومها وبخسارة جماهيرها ، وليس العكس ·

وحتى لو كان التنازل المقترح مطلوبا من اصدقاء او حلفاء ، وهو امـــر منطقي طالما انهم ليسوا على اي حال محور الثورة والحرب ، ولهم ظروفهـم ودوافعهم الخاصة ، فان المثاورة بالمبادىء والاهداف العامة لا يمكن ان تؤدي بحال من الاحوال الى توحيد جهود هؤلاء الاصدقاء والحلفاء حول الثورة ولا الى تطوير مواقفهم منها • بل على العكس ستؤدي الـــى تمزيق وتشتيت هـــذه الجهود والقوى • قد نكسب واحدة منهـــا ، ولكن من المؤكد اننا سنخسر الكثيرين منهم ايضا ••

هناك مثل بارز من واقعنا ••

مع تقدم وانتصار الحرب الفلسطينية الثورية ، وبعد حرب اكتوبر/تشرين على وجه التحديد ، اتسعت رقعة الاصدقاء والحلفاء والانصار • وتغيرت بعض مواقف القوى السياسية الموجودة داخل التجمع الصهيوني ، بحيث اصبحت تعترف علنا بوجود «الشعب الفلسطيني» بل وبعضها نادى «بحق الشعب الفلسطيني» في دولة مستقلة مع استمرار الكيان الصهيوني « اسرائيل » •

وطبيعي ان هذا الانتقال من مواقع « التجاهل الكلي » لقضية فلسطيـن وشعبها ، واحيانـــا العداء ايضا ، الى مواقع اخرى قريبة او مؤيـدة للثـــورة الفلسطينية ، هذا الانتقال يتم ببطء ولكن في تزايد • ولا يمكن ان نتوقع انه يتطابق معنا سياسيا وفكريا فجاة وانما هي رفقة طويلة على طريق النضال وصراع طويل من اجل تقوية هـــذه الوحـــدة •

على هذا الطريق ، طريق تدعيم وحدة المواقف مع كل القوى التي تؤيدنـــا والتي يمكن ان تتحول الى تاييدنا نواجه « اقتراحات » يقدمها اصحابها احيانا بدافع من الرغبة في « حل المشكلة » واحيانا اخرى بدافـــع من « محاولـــة » « جذبنا الى مواقفهم » وهم يغلفون اقتراحاتهم على الدوام « بالعمليـــة » و « الواقعية » و « اغتنام الفرص » و « المرحلية » الى اخر المغريـــات والمبررات التي يسوقها اصحاب هذه الاقتراحات ••

يقول دافيد شاحام في ندوة عقدتهـا مجلة اسرائيل / فلسطين I. P. في النصف الاخير من شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ وشارك فيها متتياهو بيليد ويوري افنيري وسمحا فلابان واخرون ، يقول :

« ان الحل الوحيد الذي اراه هو ان يستمر كلا الجانبين في التمسك بسياساته وادعاءاته القديمة • ان يعتبر كل منهما انه صاحب الحق في كل البلاد ، يمكنهما

الشعور بانهما اصحاب حق الوجود التاريخي في هذا البلد . الاسرائيليون لارض اسرائيل والفلسطينيون لفلسطين . ولكن وبغرض التعايش يجب عليهما الموافقة على حل براجماتي هو التقسيم الذي يتنازل فيه كل منهما في تحقيق دعواه بكل البلاد وذلك لحقبة معينة من التاريخ » .

ان ما يقترحه دافيد شاحام كحل الان ، مقبول ومتخذ عمليا من اطراف عديدة وافقت على التقسيم في ١٩٤٧ ، او اعترفت « بالكيان الصهيوني » بعد ذلك ... ومعظم هذه الاطراف تسعى الان الى طرح هذا الحل الذي هو باختصار «الموافقة على تقسيم فلسطين » بين الشعب الفلسطيني وبين الغزاة المستوطنين الذين يسمونهم احيانا « الشعب اليهودي » واحيانا « الشعب الاسرائيلي » .

الجديد في كلمات شاحام انه يقر علنا بانه « حل براجماتي » ولا يتردد في قولها ، ولا يزين اقتراحه بانه سيترك للمستقبل ان تقوم « دولة واحدة متعددة القوميات » او « ثنائية القومية » كما يقول اخرون ..

فهل يمكن فعلا القبول باقتراح يطالب بالاعتراف بالكيان الصهيوني بشكل او باخر بدعوى « العملية » او « الواقعية » او « البرجماتية » او اغتنام الفرص او حتى المرحلية ؟؟ سيكون ذلك بمثابة المناورة بالمبادىء وهو كاللعب بالنار . لان مجرد الاتجاه نحو الاعتراف « بحق » العدو الصهيوني « في الوجود » على ارض فلسطين لن يعني فقط تخلي عن الارض له ولكنه في الحقيقة يعني التخلي عن الهوية الفلسطينية . كما ان من ينكر على الفلسطيني ،اي فلسطيني حقه في العودة الى بيته وقريته ووطنه ، لن يكون من حقه ان يمثل هذا الفلسطيني في اي مكان . كذلك فان من ينكر على الفلسطيني ،اي فلسطيني، حقه في الاستمرار بالكفاح المسلح حتى يتم تحرير وطنه ، لا يمكن باي حال ان يمثل هذا الفلسطيني .. حتى بالمقياس «البراجماتي » الذي يبررون به اقتراحاتهم . كيف يمكن ان يتولى طرف يقر « بالكيان الصهيوني » ويسلم بوقف القتال ، ان يتولى الحديث باسم من يصر على تحرير بيته ووطنه بالسلاح ؟؟

كل الذي يمكن ان يحدث لمن يتنازل ولو شكليا عن المبادىء ، بحجة المناورة العملية والواقعية انه هو الذي سيخسر الجماهير وستنفض من حوله وتدينه، وهكذا يكون قد خسر القوة الاولى والسلاح الحقيقي الذي يمكن ان يفيده حتى في « مساوماته» ان اراد المساومة ..

وقد يكون مفهوما من بعض الاصدقاء والقوى السياسية القريبة « وبالاخص القوى المحايدة » ان تقترح على الفلسطينيين الاعتراف « باسرائيل » كواقع ، وكحل للمشكلة ، فان لها على اي حال دوافعها الخاصة لذلك ، ولكن الامر غير المقبول هو ان تنزلق قوى عربية الى هذا المنزلق بدعـوى « شيء احسن مـن لا شيء » ، وان « المناورة » قد تنقذنا من « مؤامرات التصفية » ، وان اخفـاء شعار القضاء على الكيان الصهيوني من شانه ان يكسبنا المزيد من الاصدقـاء الاقويـاء ·

ان منطق « شيء احسن من لا شيء » يكشف عن عدم الثقة في النصر ، اي عدم الثقة بامكان تحرير كل فلسطين وبالتالي فانه يبرر اخـذ جزء وتسليم البـاقي ·

اما منطق « المناورة تنقذنا من التصفية » فانه يكشف عن عدم الايمان بالجماهير ولا احترامها · فالاعتراف بحق العدو في الوجود يقدم موضوعيا ثقة الشعب الفلسطيني بهم وقد لا يكسبهم حتى رضى الذين يطالبونهم بالاعتراف، اي يصفيهم فعـلا ··

اما قضية « اخفاء » الشعار ، اي انكاره علنا ، مع الوعد بابقائه « سرا » فانه يثير التساؤلات : هل يمكن ان يؤدي بنا الخوف الى اخفـاء اهدافنا وشعاراتنا ؟ وهل يمكن ان يؤدي اخفاء هذه الاهـداف الى تقويتنا ام الـى اضعافنا ؟ ثم لمن سيبقى الشعار « سرا » طالما اننا ننكره علنا اي ننكره امـام جماهيرنا وجماهير العالم اجمع ؟··

ان المناورة «بالمبادىء» حتى ولو بحجة « المرحلية » تعـني ان يتنـازل اصحابها عن اهم واول سلاح في ايديهم ، فلولا المبادىء الواضحة الصحيحة لما التفت الجماهير حول الثوار ، ولما ميزت بينهم وبين « الاصلاحيين » او « الانتهازيين » او « الانقلابين » او المساومين بمستقبلها وقضيتها ··

وفي قضية فلسطين فان مبدأين هامين لا يمكن ابدا اخفاؤهما لا على سبيل المناورة ، ولا على سبيل «المرحلية» ، ولا على سبيل «الواقعية» و« العـقلانيـة »، هذان هما مبدأ ان كل فلسطين هي للشعب العربي الفلسطيني من حقه العـودة اليها وهي ملك له وذلك يساوي عدم الاقرار او الاعتراف باي شكل بالكيـان الصهيوني المسمى باسرائيل ، ومبدأ حق هذا الشعب العربي فـي النضـال المسلح لتحرير فلسطين وذلك يعني عدم التسليم ابدا بامكـان التخلـي عن الكفاح المسلح سبيلا وحيدا للتحرير ·

واي مساس بهذين المبدأين ، واي انكار لهما علنا او سرا ، لن يعني نهاية الثورة الفلسطينية ، وانما سيعني نهاية المفكرين لمبادئها ..

والخلاصة ..

انه كلما اتسعت دائرة الحلفاء والاصدقاء حولنا ، كلما ازدادت حاجتنا الى حماية افكارنا وتوضيحها والتمسك بها لنكون بحق قادرين على تحمل مسؤوليتنا كمحور مركزي لهذه التحالفات .

وكلما ازدادت حولنا الاعلام التي ترفع شعارات ومبادىء قريبة من شعاراتنا ومبادئنا ، كلما توجب علينا ان نرفع نحن عاليا مبادئنا بحيث تتمكن الجماهير من رؤيتها واضحة لا غموض فيها ، لا نتنازل عنها ولا نساوم عليها مهما كانت المغريات .

فالفكر الصحيح المحدد والواضح هو السلاح الاهم في تحقيق النصر ، والمبادىء والشعارات العامة هي التي تعطينا هويتنا النضالية والقومية في وجه مؤامرة الاذابة والتصفية ... لنمسك بهما بقوة ، ولنكن مرنين بعد ذلك الى اقصى الحدود .

التعبير في الحرب الأهلية

إلياس خوري

ليست الحرب الاهلية مجرد لحظة انفجار التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي اشعلت هذا اللهب الوطني . بل هي حركة الانفجار في جميع لحظاته . الحرب الاهلية هي مسافة زمن التناقضات . حيز من التوتر والعلاقات والتغيير . واذا كانت السياسة تحكم كل حرب فهي تحكمها بوصفها محددا، غير ان السياسة كبنية ليست في الحرب الاهلية سوى الغطاء الذي يكشف الداخلي العميق ويحدد وجهته . والداخلي هذا، هو الذي ينفجر مبيدا تشكيل نفسه في لحظات اللاتوازن المهددة بالانهيار . ان الطابع السياسي الغالب الذي ظهر داخل المسار العام للحرب ، وداخل شبكة الاشارات التي انتجتها وسائل الاعلام ، لعب ولا يزال يلعب دور الخلفية التي تقف على قاعدتها مجموعة لا تحصى من التحركات والصدامات التي ترمي احشاء العلاقات الاجتماعية الى الخارج ، حيث يختل النظام القديم ، وتتمرد الدلالات لتشير الى نفسها (علاقاتها) ولترسم لوحة الحرب الاهلية .

الحرب الاهلية هي تعبير عن المجتمع بكل تناقضاته . انها بشكل ادق ، تعبير عن حركة التناقضات التي في المجتمع بعد انخلعت قفازها وتركت الاشكال المعقدة التي تحجبها ، من اجل ان تعيد النظر في علاقات الاشياء وفي سلم القيم الايديولوجية والسياسية التي فيها . الحرب كل حرب هي لحظة اختبار تاريخية . فالحرب العامة تستطيع ان تعبر عن الحركة العامة في مجتمع ما ، وبنيته الطبقية ودور المؤسسة السياسية وصلاحياتها ولحظات تعرضها للانهيار . اما الحرب الاهلية فهي تبدأ من هذه اللحظة . من لحظة الانهياروتكشف بالتالي التركيبة الاجتماعية فارضة على لحظاتها باسرها ان تتركب داخل الانهيار وان تمارس بشكل فعلي . ربما هذا هو على مستوى السياق التاريخي احد اسباب كون الحروب الاهلية تاتي في نهاية الحرب العامة ـ ثورة اكتوبر ـ او داخل مسار الحروب الوطنية ـ الصين ـ فيتنام ـ فالحرب الاهلية تصبح ممكنة او اكثر سهولة في سياق الحرب الشاملة ، حيث تتعرض البنية القمعية للاهتزاز ، ويدخل

الصراع باشكال مختلفة داخل البنية السياسية (سلطة ، جيش ، بوليس) • هكذا يصبح ممكنا امام جميع اشكال الممارسة الاجتماعية المقموعـــــة خلف ادوات القمع هذه بالانفجار • ويصبح ممكنا للطبقات الثورية تدمير ادوات المجتمع القديم وقيمه لكي تفرض ادوات نضالها وقيمها الجديدة •

الحرب الاهلية هي بهذا المعنى مختبر تاريخي اجتماعي • اداة كشف وتغيير توحد مبدئيا وبشكل عجيب بين معـرفة العالم وتغييره • توحد النظرية بالممارسة بشكل تبدو فيه الاشياء وكأنها اكتسبت وحدتها « الطبيعية » • المختبر التاريخي الاجتماعي هذا هو مختبر صراعي • هو سياق يكشف وبشكل عيني ومباشـر كون الصراع هو القانون العام الذي يحكم الاشياء والعلاقات الاجتماعية ، وما فترات السكينة والتوازن الا استمرار الصراع باشكال اخرى • التوازن والسكينة هو الاستثنائي اما الصراع فهو العام ، ومـا التوازن الا احد اشكاله المؤقتـة • هذه الحقيقة التي تبدو بديهية لا تظهر حقيقتها كممارسة اجتماعية الا لحظـة وصول الصراع الى احدى ذراه • هكذا تعيد الحرب الاهلية تفسير لحظـــات الصراع في فترة التوازن ، وتقوم بنقلها الى مستوى ارفع • لحظة الصراع تحمل اذا استعادة لشكل من اشكال حركتها • لكنها ليست استعادة جامدة ، بل هـــي استعادة في حيز يتحرك ، اي لا تكتفي باعادة تفسير الماضي بل تضيف اليـــه الجديد الراهن المكثف وتعيد بذلك تنظيم دلالات الاشياء ضمن قانـون الصـراع والتناقض العام • هذه العلاقة المعقدة هي جوهر الجدل • كشف تناقضات لحظات التوازن داخل تناقضات اللاتوازن • ضمن هذه العملية يتوحد التفسير بالتغييـر والنظرية بالممارسة الفعلية •

الجديد في انفجار التناقضات هو الانتقال بالتناقض الى مستوى ارفع ، والدخول في سياق حركة جديدة تستطيع ان تضيف الى اللحظة الراهنة احتمالها في التحول • بهذا المعنى لا تعود الحرب الاهلية حدثا الا بوصفها تكثيفا لتاريخ هذا الاحتمال ، حيث يتضمن الماضي ليس بوصفه الماضي ، بل بوصفه امكانية تدمير وتجاوز •

تحمل الحرب الاهلية في لبنان مجموعة من السمات :

فهي اولا حرب اهلية تأتي في سياق الحرب الوطنية ضد العدو الصهيوني • وتأخذ خصوصيتها من واقع التجزئة العربية ، ومن ظرف التضارب بين رؤيـة الانظمة ورؤية المقاومة والحركة الشعبية لموضوعـة الصراع مع العدو • من هنا كان الطرف العربي الفلسطيني ـ السوري ـ المصري ... هو الطرف الرئيسي في التناقض الذي فجر الحرب الاهلية • فالتدخل العربي في الحرب لم يكن ظاهرة فيها ، بل كان ظاهرتها الرئيسية •

واذا كان الطرف الاخر في التناقض – القوى الانعزالية – استطـــاع ان يلعب طويلا على حبال التناقضات العربية ، فانـه وعلى المستوى التاريخي سقط في الواقع العربي ولم يعد يستطيع التحرك بدونه • ان هذا لا يعني مطلقا ان الصراعات قد توقفت بعد دخول القوات العربية ، بل يعني ان حيـز المناورة قد ضاق حول الطرف الانعزالي ، الى درجة لم يعد يستطيع معها الافلات مـــن الحتمية التاريخية . كما يعـني ان المقاومة والحركة الشعبية وان ضاق اطـــار مناورتهما وتحركهما ، يستطيعـان البقاء في حلبة الصراع تاريخيا ، طالـا بقي الصراع بين الامة العربية والامبريالية •

الحرب الاهلية ، تاتي اذن ضمن سياق الحرب الوطنية ، تفجر خصوصية واقع المشرق ضمن عمومية الصراع العربي ضد العدو الصهيوني واشكالية هـذا الصراع •

وهي تاتي ثانيا في سياق صراع داخلي على السلطة • فالصراع الداخلي مستمر منذ انشاء دولة لبنان الكبير •وقانونه العام يبقى ضمن دائـرة الصراع العام العربي – الامبريالي على الاستقلال الوطني • يمكننا ان نرى في الحـرب الاهلية ثلاثة اطراف رئيسية تتنازع على السلطة :

– الكمبردور الماروني الذي استطاع من خلال غلبته في السلطة ومن خلال نمو رأسمالية الوساطة ، ان يكتل عبر تجمعات واحزاب سياسية وشبه دينية • الكتائب ، الرهبان ،الاحرار ، التنظيم ، حراس الارز • قاعـدة عريضة مـن الجماهير المارونية خلف برنامج تسلطه عـلى لبنان ، وعـزلـه عن محيطه العربي وجعله حليفا دائما للعـدو الاميركي •

– البرجوازية الاسلامية : بكل اطرافها وطوائفها ، التي تنتظر مرة اخـــرى و٨٠ في٥٨ الفرصة لاقتناص السلطة لتحجيم الغلبة المارونيـــة ، في سبيـــل مشاركة اكبر في مغانم الوساطة اللبنانية وعلى قاعدة ايجاد روابط اعمق بيـن لبنان وبقية اجزاء الامة العربية •

– الحركة الشعبية التي تضم خليطا من القوى الطبقية – برجوازية وسطـــى وصغيرة غير مارونية بشكل اساسي – والقوى الاجتماعية – محلية :جفبلاط ، عربية – محلية : المرابطون تطرح برنامجا تحديثيا سلطويا للبنـــان المستقبـل • وتتحالف بشكل رئيسي مع الثورة الفلسطينية باعتبارها اكثر الاطراف العربية مصلحة في الذهاب بعيدا في لعبة الصراع في لبنان •

يؤدي هذا التقسيم العام الى وجود مسألتين مترادفتين :

ـ ضمور الجانب الحلي امام الجانب العربي طالما لا تسمح موازين القـوى الدولية للقوى الانعزالية بالاتكال مرة اخرى على الاسطول الاميركي السادس.
ـ بروز سياسات مترجرجة من التحالفات ، او بشكل اصح عدم وجـود قاعدة ثابتة لاقامة تحالفات حول برنامج للخلاص الوطني يضم المقاومة والحركة الشعبية . يعود هذا اللاثبات الى عاملين اساسيين :

١ ـ كون الاطراف الداخلية ـ فلسطينيا ولبنانيا ـ لا تشكل عـلى المستـوى الموضوعي قاعدة ثابتة للانطلاق . فهي محصلة قوى ومحصلة موازين . انمـا الثوري الخاص فيها ولا سيما في الطرف الفلسطيني هي في كونها محصلـة ديناميكية وتحمل وجهة محددة : القتال ضد العدو الصهيوني .

ب ـ غياب الطرف العربي الذي يستطيـع ان يقود جبهة وطنية راسخـة . فوحدها الطبقة العاملة بحزبها السياسي ، هي القادرة تاريخيا على القيام بهـذا الدور الوطني .

ان الصراع الداخلي على السلطة هو صراع لا يستطيع في شروط الحرب الاهلية ان يتجاوز سقف الصراع ـ التوازن العام في المنطقة العربية . وهو لذلك يصبح انعكاسا لهـذا الصراع ومؤشرا لاحتمالات حركته العامة ، وربما بشيـرا بولادة قوى راديكالية تعلمها ممارسة الحرب دروس بناء القوى التي تستطيـع قلب المعادلة رأسا على عقب . لقد استطاع شعار « عروبة لبنان » ان يترسـخ رغم كل تعرجات الحرب ورغم ان هزيمة القوى الانعزالية كانت ضمن المساومة والشروط الاميركية .

لقد عبرت هذه الاطراف مجتمعة عن نفسها ضمن القتال في سبيـل فـرض موازين قوى جديدة . لكن الملاحظ ان القتال انحصر في النهاية بثلاثة اطراف. المقاومة ـ الحركة الوطنية ، القوى الانعـزالية ، الجيش السوري . وفي النهاية وبعد سقوط تل الزعتر انحصر القتال بين القوتين الرئيسيتين اللتين تتنازعـان، الجيش السوري والمقاومة . وهذا يؤكد جانب غلبة العامل العربي وغلبة كون الحرب هي جزء من اشكالية المرحلة الوطنية على مستوى المشرق .

وهي ثالثا ليست الحرب الاهلية الاولى . فتاريخ « لبنان » الحديـث والمعاصر هـو اساسا تاريـخ الصـراع حـول « المسألة الشرقيـة » . وهذا

ينعكس ضمن نمو الرأسمالية الوسيطة في حركة صراعات داخلية وحروب اهلية، تمثلت في ثلاث حروب :

حرب ١٨٦٠ التي كانت اساسا في الجبل وامتدت الى بعض المدن : بيروت ودمشق . وتمثلت في حرب طائفية طاحنة ومذابح وهجرات قسرية . وانتهت بتدخل الجيش الفرنسي ، ووضع يد الدول الكبرى على لبنان عبر جعله «متصرفية» يحكمها مسيحي عثماني يعينه الباب العالي بناء على قرار من مندوبي الدول الاوروبية .

حرب ١٩٥٨ التي كانت اساسا في المدن وشملت الجبل بشكل جزئي . وكانت جزءا من صراع المد القومي بقيادة عبدالناصر مع الامبريالية . وانتهت بتدخل الجيش الاميركي ، وتغيير في معادلتين داخليتين : رئاسة الجمهورية التي بقيت للموارنة انما اصبح الرئيس يعين بقرار اميركي بعد موافقة مصر-(وهذه هي المرة الاولى التي يتدخل فيها الطرف العربي في اختيار رئيس البلاد منذ انشاء دولة لبنان الكبير) . وتوزيع اكثر عدالة للسلطة بين الطوائف مع احتفاظ الموارنة بغلبتهم ومع تعديل في السياسة الخارجية يراعي الوضع العربي .

حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ . التي تمثلت في تواجد ثوري فلسطيني كثيف ومسلح، وفي ازدياد المدى العربي العام وعدم استعداده في المقابل للذهاب بعيدا في الصراع كما تريد المقاومة ، وبرز كذلك نمو ملحوظ للقوى الفاشستية المارونية ولقدرتها على الاستقطاب . لقد بدأ الصدام في المدن واستد الى الجبال وتميز بشراسة خاصة ـ قصف عشوائي ، تهجير كثيف ، تدمير ، الخ ... كما دخل فيه الجيش السوري ثم قوات الردع العربية . ولم تحسم نتائج الحرب ، انما المؤكد ان القوى العربية استطاعت اخذ لبنان دون ان يعني هذا هزيمة ساحقة ونهائية للقوى الفاشية .

ان المقارنة المتسرعة بين الحروب الثلاث ، تستطيع ان تكتشف مقولة ان التاريخ « يكرر » نفسه ، لكنها تنسى انه في كل حرب كانت النتيجة مختلفة عن الحروب التي سبقتها نتيجة التحولات في البنية محليا وعربيا ودوليا وفي ظرف الصراع .كما ان اشكالية كل حرب وممارستها الفعلية تتغير بتغير الظروف والبنى .

هذه السمات العامة الثلاث التي اشرنا اليها ، لا تكفي . انها مجرد مقدمة صغيرة لوضع الحرب في اطارها الواقعي . لكن الاساسي الذي يمكن الخروج منه يتمثل في مؤشرين :

المؤشر الاول هو ان التاريخ لا يتكرر ، فالماضي الذي يعود ليبرز على السطح في كل حرب اهلية في لبنان هو « المسالة الشرقية » .

اما اشكالية الحرب ، ومسارها ونتائجها فهي تفضح لتطور الواقع العام . وهي في الوقت نفسه احدى الدلالات الممكنة لتطور وتغير هذا الوضع .

المؤشر الثاني هو ان الحرب الاهلية لا يمكن ان تفهم فقط من خلال مسارها العام . فهذا المسار العام هو محصلة مجموعة من التصرفات والتحركات الاجتماعية العنيفة التي تعكس بستوى تطور المسار العام وفي الوقت نفسه تحكمه . اي ان الجدليين المسالتين في لحظات الانفجار يصبح فعلا يوميا .

تقودنا هذه المقدمة الى محاولة تسجيل مجموعة من الملاحظات التي قد تبدو ناقصة وهي ناقصة بالفعل ، نحاول الان ان نستكشف اشكالية التعبير ومداخله المختلفة . والتعبير هنا ، هو الواقع وحركته . اي اننا نحاول ان ننطلق من لحظة رفع الغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية الذي تقدمه الحرب ، لندرس الواقع في حركته ، والعلاقات الاجتماعية في لحظات توترها . لذلك فلن نناقش التعبير بمعناه المتعارف عليه . لن نتوقف عند التعبير الثقافي المحترف ، الذي هو تحديدا جزء من الايديولوجية العامة التي ينتجها مثقفون . فهذا التعبير اثبت خلال الحرب عن عدم فعاليته . المسالة ليست في السؤال البديهي اين كانت الثقافة خلال الحرب ، بل ما هي علاقة الثقافة بالحرب . والمسافة شاسعة بين السؤالين . يفترض اولهما ان للثقافة دورا ويناقش مدى تاديتها له . ويحاكم الثاني الثقافة بذاتها ليحاول فهم علاقتها غير المباشرة بالحرب . لقد اثبتت الثقافة « السائدة » ، ان لا علاقة لها بما جرى ويجري ، انها مجرد اداة حجب ثانوية ، تحاول ان تغطي التجارة بالقيم التحديثية . وعند سقوط القيم التحديثية والليبرالية امام الواقع سقطت كاي شيء يسقط . لذلك لا نتعجب ونحن نرى السريالي يتحول الى فاشي او شبه فاشي ، والتجريبي المجدد يتحول الى منظر انعزالي والمسرحي الطليعي يتحول الى مذيع يصرخ في ممثيت . فالقشور ليست في النهاية سوى قشور . هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجب اصواتا ارتفعت من مجموعة الصحفيين الشباب الى بعض الاصوات الشعرية ، وبعض الكتابات التي حاولت ان تكون جزءا من الحركة الشعبية .

لن نناقش اذن التعبير « الثقافي » المحترف . سوف نحاول ان نسجل مجموعة من الملاحظات الاولية عن الحركة العامة للحرب . فالحرب هي تعبير .

وحركتها العامة هي تعبير عن الواقع · لكننا لن نصل الى اكثر من تسجيل مجموعة من الملاحظات الاولية · فالحرب تحتاج الى الكثير من الجهد كي يكتب تاريخها الحقيقي ، تاريخ الذين صنعوها بكل لحظات النصر والهزيمة التي تخللتها ·

★ ★

اشكالية الحرب

الحرب الاهلية هي انقسام السكان الى فئات تتقاتل في سبيل فرض هدفها السياسي · غير ان هذا القتال لا يجري في فراغ · يجري ضمن قوانين عامة تفرزها البنية ، وضمن الحيز الجغرافي الذي يقدمه اطار الحرب ـ المدينة او الريف · وفي سياق اشكالية عامة لانقسام السكان · طبقية ،طائفية ، عنصرية· او مزيج من هذه العوامل المختلفة ·

السمة البارزة هي ان هذه الحرب كانت حرب المدينة · وحتى الانتقال الى الجبل بمحدوديته ابقى هذه الحرب بوصفها اساسا حرب المدينة ·لذلك اخذت الساحات والشوارع والتجمعات السكانية حجما اساسيا في الحرب ·

اتساع المكان · بيروت قبل الحرب · بقيت هي نفسها جغرافيا · لكن الاساسي الذي يتغير هو دلالة المكان · فلقد تعرض المكان الى الاتساع والضيق بالنسبة الى حركته العامة ضمن حركة الحرب · **المخيم يتسع** · فبعد ان كان مجرد شبه « غيتو » معزول خلال فترة سيطرة البوليس عليه ، طرد البوليس عام ٦٩ ، امتد بعدها الى الجنوب · ثم عام ٧٥ ـ ٧٦ ، اصبح المخيم هو المدينة · انتقلت قواه البشرية الى الخارج ، دافعت عن المناطق الوطنية ، حررت مناطق يسيطر عليها الطرف الانعزالي الفاشي · اتسع المخيم · بانتقال قواه العسكرية الى المدن ، نقل نمط علاقاته وبنيته الاجتماعية والسياسية · انغرس في الواقع الجديد ، تأثر به وفرض عليه نسقه بشكل ما · **المناطق الهامشية تتسع والمراكز التجارية تضيق** ، رمل الظريف ـ الزيدانية يبتلع الحمرا ، الطريق الجديدة تبتلع كورنيش المزرعة، طرابلس الداخلية تبتلع طرابلس التجارية · انقلبت الآية رأسا على عقب · الشوارع الرئيسية تضيق لمصلحة الشوارع الخلفية · المركز التجاري يتحول من نقطة استقطاب ونمو وقمع الى نقطة يمارس عليها القمع وتستقطب · البنايات العالية يحتلها المسلحون والفقراء · سوق سرسق يجتاح الحمرا والروشة · الوسط التجاري يصبح مسرح صراع مسلح عنيف يؤدي الى الغائه بشكل كامل · ان هذا الاتساع والضيق هو نتيجة حتمية

لانقلاب المقاييس · سقطت السلطة السابقة وسقطت الحرمات السابقة · المركز يقبع الطرف · المدينة تلتحق جزئيا بالخيم ، والتجارة لا تتوقف · تأخذ اشكالا جديدة ـ يتدخل فيها طرف جديد هو أشبه بالسلطة لكنها سلطة لا تحترم قيمة التجارة ، تناقش النتائج ·

الازمنة المختلفة : كانت عملية الوصول الى المناطق المغلقة عملية متدرجة ، اتخذت اشكال صراع مع الطرف الاخر وصراع داخلي · مع الطرف الاخر ، تكفلت مراحل الحرب المختلفة وتطوراتها باحكام اغلاق المناطق بشكل شبه كامل · اما داخليا فكان الصراع حادا ويحمل سمات تطور الاطراف المختلفة · في المناطق الانعزالية ، وامام اتساع المد الطائفي موضوعيا ، ونمو القبضة الفاشية ، استطاع الحزبان الرئيسيان الكتائب والاحرار تصفية القـ وى غ ـر المقبولة ـ القبضايات ـ (حادثة عواد) وفرضوا عليها الالتحاق بها · ولكن بقيت طبعا التنظيمات الشرعية التنظيم ، حراس الارز ··· وقوى فعلية شارعية التحقت بالحزبين المذكورين · ان هذا لا يقلل من قيمة الصراعات داخل المناطق الانعزالية · لكنه يضعها في حجمها الفعلي بوصفها صراعات لبناء سلطة فاشية جديدة · اما المناطق الوطنية فقد قدمت نموذجا اتعايش ازمنة مختلفة داخل زمن الحرب، فالشارع الوطني هو متسع ومتعدد : انعكاس للوضع العربي بكل تفاصيله وخلافاته · ورغم ان حركة « فتح » استطاعت ان تلعب دور القوة القائدة ، وعلى الرغم من محاولات المجلس السياسي المركزي اقامة قوة موحدة : «الامن الشعبي »، فقد بقي الشارع الوطني شارع الجميع · تعايش « القبضاي » مع الطالب المقاتل · والزعيم التقليدي مع الاعلام الحمراء · والمقاتل المنظم مع المقاتل غير المنظم · يقود هذا التعدد الى سمة عامة في الصف الوطني ، هي مزيج من الوضوح الاستراتيجي وغياب هذا الوضوح · فلا خطة واحدة تجمع هذه القوى ، التحالفات متدرجة · غير ان المفصل الاساسي التي تمسك به القيادة الفلسطينية يقود الى وضوح مسألة واحدة على الاقل : هي القتال بكل ضراوة تجنبا لاحتمالات التصفية ·

في المناطق الوطنية ديمقراطية محلية حقيقية، وفي المناطق الانعزالية قبضة فاشية متوحشة · في المناطق الوطنية تعبئة محدودة او غير شاملة وفي المناطق الانعزالية تعبئة وشحن نفسي ومحاولة تنظيم الحياة اليومية بشكل منضبط ومن فوق ·

الجبل: بعد انقلاب الاحدب وبسقوط الوثيقة الدستورية ، تحول القتال الى الجبل · هنا حدث الانتقال الثاني في اشكالية المعارك ، بعد الانتقال الاول ـ الاجتياح في الكرنتينا والمسلخ والدامور · هذه المرة كان انتقالا نوعيا · الفلسطينيون والوطنيون يهاجمون معاقل الجبل « الماروني » ، يقفون على قمة

صنين ، يصلون الى مشارف المتن الشمالي ومشارف كسروان . هذا الانتقال النوعي سوف يمهد فيمابعد لتكريس مسألة انتماء لبنان العربي وهو على رغم حدوده ومحدوديته ، فتح الجبل على اكثر معاركه ضراوة ومجندا وكتب ملحمة بحمدون ، واحدث انتقالا نوعيا في القتال ، رغم انه لم يصل الى النتائج النهائية.

لم تكن اشكالية الحرب واحدة خلال مرحلة طويلة من القتال الاهلي ـ حوالي سنتين ـ بل كان هناك اربع مراحل رئيسية : انفجار عين الرمانة حتى الوثيقة الدستورية . انقلاب الاحدب . التدخل السوري . قوات الردع . داخل هذه المراحل هناك لحظات متداخلة. واذا كانت السياسة تحكم الحرب بوصفها محددا، واذا كانت الحرب الاهلية تكشف الغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية ، فاننا نستطيع ان نشير الى اربعة مداخل لاشكالية الحرب بوصفها تاريخ الجماهير التي صنعتها . ليس هناك حدود صارمة بين هذه المداخل . لكنها تشكل مجتمعة المواجهة المختلفة للحرب الاهلية .

المدخل الاول : الذات وتاكيدها من خارجها

نمو راسمالية الوساطة ادى الى نمو وتماسك الطائفة على حساب الاشكال الاجتماعية السابقة . ونمو الثورة الفلسطينية ادى الى اتساع تاثير واثر الخط العربي في لبنان الذي يتمثل اساسا في الحركة الوطنية والتجمعات «الاسلامية» . هذان النموان ، يضاف اليهما اختلال العلاقة بين المركز الامبريالي والقوى البرجوازية التابعة في العالم الثالث لمصلحة هذه الاخيرة ، ادى عمليا وضمن عملية معقدة الى اختلال التوازن اللبناني وانفراطه .

عملية الانخراط تتم ضمن قنوات طائفية . الحي ، هو الوحدة الصغيرة والطائفة هي الوحدة الاكبر وبين الحي حيث التجمعات غير المنظمة والطائفة يقوم الحزب الفاشي بتشكيل ذراع الوحدة داخل الطائفة ، او على الاقل هذا هو جوهر المشروع الكتائبي : « التحول من حزب طائفي الى حزب الطائفة » .

المناطق تغلق تدريجيا . تغلقها متاريس الرمل العالية ، ورصاص القنص القادم من البنايات العالية . القنص هو المدخل الى اغلاق المنطقة . هو الاداة في يد القوى المنظمة من اجل تحويل الطرق الفاصلة / الموصلة بين المناطق الى طرق مغلقة . القنص اذا ليس مرحلة من الفورة الشعبية . انه اداة منظمة وواعية . ولا علاقة للطرف « الثالث » ! الذي اتهم طويلا به . القناص ليس مجرما يقتل بشكل افرادي ، انه اداة في سبيل الوصول الى بداية المناطق

المغلقة عدا انه عسكريا وفي المعارك الفعلية ضروري جدا للاطراف المتقاتلة · اغلاق المناطق يتم اذن ضمن اواليتين مترابطتين :

١ ـ اشتعال الحرب الاهليةواستدادها ، بشكليجعل الاحياء المتقابلة في مواجهة بعضها · تخاف من بعضها ·هنا تنمو العناصر المحلية · (حي السريان) في الاشرفية ، راس النبع ، التباريس ـ خندق الغميق الخ ···

٢ ـ وجود اداة شاملة تتدخل في ادارة الحرب · البرجاوي كحي يستباح من الكتائب ، فتدخل القوى المنظمة « فتح » وتحكم سيطرتها عليه ، ويكون مدخلا لمحاولة اجتياح حي الناصرة · حي الناصرة وحيدا لا يستطيع الصمود، القوى التي تجعله يصمد هي قوى الكتائب المنظمة وملالات بقايا الجيش ·

تستدعي المناطق الانعزالية المغلقة مجموعة من التحركات:

١ ـ تطهيرها من الطوائف الاخرى : العدو في الداخل هو اخطر من العدو الخارجي · لذلك يجب تطهير المنطقة ـ الحي منه بشكل كامل · استعملت هنااساليب الارهاب المختلفة من التهديد الى تفتيش المنازل الى القتل ·

ب ـ تطهيرها من العناصر الوطنية ، حتى ولو انتمت الى الطائفة المسيحية وقد استعملت نفس اساليب الارهاب السابقة · مع لؤم اشد تمثل في العزل الاجتماعي الكامل للعنصر المطلوب اخراجه او قتله ·

ج ـ فرض السيطرة على المناطق المغلقة بشكل كامل · عبر الدوريات العسكرية المكثفة ، اطلاق النار بهدف وبدونه ، فرض الخوات الخ ···

الوصول الى المناطق المغلقة ليس مجرد تدبير اجرائي · انه في الوقت نفسه تعبير عن واقع اجتماعي محدد · كيف نفسر الخطف على الهوية ، التعذيب الوحشي الذي يتبعه ، سادية القتل ، جنون القتل الجماعي · انه تاكيد الذاتمن الخارج · التاكيد على العدو حتى يزداد التماسك · العرب ـ قوبيا التي انتشرت في الاوساط الجماهيرية « المارونية » لم تكن مجرد خدعة قام بها الانعزاليون المحترفون · انها بالاضافة الى ذلك مسار تاريخي واجتماعي · فهذا الهلع والرعب من العربي (المسلم ، الفلسطيني ، اليساري) القادم لضرب الغلبة المارونية ، يقود الى هستيرية خوف جماعية تؤدي بدورها الى عدوانية، تؤكد الوحدة من الخارج · هذه الوحشية التي عبرت عن نفسها بشكل « نموذجي » يوم السبت ٦ كانون الاول ١٩٧٥ ، الذي سمي السبت الاسود

تعبر عن العنف « الجماهيري » الفاشي وقد وصل ذروته · غلبة من المجانين الذين يحملون الاسلحة ويقتلون من اجل الانتقام ! ليس هذا مؤكدا من اجل توتير الجو السياسي ! يمكن توتيره باشكال اخرى واكثر فعالية · من اجل تأكيد الذات · الغلبة المارونية تنهار امام المد العربي : بيار الجميل يزور دمشق يومها ، والجيش السوري يزور بكفيا اليوم ! مستيريا القتل هي اذن تعبير عن خلجات الحشرجة في الجسم الفاشي الذي يتعرض للانقراض · تصفية الغلبة «المارونية» تعيد الى الذاكرة الجماعية الحكم « الاسلامي » والاضطهاد «العثماني» · تصفية غلبة الكومبرادور الماروني تنعكس في الوعي المشوه والملوث بواقع لبنان في خطر تعرض جماهير الطائفة للابادة · «المجزرة بدأت في العاصمة اثر اكتشاف جثث اربعة قتلى في الفنار ، قيل انهم من مرافقي الشيخ بيار الجميل وهم : رولان سعاده ، ايلي بانو ، دافيد عوكر وشقيقه شفيق ، واضافت معلومات خامسا اليهم هو جورج عيسى · وهو ما ردت عليه ميليشيا حزب الكتائب حين اقلتت مسلحيها من الصيفي باتجاه ساحة الشهداء وباب ادريس ، تخطف المواطنين بالعشرات ، وتقوم بتصفية بعضهم فورا ، مما جعل المواطنين الذين نزلوا الى اعمالهم ، يعيشون منذ التاسعة صباحا حالة من الذعر تجلت في مستيريا الهروب بمختلف الوسائل والاتجاهات ··· اما اكثر الحواجز وحشية فكان حاجز المرفأ الذي ارتكب مجزرة كان ضحيتها عمال المرفأ حيث اطلق النار على بعضهم والقي بجثثهم في البحر، بينما احتفظ ببعضهم حيا وتم نقلهم الى الاشرفية ·· » (السفير ٧ ك١ ١٩٧٥) السبت الاسود يمتد في الزمان والمكان · يمتد على مساحة الحرب الاهلية : سحل الاسرى بشكل منتظم ،استباحة المناطق حتى ولو كانت مسيحية : الكورة، بشكل مجنون وغير عقلاني · هذا الدفاع عن النفس هو هروب الى الامام · تعبير عن العجز وعن محاولة تغطيته بالفعل حتى ولو وصل حدود الانتحار·

الانغلاق النفسي والواقعي هذا ، لم يكن في المناطق الوطنية · فباستثناء بعض الحوادث الطفيفة والفردية التي قام بها القبضايات الذين تمردوا مداقة المكتب الثاني ، فقد بقيت الاحياء المسيحية التقليدية : حي السريان ، المزرعة حيث التجمع المسيحي الارثوذكسي في بيروت الغربية دون ان تمس الا بشكل هامشي وطفيف · بينما استبيح القنطاري للسرقة وليس للقتل · اما حوادث « بيت ملات » و « القاع » ، فانها ممارسات منظمة قامت بها اساسا قوى منظمة مستغلة العلاقات العشائرية في مناطق البقاع وعكار · طبعا حدث خطف وتعذيب · انما بنسبة لا تقارن بما جرى في الطرف الاخر · ان هذا الاختلاف لا يدل على مستوى « الحضارة » ، فالواضح ان التأثر بالحضارة الحديثة اكثر « عمقا » في المناطق المارونية · انما يعود الى سببين رئيسيين : ـ

١ ـ على رغم ارتفاع شعارات طائفية في المناطق الوطنيـة ، فـان المسلمين ليسوا طائفة · وهذا يعود الى عامل تاريخي وسياسي ·تاريخيا هم الامة ، الاكثرية · وتنظيمهم الاجتماعي هو الدولة · وسياسيا : هم جزء مـن الواقع العربي ، امتداده اللبناني · لذلك لم تنجح محاولات عديدة « مدروسة » لتحويلهم الى طائفة · والمطالب الطائفية تتحول في الممارسة السياسية الـى مطالب قومية · او الى المطلب القومي حين ينعكس لبنانيا بصيغة طائفية · من اجل هذا اتسعت المناطق الوطنية لسكانها المسيحيين وللمسيحيين الوطنييـن المهجرين من « الغيتو » الانعـزالي ، واتسعت طرائس لمهجري الكورة ···

٢ ـ نمو قوى اجتماعية وسياسية مرتبطة بالحركة الوطنية العربية ، تطرح شعارات غير طائفية · تستقطب سياسيا ، وتقاتل عسكريا · وهذا ما خفف الى حد ما من دور بعض المؤسسات الطائفية : المجلـس الاسلامـي الشيعي الاعلى على سبيل المثال ·

المنطقة الوطنية تريد استيعاب المنطقة الاخرى · هي في حالة مـد · لذلك لا تحتاج الى رد الفعل لتاكيد الذات ، من هنا كان الرد علـى السبت الاسود معركة الفنادق · وداخل ازمنة المناطق الوطنية ترتفع شعارات طائفية وممارسات طائفية ، لكنها تدان على الاقل ايديولوجيا بوصفها عملا مشبوها· اما الذين يدافعون عن آخر معاقل الماضي الاستعماري والواقع الامبريالي فـان ممارساتهم كانت مختلفة بشكل كامل ·

المدخل الثاني : المصادرات · الوساطة من تحت ·

ليس صدفة ان تكون اسماء محـاور القتال في بيروت تتشابه في دلالتهـا الى حد عجيب : غاليري سمعان ، الهوليداي ان ، الهيلتـون ، الاسـواق التجارية ، معمل الريحة ، المازدا ···· حتى في الجبل اسماء اخرى ولكـن الدلالة تتشابه : غاليري خير الله ، مطعم المطعم ، قصور الامراء ··· حتى في اعالي الجبال في الزعرور وصنين تدخل اسماء شبيهة : التلفريك ، فنـادق بسكنتا ·

لقد جرت المعارك حول رموز النظام اللبناني · والرموز هي تسميـة للواقع · ففي بلد الخدمات والوساطة والكومسيون وفي مدينة الكوميسيـون الرئيسية في الشرق الاوسط ، كانت المعارك على مفترق الطرق حيث تقـف مؤسسات الوساطة وادواتها ·

هل تكون مجرد صدفة او سوء تدبير او اهمال ايديولوجي ان تصبح المصادرات والسرقات عامة الى هذه الدرجة ؟ ربما ليست هناك علاقة بين بعض اسماء المحاور وبين المصادرات ، فهناك الكثير من المحاور التي تأخذ اسماء الشوارع : مارون مسك ، عبد الكريم الخليل ، المرايه ، الحدث الليلكي ... لكن من المؤكد ان هناك علاقة وثيقة بين شيوع المصادرات والنظام الاقتصادي السياسي السائد .

في كل الحروب الاهلية هناك مآس اجتماعية . قتل ، هجرات ،سرقات الخ . لكن الحجم الذي اخذته المصادرات في حرب لبنان الاهلية كان حجما غير مألوف .

ما هي المصادرة ؟ انها تحديدا نزع لملكية اشياء من اصحابها في ظروف الحرب ولاسباب محددة : ارتباط المالك بالعدو ، استغلاله للشعب ، احتكار المواد الغذائية ... في جميع الثورات والحروب الاهلية حدثت مصادرات . لكنها وعلى الرغم من طابعها شبه العشوائي حافظت على مجموعة من القيم الجديدة .. منع السرقة وتحطيم اللوحات الفنية والمباني ذات الطابع الاثري (ثورة اكتوبر) . حتى في الحرب العالمية الثانية حافظ النازي على رغم وحشيته على نصب باريس دون ان تمس .

نقاش المصادرات لبنانيا ، يجب ان يناقش التركيبة العامة التي انفجرت. فالمصادرات كانت عامة وشاملة ، من اثاث المنازل والسيارات الى المكتبات والتماثيل . من المؤسسات العامة الى المحلات الصغيرة في الاسواق التجارية .

هناك ثلاثة اشكال للمصادرات :

١ ـ **المصادرات الجماهيرية** : حيث اندفعت الجماهير الفقيرة الى اماكن القتال ، او الى المحلات العامة ، والفنادق ، واخذت ما استطاعته ، على الرغم من تعرضها لخطر القنص او القصف المركز . ولعل سرقة محلات سبينس بالشكل الفولكلوري الذي تمت به ، حيث اندفعت الآلاف وتدافعت وقتل حوالي سبعة اشخاص ، هو التعبير النموذجي عن هذا النمط من المصادرات الجماهيرية التي اندفعت اساسا الى المواد الغذائية والالبسة خوفا من خطر المجاعة والتشرد ، وبحثا عن حد ادنى من الضمانات المادية .

٢ ـ **المصادرات الجماهيرية المختلطة** . اخذت المصادرات الجماهيرية من الطرفين اشكالا مختلطة في بعض الاحيان . قسم منها على شكل تواطوء كما في مخزن الكرنتينا الشهير حيث كان يصادر من الجانبين دون اي

احتكاك يذكر · وبعضها على شكل غض النظر كما حصل في الاسواق التجارية ·

٣ ـ المصادرات المراتبية وهي اكثر اشكال المصادرات شيوعا · فلقد اندفعت مجموعات من القوى بشكل منظم ومراتبي الى الكثير من المرافق ومصادرتها بشكل عشوائي ومنظم · وقد اختلط في هذا المستوى من المصادرات الاعمال الفردية وشبه الفردية بالاعمال الجماعية · واستخدمت المصادرات كموارد مادية لبعض القوى او كاساس لتجميع الثروة في اعلى الهرم وخاصة في صفوف القوى « المحلية » شبه المنظمة ، قوى الاحياء التي اندفعت بشكل كامل الى هذه المصادرات فيما كانت تشارك في الرماية بجميع الاسلحة داخل حقل المعركة ·

المصادرة المراتبية هي اكثر الاشياء دلالة · فاندفاع الجماهير الى السرقة في ظروف حرب اهلية يمكن ان يفسر جزئيا بالحرب نفسها ، اما الوصول الى المصادرات المراتبية فانه لا يمكن فهمه الا من داخل التركيبة اللبنانية · فقد استبيح كل شيء · اثاث المنزل المصادر يمكن اعادة شرائه · السيارة المصادرة تختفي او تباع من جديد · تساقطت جميع المحاذير والمحرمات ·

انتقال السرقة من فوق الى تحت · يصاحب هذا الانتقال عملية انهيار مؤسسات الضبط والقمع الاجتماعي · فلا يبقى محظور فعلي · اقتصاد الوساطة القائم على السمسرة والكومسيون والاحتكار هو اقتصاد سرقة واحتيال · تراكم الثروة هو تراكم القوة وتراكم الشطارة والقرب من السلطان · كل الناس تعرف ان الثروة هي سرقة · ومع انهيار نظام السرقة من فوق جاءت السرقة من تحت · هنا كان الاندفاع الشعبي الى تدمير المجتمع القديم ، تدمير قيمه ،الانقضاض على السارقين وسرقتهم · يبدو هذا التفسير جزئيا وتبسيطيا · فالسارقون الكبار اندفعوا هم ايضا الى السرقة : تجارة الاسلحة المضبوطةمنفوق، التهريب،الخوات المنظمة،احتكاربعض السلع لكن الحرب افرزت على الاقل مراتبية جديدة ·اضطر اللصوص القدماء الى الخضوع لمشاركة قوى جديدة · فانتظمت مراتبية جديدة على ايقاع القتال · الوساطة انتقلت الى تحت ، وهنا ابدت الاشكال الاجتماعية اعلى مستوى من المقاومة · فانتظمت المراتبية · وتحول المجتمع القديم الى شكل جديد دون ان يجري اختلال عميق في بنيته ·

انهيار القيم البرجوازية : بانهيار المجتمع وتفسخه ، انهارت قشوره

انهارت القيم البرجوازية التي الصقت به فلم تبق قيمة لم تمس . القيم البرجوازية المستعارة تتساقط كالقشور . لم يعد هناك حرمة : الجامعة اللبنانية بكل اجهزتها الحديثة ومكتباتها واثاثها تنهب ، الوثائق تتساقط ، رئاسة الحكومة وهي بناية اثرية من العهد التركي تحترق وتنهب . كل القشور سقطت . الا انتاج ينفلت من عقاله يسقط كل الرموز المستعارة وليبقى الحقيقي . لذلك لم تكن حرمة لشيء . الملكية الخاصة استبيحت دون ان تمس في جوهرها كعلاقة .

يحمل هذا الوصف في داخله اشارة الى القوى الاجتماعية ، فالغياب شبه الكامل للبدائل الثورية بالمعنى الجذري للكلمة ، هو الذي لم يطرح بديلا للاشياء . وربما ولادة البدائل لا بد بفعل الضرورة التاريخية من ان تمر داخل هذا النسق من الدمار والتدمير .

المدخل الثالث : القصف ـ الايقاع الخلفي .

القصف هو تحديدا شكل عسكري للقتال . يقول العلم العسكري ان القصف الدفعي يستعمل عادة كتمهيد للهجوم . فيجري قصف مراكز تجمع العدو ، او يستعمل ضد تجمعات الدبابات العدو وقواه البشرية التي تهاجم فيسند المواقع المتقدمة . ويقول العلم العسكري ان «الهاون» هو مدفع يستعمل في ميدان القتال ضد التجمعات العدوة . وهو سلاح بالغ الفعالية . اما في الحرب الاهلية في لبنان فعدا عن الاستعمال العسكري ، استعملت المدفعية بكل انواعها واشكالها ضد المدنيين ، وضد الاماكن السكنية . وربما جرى تفسير ذلك في المدن ، بانه خلال الاشتباكات الفعلية ، فان المراكز السكنية تشكل خطوطا خلفية لامداد وتموين القوى القاتلة ، كما ركز فيها في بعض الاحيان اسلحة اسناد . يمكن ان يؤخذ هذا التفسير خلال المعارك الفعلية ، خلال المعركة الضارية التي اسقطت فندق « الهوليداي ان » وفندقي «الهيلتون» و« النورماندي » . اما حين يصبح القصف العشوائي عاما الى درجة حصد عشرات المدنيين يوميا ، فان هذا يحتاج الى تفسير اخر .

انه يشير اولا الى واقع يترسخ يوميا . يقود اغلاق المناطق الى محاولة كل منطقة تدمير عدوها . فالاصرار على القصف العشوائي من قبل الاطراف القاتلة ، وتعميمه الانعزالي يقود الى التقسيم . تعميم الكراهية والخوف الى درجة مرتفعة جدا . وضع حدود نفسية بعد الحدود الفعلية . القصف العشوائي رعب دائم . تعبير عن تعميم رفض الاخر بين القاتلين . ايصال الى التقسيم الفعلي والنهائي . والا فما هو معنى قصف المنازل

بالمسراريخ ومدافع الميدان والدبابات !

وهي تشير ثانيا الى العجز · **العجز عن الحسم الفعلي يقود الى حسم وهمي**· القصف هو حسم وهمي · انتصار وهمي · يقصف تجمعا سكانيا فيعتقد انه قتل عددا كبيرا من افراد العدو ، لكن الاخر يستطيع ان يقصف تجمعا سكانيا كذلك · العجز لا يحصي سوى خسائر العدو · ينسى خسائره · انها انتصارات وهمية · حرب جبناء كما وصفها احدهم ·

وهي تشير ثالثا الى **ايقاع الحرب** · اصبح القصف اليومي هو الايقاع الذي يفرض على الجميع العيش وسط الحرب حتى في فترات ضمور جبهات القتال · انه الموسيقى الخلفية التي تهز الجدران والنوافذ · المقاتل على جبهة القتال وامتداده القتالي هو في الداخل حيث الايقاع · القصف ايقاع يومي، نسق تعتاده حتى يصل الى بيتك ، عندما تفاجأ به من جديد ·

المدخل الرابع : الحرب الفعلية واشكالها التعبيرية

سياسيا حدث التحول الجذري في مسار الحرب بعد انقلاب الاحدب وولادة الجيش العربي · وعسكريا بصعود القوات المشتركة الى الجبل في سبيل كسر التقسيم وضرب القوى الانعزالية · بعدها حدثت الانعطافات سياسيا وعسكريا : انتخاب سركيس ، التدخل العسكري السوري ، دخول العدو الصهيوني طرفا مباشرا في حرب الجنوب ، سقوط تل الزعتر ، معركة بحمدون وجزين وروم ، دخول القوات العربية ··

التحول السياسي والعسكري انعكس على اشكالية المعارك ، فعلى الرغم من ان الضبيه والكرنتينا والدامور دشنت الاجتياح العسكري الفعلي للمناطق ، فان الحرب انتقلت بهذا التحول الى مستوى ارفع ، توقف القنص كمؤشر اساسي ، ولم تعد البنايات تحمي من قذائف الهاوزر ، خف الخطف واشتد القصف المركز والعشوائي ·

لقد دخلت الحرب اشد حلقاتها ضراوة · مع اشتداد المعارك قطعت الكهرباء والماء · قصف وحصار تمويني واجتياحات عسكرية وتهجير · دخلنا الحرب الفعلية ·

يمكن تسجيل ثلاث ملاحظات في هذه المرحلة :

١ ـ اشتد اغلاق المناطق ، الطريق الوحيدة الآمنة بين بيروت الشرقية

وبيروت الغربية اصبح عبورها بالغ الصعوبة وقد يسل في كثير من الاحيان حد الاستحالة · المناطق تغلق ، تعاني مشاكلها وحيدة ، حصار في اكثر الاحيان ، حرب تجويع وتركيع وحرب انتصارات ساحقة · ومع اشتداد اغلاق المناطق بدت امكانية كسر المتاريس التي تغلقها عبر الاجتياح · لقد انتهى عهد الطمانينة التقليدية ، بعد سقوط الهوليداي ان اصبحت الطريق الى الاشرفية ممكنة ، وبسقوط عينطورة والمتين اصبحت طريق بكفيا ممكنة ، وفي فترة انهيار الطرف الانعزالي كانت الكمالة حتى الحازمية غير مستحيلة · لقد دخلنا مرحلة الصراع الشاملة · وباختلال ميزان القوى بعد اجتياح البقاع وعكار ، كتب تل الزعتر عبر شهرين من الاساطير القتالية ملحمة صموده وسقطت الكورة وابتدا الحديث والتهويل باجتياح طرابلس وبيروت الغربية · سقط الامن القديم القائم على تجربة ١٩٥٨ ·

لقد عكست الحالة الجديدة نفسها على الواقع الجماهيري · لم تعد هناك منطقة خارج الحرب · لبنان باسره من شماله الى جنوبه يدخل الانقسام والصراع · اختلطت الجبهات والتحالفات ، وبدا وكان التاريخ يكتب احد اهم فصوله ·

٢ ــ النظر الى الحرب من الخارج وفي المناطق « الآمنة » اصبح مستحيلا · لقد دخلت الحرب كل بيت · اصبح الكل معنيا بها بارادته او بفعل الظرف الجديد · هنا حدث التحول في ممارسة الجماهير السياسية · فبعد محاولات لانشاء لجان شعبية ولاقامة عمل شعبي بلغ ذروته في المدارس الشعبية التي كتجربة قدمت نموذجا لبداية انخراط فئات من المثقفين المهامشيين في الحياة العامة عبر خلق نماذج لعلاقة مفترضة بين المعلم والتلميذ ، وعبر محاولة كسر حدود المدرسة الايديولوجية وربطها بالحي بعد ان كانت مرتبطة بالنظام التعليمي (الايديولوجية المسيطرة) وجعلها جزءا من حياة الجماهير اليومية · بدات اللجان الشعبية تتوالد · لقد انهارت تجربة المدارس بعد الوثيقة الدستورية، ولم تعد ممكنة في ظل مطر القذائف المباشرة · غير ان البديل الجديد « اللجان» كان اكثر تقدما · اعداد هائلة من الناس تبحث عن وسيلة انخراط في الحرب · ووحدها اللجان تستطيع ان تستوعب هذا المد الجماهيري · لقد جرى تعميم تجربة اللجان في ذروة الحصار · ولدت اساسا ضمن برنامج فعلي بالغ التواضع ، تنظيم تقنين المواد الغذائية وتوزيعها · لكنها غرقت عمليا في بحر التوزيع ، لم تستطع الانتقال وفي ظل شيوع قيم التوزيع الجديدة الى المستوى السياسي · تركت هذا المستوى للصحف ورجال السياسة واغرقت الجماهير في مشاكل التوزيع الى درجة ان اكثر هذه اللجان وجد نفسه دون عمل بعد الانفراج النسبي للمسالة التموينية · هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجب

مجموعة من الممارسات التي بقيت قليلة الفعالية والتي حاولت الانتقال الى المستوى السياسي عبر ندوات جماهيرية واقامة لجان منتخبة ٠ لكن التجربة بأسرها كانت محكومة باشكالية التوزيع ٠ ولم تسمح فترة ازدهارها القصيرة للاتجاهات الجذرية ببلورة نسق جديد لعلاقة الجماهير بالسياسة ٠ وفي المقابل حاولت الادارة المدنية الوصول الى التوزيع من السياسة ٠ فاقامت لجانها الخاصة وتدخلت في توزيع المواد التموينية لكنها هي الاخرى لم تستطع ان تقدم نموذجا جديدا لانها توزيع من فوق ٠

تحتاج هاتين التجربتين الى دراسة خاصة وتفصيلية ٠ فهما التعبير المباشر عن تجربة محاولة ادخال السياسة الى الممارسة الجماهيرية ، الناس تتكلم في السياسة في الاوقات العادية ، وتتكلم في السياسة دائما في زمن الحرب ، لكن السياسة تعني مجموعة من المهمات الصغيرة والكبيرة ٠

٣ ـ في فترة التحول السياسية والعسكرية هذه استمرت المصادرات لكنها انتقلت من خطوط القتال الى الداخل ، كما استمرت قوى الاحياء العسكرية ، لكن الجديد هو تحول عدد كبير من افراد الميليشيا الى قوات مقاتلة شبه محترفة ٠ الطالب والموظف والكادح ينتقلون من الدفاع عن الحي الى الدفاع عن الوطن ، من البقاء في الكمين فترة محدودة الى البقاء في الموقع فترة غير محدودة ٠ هذا الانتقال النوعي حول الكثير من المعارك العسكرية الى معارك ابداع جماهيرية ٠ هكذا يعلم شموخ صنين ، وبطولات صيدا وملحمة بحمدون ٠ لقد انتقل الناس الى الحرب ٠ دخلت الحرب الى البيت وخرج الناس من البيت الى الحرب الشاملة ٠ المعركة الحقيقية هي مدرسة التدريب الفعلية ٠ وفي المعارك الحقيقية اصبحت السياسة في فوهة البندقية ، ودخل تحول على تركيب القوى المقاتلة سوف ينعكس فلسطينيا ولبنانيا باشكال نضالية مرتفعة ٠

في الخنادق كانت الذكريات والاغاني والقصائد هي التعبير الثانوي ٠ في فترات الراحة ، بين معركة ذاهبة ومعركة قادمة كانت الذاكرة تضيف الى الواقع بعدا ٠ اما التعبير الرئيسي فكان القتال ، ابداع لحظات القتال بكل اسرارها واحزانها ٠

ماذا يقدم الجسد للجسد : الجسد في حركته ، يسقط وينحني يتموج ويلمس الريح ٠ وبين الطلقات ، وحول جسد الشهيد ، وفي ظلام السكون العميق حين تنتظر العدو فلا يأتي او حين تسمع صوته ووقع خطاه ولا يأتي، تكون التفاصيل هي كل التعبير، والارض هي الاسرار التي لم تكتشف ٠

داخل الكنيسة التي تحولت الى موقع عسكري ، وبين الطلقات والقذائف، يقف المقاتل ، في سكون الليل وارتجاف ثلاث شمعات وامام جسد المسيح الملقى على الارض شبه محطم ، ليقيم قداسا بين رفاق سوف يدخلون معركة حقيقية بعد دقائق ، هذا الاحتفال يتكرر وسط الشارع حين تندفع مجموعة من المقاتلين وهي تعزف على الآلات الموسيقية وتطلق النار حزنا او فرحا او احتجاجا على موت شهيد · او حين يصل الحوار في المواقع وبين الكمائن المتقدمة الى درجة تصبح معها الكلمة على فوهة البندقية تصرخ بالثار وحين تصل الى الاسير تنحني بحنان المقاتل ، تقدم كوب الشاي وتطلب من قيادة الجبل معاملة الاسير بشهامة ورحمة ·

الذاكرة هي تعبير ثانوي ، لكنها لا تبقى مجرد ذاكرة ، تحاول ان تلتقط الايقاع وتشحنه بالمضامين والتجارب الجديدة · كسر الايقاع يحتاج الى زمن اكثر اتساعا · لذلك تلجأ الاغنية الى الايقاع الشعبي وايقاع الاغنيات المعروفة لتحاول ان تقيم تعبيرا خاصا عن حياة القتال والمقاتلين · وعلى الرغم من جدارة محاولات خالد الهبر وبول مطر ، فان الاغنية المباشرة الحية التي يؤلفها احد المقاتلين ثم يؤلفها الجميع بعده بقيت هي سيدة الاغنيات تنشد في المواقع في فترات الهدوء وفي المعسكرات وفي المهرجانات ·

في « القوات » نماذج هائلة من الاغنية الشعبية الفلسطينية التي تحتاج الى جمع ودراسة ، حيث تبرز مواهب المقاتلين واتجاهاتهم · وفي الحرب الاهلية برزت نماذج اخرى تحمل شعارات محددة وتشير الى مستوى معين من منهج التجربة الجديدة · ضمن الروحية الزجلية « لاح العلم الاحمر لاح بالقنطاري وبالشياح » · الى الاغنية الحقيقية الكاملة · ولعل تجربة « حاتم » من السرية الطلابية واللجان الوطنية هي اكثر التجارب دلالة خلال الحرب · فهي اغنية سياسية تنطلق من ظروف المعركة وظروف الواقع لتقول شيئا محددا · تتكىء على اللحن المعروف لتقوم باعادة صياغته من خلال الكلمة :

« الله الله الارادة الرهيبة
والمسافات صارت قريبة
وان كان اكيد
كل يوم بيخلق

كيف الابطال طلعوا الجبال
ما في شي صعب كل شي بينطال
سقط الشهيد
مية عنيد »

على اللحن الفيروزي « الله الله يا تراب عينطورة » تعود عينطورة عربية من جديد وتتجسد ارادة من صنعوا هذا التغيير في وضوح الرؤية وتحليل ملموس للمعركة · الاغنية هي اشارة لتجربة لذلك فحين تنتقل الى المستوى السياسي المباشر فانها تاتي من خلال تجربة مباشرة :

« ثورة ما يغلبها غلاب — فلسطينية وعربية
تجمعنا وحدة التراب — ووحدة ارض وقضية
والثورة بدها استيعاب — الخلافات الثانوية
لا رجعية ولا اذناب — ثورة استقلالية ..
على نغم الانشودة المشهورة « وحدة مايغلبها غلاب »

الى جانب هذه التجربة المتكاملة يرتفع صوت « ابو يسام » في هذا الردح الجنائزي على الشهيد عبر التاكيد على الوجه السياسي المباشر . او ينطلق من قمة صنين :

« عالشهيد دمعتين — والعهد عليا
فدائي انا ودربي — الحرب الشعبية » .

لا تزال اغنية المقاتلين بحاجة الى تجميع لكننا نستطيع ان نشير الى سماتها الرئيسية :

فهي اغنية تجربة تقدس الشهادة وتحفظ عهد الرفـاق ، وهـي اغنيـة سياسية تبحث عن اداتها الفنية ، تستعير الاداة الموجودة مع محاولة تطويرها وهي اغنية شعبية تنطلق من الموروث الشعبي ومن المعاناة الجماعية .

في المقابل ، كان هناك ايضا اغنية في الطرف الانعزالي المقاتل . سنقدم هنا نموذجين صدرا بكراس « الثورة الكتائبية » ولا ندخل في المقارنة

« حداي حداي فدائي خطي — تصيبوا مثل الترغلة
هجوم عليه قطشلوا ديليه — لحم عليه ما تخلي
هجوم عليه فقرلوا عينيه — مثل الوحش البري
وان هجم على بيتك — قرطوا رصاصة بيصلي »
« وعين الرمانة — ساحة الدكوانة
جلث مليانة — فدائية عم بتموت »

القاشية الصغيرة . شحن بيولوجي غير سياسي . استقطاب للزعران والمرتزقة ومحترفي القتل . ولا مجال للمقارنة .

☆ ☆

الحائط

بيروت غابة الاسمنت . وحرب المدن ، تجري بين جدران الغابة ، بيـن الابنية العالية والشوارع الضيقة . يصبح الحائط عنوان المدينة ، والكتابـة عنوان الحي ، والملصق نبرة الوان احتفالية .

وحدة الحي ليست في الحي المواجه ، بل كذلك في الداخل · هنا يأتي الحائط واليافطة ليكتبان شعارات الوحدة · الحائط هو بهذا المعنى جهاز اعلام، وحدة اعلامية عليها ترفع الشعارات وتحدد المهمات · هكذا ، الانتفاضات الجماهيرية تبحث عن اسلحتها الخاصة · في ثورة اكتوبر كان مايكوفسكي مع مجموعة من الفنانين المستقبليين يصدرون بيانا يعلنون فيه استعدادهم لرسم الملصقات وكتابة الشعارات للقوى الثورية · وخلال الثورة الثقافية الاولى والثانية كانت كتابات الحائط هي اداة الادانة الجماهيرية ، وفي انتفاضة ايار في فرنسا اصبح الحائط ديوان شعر تتاخى فيه اللغة : الشعارات السياسية والمقاطع الشعرية التي تمجد الحلم ·

وفي بيروت كان الحائط ، اداة اعلام ، عليه كتبت الشعارات ، وفي وسط شوارعه رفعت اليافطات · وخلال المعارك احدثت فيه فجوات التسلل ، احرق ، وبقيت غابة الاسمنت شاهدا على اشكال الممارسة الجماهيرية ·

كانت كتابات الحائط تعبيرا عن واقع القوى السياسية لذلك كانت تحمل اكثر من اتجاه :

١ ـ **شعارات سياسية** واضحة تعبيء الجماهير في سبيل انجاز مطالب محددة : لا للحكومة العسكرية ، نعم لتعديل قانون الانتخاب · ، لا للتقسيم···

٢ ـ **شعارات ايديولوجية** : المطرقة والمنجل · لا للطائفية البغيضة · لا اله الا الله · فتح ديمومة الثورة والعاصفة شعلة الكفاح المسلح · نعم لعروبة لبنان ····

٣ ـ **شعارا تحريضية وتكريمية** تل الزعتر لا يسقط · شارع الشهيد···· نموت واقفين ولا نركع · نعم لجيش لبنان العربي ··

٤ ـ **شعارات محلية** وتتعلق باحداث مرت في الحي او باحد قادة الحي: اهلا بالبطل ··· او ساهموا في حملة النظافة · من الواضح ان الشعار السياسي هو كل شيء على الحائط · وهو في اشكاله المختلفة يعبر عن حالة جماهيرية اكثر مما يعبر عن مطالب ملموسة او مهمات محددة · الاساسي هو التوقيع · جميع اليافطات وكتابات الحائط موقعة وكلها يجمعها في الحصلة

شعاران : عروبة لبنان وحماية المقاومة · هذه هي الشعارات الفعلية والباقي يفترض انه متضمن فيهما وهو يتغير بتغير الظروف اما هذان الشعاران فثابتان طيلة الحرب··

توقيع الشعار اهم من كتابته · الحائط هو وسيلة اعلام تنظيمية · لذلك كان التوقيع في بعض الاحيان اكبر من الشعار واكثر اهمية منه ·التوقيع يشير الى قوى محددة ، بينما الشعار لا يشير اليها بالضرورة ·
كان الحائط ملونا ، ممثلئا بالصور والرسوم والكتابات من مختلف الاحجام والالوان ، الى درجة دفعت احد الاصدقاء القادمين من المناطق الانعزالية ليقول : ماهذا ؟ الوان وملصقات ورسوم وقن ··· عندنا لاوجود لهذا ، انتم كانكم في عيد ·· عيد ، اذا شئنا ان نكون متفائلين جدا نقول اننا في عيد ! الجدران كانت تحتفل بالعيد على طريقتها الخاصة · الملصقات في كل مكان ، الشهداء في كل مكان · المقاتل ينظر الى الحائط وكانه ينظر الى مراة · ملصق الشهيد في هذا العيد الدموي كان هو العلامة· الحائط اصبح ملصقا كبيرا دون ان يخطط احد لذلك · تنافس التنظيمات وكثرة الشهداء تكفلت وحدها بتلوين الحائط ·

الملصق : هو تعبير بالصورة واللون والكلمات عن فكرة محددة ، وضع الشعار السياسي داخل حركة من الاشكال تجعله اقرب الى عقول الجماهير وعواطفها · يشير ضياء العزاوي (فن الملصقات في العراق) الى تحديد الملصق على النحو التالي : « الملصق مطبوع يصمم من اجل ان يفهم من نظرة سريعة · · وهو يجمع مؤثرات بصرية مباشرة بوسائل اتصال مختصرة، ذات قدرةعلى منافسة المحيط المشوش بصريا · ولكي يكون كذلك يجب ان يحتفظ بالوضوح والتميز· فالملصق اذا ، تعبير عن فكرة ، فهو بسيط في تكويناته ، مكثف في كل جزء منه · ولان الفنان يسعى من خلاله الى تحقيق هذه الفكرةعبر التغلب على المشكلات التي تظهر ، فانه يتضمن عنصرا ذهنيا عميقا » ·

عربيا كان الملصق الفلسطيني هو العلامة ، فهووحده استطاع ان يستقطب فن الملصقات حول قضية سياسية ملموسة وحول الصورة واللون الى اداة تثقيف سياسيين واذا كانت رومانسيته تاتي من كونه ولد عمليا حول صورة الشهيد ، فان الشهيد يبقى هو جوهر الملصق الفلسطيني · ليس هناك ثورة تقدس الشهادةمثل الثورة الفلسطنية ، ولم يسبق ان اصبحت صورة المقاتلين الشهداء هي عنوان المسيرة في ايةثورة في العالم · قبل الحرب الاهلية وفي اثنائها كان ملصق الشهيدهو الاساسي ، اما الملصق الآخر ، الملصق السياسي فلا يزال مجرد ملحق صغير بالملصق الاول ·

جميع الشباب يهيئون صورهم ، وقبل النزول الى الكمين يؤكدون على رفاقهم وضع صورة محددة ومختارة في ملصقهم · الملصق هو مراة المقاتل ، ينظر اليه باعجاب وحزن : كلنا على الطريق ، وحين ياتي خبر استشهاد اخ او رفيق ينظر الجميع الى الحائط حيث الملصقات (يحي رباح) · من هذه اللحظة التي تمتزج فيها الواقعية باكثر صورها ماساوية بالدهشةالقادمة من الموت ، وصف معين بسيسو في قصيدته « غزال صنين » هذه الحالة :

« يذهب المخندق ·
ضيف اخر يا بيت الشهداء
الشهداء الجدد ، على مائدة الشهداء القدماء ·
الملصق فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
لو احرقت الصورة ·
سوف تصير قديما فوق الحائط ·
الان الطبيعة تدور ·
وغزال اخر ·
يمشي والالوان تغطيه ،
الى الحائط ملصق » ·

ملصق الشهيد : تكريم ، تخليد ، حث على القتال ،تمجيد قيم الشهادة في سبيل قضية · الاساسي هو صورة الشهيد المغطى بالالوان ، كانه يعود الى الطبيعة فيتحد بالعناصر الملونة · المهم في ملصق الشهيد اذن هو الصورة والالوان الى جانبها ، الاحمروالابيض اوالابيض او الاخضر أو الازرق ···

اذا اخذنا الملصق العادي الشائع، ملصق المقاتل المجهول فماذا نلاحظ ؟ الصورة وكتابة الى جانبها · الكتابة لا تدل على شيء · تشير الى ثلاثة اشياء · الاسم · متى ولد · متى استشهد وكيف؟ ملصق الشهيدلايريد ان يقول شيئا اكثر من اعلان الشهادة نفسها ، والعهد على مواصلة المسيرة ·

هذا النسق العام جرى تصميمه من خلال ملصقات «الاعلام الموحد» وهي اكثر الملصقات عددا وانتشارا ؛ الى جميع الملصقات · ولم يخترق هذا النموذج الا في حالات قليلة · وصار «الملصق فوق الملصق» وكان الحائط هو ملصقنا جميعا ·

يمكننا أن نشير الى ثلاث حالات حاولت اختراف هذا الشكل من الملصق وهي على الرغم من كونها تبقى حالات خاصة وغير معممة الا انها تشير الى

واقع ممكن ٠

الملصق السياسي ٠ حاولت ملصقات القادة الشهداء (جواد ، الحج حسن ، سعد ٠٠٠) اختراق ملصق الصورة واللون عبر التركيز على مسالة الانتماء السياسي والافكار ٠ لكن ملصقا خاصا لشهيد استشهد على قمة جبل صنين يقدم نموذجا لمحاولة الاختراق السياسية ٠ ملصق عادي مستطيل ، اطول قليلا من ملصق الشهداء ٠ قاعدته اللونية زرقاء غامقة ، الكتابة بالاحمر والابيض والصورة داخل الازرق بالاسود والابيض ٠ الكتابة واضحة الاهداف ٠ ولد الشهيد وسقط الشهيد ، لكن قبلها « شهيد البطولة في صنين » وبينهما كتابة سياسية حاولت ان تؤكد قناعات الشهيد محمد شبارو ودوافعه الى القتال ٠ « كان يؤمن ان الجماهير هي التي تقود مسيرتنا الثورية وان المناضل الحقيقي هو الذي يخدم الشعب » ٠ وفي النهاية العهد التقليدي مكتوبا بشكل غير تقليدي « عهدا لك يا محمد شبارو ان تبقى البنادق مرتفعة وان تبقى مسيرة حرب الشعب العربية مستمرة ٠ وانها لثورة حتى النصر» ٠

محاولات متواضعة ، في عرس الالوان ، تريد ان تؤكد على المغزى السياسي للاستشهاد ٠ تريد ان تكون بيانا سياسيا ملحقا ببيان الشهادة نفسها ٠

الملصق الفني وسط بحر الالوان ، يسترعي الانتباه ملصق متواضع ، فرح ، تقف امامه مذهولا ٠٠ ملصق مستطيل محاط باطار بني اللون ، قاعدته بيضاء ، وفي وسطه شاب صغير السن يضحك باللون البني ٠ لا يبتسم يضحك فرحا بالحياة ٠ وتحت الصورة كتابة بالابيض على البني : « اذا ضحك الموت في شفتيك / بكت من حنين اليك الحياة » (ادونيس) وعلى الجانب الايمن كتابة بخط رفيع « من رفاق الشهيد طوني النمس وحركة وجهة نظر» ٠

الملصق الجماعي على خريطة كبيرة للبنان مرسومة ضمن مساحة خضراء شاسعة ٠ عشرات النجوم الحمراء مزروعة في كل لبنان ، وفي البحر امام بيروت٠ على اليسار فوق كتابة باللون الاسود : «شهداء الحزب الشيوعي اللبناني اذار ١٩٧٥اذار ٧٦» والى اليمين في اسفل الملصق مقطع شعري لمحمود درويش :

لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم دربي
وبطاقة حزبي
اعرف فيهم شعبي
لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم زملي
اعرف فيهم وطني » ٠

وفـــي اسفل الملصق كتابة باللون الاسود : « استشهدوا فـــي المعركـــة ضد المخطط الانعزالي الفاشي دفاعا عن لبنان ووحدته وعروبته وعن المقاومـــة الفلسطينية » ٠

تجوم حمراء تصفع الوجه ، وتتقلغل في الخريطة معلنة زمـــن الشهـــادة الجماعية الجديد ٠

الى جانب ملصق الشهيد كان هناك الملصق الآخر ٠ ملصقات من مختلـــف الاحجام والالوان ، اشكال ، كتابات سياسية ، اسماء تنظيمات ٠ يمتلىء الحائط، والاشكال في كل مكان ٠ يمكننا ان نقدم نمذجة اوليـــة لهـــذه الملصقـــات :

ملصق التكريم الذي يراد به الاشارة الى بطولات خارقة ، تمجيـد ابطالها ، تقديمهم كنموذج للنضال (الامينة الاولى زوجة سعادة : الحزب القومي) شهداء الكورة : الحزب القومي) (جيش لبنـان العربي : الحصان) ٠

ملصق التحريض يأخذ هذا الملصق حادثة محددة ماساوية فـــي الغالـــب ، ليمرض على الثار (ماساة البولـــدوزر لن تنسى فـــي المسلخ : الاتحـــاد الاشتراكي العربي) او عـــلى اخذ دروس الصمود (تل الزعتر : الاعـــلام الموحد ٠

ملصق التعبئة السياسية : وافضل نماذجه هـــي الملصقات الكتابات دون صور التي اصدرها الاعلام الموحد : « لا للوصاية لا للتبعية ، لا للاحتـــواء » ٠ او «معـــ الحركة الوطنية اللبنانية » ٠٠٠ ـ او ملصقات (القيادة العامة) عن المعارك الاساسية ٠

وقد استخدمت في هذه الملصقات مجموعة من الثوابت :

رموز اخلاقية (الفرس : جيش لبنان العربي) **ملصق اتحاد العلماء: الجنوب يا عرب** (الاعلام الموحد) **رموز تقليدية** (غصن الزيتون ، حمامة السلام الاعلام الموحد) **رموز قتالية** : البندقية ، الكوفية ، المقاتل (الجميع) ، **رموز جماهيرية : اليد المفتوحة** (الاعلام الموحد) القبضة (الجميع) الجماهير نفسها (الاعلام الموحد ، الاتحاد الاشتراكي العربي) ٠ **الصـــورة الفوتوغرافيـــة** : ملصقات جلسة انتخاب رئيس الجمهورية (الحزب الشيوعي) ملصـــــــق الشياح (الاعلام الموحد) ٠٠الرسوم الكاريكاتورية :) ملصقات الحزب الشيوعي

يمكننا ان نشير الـــى مجموعة ملاحظات حول الملصقات :

١ ـ الكتابة كثيرة حول الاشكال والالوان ، لكنها ليست بالضرورة كتابة سياسية تريد ان تقول شيئا محددا انها اقرب الى الحالة منها الى الشعار السياسي ٠

٢ ـ غياب « الموتيف » الثابت في الكثير من الاحيان ، الذي يجعل الناظر يعتاد ويفهم ويفك الرموز ٠

يمكننا هنا استثناء ملصقات حداد (الحزب الشيوعي) التي ركزت على موتيفات الرسوم الكاريكاتورية والثوابت : نجمة داوود ، ارزة الكتائب ، وثوابت الحركة : نقطة الباء في بحمدون تسقط على رأس الجندي الذي يحاول اجتياحها والنون تتحول الى منجل يقطع راسه ٠

٣ ـ محاولات الصورة الفوتوغرافية التي تعبر عن نفسها في ملصقي عني السعودي الشياح والكورة (الاعلام الموحد) ٠ حيث يأتي الواقع شامخا وهادئا، يقول كل شيء ٠

٤ ـ محاولة في ملصق ذكرى عبدالناصر (الاتحاد الاشتراكي العربي) لوضع الجماهير في المقدمة ، والقائد كجزء رئيسي ولكنه يبقى جزءا منها مع كتابة تؤكد على دور الجماهير ٠ « لكن عبد الناصر ترك شعبا » ٠
٥ ـ غياب ملصقات السخرية ، والتركيب ، والكولاج على الاشخاص بشكل شبه كامل٠

٦ ـ الامكانات الهائلة التي وضعت بتصرف صناعة الملصق ورق ممتاز من مختلف الاحجام الوان ،اعداد ، ٠٠٠٠٠

٧ ـ غياب ملصقات التوعية الجماهيرية عن القصف او التنظيف ، او امور اخرى بشكل شبه كامل ٠

الاساسي في تجربة الملصق السايسي انه لم يكن متفجرا على ارض المدن التي تتفجر ٠ الوان في كل مكان ٠ عرس واسماء التنظيمات بارزة حد الاختناق ٠ لا تزال بحاجة ماسة الى ملصقات بسيطة وواضحة وتعليمية مثل ملصق الحلاج ،(ايلول ١٩٧٠) حيث يقف المقاتل الفلسطيني في وسط الملصق محاطا بثلاثة حيوانات مفترسة تمثل اميركا واسرائيل والمملكة الاردنية تحاصره وتهاجمه ٠ وفي الاعلى يبرز الامل الثوري على شكل طفل يضيء ممتطيا جواده ٠

الحائط مجموعة الوان ، هذه هي ازمنة التغيير الوطنية • ازمنة تتعـايش وتحاول ان تقول بالصورة واللون ، شعار الدم الذي يغسل لبنان •

★ ★

وسائل الاعلام

داخل ايقاع الحرب ، داخل المنازل وفي الشوارع كانت وسائل الاعـلام في كل مكان • صحف ونشرات لا تحصى ، اذاعات تتوالد اذاعة الصنائـع اذاعة عمشيت ، صوت لبنان (الكتائب) صوت لبنان العربي (المرابطـون) صوت الناصرية (اتحاد قوى الشعب العامل) صوت النهضـة (الحـزب السوري القومي) اذاعة الثورة العربية (الاتحاد الاشتراكي) اذاعة حركة ٢٤ تشرين في طرابلس اذاعة التنظيم الشعبي الناصري في صيدا الخ •

الناس في كل مكان يتلهفون لسماع الاذاعة ، وقراءة الصحـف والنشرات (في بعض الاحيان تقرأ مراعاة لخاطر المقاتلين) اصبح الخبر السياسي جزءا من حياة الناس اليومية •

الواقع ان هذه الفورة الاعلامية تدرجت في الوصول الى هذه التعددية، في البداية كانت الصحافة وحدها هي اداة علاقة الناس بالحرب • الناس تنام على ايقاع الرصاص والمدافع واذاعة لبنان في بيروت لا علاقة لها بما يجري • هنا اخذت الصحافة دورها الكبير • وبدأت الفروق الهائلة في الاعـلام الصحفي تبرز بين الحركة الوطنية والقوى الانعزالية • ففي مقابـل السفير ، النـداء ، المحرر ، الكفاح العربي ••• كان هناك صحيفة العمل شبه وحيدة وإلى جانبهـا الشرق والانوار • وربما هذا هو احد اسباب التوالد الهندسي في النشـرات الانعزالية • غير ان وسائل الاعلام الرسمية ولا سيما الاذاعة ما لبثت ان دخلت حقل الصراع مع اتساعه وامتداده •

لن نتوقف هنا عند الصحف الوطنية فاتجاهاتها خلال الحرب الاهلية تحتاج الى دراسة خاصة • كما لن نتوقف عند التلفزيون : باعتبار ان انقطاع الكهرباء تكفـل بتحجيم دورة الى اقصى الحدود • سوف نتوقف عند ظاهرتين : الاذاعة والنشرات الوطنية •

الاذاعة : « اختلط الحابل بالنابل » •

في بداية الحرب ، كان دور الاذاعة هامشيا • فالصراع على السلطـة

بين جناحي البرجوازية اللبنانية عطل اغلبية المؤسسات الرسمية ومن ضمنهـا اجهزة الاعلام • هنا برزت اذاعتان بوصفهما مؤشرا رمزيا : صوت لبنـــان (الكتائب) وصوت لبنان العربي (الرابطون) اهمية هاتين الاذاعتيـــن هـــي الرمز • فهما يشيران الى ان الحرب سوف تستمر وقد وصلت الى نقطة وجود اعلاميين اذاعيين مع ما تحمله الاذاعة من رمز الانقســـام والصراع حتـــى النهاية • نحن في ازمة مفتوحة تقول الاذاعتان • غير انه مع تصاعد حـــدة القتال ، وفي غمرة المساعي التي بذلها رئيس الوزراء رشيد كرامي لايقـــاف القتال على قاعدة بعض المكاسب الاسلامية بدا يبرز دور الاذاعة من خـــلال صوت شريف الاخوي • لقد تحول هذا المذيع النشيط الى ظاهرة عامـــة • الصوت البطيء ونبرة الرجل الطيب القلب السمحة ، عبرت في احدى لحظات الحرب الاهلية عن ظاهرتين متلازمتين : —

١ — انها جواب على الضياع الجماهيري خلال الحرب • فقد فاجأت الحرب واستحالة ايقافها الجميع بما في ذلك الذين خاضوها • فاتى صـــوت الاخوي التطميني ، الذي يدعو الى ايقاف القتال ، وكانه جواب على هـــذا التساؤل الجماهيري ، لكنه جواب يصاغ عبر اسئلة بليدة ، وكانه يريـــد ان يضيع الناس •

٢ — انه جزء من اخر حشرجات الايديولوجية المسيطرة التي يمكن بعثهـا (عاد شريف الاخوي الى الاذاعة مع دخول قوات الردع) • هذه الايديولوجية التي تعترض على القتال وضد المسلحين ، تعهر بطولات الحرب ، وتتوجه الى الاكثرية الصامتة !

لكن شريف الاخوي سقط مع سقوط الاحدب • انقسمت الاذاعـــة • فـــي « عمشيت » برز نباح جبهة الكفور وبرز خط اعلامي واضح : المعركة هي مـــع الفلسطينيين • اما في الجانب الوطني ، فقد ارتفع صوت غسان مطر وبـــرزت نبرة احمد الخطيب في لحظة بدت وكانها الولادة التاريخية وصيغت مجموعـــة من البرامج الثقافية والترفيهية ابرزهـــا اربعـــة برامج :

قل كلمتك وامش ، بنبرة شبه مدعية ، تحاول ان تصف الحرب والمستقبل مركزة على معسكر الاعداء •

الزجل مع زين شعيب عبر تركيزه على مشاكل الجنوب من منطلقـــات وطنية • وقد جاء هذا البرنامج في سياق انشقاق « فرقة زغلول الدامور » وهي احدى اهم فرق الزجل في لبنان الى اتجاهين : زغلول الدامور في اذاعـــة

الكتائب وزين شعيب في اذاعة الصنائع :

« بالكنت معنا وصرت مش معنا
تذكر انا واياك كنا رفاق
بالامس كان الدف يجمعنا
الدف انفخت وتفرقوا العشاق » ٠

برنامج « ميزان الحقيقة » الذي كان يركز على اصطياد الشعارات والمقولات الاعلامية والسياسية الانعزالية ويرد عليها ٠

بعدئذ طيبين الذي قدمه الثنائي زياد الرحباني وجان شمعون وجاء كتعبير عن لحظتين متداخلتين :

١ ــ رفض بعض ظواهر الحرب ، الاخطاء : التجاوزات ضمن سخرية لاذعة وفي قالب مألوف ، الحوار بين شخصين امام جهاز الراديو ٠ وهي ظاهرة مألوفة في جميع البرامج الاذاعية ٠

٢ ــ توجيه نقد مباشر الى التيار الانعزالي ، من خلال فهمه الداخلي وفهم تناقضاته ٠ لذلك فالبرنامج يكتسب اهميته بوصفه البرنامج شبه الوحيد للاعلام المضاد الموجه الى صفوف العدو ٠ رغم انه لا يزال يتعامل مع العروبة ومع الانتماء الوطني الصريح بحذر ٠

ان اهمية مساهمة الثنائي زياد الرحباني ــ جان شمعون ، تكمن في محاولة كسر رتابة الاعلام الوطني والوصول الى الطرف الاخر ، عبر نبرة تمتزج فيها الفكاهة بالنقد المر بالتردد السياسي في بعض الاحيان ٠

في الوقت الذي كان فيه الاعلام الانعزالي بجميع اجنحته يركز على مسالة واحدة تفسر الحرب ٠ كان الاعلام الوطني يتخبط مع الشارع في عدم القدرة على تحديد اسباب الحرب بشكل ثابت وتحديد الخط الاعلامي التكتيكي في مراحل تطوره المختلفة ٠ فالاعلام كان ضائعا في تحميل مسؤولية الحرب للفرنجية شخصيا او للتسلط الماروني او للمؤامرة الامبريالية ، ولم يكشف لجماهير المستمعين الخيط الواحد الذي يربط بين الظواهر باسرها ٠

« اختلط الحابل بالنابل » هذه الاغنية التي تحولت الى لحن يردده الجميع تحولت عن هدفها الاعلامي ٠ ففي الوقت الذي اريد بها ان تكون جزءا من الاعلام المضاد في لحظة دخول قوات الردع المناطق الانعزالية ، اصبحت تعبر عن مأساة الاعلام ومأساة المواطن ٠ لقد ضاع الناس بين مناطق تركيز الاداة الاعلامية ولم يعد احد يفهم مسار الحرب ، اختلط الحابل بالنابل ٠ وبقيت الاذاعة علامة على اشكالية معقدة لصراع قوى متناثرة لا تتوحد الا من

خارجها ٠

النشرات الوطنية ٠

الدور الاعلامي الاساسي في الشارع الوطني قامت به الصحف الرسمية٠ لكن النشرات عبرت ، بنسب متفاوتة وضمن خط وطني عام معاد للطائفيـــــة والعنصرية ، منفتح الى اقصى الحدود على المسالة القومية ، عن اتجاهات في اوساط وطنية برزت خلال الاحداث ، او تحمل خصوصية لا يعبر عنها فـــي الصحف الوطنية الشرعية ٠

ان ظاهرة نمو القوى الجديدة (المرابطون ، الاتحاد الاشتراكي ، التنظيم الشعبي الناصري ، لجان الحركة الشعبية ، التيارات اليساريـــة : التجمـــع الشيوعي الثوري ، رابطة الشغيلة ٠٠٠ والقوى اللبنانية التي على علاقـــة بفتح : اللجان الشعبية الوطنية ، التنظيم الشعبي الليناني ٠٠٠ وقوى اخـــرى: انصار الثورة ، رابطة ابناء المصيطبة)٠ ودور هذه القوى الحاسم في القتـــال الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، فرض ضرورة ايجاد اشكال جديـــدة للتعبير ليست مستوعبة في قنوات الاعـــلام الشرعـــية المرخصة ٠

ان النقاط الاساسية التي تستوقفنا امام هذه النشرات تتمثـــل فـــي المحاور التالية :

١ ــ انها تعبر عن تيارات الشباب ٠ فهذه الحرب ، سجلت كممارسة قتالية تدخل قطاعات جماهيرية كانت تقليديا على هامش السياسة اللبنانيـــة ، فاتـــت الحرب الاهلية لتسمح لهذه القطاعات الجماهيرية : طلاب ، صغار الموظفيـــن ، مثقفين ٠٠٠ بالانخراط في السياسة ٠

٢ ــ انها تحمل هموما جديدة الى الكتابة السياسية ٠ هموم الممارســـة الفعلية في اوساط الجماهير ٠ لذلك كانت تحاول البحث عن اسلوبية جديدة ، ومقترب جماهيري جديد ٠ تلخص بعض تفاصيل الممارسة لكي تحولها الـــى دروس ٠

٣ ــ غياب الطابع الاحترافي الفعلي عنها ٠ فهي في كثير مـــن الاحيـــــان تتميز بعدم القدرة على ارساء ابواب ثابتة ٠ وبهـــذا المعنى تلعـــب دور المنشور السياسي ٠ يمكننا هنا تسجيل بعض الاستثناءات ٠ لعل اهمها نشرة «صـــوت الجماهير» التي استطاعت ان تكون احدى اجمل وانصع تجارب الكتابة خـــلال الحرب الاهلية ٠ حيث قدمت تراثا متكاملا ، ومحاولة تلخيص للتجارب الشعبية

ضمن منهج سياسي واضح بشكل رائع ٠

يمكننا ان نصنف هذه النشرات ضمن ثلاث اتجاهات رئيسية :

الاتجاه القومي الراديكالي : الذي تعبر عنه « **صوت الجماهير** ، **المرابط** ، **القومي العربي**» بشكل رئيسي ٠ وهو اتجاه يحاول استيعاب تجربة النضال القومي العربي بافق جذري وضمن فهم وطني للتحالف الطبقي في مرحلة التحرر ٠ وافضل تعبير عن هذا الاتجاه هو كون **صوت الجماهير** رغم انها تصدر عن مجموعة سياسية : « لبنان الحركة الشعبية » فانها كانت جريدة جماهير الحركة الوطنية بكل معنى الكلمة ٠

الاتجاه المرتبط بالثورة الفلسطينية : الذي تعبر عنه نشرات **الفجر** ، **وطني** ٠ وهي على تفاوتها استطاعت وخاصة **الفجر** ان تعبر عن اتجاه لبناني جذري ، يلتحم بالقضية القومية وبالنضال ضد العدو الرئيسي انطلاقا من قواعد لبنانية محلية ، هذه التجربة الخاصة التي تعبر عنها **الفجر** ، لم تستطع حرفية النشرة وافتقارها الى ابواب ثابتة ان تعبر عنها بشكل متكامل فبقيت اشبه بمنشور سياسي ٠

الاتجاه اليساري : الذي عبر عن نفسه عبر مجموعة لا تحصى من النشرات الحرفية ، المتقطعة والثابتة ٠ الثوري ، راية الشعب ، صوت الشياح، الاتحاد ، الشروق ٠٠٠ تستثني من هذا التصنيف نشرة التحرير (منظمة العمل الشيوعي) والاخبار الشمالية (الحزب الشيوعي) لانهما لا تضيفان جديدا على اتجاهات صحف الحزبين ٠

يمكننا ان نشير الى مجموعة من المحاولات الخاصة في هذه النشرات :

– هناك دائما باب خاص بالشهداء ٠ وهو باب ثابت ، لا يكتفي بالاشارة الى اسماء الشهداء ، بل يشير الى مناقبيتهم ودوافعهم للقتال ٠

– هناك محاولات كاريكاتورية ثورية تبلغ ذروتها في **المرابط** التي حافظت منذ عددها الاول على تقليد نشر الصورة الكاريكاتورية ٠

– البيان السياسي الذي يتضمن ضرورة في جميع الاعداد باحجام مختلفة ، يهيمن على العدد **الفجر** ، او يكون مقدمة له **صوت الجماهير** ٠

– محاولات للاشارة الى واقع الطرف الاخر ٠ تبلغ ذروتها في **صوت**

الجماهير عبر سلسلة من المقالات والتحليلات والاخبار عن الطرف الانعزالي ٠

ـ اهتمام جزئي بالادب ٠المرابط ، صوت الجماهير ٠٠٠٠ ونشر بعض القصص والقصائد والمقابلات الادبية ٠

ـ التركيز على الممارسات المسلحة والجماهيرية ومحاولـــة ابراز دور التنظيم الذي تمثله النشرة ٠

ان التجربة التي ارادت ان تعبر عنها هذه النشرات ، نجحت احيانـــا وفشلت احيانا نتلخص في مسالتين :

١ ـ ان تجربة الجماهير تستطيع ان تقول الكثير ٠ وهي لم تكتـــب بعـد ٠ ويمكن للمناضلين كتابتها كي تشكل تراكما من الخبرات والتجارب ٠

٢ ـ ان انعطافات الحرب ولدت في بعض الاحيان ترجرجا في التحليل ، عدم قدرة على الرؤية الواضحة وهذا يعود اساسا الى هذا التعدد الاجتماعـــي والفكري الهائل الذي يقف خلف هذه النشرات ٠

لقد قالت النشرات اشياء كثيرة ، لكن المهم انها تشير الـــى مثابـــع واتجاهات القول ٠

★ ★

الحرب الاهلية ، هذا الزمن الكثيف بالاحلام والممارسات ، هـــو علامـة جماهيرنا ٠ وجيلنا الذي ولد فكريا وسياسيا من جديد ، داخل اللهب ، داخل ازمنة التغيير ، « يخرج من الحرب ليدخلها من جديد » ٠ هذا زمن الشعـب ، زمن القراء ٠ وهو يسير في خطه حتى لو تعرج الخط كثيرا ٠

فالجماهير التي خاضت الحرب تعلمت الكثير وسوف تقول الكثير بعـــد ان تحطمت الكثير من الاصنام وانهارت الكثير من العوائق ٠

٧٣، ٧٦ قصيدتان

مؤيد الراوي

I

مكان استقر فيه

هنا انتهت مقدرة امتلائي : بيروت ،

مكان ، ثقيلة بها رائحة البحر ، تطرد من الزوايا ، والمطاعم · رائحة بغير فراء ومن غير عائلة ·

هنا ، منذ الصباح ، حطفاة مظلة النوافذ ، فيها سهم دهشتي · حاملها انا ، قاتلها انا ايضا ·

بيروت سرايا المرأة تحمل زهر الحشيش فتحملني غافيا ·

بيروت ملح · مجموعة من الفواكه في جبل الغابات مصابة باليرد ·

بيروت سحاب متجول فوق همومي ، وردي الغموض · اسود · !حمر بلون نصائحي ·

هنا مقدرة الانتشاء المؤلم للغربة ، مثلما ياتي القروي بحذاءٍ الاسماك · فيسكت امامي ·

هنا دواء مسكوب على تراب الريح يطلب جرحي المنقول من عاصمة الى عاصمة فمن يحملك ويحملني

هبر النداء يحملك ويحملني للجلوس مع امرأة واحدة ، امام منضدة واحدة اشرب معهم ايامي ،

هنا زوبعة الرجل يرتب ايامه فوق منضدة ·

بيروت (اعرفها) ريح مجرفة ، امسكها · نصيحة متاخرة تغطي مرافيء يدك ايتها الايام ، تاتي من غير قامة ووجه

بيروت ثكنة الجوع مغطاة بملابس طويلة وقصيرة كما للغابة ·

بيروت مهمة الرجل اعتذار من العزلة اشد شوقا من الموت ، هو اعتذاري من العزلة ·

هنا رؤوس الفجر قامت مقصلة ·
هنا منفى السهولات · نداء · معذرة ·

هنا ايام البحث مثل انتصار الماء ، ساحت على سواحلي ·

هنا زهور الليالي وحماية بماء ، تزحف بمجرفة الزوايا · رائحة اوكيديا الحزن تدخل اليارات لتنام طليقة بعض الاحيان

هنا تقف ذاكرتي ، تمنع عن عبور الصداقة · تمنع عن عشقها

هنا حبي المشطور يهوى الانطفاء بملح الخراب

بيروت كيف اعبر هموم الشك ، كيف اطلب مجرفة لاندثاراتي القديمة

ابحث عن مخبأ ·

او كيس ·

لنقود عواطفي ، ابحث عن ساحل تاريخي المتعرج

مثل مغامرتي سهر الجحيم يقظ ببلطة القتلة يحاول اللائمة

جريئا

مع السقوط

لاحمل

الثورة ·

كانون الاول ١٩٧٣

II

مقدرة على الثبـات

في انشقاق الاحمر خطرت لمدينتي ان تجول ؛ فاسمعت باللون مختلـف البلدان

صوت الريح ، يدور دورة ، ثم يغادر وضوحي ٠

لكن الريح تكبو ، تنحني ، وما عادت تستقيم الريح لتمضي :

حدائقها الحديد والمياه في خزانات عالية

تنشق في الاحمر

تنشق في الاخضر

تنشق في

الشعب ؛

يحمل خبزه لساحات الصباح فلا يؤكل ٠

تنشق في الخليج الاحمر والاخضر الوردي :

مرجانة الثورة ، صاعدة المياه ، الى الملح ، راكضة نحو اسبانيا ٠

محاصرة بالحرس تمضي المقدرة

مطفأة العمر معلقة بين صدفتين ٠

في انشقاق الاحمر

اكدت لي المقدرة بان الساحات وجبال العناصر معامل واقتصـــاد ٠

ليس فيمقدرتها المبايعة ، وما في ليلها يسقط الطائر بجناحين

تاركا البلدان والمدن ٠

اية بلدان نطلب

اية مقدرة نؤسس في المدن ، بينما حافة القلب على راسها بلطة

في انشقاق الاحمر اكدت لنا قوة العمر
ان نؤسس الاحتلال . وما جاء من الطوائف نؤسسها سحابا .

اطفالا بيدهم شيلي يتعلمون السرقة فيخفون البلاد في الشيلي

يكرهون الشرطة

في جيش المدن .

في انشقاق الاحمر المخفي يذهب الاطفال الى الموج فيمسحون صيـــــدا بالرخام .

في انشقاق الاحمر الواضح تغيب معرفة الاعمار الصغيرة بالصـــــراع الطبقي

وشقاء الخيانة

يلزم

قتله .

تعالوا ايها الرفاق ننفض الفرح ، ونقطع الكلاب

الآهلة ، تعيش في مياهنا العالية

نضنق المشرف على مقدرتنا بياقة قميصه .

في انشقاق الاحمر تتقاطع ، باتجاهات الغرب والشمال ،

الات حادة .

من البلعات السعيدة ، مفتوحة قبالة ايادينا تشق النجوم

وهذه الاقيانوسات من خلجان الانفجار ملوحة

كعلم اسود

كعلم احمر ، لتطلق الاحمر ، او نفلق جرح ثباته ،

في انفجار الاحمر

اية اممية تؤسس

في انفجـــار الاحمر

نار حبك في ليل ، ايتها الثورة

نار حبك في حقد الدمار ايتها الاسلحة

وجمرك في ساحاتنا ينتظر في غرفنا

جسد

بين الخراب

و

الاممية ،

ايلول ١٩٧٦

أبو جابر الخليلي

(قصة)

توفيق فياض

كانت ساعة التيراسانتة في القدس ، قد دقت الثانية صباحا ،حين كان ابو جابر الخليلي لا يزال يجلس على كرسيه القش الصغير ، متلفعا بمعطفه الزيتي الثقيل ذي الازرار النحاسية المخضرة ، التي لا تزال تحمل التاج البريطاني منذ عهد الامبراطورية الزائلة ، وقد اسند ظهره الى حائط البنك البريطاني على افريز الشارع المقابل لساحة باب العامود ، ضاغطا قبعته الزيتية الكالحة ، حتى مست حوافها المهترئة ، ياقة معطفه المتسخة المرفوعة ، واتكأت على رفرفحاجبيه الاشيبين البارزين المتقابلين ، حتى لم يعد يبدو من وجهه الاثري ، غير انفه النسري الانقر ، وذقنه الاستي المغروز ، المطل من بين ثنايا كوفيته المرقطة ، الملفوفة على رقبته تحت ياقة المعطف ، زيادة في الحذر من غدر البرد القدسي القارس في مثل هذا الوقت ، والمخالف لكل تقويم فصلي • اذ ليس ابو جابر الخليلي من يخدعه مزاج الطقس في القدس ، وتقلباته المفاجئة ، فهو يعرف مزاج الطقس في القدس اكثر من معرفته لمزاج ام جابر في آخر الشهر عادة ، بل وحتى من الطقس نفسه • ويكفيه ان يطل بانفه خارج نافذة منزله الحقير في باب الاسباط، في اي ساعة من ساعات النهار ، ليقول لك كيف سيكون الليل ، واذا ما كان عليك تمديد خدمة معطفك الشتوي لتلك الليلة ام لا ، كي لا تصاب بنزلة صدرية في عز الصيف ، والعياذ بالله •

ولم يكن ابو جابر من هواة التسكع في انصاف الليالي ، والجلوس على كرسي من القش على افريز الشارع ، في هذا البرد ، كالقرد المربوط على بلاطه ، كما قد يظنه من يجهله ، ومن يجهلك عادة يظلمك • ففي الحقيقة انه كان يفضل الف مرة ، الانجماء الى جانب ام جابر ، والتمطط تحت اللحاف في مثل هذا الطقس البارد ، والاحتكاك بجسدها المريرب الدافيء • الا أن رزق العيال له احكام ، ولكل رزق نطة ، ونطة « ابو جابر الخليلي » لسوء حظه ، اختارت الليل على كبر موعدا لها ، وحرمته الكثير مما احله الله في الحلال من نعمة الليل ، الى

جانب ام جابـــر ٠

وخلاصة القول ، ان « ابو جابر الخليلي » كان مضطرا لهذه النطة ، لانه كان يعمل حارسا ليليا ، ومنذ عشر سنوات ، اي منذ كان في الثانية والاربعين من عمره ٠ اما لماذا طاح على هذا الكار النحس على كبر ، فذلك لانه كان قبـل ان يصبح حارسا ، يعمل شرطيا ٠ ولم يكن ابو جابر شرطيا عاديا ككل رجـــال الشرطة ، بل شرطي تحاريز ، اي أخف وانظف وظيفة يتمناها شرطي قنوع بمـا قسمه الله له مثل « ابو جابر » ، ولا يطلب من الخالق عز وجل ، غير الصحـة والعافية ، كي لا يقصر في حق ام جابر وفي حق الاولاد ، الى ان تحيله الدولة على المعاش بعد عمر طويل ، فيفتح له دكانا صغيرا لصق البيت ، ويقضي بقية العمر بالقرب من ام جابر وبيت الله ، بعد ان يكون قد زوج الاولاد وارتاح من شقائهم، ولم يعد لديه من هم الا ان يتقاسم « هالرغيف » الحلال مع ام جابر ، وهي معززة مكرمـــة ٠

ولم تكن واجباته في الخدمة كشرطي تحاريز ، والحمد لله ، تتعدى اكثـر من ابلاغ الناس اوامر الحجز والحبس الصادرة في حقهم ، وان يداوم احيانا في سجن التوقيف في « القلعة » ، حيث كان يرافق الموقوفين الى بيوت الخلاء لقضاء حاجاتهم ، او للاستنجاء والوضوء ، وعلى اسوأ الاحوال ، كان يرافق احـد المخاتير ، كممثل للقانون ، الى بيت احد المحجوز عليهم ، لتنفيذ امر الحجز ٠

وهكذا ظل ابو جابر راضيا بمهنته هذه ، ويحمد الله عند طلوعها ومغيبها ، على رضاه ونعمته ، الى ان اختاره المثل القائل « اعمل خير شر تلقى » لاثبـات صحته عليه ، أما الخير الذي كان يعمله ابو جابر دائما ، فهو حفاظه علـــى الاخلاق ، بادئا في بيته ٠ اذ كان من اشد الناس حفاظا على الاخلاق والحشمة، وكان هذا يكفيه دلالة على انه خليلي ابا عن جد ، رغم انه مولود في القدس ، حتى انه كان يرى ان مجرد النظر الى فتاة في الشارع او على البلكون نظرة مقصودة، او اية كلمة من باب تسميع الكلام المبطن،سواء كان ذلك بقافية او بغير قافية،يعتبر من باب الزنا والفجور ، ويستحق صاحبه الجلد عليه ٠ فكيف وقد وصل الىعلمه، وثبت بالدليل القاطع ، ان احد ضباط مخفره الاردنيين ، على علاقة اثيمة بامراة مشبوهة ـ والله يستر عالولايا ـ من حارة الغوارنة ٠ واكثر فقد منحها حمايته وحماية المخفر بما فيه ابو جابر نفسه ، فراحت تصول وتجول على رأسها ، دون اي رادع ٠

وبالطبع ، ليس ابو جابر الذي يسكت على ذلك ، فلا بد وان يبريء ذمتـه امام الله ورسوله بـ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، كما جاء في كتابـه

العزيز • وسرعان ما وصل امر « ابو جابر» بالمعروف ونهيه عن المنكر اسماع الضابط المذكور ـ ولا داعي لذكر اسمه ، فله رب يحاسبه ـ فاصدر امـــــرا باعتقاله • ومع من ؟ مع الذين كان قبل ساعة فقط ، يرافقهم الى بيوت الخلاء !! والحجة ، انه شتم جلالة الملك ، وكان يحرض المساجين على النظام ، والانكـــى من ذلك كله ، انه قومي عربي •

والحقيقة انه لم يكن يعرف ما خطورة ان يكون رجل مثل « ابو جابـــر الخليلي » ، قوميا عربيا ، مما جعله يسخر من الضابط المذكور ، ويقول بكـــل اعتزاز ، انه بالطبع قومي عربي ، والا ماذا يكون اذا لم يكـــن قوميا عربيا ، « صهيوني ؟ واللا اميركاني !!؟ » وعندما عرف ماذا تعني هذه الكلمة ، حمد الله الف مرة أنه لم يود بنفسه في داهية بهذا الاعتراف الخطير الذي لم يجبره عليـه احد • اما بالنسبة للتهمة الاولى والثانية ، فقد رفض ان يجيب عليهما مطلقا ، لانهما باطلتان من اساسهما •• « قال ابو جابر شتم الملك قال ! اي هو ابو جابر عمره شتم حدا ، ان كان ملك وللا زبال ؟ وللا عمره تعاطى السياسة وتخرف فيها »

وبفضل ام جابر والاجاويد ، اكتفى الضابط المذكور بعقد مجلس تاديبي له، حيث اخذ بعين الاعتبار سنوات خدمته العشرين ، وماضيه النظيف ، فاكتفـــى « بترميجه » فقط ، ودون مكافأة • وهكذا خرج ابو جابر ، يا ربي كما خلقتني •

ولكن ليس ابو جابر الخليلي ، من يسكت على هذا الظلم وقطع رزقه ، اذ ان قطع الارزاق من قطع الاعناق ، فراح يطس الضابط المذكور ، الشكوى «بقفا» اختها ، مع ان الشكوى لغير الله مذلة ، ولم يترك وجيها الا وطرق بابه ، « من انور نسيبه وجر » ، واقسم ان لا يترك المسالة فالتة ، حتى لو كلفه ذلك بيع مصاغ ام جابر والسفر الى عمان ، والجلوس امام قصر رغدان ، حتى يخرج الملـــك « فيسبق » له ويرمي بنفسه على سيارته ، ولن يحل عنه حتى يسلمه العريضة ، التي كان قد كتبها له أحد الاساتذة الفهمانين سلفا ، في حق الضابط ، ونقلها هو بخط يده كي لا يتطبق على ذلك الاستاذ هو الآخر المثل ، ثم دار بها على كل اهل الحارة ، ، حتى جمع اكثر من عشرين توقيعا وبصمة ، تشهد كلها بان « ابـو جابر الخليلي » ، رجل يخاف ربه ، ويحب مصلحة الناس ، ولم يتعاط في حياتـه كلها ، لا سياسة ولا خساسة •

وكانت هذه الفكرة قد استقرت في راسه ، وعزم على تنفيذها • وقد ذهب الى سوق الصاغة فعلا بسوار لام جابر يثمنه ، لولا ان جاء اليه ابن حلال ، ولا داعي لذكر الاسماء ، وافهمه على حدة ، بأن يترك هذه الحكاية وبدون فضائح، وأن عليه ان يحمد ربه لانهم اكتفوا بترميجه فقط ، ولم يدفنوه في سجن الجفر حيا،

لان عزوة الضابط الذي نهاه عن المنكر ، تشمل فلانا وفلانا من اهل القدرة والحول ليس في قصر رفدان وحسب ، بل وفي « بسمان » و « الحمر » ، ويكفيه خال الملك شخصيا • ناهيك عما لتلك « المستورة » من سلطان في كل المخافر في القدس ، هذا اذا نسي ان تهمته توصل الى المشنقة ، وليس الى الجفر وحسب • ومن ثـــم « مين انت يابو جابر ، اي هو الكف يلاطم مخرز !؟» •

ولان اللبيب من الاشارة يفهم ،فهم ابو جابر الخليلي ، واقتنع بالمقسوم ،ليس خوفا من سجن الجفر او من المشنقة ، اذ ليس ابو جابر الذي يهاب الموت ، وانما اشفاقا على « رملة » ام جابر وهو على قيد الحياة ، ناهيك عن انها لا تـــزال في عز صباها ، والسنة الناس لا ترحم ، ومن ثم من يدريه ، فقد تصبح « الرملة» في سجن الجفر « رملتين » فعلا ، اذ لم يسمع في حياته عن شخص دخله وخرج منه •• ولم يعد من العمر قدر ما مضى •

ولان ابو جابر لا يقنط من رحمة الله ابدا ، ويحمده ، « عالمليحة وعالعاطلة» دائما ، رافقه ابن الحلال هذا الى الغرفة التجارية ، فاعطته عصا وبدلة رسمية ومصباحا يدويا ، ورزمة اوراق صغيرة ليثبتها في الاقفال ، وارسلته لحمايـــة ارزاق الناس في الليل ، من اللصوص والعابثين ، والحمد لله ، ولا يحمد علـــى مكروه سواه ، كله اكل عيش ، وان كان عيش المخفر يؤكل في الدفا والعفا ،وعيش الغرفة التجارية ، يؤكل في الحريق والغريق • ولم تكن ام جابر هذه المرة بحاجة لان تذكره ، بانه لو راى الناس « مضفحجين في نص الشارع » ان لا يتدخل بهـم ويا ربي اسالك نفسي •

وهكذا مرت السنون ، وكاد ابو جابر ينسى حكاية الضابط والامـــراة المشبوهة ، وكل ما سببته له من متاعب ، فانما كعادته يقسمه سبحانه وتعالى ، لولا ما كان مخبأ في الغيب ، وحصل ما لم يكن بحسبان احد ، بل واخر ما كـان يتصوره ابو جابر انه سيحصل ، اذ بين عشية وضحاها كان الصهاينة قد اجتاحوا القدس واحتلوها ، والعلم الاسرائيلي يرفرف فوق المسجد الاقصـــى ، بعد ان انسحب الجيش الاردني بما فيهم ذلك الضابط الفاسق ، وسلموها لليهود تسليم اليد • وعلى قول المثل « اللي ما بتعب بزيتونه ، بهون عليه قطعها ! »•

ولما كان ابو جابر رجلا عاقلا ، وليس له اي دخل في السياسة ، لا من بعيد ولا من قريب ، لزم بيته مع ام جابر والاولاد حسب تعليمات القوات المحتلة وراديو اسرائيل ، بعد ان علقت ام جابر خرقة بيضاء على عود حطب ، وثبتتها فوق باب البيت ، منتظرين الى ان تروق الحالة ، وبعدها « اللي بيجـــي من الله فرج » ، والحمد لله ام جابر كانت حاسبة حسابها وعندها مونة سنة » •

وما كادت تمر عدة اسابيع على هذه الحال ، حتى سمع ابو جابر ذات ليلة على خبط شديد على الباب ، فقفز من فراشه مذعورا وهو يستعيذ بالله ، ورجلاه لا تحملانه حتى لكي يقف ويشعل القنديل ، وام جابر ترتجف الى جانبه كالفصلة ، وتتشبث به كي لا يفتح الباب ، وخاصة انها كانت قد سمعت ، ان الصهاينة يدورون على البيوت ، ويأخذون الرجال ، ثم يقتلونهم بعد تعذيبهم . الا ان « ابو جابر » نهض من فراشه وهو يطمئن ام جابر الى انهم لا بد وان يكونوا قد اخطأوا بالباب فقط ، فكل العالم يعرف ان « ابو جابر » لا يتدخل بشؤون السياسة ولا يكش ولا ينش ، وعليه ان يتصرف بحكمة والا اثار الشكوك حوله ، حتى انهم اذا كانوا لا يقصدونه ، فانهم سيأخذونه اذا ما ابدى اي تصرف يثير شكوكهم .

وما ان فتح الباب ، وام جابر تضع يدها على قلبها وتقرأ اية الكرسي مشددة على ان يجعل الله من امامهم سدا ومن خلفهم سدا ، حتى انقض عليه بعض الجنود ، واضعين « الكلبشات » في يديه « من الباب للطاقة » ، ودون اي سؤال او جواب . وللمرة الثانية تثبت ام جابر ، انها اصيلة وبنت اصل ، اذ انها حين رات ان الله لم يجعل من أمامهم سدا ، نسيت انها كانت ترتعد قبل لحظات كالفصلة ، وصرخت صوتا من « قحف » راسها ، وهي تقفز من فراشها وتتشبث به حائلة بينه وبين الجنود ، محاولة منعهم من اخذه ، وراحت تشرح لهم انهم لا بد وان يكونوا قد اخطأوا ، مما جعل ضابطهم يشكك فيما لديه من تعليمات ، وينظر الى ورقة كانت في يده ، ويسأله اذا ما كان هو محمد حسين الجابر الملقب « ابو جابر الخليلي » ، والذي كان يعمل شرطي تحارير . فهز ابو جابر راسه بالايجاب ، وقد فتح عينيه على وسعهما كما لو كان لا يصدق ما يحدث ، وراح ينظر تارة الى ام جابر ، وتارة الى الضابط ، وقد نسي ما هو فيه ، وان يديه مقيدتان ، ولم يعد ليشغله الا كيف عرف هذا الضابط الاسرائيلي ، انه هو محمد حسين الجابر بالاسم ، وابو جابر « الخليلي » باللقب ، والانكى من ذلك انه كان يعمل شرطي تحارير ، في الوقت الذي كاد هو نفسه ينسى ذلك ، وهكذا لم يعد هناك اي مجال للشك في ان الجنود ليسوا على خطا ، فاقتادوه دون ان يتركوا له وقتا ، يودع فيه ام جابر ولا حتى الاولاد الذين تقاطروا من حوله كالزغاليل . والى اين !؟ الى المسكوبية !! حيث وجد نفسه في القاووش الكبير ، الذي يعرفه جيدا ، مع ما يقارب الخمسين او الستين رجلا ، حتى خيل اليه ، انهم لم يتركوا رجلا في القدس الا واعتقلوه .

ومن في القدس لا يعرف ابو جابر الخليلي ، فتجمعوا حوله ، وهم لا يكادون يصدقون اعينهم ، وان « ابو جابر » بلحمه ودمه هو الآخر معتقل بينهم ، وخاصة بعض الاشخاص ممن كان يرافقهم ايام زمان الى بيوت الخلاء ، حين كان يعمل شرطي تحارير . ثم راحوا يسألونه ما الذي فعله حتى اعتقلوه ، واذا ما كانوا

وجدوا عنده سلاحا ؟ ولكنه قرر الصمت ، فلا يجيب الا بكلمة لا اعرف ، لان كلمة لا اعرف تريح صاحبها ، ومن ثم ، فاذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وهكذا لم يخبرهم بما حدث اطلاقا · وهكذا ظل ما يقارب الاسبوع وهو لا يدري لماذا هو معتقل ، رغم ان الثأر بدأ يلعب في عينه ، بعد ان تحقق ، من ان جميع المعتقلين معه ، هم ممن وجدوا عندهم سلاحا ، أو من اصحاب السوابق السياسية على عهد الملك حسين ، فمنهم « القوميون » ، ومنهم « الشيوعيون » والعياذ بالله ، مما جعل قلبه ينقز ، اذ ما دخله هو في كل هذه المسائل ؟ صحيح ان الجيش الاردني فرض عليه ان يحمل بندقية قبل الحرب باسبوع ، ولكنها كانت بندقية طليانية مبردة من ايام الحرب العالمية ، فرماها في الشارع دون ان يطلق بها طلقة واحدة ، وقبل ان يدخلوا القدس ·

ولم يكن ابو جابر يعرف ، ان المخابرات الاسرائيلية ستنبش اوراقه القديمة ، الا حين استدعوه في منتصف الليل ، وما كاد يدخل غرفة التحقيق ـ والعياذ بالله ـ حتى صرخ به المحقق كالمجنون « قومي عربي ·· ها ! » فكاد ابو جابر يقع على الارض من هول المفاجأة ، اذ كان آخر ما يطرأ على باله ، وراح يحاول بكل ما استطاع من حنكة ، ان يقنع المحقق بانه لم يتدخل في حياته في السياسة ، وان القصة كلها انه عمل خيرا فشرا لقي ، حين حاول ان ينهي ذلك الضابط الاردني الفاسق عما يغضب الله ، فاتهمه انه « قومي عربي » لكي ينتقم منه · الا ان المحقق لم يمنحه الفرصة لذلك ، وقاطعه بان لطمه على وجهه لطمة ادارت الدنيا امام عينيه ، وهو يصرخ به محتدا ، وبعربية سليمة « انت واحد كذاب يابو جابر ·· كذاب كبير » ثم تقدم منه فاردا ملفا قديما امامه وبدأ يقرأ بصوت متهكم « بالطبع انا قومي عربي ، والا ماذا اكون ان لم اكن قوميا عربيا ·· صهيونيا ؟ ام امريكيا !!؟ » · وقبل ان يصحو ابو جابر من دهشته وخاصة لهذه الصيغة التي سجلت فيها اقواله ، كان المحقق قد طرقه كفا اخر بكل قوته على طبلة اذنه صارخا بغضب :

ـ ساله الصهيوني يابزونك ·· مش عاجبك !!؟

ولم يدر ابو جابر بماذا يجيب ، وقد عزت عليه نفسه ان يهان مثل هذه الاهانة في آخر العمر ، ولو بقي الامر عند لطمه لهان الامر ، اما ان يقول له « بزونك » فهذا كثير ، واكثر مما يحتمله ، رغم انه اراد ان يقنع نفسه ان المحقق لا يعرف معنى هذه الكلمة بالضبط لانه يهودي ، فلو قالها باللغة العربية لما ترك شكا في انه يعنيها ، اما ان يقولها بالتركية فهذا يعني انه يعرف اذنها شتيمة ولكنه بالتاكيد لا يعرف معناها ·· وأحس ابو جابر وكأن حجرا يتوقف في حنجرته يمنعه حتى من ان يقول لهذا المحقق الشاب « عيب عليك يا ابني انا قد ابوك »

فاطرق والدموع تكاد تطفر من عينيه « قال ابو جابر يزونك قال ·· انت يابو جابر الخليلي يزو ··· » ، واستفاق ابو جابر على الحقق مرة اخرى وهو يدقه فيرأسه بعقد أصابعه ، مش عاجبك الصهيوني يا عرص ها ·· مش عاجبك يا جوز ··

لم يعد يسمع ابو جابر ما يقوله الحقق ، بعد أن خانته رجولته ، وراحت الدموع تنهمر من عينيه بصمت وهو يتمنى لو ان الارض تنشق وتبتلعه ·· فأين سيخبيء وجهه بعد الآن من وجه ام جابر ، « ام جابر الاصيلة بنت الاصل يقول عنها ···· » ، ولكن الحقق لم يترك له وقتا حتى ليبكي ، فأمر بجره من الغرفة « ووين الجنب اللي يوجعك يابو جابر » الى أن اغمي عليه ، ولم يعد الى رشده الا في القاووش الكبير ، وجميع الموقوفين يتحلقون حوله ، ألا انه سرعان ما اغمض عينيه المورمتين مرة اخرى ، على صورة ام جابر ، لائما نفسه على ما سببه لها من اهانة ، وما جره عليها من نكد العيش « بلعبطاته » ، وهو لا يدري اذا ما كان سيراها مرة اخرى أم لا ··

ولكن ام جابر لم تسكت على هذا الظلم الذي لحق بـ « ابو جابر » ، وراحت تركض من دار فلان الى دار علان ، ولكن على قول المثل « مين ايده في المي ويحطها في النار؟ » وكادت ام جابر تيأس حتى انها كانت مستعدة لان تفديه بكل مصاغها ، لولا ان نصحها احد الذين لا يريدون وضع يدهم في النار ، ان تحزم امرها ،وتذهب الى الشيخ الجعبري في الخليل · فابو جابر خليلي « والعود بحن عقشرته» ، اذ لا احد في هذه الايام له ما للشيخ الجعبري عند اليهود من جاه وقدرة ،وبالتالي كلمته عندهم لا تصير اثنتين ، وكلمة تعيد اليها « ابو جابر » والا فطس في السجن ، « واللي بتطلع عليك بعين تطلع عليه بالتنتين » ، وكان فهم ام جابر كافيا ·

وبالفعل لم يخيب لها الشيخ الجعبري ، ثوابه عند ربه ، رجاء · ولم تمض عدة اسابيع الا وابو جابر في البيت ، ولكن بعد ان « شاف نجوم السما في عز الظهر » · وما ان مرت عدة شهور ، وهدأت الاحوال ، حتى عاد ابو جابر الى كاره ، فحمل عصاه وفانوسه ، وعاد الى حراسة ارزاق الناس كما كان في السابق ، وعلى الاقل لم يرموه من عمله ، كما فعل ذلك الضابط الفاسق الذي جر عليه هذه المصائب ، وما ذنب اليهود « ما هو سوس الخشب منه وفيه » ·

وكان ابو جابر يسلم بالمثل القائل « اللي بتجوز امي هو عمي » ، فلا فارق عنده سواء حكمها الملك حسين او حكمها موسى ديان ، « قال له يا فلان مين احسن الحية السوده واللا الحمرة ؟ قال له التنتين ابلا من بعضهن ، والتنتين بنابهن سم » ، المهم ان يبقوا بعيدين عنه ، لا يقتربون منه ولا يقترب منهم · الا انه سرعان ما وقف على خطئه ، فما كاد يمر شهران على عودته الى عمله ، حتى استدعاه

الحاكم الى مكتبه ، واخبره انه اذا اراد ان يحافظ على وظيفته ـ « مقال الحراسة صارت وظيفة على اخر الزمن » ـ فعليه ان يراعي مصلحة الدولة من « المخربين» الذين بدأوا يقذفون القنابل اليدوية على الجنود الاسرائيليين ، ويضعون المتفجرات لقتل الناس ٠

ولم يفهم أبو جابر باديء الامر ما الذي يعنيه في كل هذه المشاكل، «فوظيفته» كما يعرف هو ، ان يحافظ على ارزاق الناس من اللصوص واولاد الحرام ، اما « الخربين » الذين يقول عنهم سعادة الحاكم العسكري ، فلا دخل له بهم ، وكل واحد ذنبه على جنبه ، الا ان الحاكم العسكري سرعان ما ذكره ، انه لولا خاطر الشيخ الجعبري ومعزته عند موسى ديان شخصيا ، لما كان قد خرج من السجن قبل عشرة اعوام على الاقل ، لان تهمته كانت خطيرة ، ولما كان يعود الى وظيفته وكان شيئا لم يحصل ، ولما كان ليتنازل فيجلس معه ٠٠ ومن ثم من ادراه ان «ابو جابر » قد نفض يديه فعلا من القوميين العرب ، وانه ليس «مخربا» ، ككل المخربين،ولذلك عليه ان يثبت له الان عكس ذلك ، ويراقب هؤلاء «المخربين»الذين لا يتحركون الا في الليل ، وما دام عمله في الليل ، فلن يكلفه ذلك اي عناء ، وانما سيفعل كل شيء بحكم وظيفته ، ثم ما عليه الا ان يأتي ويخبر الحاكم فقط ، اذا ما راى او وصل الى علمه اي معلومات تدلهم على هؤلاء « المخربين » ـ قال الفدائية صاروا مخربين ، طب واله الواحد لولا الخوف ٠٠ ـ وهكذا يريح الناس من بلائهم ٠

ورغم محاولته اقناع سعادة الحاكم العسكري ، أن لا دخل له في كل هذه المشاكل وانه يريد ان يظل بعيدا عن السياسة والذين يعملون بها ، وانشاء الله بعقولهم مشنقة بساحة الجامع » ، الا ان الحاكم العسكري اخبره ان « المقابلة » قد انتهت ، وعليه ان يفكر في الامر جيدا ، لمصلحته ومصلحة زوجته واولاده ، وهكذا خرج ابو جابر وهو لا يعرف رأسه من رجليه ، وعاد الى البيت « يا كبكبا تعسة » ٠ ولكنه ولاول مرة لم يشارك ام جابر في همومه ، ولم يطلعها على ما حصل له ، كي لا تحمل الاولاد معها وتقطع النهر ٠ وكان قد قرر بينه وبين نفسه ان يتحايل على الحاكم العسكري ، وأن يقول له اذا ما استدعاه مرة ثانية ، بل وسيقسم له على المصحف ـ ففي هذه الحالات لا يطاله اثم ـ بانه لم يسمع ولم ير في الشوارع غير هؤلاء « الصبع والدشر » من الشباب والبنات الذين صاروا يفيضون عليها من القدس ، الا انه غير رأيه كي لا يفسرها الحاكم على هواه فيورط نفسه ، ولهذا قرر ان يقول له بانه لم ير ولم يسمع شيئا فقط ، مع ان ابو جابر يعرف كل شاردة وواردة في القدس ، ولا تخفي عليه خافية ، حتى انه يكاد يعرف ما يتعشاه كل واحد ، وخاصة في منطقته ، كل يوم ، فارتسمت على شفتيه ضحكة ساخرة من مكره ، حين اعتقله المظليون الاسرائيليون من جملة الذين

اعتقلوهم ، في نفس الليلة التي القى الثوار القنابل فيها ، على السفارة البريطانية ، فانكر في التحقيق ان يكون قد رأى او سمع شيئا،« قال لا سمع ولا شاف قال ·· اي هو فيك يا بو جابر غير عينيك وذينيك !؟ » ، ولو انه رأى هؤلاء « المخربين » لكان ذهب من نفسه واخبر سعادة الحاكم العسكري بنفسه · صحيح انه قال عن الفدائيين انهم « مخربين » ويكاد يبصق على نفسه حين يتذكر ذلك ، ولكنه لم يتفوه بحرف واحد يكشف عنهم بل وكان مصمما على الانكار حتى ولو شلقوه ··· « وان زادوها هالمرة بدي اطبق القول بالفعل ، وما دامهم كل ما دق الكوز بالجرة بيقولو انت قومي ··· لا بدي اصير قومي من حق وحقيق ، ومش بس قومي لا يا سيدي بدي تصير فتح كمان ··ولا بصير جاسوس» ·

وتخيل ابو جابر نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، ويخبره انه « شاف الحاج محمد وبدر الدعنة ، يرموا القنابل عالسفارة البريطانية شوف العين ، وكان ابن ·· » ، فانتفض وهو يرفع رأسه ، وكانه يفيق لتوه من حلم مزعج وهو يتمتم : « باطل عليك يا بو جابر ·· هاي آخرتك ؟ تصير جاسوس للصهاينة » · وتخيل نفسه وهو يدخل على ام جابر ، وهي تقف له بالباب ، تنظر اليه كما لو كانت يافقته عند تلك الامراة المشبوهة من حارة الغوارنة ، ففرك عينيه وكانه يتحاشى نظراتها ، ثم راح يستغفر ربه ، على هذه الافكار التي هبطت عليه فجاة ، وراحت تلاحقه ، ثم ما لبث ان شتم المومسات والسياسة ، وهو ينهض من مكانه ، عازما على القيام باخر جولة تفقدية ، دون ان يفكر في شيء من هذا القبيل ، ثم يذهب مباشرة الى البيت مع صلاة الصبح « واللي يصير يصير ، وان شاء الله ما بظل ناس ولا بظل رزق » ·

عدل ابو جابر طاقيته ، وشد معطفه على جسده جيدا ، ثم انحنى على الكرسي وتابطه لايداعه في فندق « البتراء » ، كما اعتاد ان يفعل عند كل جولة تفقدية ، حيث يبقى صاحب الفندق مستيقظا ، ليس لسبب الا انه اعتاد ربما على ذلك ، ومن ثم الله وحده العليم بسرائر الناس ، فليس كل الناس مثله ومثل ام جابر ، « راسين على مخدة » ، منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما والحمد لله · والا ما الذي يربطه في الفندق طول الليل ، « لا شغلة ولا عملة» ، فالفندق يكاد يكون خاليا منذ الاحتلال الاسرائيلي ، ولا يؤمه سوى بعض « الصبع » الاجانب ، وبعض الشباب العرب من الارض المحتلة سابقا ، الذين ياتون للقدس في آخر الاسبوع كالخواجات ، ليتمرغوا عليها ، ويزوروا المسجد الاقصى ــ « مش بقولوا تانصلي فيه الا تانزورو !!» ·

ورغم ان ابو جابر كان يغضب عندما كان يسمع من احدهم كلمة «تايزور» وليس « تانصلي » ، وخاصة ممن ينزلون في فندق البتراء ، الا انه كان يحس بحزن عميق لما وصل اليه اهل الارض المحتلة سابقا ، من قلة الدين ، ثم لا يلبث

ان يعذرهم ، ويحمد ربه ، اللي بعدهم بحكوا عربي تحت حكم اليهود كـــل هالمدة ، وعلى الاقل بعدهم بيقولوا عن حالهم عـرب ومسلمين » ٠

والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، فلهذا كان ابو جابر يتحاشى ان « يعمق» في الحديث معهم في هذه الامور ، وخاصة ان صاحب الفندق ، وهو يعرفهم جيدا، قد اخبره ان اهل الارض المحتلة سابقا ، تصفهم شيوعيون ، وهذا يعني انهـــم ملحدون ، والعياذ بالله ٠٠ والنصف الآخر جواسيس لليهود ويعملون مـــع « الاستخبارات » الاسرائيلية ، وهذا ادهى وامر ، وعلى كلا الحالتين شر ، ولهذا فانـــه ٠٠٠

قاطعته صورة نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، وتردد في ذهنـه ما قاله له مرة أخرى ، وكيف انه لم يجرؤ على ان يقول له « انا ٠٠ ابو جابـر الخليلي ، اصير جاسوس للياهود ؟! طب والله ما انا صاير واللي بدك تعملـه اعمله » ، وما ان كادت افكاره تنطق بذلك ، حتى انتفض كمن لسعته حية ، وهو يشعر برعشة باردة تتملكه ، متخيلا نفسه وهم يقتادونه الى السجن وام جابـر تلطم على وجهها وتقد ثوبها ، فاستغفر الله وهلل له ، ثم اتجه نحو فندق البتراء ٠

كانت جولة « ابو جابر » تشمل الشارع الذي يوصل من باب العامود الى باب الساهرة ، حيث ينعطف يسارا الى شارع صلاح الدين ، ويغادره قـــرب المجمع الحكومي الذي اصبح بعد الاحتلال مقرا للحاكم العسكري الاسرائيلي ، حيث ينعطف يسارا مرة أخرى الى طريق نابلس ، ويغادرها في منتصفها الـــى المصرارة ، ثم يعود ادراجه الى باب العامود ، فيعرج على قهوة الشيخ عبـــد الصغيرة القائمة على زاوية شارع المصرارة ، حيث يشرب الشاي ، ثم يكمـــل « الحصة » التي لم يتفقدها من طريق نابلس ، ويكون الصباح قد طلع ، بينمـا هو في طريقه الى البيت ٠

كان باب العامود هامدا نائما ، والدكاكين في الطريق الى باب السـاهـرة مطبقة اشداقها ، فراح ابو جابر يتفقد اقفالها ، ويحشوها باوراق الحراسة التي كانت الانظمة تقضي بأن يحشو الخفير ورقة منها في كل قفل ، والمفـــروض في شاويش الحرس ، ان يخرج في جولة عامة بعد جولة الخفير ، فيستخرجها ، ولكن الشاويش المحالي « ابو العبد » ، التي كثرت اشغاله في النهار ، والله وحـــده يعلم ما هذه الاشغال التي تقتضيه ان يداوم في مقر الحاكم العسكري ، جعلته يبقى في مقره الدافيء في الليل ، ولا يزعج نفسه بالتفقد ، وعليه كان ابو جابر يستخرج الاوراق القديمة ، ويحشو اخرى في مكانها ، من باب قتل الوقت فقط ، اذ ان الزمن الذي تستغرقه الجولة ، يتراوح طولا وقصرا ، حسب مزاج « ابو جابر » ، فاذا

جد وقصد · انهاها في نصف ساعة ، واذا « تملكع » وسرح بافكاره ، وهذا مـا يحدث له دائما ، استغرقت ساعة او ساعة ونصف · هذا ـ لا قدر الله ـ اذا لم يلتق باحد ابناء الليل الذين كثروا في المدة الاخيرة ، يداعب اقفال الدكاكين ، فقد ينهي الجولة في المستشفى ، او على احسن الاحوال ، في مخفر الشرطة ، يدلـي بافادته عن ظروف الحادث وملابساته ، فلا يعود الى ام جابر الا بعد ان تصبح الشمس على ارتفاع قامتين او اكثر ·

ويصل الى باب الساهرة بأمان الله ، وصوب نظرة غيظ الى الحارس الاسرائيلي الذي يحرس البريد ، والذي كان يقعي في مكتبه لا يغادره والبندقية المرشاشة امامه ، غير آبه بأحد ، وكأنه في نص تل ابيب ، لان دوريات حـرس الحدود والمظليين ، لا تنقطع عن اللف غير الذين فوق السور ـ « الله يكسـر بخاطرك يا حسين كيف كسرت قلوب هالناس » ـ ، وعندمـا انتبه الـى ان الحارس ينظر اليه ، حول نظره الى اقفال ابواب الحوانيت ، ثم عزم على تفقـد شارع صـلاح الدين ·

قبل الاحتلال كان هذا الشارع كبقية الشوارع ساكنا ، راكـدا في الليل ، والوظيفة كلها قبل الاحتلال ، لم يكن ما يعكرها ، سوى الالتقاء بعض الاحيـان بازعر او اثنين ، او باحد السكارى والمشاشين ، الذين كانوا يتأبطون بعضهم ويترنحون في الشارع ، محاولين الاهتداء الى منازلهم فتختلط عليهم ابوابهـا بابواب الحوانيت المحيطة بها ، فيبدؤون بمعالجتها ، فلا يحتاجه الامر لاكثر من صرخة وتلويحة بعصاه ، لكي يهتدي الواحد منهم الى باب بيته بسرعة ·

اما بعد الاحتلال ، والعياذ بالله ، اصبح لا يلتقي الا بشبان يعانقـون الفتيات ويقبلونهن في منتصف الشارع.فكانت هذه المشاهد تثير حفيظة «ابو جابر» وتغيظه ، فاذا كان قد فقد وظيفته السابقة لانه لم يسكت على ما كان يفعله ضابطه بالخفاء،فكيف باولئك الذين يفعلون كل ما يغضب الله ورسوله في منتصف الشارع دون حياء او خجل !؟ · وخاصة ان صلاحياته كانت على الاردن ، تخول له القاء القبض عليهم وحتى ضربهم ، دون ان يجرؤ الواحد منهم على فتح فمه ، وكاد يفعل ذلك مرة مع زوجين جديدين ، اما القانون الجديد ، فلا يتيح له التدخل الا في حالتين غير معقولتين ، وهما اذا استنجدت به الفتاة او طلبت الشرطة ، وثانيا اذا كان الاثنان يمارسان الدعارة بمعناها الحرفي في الشارع ، والحالتان غير معقولتين، لان الفتاة لولا انها فالتة على رسغها ، لما كانت تدور في انصاف الليالي مع شاب وتبادله القبل ، ولهذا فان اي تدخل من « ابو جابر » سيكون اعتداء منه على حريتها كما يقول القانون الجديد ، وربما ورطه ذلك بورطة ادهى مـن ورطة الضابط · اما بالنسبة للشرط الثاني فهو غير معقول ايضا ، لان الشارع

لا يعتبر المكان المريح لمثل هذه العملية .

وضبط ابو جابر عينيه وهما تجولان في شارع صلاح الدين علّه يجد فيه مكانا ملائما للحب . فانتفض واستعاذ بالله ، اذ وقبل ان يطلع الفجر لا سيرة له ولا شاغل الا الدعارة والسياسة ، بدلا من ان يذكر ربه ويحمده ، فشد ابو جابر فكيه يطبقهما متابعا جولته ، وقد عزم على تصفية افكاره وابعادها عن هذه الوساوس التي لا بد وان الشيطان يطارده بها .

ولكنه ما يكاد يسير قليلا حتى شعر بعتاب خفيف يساوره تجاه ربه عز وجل ، فقد قال في كتابه العزيز وهو اصدق القائلين بان « الفاسقين عذابهم اليوم، ومع ذلك يرى الفاسقين ينتصرون على امة محمد ويحتلون المسجد الاقـ.... ومرة اخرى استفاق ابو جابر لنفسه ، وراح يعنفها على افكارها وهواجسها ، ان ما كاد يحولها عن الدعارة والفسق ، حتى ادخلته هذه المرة في السياسة ،وهذا ادهى وامر . فاذا كان عقاب القضية الاولى في الدار الآخرة ، فعقاب الثانية على بعد امتار منه . في المسكوبية ، ولا مجال فيها للتوبة والعفو . ولهذا فالابتعاد عن السياسة اسلم واضمن ، وعتاب ربه في هذه النقطة عدا عن انه كفر ، فهو مسألة سياسية بحتة .

كان قد توغل في شارع صلاح الدين ، وراح يزيد من انتباهه ، ويدقق اكثر في تفقد الاقفال ، فهذا الشارع فيه حقا ما يستحق السرقة ، فحوانيته الفاخرة ، تحتوي على اثمن واجود البضاعة ، وقد اتخمت النعمة تجاره بعد الحرب ، حيث سحبوا في ايام معدودة ما سحبه امثال « ابو جابر » طول العمر ، اذ تدفق الاسرائيليون عليهم كالجراد « مخلصين عالاخضر واليابس » ، كي يفرغوا الضفة كلها من البضائع الموجودة فيها ، كي يبيعوها لهم ثانية بسعر مضاعف ، ولكي يجبروا الناس بعدها على شراء البضائع المصنوعة في اسرائيل، هذا زيادة على ارتفاع الاسعار ارتفاعا فاحشا . لا يقبله ، لا عقل ولا دين ، واصبح امل ابو جابر في الحصول على معطف جيد لابنه او له ، مثل امل ابليس في الجنة ،وطبعا حتى كثرت النعمة قل الشكر وضاع الاصل ، فنسي هؤلاء التجار الكارثة التي حلت بفلسطين كلها وبالعرب ، حتى انهم افشلوا اضرابين بحجة انه اذا كانت الجيوش الجرارة لم تحرر فلسطين ، فهل يحررها اضراب تجار بسطاء ـ قال بسطاء قال ـ والانكى من ذلك عليه ان يحرس محلاتهم ليزيدوا من ثرائهم ويفشلوا كل اضراب ضد الاحتلال ، وهذا ما يجعله يحس بالعار في بعض الاحيان ، ولكن رزق العيال له احكام ، والعيال يكسرون الظهر ...

ولم ينتبه ابو جابر لنفسه الا حين سمع نفسه يقول وبصوت عـــال

« تفه عالتذل وعيشته ، والله العظيم قتلهم حلال في ... » ، فامسك ابو جابر بالكلمات كي لا تفلت من فمه ، ثم استعاذ بالله ، وقرر منع نفسه من التفكير في السياسة والمومسات منعا باتا ، اذ انه من الافضل لها ، ان تفكر في الافواه السبعة القاعدة في البيت تنتظر لقمة العيش ، وتاكل رأس الحية اذا ما احضره لها ، هذا عدا نفقات المدارس والكتب والملابس الى آخر كل هذه المصائب التي ازدادت حدة بالغلاء الفاحش وتجميد الاجور .

وما كاد ابو جابر ينجح في صرف نفسه عن التفكير في السياسة والدعارة ، حتى كان قد وصل الى تفرع شارع الزهرة من شارع صلاح الدين ، فقبض على تفكيره ، وهو يجنح مرة أخرى نحو الدعارة ، اذ ان شارع الزهرة هذا ، هو شارع النوادي الليلية والمقامي الفاخرة ، حيث كان يزدحم بالسواح العرب والاجانب قبل الاحتلال ، ولكنه ما كاد يمر على الاحتلال الاسرائيلي سنة واحدة ، حتى انقلبت الى ماخور شبه رسمي ، يتدفق عليه الاسرائيليون من القدس اليهودية وحتى من تل ابيب ، يشربون ويرقصون حتى الساعات المتأخرة من الليل ، ثم يعودون تاركين وراءهم المومسات وقوادّيهن ، لكي يقرجوا كرب السكارى من ابناء القدس « اللي لا هامهم احتلال ولا هامهم فلسطين » ، والذين كان يعتبرهم ابو جابر ليس فساقا ومصيرهم جهنم وحسب ، بل انهم خونة وجواسيس لليهود ..

اسرع ابو جابر يقطع التفرع دون ان ينظر اليه ، جاريا تفكيره جريا كي لا يستوقفه عنده ، لا سيما وان هذا الشارع ، كان مصدر مشاكل في المدة الاخيرة اذ لا يكاد يمر اسبوع دون ان يلقي احد الفدائيين قنبلة يدوية على احد النوادي ، فتبدأ بعدها الاعتقالات والتحقيقات ، والسين جيم المتكررة ، هذا ناهيك عن ضرب السكاكين والمشاجرات التي تحصل بين القوادين والمومسات من ناحية ، وبين السكارى من ناحية أخرى ، او بين السكارى انفسهم الذين كانوا يختلفون على احدى المومسات . ولم يكن ابو جابر يخاف من اي مكروه اكثر من مكروه هذا الشارع ، فلو بقي الامر بالاحتلال فقط اهان الامر ، فالدبابات والجنود في شوارع القدس اهون عليه مصيبة من ذلك ، ومصيرها ان تنسحب آجلا ام عاجلا .. اما أن يحتلوها بالمومسات والقوادين فهذا امر خطير ما من بعده خطر ...

توقف ابو جابر يرهف السمع ، اذ خيل اليه انه قد سمع حرطقة خفيفة ، واصواتا منخفضة تاتي من خلفه .. فالتصق بالحائط ، وراح يتسلل بهدوء عائدا الى مكان التفرع ، وما كاد يلقي نظره مسترقة على شارع الزهرة ، حتى اجفل ، وتملكته رعشة أوقفت شعر رأسه ، اذ كان ثمة شاب وفتاة يلتصقان باحدى الجدران بالقرب من فندق « الناشانال » ، وكان الشاب كالعادة يهرصها الى الحائط ، وقد غابا في قبلة طويلة ، ولكن وضعهما هذه المرة كان فاضحا اكثر من

جميع الاوضاع التي صادفها حتى الآن ، كانت الفتاة « منجعية » الى الحائط حتى تكاد تنبطح عليه ، وقد باعدت ما بين ساقيها ، حيث انغرزت ركبة الشاب عميقا في اسفل بطنها ..

استعاذ ابو جابر بالله ، ثم دعك عينيه واطل ثانية ، ملصقا جنكه بزاوية الجدار ... « اللهم سترك » ، كانت يد ذلك الفاسق قد تسربت من تحت قميص الفتاة الرقيق ، وراحت تداعب نهديها ... تدعك .. تهرص « اللهم عفوك ورحمتك » .. لقد اندلق نهدها من فتحة القميص ، فترك الفاسق شفتيها وغب نهدها غبا .. « اخص لعنة الله عليكما في الدنيا والآخرة » .. وخيل الى « ابو جابر » انه يسمع صوت حمارة « تتمتك » ، فاحس بسائل بارد يسقط على راحته الملتصقة بخده ، فانتصب وهو يمسح لعابه السائل من زاوية شدقيه بكمه ، ثم شد قامته يمنع ذلك التخدر الذي بدأ يحسه من ان يسري في دمه ، وراح ينظم انفاسه المتلاحقة ، حتى كفت عن اللهاث ، بينما ظلت يده تنتفض على العصا وهو يناديها كي يمنعها من ان « تعرط » العصا عليهما لكي « يكرسحهما » .. « وهذا ايضا في نظر قانون آخر الزمن ، لا يعتبر دعارة !! ماذا بقي ؟ ان يسحل لها اللباس !؟ » واحس بغيظ شديد يتملكه ، اذ حسب القانون الجديد ، عليه ان ينتظر تسحيل اللباس ، ثم يتدخل ، هذا اذا كانت تلبسه اصلا ، وحتى لو كانت تلبسه « تقول لباس ام جابر عاد للقدم ، ما هو زي ورقة السيجارة » ..

وانكر ابو جابر على نفسه ميلا لاغواء طارىء يتملكه ، واحس بدمه يفور ، حتى انه لم يعد يحتمل بمعطفه الثقيل ، رغم ان درجة الحرارة كانت قد انخفضت اكثر .. « اللهم استغفرك واتوب اليك » .. ابو جابر كادت توقعه نفسه في الاثم ، ولو بالنظر ، بحجة المحافظة على الاخلاق « طب انشاء الله ما حدا حافظ ، ولا حدا تحشم .. واذا عالي انشاء بقلبوها كرخانة ، اذا حكامها ما حافظوا عليها ، تايحافظ عليها ابو جابر !؟ » .

وشد ابو جابر معطفه عازما على استئناف جولته ، وهو يشعر بالم في امعائه وفكه الايمن ، وارسل نظرة اخيرة في اتجاه « الفاسقين » ، تمعن .. دقق ، فخيل اليه ان وضعهما قد تغير قليلا ، كان فمه لا يفارق نهدها بعد ، ولكن خيل له ان الفتاة قد ارتفعت قليلا عن الارض ، واصبحت معلقة بين الحائط ووسط صديقها ، وخيل اليه انه يسمع فحيحا خافتا ، فشعر بالم في مهاشمه وانقلب الى اقفال المحلات التجارية ، يحشوها باوراق الصباح ، ناسيا اخراج اوراق الجولة الصباحية .

انهى جولته في شارع صلاح الدين ، وانعطف الى اليسار في اتجاه طريق

نابلس ، وهو يتجاهل مبنى الحاكم العسكري تجاهلا تاما · كان يعلم ان الجندي الاسرائيلي الذي يحرس المبنى في كشك مخطط ، وضع قرب السور نائم ، وهو يعلم كذلك أن الجندي ينام كل ليلة ، وقد تكشفت له هذه الحقيقة ،اثر تجربةكادت تودي بحياته ، ذلك ان نفسه سولت له ذات ليلة عندما كان يمر امام الكشك ، ان يتملق الجندي الاسرائيلي ، فيطرح عليه تحية الصباح ، واقترب من السور فراى الجندي الاسرائيلي يجلس داخل الكشك ، وسلاحه بين يديه ، وساعد الظلام على تضليله ، فلم يشك في انه مستيقظ ، فحسر كوفيته عن فمه كي تبان بسمته ، « وصبح » عليه ، الا ان الجندي لم يرد التحية ، فمز على ابو جابر ان لا يتنازل برد التحية عليه ، وخاصة انه يعتبره زميل خدمـــة مع انه اسرائيلي ، ويحرس مبنى الحاكم العسكري وفضل ان يعتقد ان الجندي لم يسمعه ، فتنحنح رافعا صوته هذه المرة ·

ولكن الجندي كان نائما فعلا ، وعندماصرخ ابو جابر «بالتصبيحة » الثانية انتفض كمن لسعته حية وصرخ راطنا باللغة العبرية ، الله وحده يعلم ماذا ·

وظن ابو جابر ان هذه هي طريقة الخواجات برد التحية وكاد يتابع سيره ، لولا ان الجندي استدرك باللغة العربية المكسرة ما قاله باللغة العبرية ، شاهرا سلاحه ، ــ مين خادا ؟

وايقن ابو جابر بالهلاك على اهون « سبايب » فرصاصة واحدة من رشاش الجندي تكفي لنقله الى الديار الباقية ، فانبطح على الارض ودحرج نفسه الى الخلف ، مستفيدا من تدريبه ايام كان في الشرطة « فزادت هذه الحركة من شكوك الجندي ، فانتصب واقفا وهو يصوب بندقيته الرشاشة في اتجاه ابو جابر صارخا:

ــ وكف عندك ·· انت مش بتحرك ·

وعثر ابو جابر على صوته في الوقت المناسب وهو يجمد اعضاءه في مكانه راجفـــا ·

ــ مش بتحرك يا خواجا ·· مش بتحرك ، انا ابو جابر الخفير مش عارفني؟

قال الجندي وهو يخرج من الكشك بحيطة وحذر ··

ــ انا مش بعرف جابر ولا ابو جابر ·· ايش في ؟!

رفع ابو جابر راسه نحوه وهو لا يزال منبطحا ···

– ولا شي يا خواجا ... صبحت عليك بس ..

زم الجندي حاجبيه سائلا بغضب :

– شو ؟

ورد ابو جابر بصوت بطيء معتذر .

– صبحت عليك .. الصباح لالله .. قلت صباح الخير ..

هز الجندي راسه متبرما وهو ينزل سلاحه .

– انتو عرب مش بفهم .. يللا روخ من هون .. روخ .. امشي

انتصب ابو جابر بسرعة وهو لا يكاد يصدق انه قد نجا من هذه الورطة ، وراح من هناك وركبتاه تصطكان وهو يلعن في سره « التصبح واللي بصبحوه » وهكذا كاد تدخله في السياسة هذه المرة يودي بحياته « ويرمل » ام جابر قبل الاوان ، والا ماذا يكون « التصبيح » الذي لا معنى له على جندي اسرائيلي ويحرس مبنى الحاكم العسكري ، ان لم يكن تصبيحا سياسيا ، ونفاقا منه ما بعده نفاق « والله تستاهل يابو جابر لط في الصرمة على طارة نيمك » ، ومن يومها وابو جابر يتجاهل وجود الجندي والكشك ، ويركز افكاره كلما مر من جانبهما على الاقفال واوراق الحراسة .

ورغم تجاهل ابو جابر لمبنى الحاكم ، الا انه احس وهو يعبره بشيء من العتب على نفسه«ولو يابو جابر همرك ما كنتجبان .. شو بدل الله وشو غير؟ خلقة خواجا لو بصقت عليه بتغرقه يكسر قلبك !!؟» . فتوقف ناظرا خلفه وهو يشعر بالذل والاهانة ، متخيلا نفسه وقد انبطح على الارض ، ووجهه يتمرغ بالتراب، يستعطف الجندي الاسرائيلي ، وهو يصوب سلاحه نحوه صارخا به « تقول عبد ابوه » ، فتملكه غضب مفاجيء كاد يدفعه لان يعود ادراجه اليه ، فيهوي بعصاه على نافوخه ، ثم ياخذ منه سلاحه ، ويفرغ « الباغة » كلها في راسه ، ولكن بعد ان يجعله يتمرغ هو الآخر بالتراب كما فعل به ، بل ويرفش في بطنه ويقبل حذاءه المهتريء .. « مش مكفي قلبوها كرخانة .. يذلونا كمان .. وفوق هذا كله ينام ويشبع نوم تقول بدارهم ، ولو خليه ناطور كرم مش جندي احتلال ويحرس مقر الحاكم !! تقول ما ظلش رجال في القدس ملعون الوالدين .. طيب وطلاق بالثلاثة من ام جابر ..»

ولم ينتبه ابو جابر إلى نفسه الا والجندي يصرخ به من داخل الكشك فجأة:

ـ مين خادا ؟

اجفل ابو جابر وهو يتلمظ بافكاره ٠٠ « ارجعنا لمين خادا وروخ من هون ؟ هالمرة ابو جابر مش رايح » ، وتنحنح يسحب العصا من تحت ابطه ٠

ـ هاذا انا ٠٠ ابو جابر الخليلي شو في ؟

ـ انت برفع ايديك ، ومش بتخرك ٠٠ فاخم ؟

« هذا اللي ما حسبناش حسابه » ، وخامست يد ابو جابر الى جيـــب «البالطو» تتحسس موس الكباس الذي كان يرافقه منذ عشر سنين قبل ان يرفع يديه الراجفتين غيظا ٠

ـ اه فاخم يا خواجا ٠٠

« ضربة الاعور على عينه » قال ما هي خربانه وخربانه ٠٠ لا والله ما هي فايتة على ستيرة هالمرة » ، وطافت به صورة ام جابر وهي تحضر لـــه القهـــوة كعادتها في انتظار عودته بينما خلد الاولاد للنوم ، فارتخت يده على الموسى،الا انها عادت وشدت عليه ثانية « الموت ولا المذلة يا ام جابر والاولاد الهم الله » ٠

كان الجندي يتقدم نحوه بلا مبالاة بعد أن تأكد من انه أبو جابر حقا ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، بينما كان ابو جابر لا يزال يرفع يديه ، والدم يغلي في عروقه ، وعيناه مثبتتان على الجندي المتقدم منه ٠٠

وقف الجندي قبالته ينظر اليه ، ثم انفجر في الضحك صارخا :

ـ ياالله روخ من هون ؟

عاودته صورة ام جابر والاولاد مرة اخرى ، تقاطعها صورته وهو ينبطح على الارض امام الجندي ووجهه المعفر بالتراب يكاد يلامس حذاءه ٠٠٠

صرخ الجندي ثانية وهو يدفه بكعب بندقيته ٠٠

ـ امشي ٠٠ انت واخـ ٠٠٠٠

انتفضت يد « ابو جابر » القابضة على الموس وهو يكز على اسنانه قلتلـــك ابو جابر مش ماشي ... »

لم يعرف ابو جابر كيف فعل ذلك ، ولم يصح على نفسه الا وهو يركض في اتجاه باب العامود ، والدم يقطر من نصل موس الكباس ، الذي كان لا يزال في يده ، والصرخة التي اطلقها الجندي وهو يخر على قدميه والنصل يغـوص فـي صدره لا تزال تطن في اذنيـه .

ميزان القوى العسكري الاسرائيلي بعد ثلاث سنوات من حرب تشرين

المقدّم الهيثم الأيوبي

كانت منطقة الشرق الاوسط منذ اتفاق فصل القوات في سيناء تسير بخطى متسارعة نحو الحل السلمي الاميركي ، رغم معارضة بعض الدول والقوى العربية لفكرة الحل السلمي اساسا ، ووقوف البعض الاخر ضد احتكار واشنطن لمفاتيح الحل ، ورغبته في الوصول الى حل متوازن تشارك فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية الغربية بنصيب متماثل • ولم يكن الحديث عن ميزان القوى في ذلك المناخ السلمي يحمل اي معنى ، طالما ان القوى العالمية والمحلية الدافعة نحو الحل السلمي كانت اكبر من القوى الدافعة نحو الصدام المسلح •

ولكن نجاح الرئيس الاميركي جيمي كارتر في مطلع تشرين الثاني ١٩٧٦، ادخل على الموقف في الشرق الاوسط عاملا جديدا ، يتمثل في احتمال عرقلة التسوية السلمية بشكل كامل او جزئي • ويرجع هذا الامر الى ان الرئيس الجديد يرى ضرورة التشدد ازاء السوفيات ، ويعارض سياسة الوفاق الدولي بشكلها السابق ، وهي السياسة التي خلقت مناخ الحل السلمي للصراع العربي ـ الاسرائيلي • ولايتبنى كارتر اسلوب كيسنجر في معالجة ازمة الشرق الاوسط ، وهو ميال الى دعم اسرائيل اكثر من سابقيه نيكسون وفورد اللذين لم يبخلا على اسرائيل بالدعم • وليس من المستبعد ان يؤدي غياب كيسنجر عن الساحة ، وزوال ضغط الادارة الاميركية السابق على اسرائيل لقبول التسوية السلمية ، وحصول « صقور » اسرائيل على دعم الادارة الجديدة ، الى تصاعد الخط المتشدد وانخفاض صوت «الحمائم » داخل الدولة الصهيونية، وتناقص امكانية ايجاد حل يضمن استعادة الاراضي العربية وحصول شعب فلسطين على حقوقه • الامر الذي يؤدي بالتالي الى تحسن العلاقات العربية ـ السوفياتية بعد طول جفاء •

ويفضل هذا العامل الجديد ، يمكن ان يعيد العرب (بما فيهم عرب التسوية السلمية) حساباتهم ، وان يقيموا مرة اخرى موقفهم من الولايات المتحدة ، وان يفكروا من جديد بالتوجه نحو الاحتكام للسلاح . وفي هذا المناخ يكون طرح ميزان القوى مسالة متناسبة مع منطق الدعوة الى الصدام ، الذي يغدو الوسيلة الوحيدة الممكنة لحسم التناقض ، بعد تراجع الوسائل السلمية الى الصف الثاني .

حول حساب ميزان القوى

يعتبر حساب ميزان القوى من اهم الامور الخاصة بتقدير الموقف وانضاج القرار السياسي . وهو يؤلف ، مع التقييم المتعلق بطرفي النزاع حول الوضعين السياسيين الداخلي والخارجي ، والجاهزية النفسية للقتال ، والواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي والعوامل الجيوبوليتيكية والطبوغرافية ، القاعدة التي يحدد الجهاز القيادي الاعلى على اساسها امكانية خوض الحرب ، ونسبة النجاح فيها ، وطبيعة هذه الحرب (تعرضية ام دفاعية) ، ومدتها (خاطفة ام طويلة الامد) .

وعملية الحساب صعبة اساسا ، ولكن حساب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي يتعرض لصعوبات اضافية تنبع من خمسة اسباب هي : ١ ـ انعدام الاستراتيجية العربية الواحدة في مجابهة الخطر الصهيوني ، ٢ ـ تعدد مراكز اتخاذ القرار في الوطن العربي ، ٣ ـ تباين تحليلات مراكز القرار حول معسكر العدو ، ومعسكر الصديق ، وطبيعة العصر ، وهامش العمل الممكن في اطار الوفاق الدولي ، ومدى تاثير العامل الدولي على العمل العسكري للدول الصغيرة بالمقابل على العامل الدولي . ٤ ـ العلاقة بين الزمان والمكان وهو عامل يدخل في حسابات موازين القوى بشكل عام ، ولكنه ياخذ بالنسبة الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي اهمية شديدة الخصوصية ، نظرا لسعة الوطن العربي ، ووجود عدد من الجيوش العربية بعيدا عن بؤرة الصدام ، وضعف وسائط النقل البري والجوي والبحري والنهري بين اجزاء الوطن العربي ، ٥ ـ تعرض عدة اقطار عربية لاخطار خارجية كامنة تجبرها على اقتطاع جزء من قواتها للدفاع الذاتي ، وتحرمها من امكانية دفع كل هذه القوات الى بؤرة الصراع مع العدو الصهيوني .

ورغم خصوصيات حساب ميزان القوى في الشرق الاوسط ، فقد كان الاسرائيليون والمحللون الغربيون المتصهينون يتجاهلون الاسلوب الديناميكي

الحي ، ويلجاون الى اسلوب تجريدي جامد ، يتمثل باجراء جمع رقمي لمجمل القوات العربية ، ومقارنة الارقام الكبيرة الناجمة عن الجمع مع رقم القوات المسلحة الاسرائيلية ، لاظهار التفاوت الهائل بين الرقمين . والانطلاق من هذا التفاوت لاستدرار عطف العالم وابتزاز مساعداته ، ومطالبة الغرب بمزيد من الاسلحة والمعدات لتقليص الهوة التسليحية . أو لتركيز الاضواء حول انتصار القوة الصغيرة على القوة الكبيرة (كما حصل في ١٩٦٧) وتبرير هذا الانتصار بالعبقرية العسكرية ، والبطولات الخارقة ، والتفوق القيادي والتنظيمي ، والهوة التكنولوجية !

والامثلة على هذا الاسلوب الستاتيكي الخاطىء كثيرة ، واخرها ، ما قاله الجنرال والناشب في الكنيست اريك شارون في المؤتمر الصهيوني المنعقد في نيويورك خلال النصف الاول من ايلول ١٩٧٦ ، عندما اعرب عن قلقه من ميزان التسلح في الشرق الاوسط ، وقال انه علم من احصائيات المصادر الاميركية المسؤولة ان مصر حصلت من الاتحاد السوفياتي بعد حرب تشرين على ١٠٠ طائرة « ميغ ـ ٢١ » ، و ٤٠ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » ، و ٦٠٠ دبابة « ت ٦٢» ، و ٤٠٠ دبابة « ت ٥٤ » و « ت ٥٥ » ، ومئات العربات المدرعة وبطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ ارض ـ ارض . ثم اجمل حديثه بقوله ان العرب حصلوا منذ حرب تشرين على اسلحة قيمتها ٢٠ مليار دولار ، بينما لم تحصل اسرائيل الا على اسلحة بقيمة ٥ مليارات ، وان العرب سيحصلون في العام المقبل (١٩٧٧) على اسلحة بقيمة ٢،٥ مليار دولار ، في حين لن تحصل اسرائيل الا على اسلحة قيمتها مليار دولار .

وسواء كانت الارقام التي اوردها شارون صحيحة ام خاطئة ، فاننا لن نتوقف عندها ، لانها لا تتعلق بميزان القوى ، ولا تعطي ـ حتى في حالة صحتها ـ الا صورة عن تجارة الاسلحة في الشرق الاوسط . وتجارة الاسلحة شيء وميزان القوى شيء اخر . واذا كانت الاحصائيات تعطي صورة دقيقة الى حد ما عن اتجاه تجارة الاسلحة ، أو عن مخزون الاسلحة في منطقة ما ، فان هذه الاحصائيات لا تدل على شيء عند حساب ميزان القوى . وسنبرهن في الصفحات التالية على صحة هذا الرأي ، ومدى الهوة القائمة بين « حساب الحقل وحساب البيدر » . وسنقدم ميزان القوى الحقيقي المحسوب بطريقة ديناميكية ملتصقة بالواقع ونابعة من معطياته ، معتمدين في الحساب على الارقام الواردة في النشرات المالية غير السرية التي تقدم احصائيات شبه كاملة حول مخزون الاسلحة في العالم (تقارير المعهد الاميركي للابحاث السياسية ، وتقارير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن ، وتقارير

معهد ستوكهولم الدولي لابحاث السلام) • مع الاشارة الى ان اعتمادنا على هذه المصادر لا يعني بالضرورة تبنيكل ارقامها ، ولكنه الوسيلة الوحيدة الممكنة لبدء الحساب دون كشف اية اسرار او معلومات تفيد العدو •

تقول الارقام الواردة في الدراسات المذكورة ، والموجزة في الجدول الموجود في نهاية هذا البحث ، ان القوات العاملة الاسرائيلية تعادل ٢٠ر١٤ ٪ من القوات العاملة العربية ، وان ميزانية التسليح تعادل ٤٢ر٢٣ ٪ من مجمل ميزانيات التسليح العربية • وان الاسرائيليين يملكون من الدبابات المتوسطة ما يعادل ٣٣ر٤٢ ٪ ، ومن المصفحات والعربات ١٩ر٨٣ ٪ ، ومن الطائرات المقاتلة ٢٣ر٢٦ ٪ • وان البحرية الاسرائيلية لا تملك اي مدمرة مقابل ٥ مدمرات عربية ، ولا تضم سوى ١٦ ٪ من الفواصات العربية و١١ر١١ ٪ من زوارق الطوربيد و ٨٦ر٤٢ ٪ من زوارق الصواريخ سطح ـ سطح • والاستنتاج الاولي والخاطىء من هذه المقارنة الاحصائية ، هو ان العرب يتفوقون على اسرائيل في البر والبحر والجو • وان نسبة القوى لا تسمح لهم بادارة معركة دفاعية ناجحة فحسب ، بل تؤمن لهم التفوق اللازم للهجوم الناجح ايضا •

ولكن هذه المقارنة ، رغم صحتها من الناحية الحسابية ، خاطئة من اساسها ، وهي مثال حي للديماغوجية الاعلامية ذات الغطاء العلمي الرقمي ، والشكل الاكاديمي • ويرجع ذلك الى انها تعتمد على المقارنة بين القوات الموجودة لا بين القوات المتجابهة او التي يمكن ان تتجابه في زمان ومكان معينين ، وان قانون الحشد (وهو قانون رئيسي من قوانين الحرب) يقول بان نتيجة القتال لا تتأثر بحجم القوى التي يملكها الطرفان ، بل بحجم القوى التي يستطيع الطرفان زجها في ارض المعركة • ولذا فاننا سنسقط هذه المقارنة والمقارنات المماثلة من الحساب ، ونجري الحساب الديناميكي ، اخذين بالاعتبار حقيقة الوضع السياسي ، ومسالة الحشد الاستراتيجي ، ضمن اطار عاملي الزمان والمكان • وستدل نتيجة الحساب على ميزان القوى الاستراتيجي ، الذي يختلف بالطبع عن ميزان القوى العملياتي او التكتيكي ، الذي يحسبه قادة القطعات الميدانية بناء على اماكن انتشار القوات ،وقدرتها الحركية ، وطبيعة المواقع التي تتمركز فيها ، ومستوى تعبئتها النفسية واستعدادها للصمود •

ومن الجدير بالذكر ان ميزان القوى الاستراتيجي الذي سيتم التوصل اليه ، متبدل ، حي ، واقعي يتغير من يوم الى اخر ، حسب تبدل المعطيات الداخلة في الحساب • وهو في جوهره النتيجة المستخلصة من معادلة ذات طرفين متناقضين ومتجابهين : احدهما هو العدو والاخر هو الصديق • ومع

تبدل احد الطرفين او كلاهما تتبدل المعادلة ، وتتغير بالتالي نتيجتها ، ويظهر ميزان قوى جديد • ولهذا فان حساب ميزان القوى في اليوم (ي) اي يوم اندلاع القتال ، مختلف كل الاختلاف عن حساب الميزان نفسه في اليوم (ي–٢) او اليوم (ي + ١) • وحتى في اليوم (ي) نفسه ، فان الحساب في الساعة (س) اي ساعة بدء القتال ، مختلف عن الحساب في الساعة (س + ٣) او (س + ١٠) • وعلى هذا الاساس فاننا لن نقدم ميزانا واحدا بل عدة موازين ، مفترضين ان اليوم (ي) هو ١ كانون الاول ١٩٧٦ • بكل ما يعنيه هذا اليوم من وضع سياسي عالمي ومحلي ، وبكل ما يجسده من قوى عسكرية موجودة لدى طرفي المعادلة •

ميزان القوى في اليوم (ي – ٣)

تضم القوات المسلحة الاسرائيلية (احد طرفي المعادلة) في حالات السلم المسلح جيشين احدهما عامل والاخر احتياطي • ويضم الجيش العامل ١٥٦ الف رجل مزودين بـ ١٥٠٠ – ١٦٠٠ دبابة و ٣٥٠٠ عربة مدرعة (حوالي ٥٠ ٪ من الدبابات والعربات المدرعة المتوفرة) ، وجميع طائرات الصف الاول (٤٦١ طائرة مقاتلة) ، ومعظم سفن سلاح البحرية • ويقسم هذا الجيش الى اربعة اقسام ، ينتشر القسم الاول منه مقابل الحدود الشمالية (٣٠ ٪ ، وينتشر القسم الثاني مقابل الحدود الجنوبية (٣٠ – ٣٥ ٪) ، وينتشر القسم الثالث مقابل الحدود الشرقية (٥–١٠ ٪ ، في حين يتجمع القسم الرابع (٣٠ ٪) كاحتياط استراتيجي في الجزء الجنوبي من الارض المحتلة ، بحيث يستطيع الوصول الى الجبهتين الشمالية والجنوبية بسرعة متماثلة •

ويضم الجيش الاحتياطي حوالي ٤٢٠ – ٤٥٠ الفا يمكن تزويدهم بالاسلحة والمعدات المخزونة في مستودعات قريبة من مناطق الحشد الاستراتيجي • ولكن الاحتياط الاول القادر على الانضمام الى الجيش العامل والمشاركة في عملياته عند التعبئة لا يزيد عن ٢٥٠ الفا • في حين ان الاحتياطيين الباقين عبارة عن اشخاص تفرض عليهم ظروفهم (السن ، الكفاءة البدنية والنفسية ، طبيعة العمل ، التواجد خارج البلاد •• الخ•) ان يكونوا في الاحتياط الثاني والثالث، وان لا يشاركوا الا في اعمال الدفاع المحلي والاعمال شبه العسكرية • ولذا فهم لايدخلون في حساب القوة الضاربة الهجومية او في حساب قوة الصد والرد في الدفاع عن الحدود ولكنهم يدخلون الى حد ما في حساب الدفاع في العمق•

تشير المصادر العالمية الى ان الاحتياط الاول يمكن ان يتحول الى قوة

عاملة ، وينتقل من حالة السلم الى حالة التعبئة والاستعداد للفتح العملياتي خلال ٧٢ ساعة • ولكن خبرة حرب تشرين تدفعنا الى الاعتقاد بان المدة اللازمة لجمع ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من الاحتياط الاول هي ٤٨ ساعة فقط ، وخاصة بالنسبة الى القطعات الاحتياطية المخصصة للعمل على الجبهتين الشمالية والشرقية ، نظرا لقصر المسافات التي تفصل المناطق السكنية عن اماكن تجمع الاحتياط القريبة من هاتين الجبهتين • ودليلنا على ذلك هو ان الالوية المدرعة الاحتياطية التي بدأ العدو جمعها في صباح ٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ ، لم تكن في صباح ٨ ـ ١٠ مستعدة للحركة باتجاه الجولان فحسب ، بل كانت تشن هجومها المعاكس بقوة ٢ مجموعات الوية •

ويتألف الطرف الاخر للمعادلة من القوة العربية الموجودة بتماس مع العدو • وهي تتألف ، في الوضع الملموس القائم حاليا ، من الجيشين العاملين السوري والاردني ، بالاضافة الى وحدات سعودية تقدرها المراجع الاجنبية بلواء مشاة الي • ولا يمكن ان ندخل في الحساب في اليوم (ي ـ ٣) قوات دول المشرق العربي (السعودية ، العراق ، الكويت ، اليمن الشمالي ، اليمن الجنوبي) طالما ان هذه القوات متحشدة على اراضيها الاقليمية ، ولم تنتقل مسبقا الى دول المواجهة •

ويجبرنا اتفاق فصل القوات في سيناء على ان لا ندخل القوة المصرية في الحساب في ذلك اليوم (وان كان من الممكن ان تدخل في ظرف معين وبعد فترة معينة كما سنرى) • اما قوات دول المغرب العربي ، فهي خارج الحساب طالما انها لم تنتقل مسبقا الى سورية او الاردن ، لان اتفاق سيناء يحرمها من امكانية التحشد المسبق في مصر • وهي ستبقى خارج الحساب فترة من الزمن ، حتى لو دخلت مصر الحرب بعد اندلاعها، وفتحت ارضها لحشد قوات دول المغرب العربي ، وهي الفترة التي تتطلبها هذه القوات للانتقال من مواقعها الحالية الى منطقة الحشد العملياتي على الضفة الغربية لقناة السويس •

ومن الضروري أن نستبعد من الحساب ايضا القوة السورية التي تشارك في قوة الردع العربية الموجودة في لبنان ، وأن لا ندخل في الحساب القوات العربية الاخرى العاملة في قوة الردع ، لان كل هذه القوات ستكون في اليوم (ي ـ ٣) بعيدة عن ارض المعركة في الجولان ، وبعيدة عن الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية ايضا بسبب وجود « الخط الاحمر » الاسرائيلي • اما الجيش اللبناني وقوات الثورة الفلسطينية (نظامية كانت ام غير نظامية) فهي بحاجة لفترة نقاهة طويلة بعد حرب اهلية دامت ١٩ شهرا • وستكون في اليوم (ي ـ

٣) منتشرة وفي وضع الترقب المتبادل ، الامر الذي يجعل من المتعذر ادخالها في المعادلة ، خاصة اذا دارت الحرب بعيدا عن الحدود اللبنانية ٠

ويبقى الاحتياط السوري (١٠٠ الف) والاردني (٣٠ الفا) جزءا من القوى الكامنة في الجانب العربي ٠ ولكن طبيعة هذا الاحتياط ، والمدة اللازمة لجمعه ، تدفع الى عدم ادخاله في الحساب في اليوم (ي ـ ٣) اذا لم تبدأ عملية التعبئة في اليوم (ي ـ ١) ٠

على اساس كل هذه المعطيات السياسية والعسكرية ، واستنادا الى ارقام الجدول الموجود في نهاية البحث ، يمكن حساب ميزان القوى الحقيقي ، مع الاخذ بالاعتبار ان القوة السورية الموجودة في لبنان تعادل (حسب تقديرات مراسلي وكالات الانباء) ٢٠ الف رجل ، و ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دبابة ، و ٣٠٠ عربة مدرعة ، وان اللواء السعودي الموجود في سورية يعادل ٣ ـ ٤ الاف رجل ٠ ويمكن تلخيص هذا الحساب بالجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	١١٦	ـ
دبابات	٢٤٤٠	١٢٠٠	النوعية متماثلة
عربات مدرعة	١٥٨٠	٢٣٠٠	النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٢	٤٦١	النوعية غير متماثلة
زوارق طوربيد	١١	٦	النوعية غير متماثلة
زوارق صواريخ	٦	١٨	النوعية متماثلة
غواصات	ـ	٢ ـ ٣	ـ

● ـ لقد اقتطعت القوات الاسرائيلية الموجودة مقابل الجبهة المصرية ، كما اقتطعت القوات السورية الموجودة في لبنان ، واضيفت القوة السعودية الموجودة في سورية ٠ وادخلت القوات السورية والاردنية الموجودة في العمق على اعتبارها احتياطا استراتيجيا ٠

● ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي ـ ٣) ٠

ويبقى الاعتماد على هذا الجدول لحساب ميزان القوى في اليوم (ي ـ ٣) غير دقيق تماما ٠ ولا بد من ان يدخل عليه تعديلان : يتعلق اولهما بالمستوى المعنوي والتكنولوجي والتدريبي والقيادي واللوجستيكي للطرفين المتجابهين ٠

في حين يتعلق الثاني بنوعية الطائرات المقاتلة وحمولاتها الحربية ٠

ويمكن القول ان المستوى المعنوي لدى الطرفين متماثل ، بسبب اهمية هدف الصراع للطرفين ، وارتفاع مستوى الزخم النفسي داخل القوات المتجابهة ٠ بيد ان هناك تمايزا في المستويات الخاصة بالتكنولوجيا والتدريب والقيادة واللوجستيك ، وهو تمايز مائل لصالح اسرائيل ٠ ولكن الميل غير متساو في جميع المجالات ٠ وهو بالتاكيد ادنى بكثير من الميل الذي كان الاسرائيليون يعتقدون بوجوده قبل حرب تشرين ٠ فلقد اثبتت هذه الحرب ان الهوة اصغر مما كان متوقعا ، وانها تكاد تختفي في كثير من المجالات ٠ ولا يمكن تقدير الهوة الحقيقية اليوم ، وبعد ٣ سنوات من حرب تشرين ، الا بشكل افتراضي ٠ فلقد حاول كل طرف من الطرفين خلال السنوات الثلاث الماضية سد الثغرات وتكثيف الايجابيات ٠ والحرب الخامسة وحدها قادرة على اظهار مدى التقدم الذي تحقق في هذا المضمار ٠

اما بالنسبة الى الحمولات الحربية للقوات الجوية ، فان الامور تبدو اوضح بكثير ، نظرا لاعتمادها على حقائق ثابتة تتعلق بنوعية كل طائرة ومميزاتها القتالية والفنية ٠ ورغم ان عدد الطائرات الاسرائيلية لا يعادل سوى ١٫٠٥ ٪ من عدد الطائرات العربية فانحمولتها الحربية تعادل اكثر من ٣٠٠٪ ٠ ومن الممكن تعويض جزء من هذا الخلل الناري بفضل تيران المدفعية العربية المتفوقة بالتاكيد على المدفعية الاسرائيلية علما بان اسرائيل متفوقة ناريا في مجال الصواريخ ارض ـ ارض ٠

ميزان القوى في اليوم (ي)

يضم طرفا المعادلة في اليوم (ي) نفس القوى المذكورة في معادلة اليوم (ي ـ ٣) بيد ان حساب الميزان يختلف في هذا اليوم باختلاف الطرف الذي يبادر بالهجوم ٠ فاذا كان الطرف العربي مبادرا ، واستطاع تحقيق المفاجأة الاستراتيجية ، كان الميزان مشابها للميزان الذي تحدثنا عنه في الحالة السابقة ٠ اما اذا كانت المبادرة اسرائيلية ، فان هناك حالتان : تتمثل اولاهما بشن الحرب دون تعبئة ٠ ويكون الميزان في هذه الحالة مماثلا لما ذكر اعلاه : اما الحالة الثانية ، فتتمثل في الحالة التي تقوم اسرائيل فيها بالمبادرة بعد التعبئة السرية ٠ وفي هذه الحالة يكون ميزان القوى كما هو مذكور في الجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	٢٦٠	ـ ـ
دبابات	٢٤٤٠	٢١٠٠	ـ النوعية متماثلة
عربات مدرعة	١٥٨٠	٤٧٠٠	ـ النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٣	٥٢٠	النوعية غير متماثلة
زوارق طوربيد	١١	٦	ـ ـ
زوارق صواريخ	٦	١٨	ـ النوعية متماثلة
غواصـــات	ـ	٢ ـ ٣	ـ ـ

● ـ نفس الملاحظة الموجودة في اسفل الجدول السابق ٠

● ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي) الساعة (س) ٠

ويلاحظ من هذا الجدول ان الميزان قد اختل بشكل ملحوظ لصالح اسرائيل٠ ولكن الاختلال كما يبدو في الارقام اقل بكثير من الاختـلال الفعلـي ٠ لان التوازن التقريبي بالقوات البرية معرض للانقلاب بسبب التفوق الجوي المادي، نظرا لان القتال يجري على ارض مكشوفة ، وتحت سماء صافية في معظم شهور السنة ، ولا تتلبد بالغيوم المنخفضة التيتحد من حرية عمل الطيران الا فـي فترات محدودة جدا ٠ ولا يأتي التفوق الجوي الاسرائيلي هنا مـن التفـوق الساحق بعدد الطائرات ، لكنه يأتي من العوامل التالية :

١ ـ ان الضربة الجوية الاسرائيلية الاولى يمكن ان تدمر جزءا كبيـرا من سلاح الجو الاردني عـلى الارض نظرا لعدم اعداد الملاجيء الاسمنتية فـي المطارات الاردنية ، ولعـدم وجود جهاز دفاع ارض ـ جو صاروخي رفيـع المستوى في الاردن ،خاصة بعـد ان عرقل الكونغرس الاميركي صفقة الصواريخ « هوك » للاردن ٠ واحبطت الاسباب السياسية فكرة شراء شبكـة صواريـخ « سام ـ ٦ » من الاتحاد السوفياتي ٠

٢ ـ في حالة عدم تدمير الطيران الاردني كليا او جزئيا بالضربة الجوية الاولى ، فان وجود طائرات تفوق (نسبي) لدى الجانب الاسرائيلي («فانتوم ف ـ ٤ » ، و « ميراج ـ ٣ ») تجعل طائرات « ف ـ ١٠٤ » و « ف ١٥ » الاردنية (وهي طائرات يتعذر عليها مجابهة « الفانتوم » و « الميراج ») عاجزة عن التحليق في الجو خوفا من السقوط في المعارك الجوية ٠

٣ ـ ان انعدام التغطية الجوية للقوات البرية الاردنية سيجعل هـذه

القوات تفقد جزءا كبيرا من فاعليتها ، وسيلقي على عاتق المقاتلات السورية عبئا اضافيا لحماية الاجواء الاردنية من جهة ، ومنع تسلل الطائرات الى سورية عبر هذه الاجواء من جهة ثانية .

٤ – ان الضربة الجوية الاولى ضد المطارات السورية غير قادرة على تميز الطائرات السورية على الارض ، بسبب كثافة الدفاع ارض – جو في سورية ، ووجود الطائرات السورية داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح . كما ان من الممكن الحد من عمل طائرات التفوق الاسرائيلية بوجود طائرات تفوق سورية (٤٥ طائرة ميغ – ٢١) . ولكن الحمولة الحربية للطائرات الاسرائيلية تبقى اكبر من الحمولات الحربية للطائرات السورية بنسبة كبيرة . لذا ، فان الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات الاسرائيلية سيكون اضخم من الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات السورية ، الامر الذي يؤثر على ميزان القوى البرية ،وخاصة اذا استطاع الطيران الاسرائيلي توسيع حقل عمله بتدمير مواقع الصواريخ ارض – جو السورية بواسطة القنابل الذكية والصواريخ جو – ارض الحديثة المتطورة التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة .

وعلى هذا الاساس فان ميزان القوى البرية في اليوم (ي) الساعة (س + ٢)، اي بعد اخراج الطيران الاردني من المعركة، سيحسب مع الانتباه الى نقطتين : اولاهما ان الجيش الاردني سيفقد قدرته الهجومية النهارية بشكل شبه كامل ، وسيخسر ٥٠ ٪ على الاقل من قدرته الدفاعية . والنقطة الثانية هي ان قوة الدعم الناري الجوي التي ستحصل عليها القوات البرية الاسرائيلية اكبر من قوة الدعم الناري الجوي المقدمة للقوات السورية . ومن المؤكد ان الفرق بين قوتي الدعم غير ثابت . وهو يصل الى حده الادنى اذا لجأ السوريون الى الدفاع تحت مظلة من الدفاع الكثيف المضاد للطائرات ، ولكنه يصل الى حده الاقصى اذا قام السوريون بالهجوم ، وابتعدت قواتهم البرية عن قواعد الصواريخ ارض – جو .

* *

ومن الممكن الان ، وبعد ان بينا اسلوب اعداد جدول ميزان القوى ، والعوامل التي تؤثر على الارقام وتفرض تعديلها ، القيام بوضع جدول لكل يوم من ايام القتال ، مع الانتباه الى ضرورة انقاص الخسائر بالرجال والمعدات والاسلحة في الايام الثلاثة او الاربعة الاولى للحرب ، ومتابعة انقاص الخسائر بالرجال بعد ذلك مع زيادة عدد المعدات والاسلحة بشكل متوازن للجانبين المتحاربين نظرا لان الجسور الجوية السوفياتية والاميركية تكون قد بدأت

عملها انذاك بشكـــل متوازن لتعويض الخسائر بالمعدات والاسلحة والذخائر ٠

ومن الضروري ايضا اضافة القوات العربية التي تبدأ بالوصول تباعـــا الى العمق العملياتي ٠ مع الانتباه الى النقاط التالية : ١ ــ ان الدول العربيـــة البعيدة عن بؤرة الصراع لا تستطيع ارسال كل قواتها الى مسرح الحرب وتكتفي بارسال نخبة ضاربة من الطائرات والمدرعات والمشاة الميكانيكية ، ٢ ــ ان القوات العربية لن تصل الى المعركة دفعة واحدة ، فهي محكومة بعامليـــي المسافة والقدرة على النقل ، ٣ ــ ان ضعف اساطيل النقل الجوي العربيـــي ، ستجعل الجسور الجوية العربية محدودة الطاقة ، ٤ ــ ان عدم السيطرة البحرية العربية المطلقة على شرقي البحر الابيض المتوسط ــ كما ظهر في حرب تشرين ــ ستجعل نقل قوات المغرب العربي الى سورية عن طريق البحر امرا محفوفـــا بالمخاطر ، ٥ ــ ان عملية النقل ستعتمد اساسا على الطرق البرية نظـرا لعدم وجود سكك حديدية حديثة تصل بين اجزاء الوطن العربي ، ٦ ــ ان اتفاق فصل القوات في سيناء يمكن ان يجمد القوة المصرية ، ويجمد بالتالـي قوات دول المغرب العربي ويمنعها من المشاركة في القتال ٠

ميزان القوى من (ي + ١) الى (ي + ٥)

يختلف حساب ميزان القوى باختلاف عمليات بدء القتال ٠ وسنحدد فيمـا يلي ثلاث حالات متباينة :

الحالة الاولى : المبادرة اسرائيلية بعد التعبئة : لقد اعلنت مصر بعـــد توقيع اتفاق سيناء ، ان هذا الاتفاق لن يمنعها من التدخل عسكريـــا لصـــد العدوان على اي بلد عربي ٠ فاذا اضفنا الى هذا التعهد الوضع الناجم عـــن انتخاب الرئيس كارتر وتعثر مسيرة الحل السلمي ، وتناقص امكانية الوصـــول الى تسوية مرضية دون اللجوء الى السلاح ٠ وجدنا ان اشتـــراك القـــوات المصرية في الحرب بعد اندلاعها امر ممكن ٠ وهذه مسألة مهمة جدا بالنسبـــة الى ميزان القوى ، نظرا لضخامة القوة المصرية من جهة ، وضـــرورة فتـــح الاراضي المصرية امام قوات دول المغرب العربي من جهة اخـــرى ٠

وما دمنا قد افترضنا ان اسرائيل قد عبأت قواتها قبل بدء القتال فـــان الطرف الاسرائيلي من المعادلة سيبقى ثابتا (باستثناء الخسائر) في الفترة من (ي + ١) الى (ي + ٥) في حين ان الطرف العربي من المعادلة سيتبـدل

باستمرار ٠

ففي اليوم (ي + ١) سينضم الى القوة العربية ٥٠ ٪من القوات المصرية البرية على الاقل ، ومجمل القوتين المصريتين البحرية والجوية ٠ كما سيدخل ٢٥ ٪ من الطيرانين العراقي والليبي في الميزان ٠

وفي اليوم (ي + ٢) تكون القوة البرية المصرية كلها في الميزان ٠ وفي اليوم (ي + ٣) تكون ليبيا قد وضعت في الميزان ٣ اسراب من طائرات « ميراج » ويكون العراق قد دفع الى المعركة سربين او ثلاثة « ميغ ـ ٢١ » ، وسربين او ثلاثة « سوخوي ـ ٧ » ، وسربا من طائرات « ميغ ـ ١٧ » ، وسربا من القاذفات « تو ـ ١٦ » ، وتكون قوة الردع العربية (بما فيها القوة السورية) وجيش التحرير الفلسطيني وجزء من المقاومة قد اخذت مواقعها للمشاركة في القتال او لحماية المجنبة الاستراتيجية اليسرى للجيش السوري ، الا اذا قهر اليمين اللبناني لغما جمد هذه القوات ٠ وليس من المستبعد ان يصل في اليوم (ي + ٣) سرب او سربان سعوديان وسربان او ثلاثة من الجزائر ٠

وبهذا سيتزايد طرف المعادلة العربي في البداية دفعة واحدة في البنود البرية والجوية والبحرية بسبب دخول مصر ، وسيتزايد بالتدريج حتى يوم (ي + ٣) في البند الجوي فقط ، بسبب وصول بعض الطائرات العربية الى العمق العملياتي ٠ ثم يتوقف التزايد بعد ذلك حتى يوم (ي + ٥) ٠

الحالة الثانية : المبادرة اسرائيلية دون تعبئة : قد تلجأ اسرائيل الى المبادرة بشن الحرب دون اعلان التعبئة من اجل تحقيق الحد الاقصى من المفاجأة الاستراتيجية ٠ وفي هذه الحالة يتم التزايد في طرف المعادلة العربي كما ذكرنا من قبل ، كما يتم التزايد داخل طرف المعادلة الاسرائيلي على اساس اضافة ٣٠ ٪ من الاحتياط الاول في اليوم (ي + ١) ، و ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من هذا الاحتياط في اليوم (ي + ٢) ، و١٠٠ ٪ في اليوم (ي + ٣)، الامر الذي يرفع القوات البرية العاملة الى ٤٠٠ الف رجل + ٣٢٠٠ دبابة + ٧٠٠٠ عربة مدرعة ٠

الحالة الثالثة : المبادرة سورية اردنية : يتم التزايد في طرف المعادلة الاسرائيلي كما لو كانت المبادرة اسرائيلية دون تعبئة ٠ في حين ان التزايد في طرف المعادلة العربي سيكون عراقيا اساسا وسعوديا الى حد ما، وسيتم وفق التوقيتات المذكورة انفا ٠ ومن المحتمل ان لا تزج مصر بقواتها تطبيقا لاتفاق سيناء ، ولعدم وجود ذريعة تدفعها الى التدخل طالما ان المبادرة لم تأت من جانب اسرائيل ٠ ويؤدي عدم دخول مصر الى اسقاط الزيادة الجوية الجزائرية والليبية من

الحساب نظرا لوجودها بعيدة من حقل المعركة ، وعدم قدرتها على التمركز في القواعد الجوية المصرية ٠

ميزان القوى من (ي + ٦) الى (ي + ١٢)

اعتبارا من اليوم (ي + ٦) يأخذ طرف المعادلة العربي شكلا مزايـــــدا في مجال القوات البرية بشكل خاص بسبب بدء وصول قطعات عربية من الدول البعيدة عن بؤرة الصراع ، في حين يبقى طرف المعادلة الاسرائيلي غير قابل للزيادة على اعتبار ان اسرائيل تكون قد جمعت كل احتياطها البري وجعلته جاهزا لدخول المعركة ٠ ومن الطبيعي ان يختلف حجم التزايد حسبما تكـــون مصر داخل المعركة او خارجها ٠ فاذا كانت داخل المعركة اصبح التزايد من جانبين ، وشاركت فيه جيوش الشرق العربي والمغرب العربي ٠ اما اذا كانت خارج المعركة ، فان التزايد يصبح وحيد الجانب ، ولا يأتي الا من جيوش المشرق العربي ٠ وعندما نتحدث عن جيوش المشرق العربي فاننا نقصد العراق (اساسا) ثم السعودية والكويت ٠ كما ان حديثنا عن جيوش المغرب العربي يعني الجزائر وليبيا (اساسا) ثم السودان والمغرب ٠ اما الدول الاخرى غيـــر المذكـــورة اعلاه ، فان حجم قواتها الضاربة او بعدها عن مسرح المعركة ، يجعلها غير قادرة على المشاركة بفاعلية في تعديل ميزان القوى ٠

وتؤكد خبرة حرب تشرين على ان القطعات الاولى من القوات العراقيـــة والليبية والسعودية يمكن ان تكون في قلب المعركة منذ يوم (ي + ٦) ، ثم يبدأ قلب القوات بالوصول تباعا وفق جدول زمني يمكن تحديـــده بناء علـــى طبيعة القوات ، وقدراتها على الحركة ، والمسافات المقطوعة ، والخطر الجـــوي الذي يمكن ان يعترضها ٠ ويمكن بالتالي وضع جدول يبين ميزان القـــوى البرية في الايام (ي + ٦) (ي + ٧) ٠٠٠ الخ ٠ ولقد طورت الدول العربية قدراتها على النقل ، وزادت عدد حاملات الدبابات ، وزادت كفاءة الدفـــاع المتحرك ضد الطائرات ٠ وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بان العراق يستطيع ان يدفع حتى يوم (ي + ١٢) فرقتين مدرعتين على الاقل (٧٥٠ دبابـــة) وفرقتي مشاة ٠ ويكون حجم القوات السعودية المدفوعة لواءان أحدهما مدرع ، والليبية ٣ ــ ٤ الوية اثنان منها مدرعان ، والجزائرية ٣ ــ ٤ الوية اثنان منها مدرعان ، والمغربية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، والسودانية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، بالاضافة الى وحدات كويتية من المدفعية والاليات ووحـــدة رمزية تونسية ٠

وفي هذه الفترة تتم تعبئة جزء كبير من القوات الاحتياطية السورية والعراقية والاردنية ـ وجزء من الاحتياط المصري · ويصبح لدى القوات العربية مخزونا بشريا كبيرا لتعويض الخسائر ، وزيادة كثافة النشاة في التشكيلات ·

* *

على اساس هذا الاسلوب الديناميكي ، ومع اخذ عوامل الزمان ، والمكان ، ونوعية السلاح ، والخسائر ··· الخ بالحسبان ، يمكن التوصل الى ميزان القوى الاستراتيجي المحدد في وضع ملموس · ولكن ميزان القوى الذي نحصل عليه من هذه الدراسة باسلوب هيغلي : بعد تحديد القوى الصديقة (المقولة) ، والقوى المعادية (النقيضة او النفي) للوصول الى التركيب (نفي النفي) ، هو « الميزان الممكن» ، في الظروف القائمة · وليس هذا الميزان ملائما في جميع الحالات ، وهو لا يؤمن في افضل الظروف (مشاركة مصر الكلية والمشاركة العربية المتعاقبة) ، التفوق الساحق اللازم لتحقيق نصر حاسم على العدو الصهيوني ، رغم القوى الكامنة اللازمة لتحقيق النصر ·

وللانتقال من « الميزان الممكن » الى « الميزان اللازم » شروط لا بد من تحقيقها ، واهمها : توحيد الاستراتيجية العربية ، واستبعاد الاعتماد على امريكا ، واعادة التحالف مع السوفيات ، والغاء اتفاق فصل القوات في سيناء، وتقريب القوات العربية البعيدة وحشدها مسبقا في العمق العملياتي ، وتكديس الاسلحة والمعدات التابعة للجيوش البعيدة في مستودعات داخل دول المواجهة وصيانتها واعدادها لاستقبال الطواقم التي تنقل بالطائرات عند اللزوم لزيادة سرعة التدخل ، وتحسين المواصلات البرية بين الدول العربية ، وتدعيم اسطول النقل الجوي ··· الخ ·

وتدخل كل هذه الامور في اطار تطوير « المقولة » بسرعة تفوق تطور « النفي » ، لتحقيق «نفي النفي » المناسب ، والوصول الى « ميزان القوى المطلوب » الذي يضمن النصر · والى ان يتم ذلك ، يبقى ميزان القوى هو « الميزان الممكن » الذي حددته هذه الدراسة ، ووضعته في اطار حجمه الصحيح، بعد ان بددت ظلال الاوهام باضواء الحقائق ·

جدول المعلومات العسكرية الخاصة بميزان القوى الرقمي

البلد	القوات المسلحة (بالالاف)	ميزانية التسليح (مليون دولار)	دبابات متوسطة	دبابات خفيفة	مصفحة وعربة مدرعة	احتياط (بالالاف)	طائرة مقاتلة	زورق طوربيد	زورق صواريخ	غواصة	مدمرة
مصر	٣٢٢٫٥	٦١٠٣	٢٢٠٠	—	٢٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠	٣٠	١٣	١٢	٥
سورية	١٧٧٫٥	٦٦٨	٢٣٠٠	٧٠	١٢٠٠	١٠٠	٤٠٠	١١	٦	—	—
العراق	١٣٥	٨٠٢	١٣٠٠	—	١٣٠٠	٢٥٠	٢٤٧	١٣	٨	—	—
السعودية	٤٧	٦٣٤٣	٢٠٠	٦٠	٢٠٠	—	٩٥	—	—	—	—
الاردن	٨٠	١٥٥	٤٤٠	—	٦٨٠	٣٠	٤٢	—	—	—	—
ليبيا	٣٢	٢٠٢	٤٠٠	—	٦٢٥	—	٩٢	—	٣	—	—
الجزائر	٦٣	٢٥٨	٤٠٠	٥٠	٤٤٠	٥٠	١٨٦	٩	١٢	—	—
المغرب	٦١	١٩٠	١٥٠	١٢٠	٢٢٠	—	٦٠	—	—	—	—
السودان	٤٨٫٥	٩٧	١٣٠	١٦	٣٧٠	—	٤٣	—	—	—	—
تونس	٢٤	٥٦	—	٥٠	٥٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ش	٣٢	٥٨	٣٠	—	١٠٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ج	١٨	٢٦	٥٠	—	٥٠	—	٢٧	٢	—	—	—
عمان	١٤	٣٥٩	—	—	٦٢	—	٤٧	—	—	—	—
الكويت	١٠	١٦٢	١٠٠	—	٢٥٠	—	١٢	—	—	—	—
لبنان	١٥٫٥	١٤٤	٦٠	٤٣	١٨٠	—	٢٠	—	—	—	—
دول الخليج	١٨		—	٢٠	١٨٠	—	٤٠	—	—	—	—
اسرائيل	١٥٦	٣٥٠٢	٣٢٠٠	—	٧٠٠٠	٤٥٠	٥٢٠	٦	١٨	٣٠٢	—

بين الكلمة "الثورية" والفعل الثوري..
حول مناقشات البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

داود تلحمي

لا شك ان الحرب الاهلية (والعربية ـ العربية) اللبنانية قد شغلت المقاومة الفلسطينية واستنزفت قواها واهتماماتها . ولا شك ايضا بان آثار هذه الحرب الطويلة الدموية ستنعكس ليس على لبنان فحسب وانما على مجمل منطقة الشرق العربي وبشكل خاص على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني . وان كنا بالاساس نفضل ـ كمناضلين وطنيين فلسطينيين ـ ان تنصب جهودنا العسكرية على مجابهة العدو القومي (والاساسي) ، الا ان الامر يتجاوز الرغبات والتفضيل بعد ان فرضت علينا الحرب « اللبنانية » فرضا بعد الحرب «الاردنية» وذلك في اطار « التعريب » الذي عملت له وما زالت قوى الثورة المضادة العالمية والمحلية بقيادة وتنسيق الولايات المتحدة الاميركية .

ولسنا في هذا المجال « اسوأ حظا » من حركات التحرير المعاصرة الاخرى التي جوبهت (من فيتنام الى انغولا) بنفس عملية « تحويل الانظار » (لاستعمال احد التعبيرات الساذجة) لاجهاض الثورة من الداخل واشغالها بتناقضات غير التناقض الرئيسي يجري تسخينها ورفع درجة عداتيتها باستغلال مركز لبعض التمايزات الموضوعية (القومية او الطائفية او الطبقية او جميعها) والتداخلات المحتومة بين النضال التحريري والاوضاع الداخلية لمناطق الانطلاق والقواعد الخلفيـــة .

وان كان من الطبيعي ان تحسب المقاومة الفلسطينية اهتماماتهـــا علـــى المعركة التي تخاض بالاساس ضدها على ارض لبنان ، فمن الطبيعـــي بالتالـــي ان تتخذ بعض جوانب النضال الفلسطيني الاخرى احجاما نسبية اقل ، الا انـــه من الضروري كذلك الا يغيب الانشغال بالحدث اليومي وبالمجابهة العسكريـــة

والسياسية وتشعباتهما وتطوراتهما المفاجئة احيانا ، الا يغيب كـــل ذلـــك الشمولية في النظرة لطبيعة المعركة وللآفاق المستقبلية القريبة والبعيدة • وبكلمات اقل ، لا يجب ان يلغي الانهماك بالتكتيك عن الرؤية الاستراتيجية • ولا يجب ان يغني الموقف (السياسي) عن البرنامج (السياسي) • فالمعارك في تاريخنا المعاصر لا تحسم بصفات الشجاعة والبسالة والاستعداد للتضحية ولا حتى بحجم القوة وكمية التسليح ونوعيته وحدها ، بل يتطلب تحقيق النصر تحليلا دقيقا لموازين القوى الآنية والمستقبلية القريبة (مع الاخذ طبعا بالديناميكية الثوريـة الفاعلة فيها) تحليلا على اساسه تبنى التحالفات والخطط ، وتحدد وسائل النضال في كل مرحلة وضد كل خصم • وغير ذلك ليس الا الارتماء في مستنقع التجريبية والانتهازية والتخبط العفوي والدنكيشوتية المتراوحة بين النشـــوة الثورجية المطالبة بتغيير كل شيء (وفورا !) واليأس المطلق بعـد الاصطـــدام بالواقع الصعب والمتردي (كما هو الحال في منطقتنا) •

ومن هنا يكتسي نشر البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطلع هذا العام اهمية خاصة في الساحة الفلسطينية ليس بمحتواه وحـــده بقدر ما هو لكونه المحاولة الجدية الاولى لتجاوز المعوميات حول « التحريـــر الشامل » و« القضاء على الكيان الصهيوني » التي لا تعدو كونها فـي ظـــل الموازين المحلية والدولية الحالية والمحتملة في المستقبل القريب ضربا من التمني او اهدافا بعيدة تتطلب ـ كما جاء في البرنامج نفسه (١) ـ تغيرا حاسمـــا في ميزان القوى فلسطينيا وعربيا وعالميا ، تغييرا لصالح قوى الثورة الجذرية على حساب القدرات العدوانية للقوى الامبريالية وركائزها المحلية •

وكان من الطبيعـي ان تثير هذه المحاولة نقاشات في الصفوف الفلسطينيـة داخل وخارج الوطن المحتل ، وان تتباين المواقف منها حسب الموقع (الجغرافي والطبقي والسياسي) • ولسنا هنا بصدد حصر ردود الفعل هذه ، بل سنصب اهتمامنا على ما نشرته «شؤون فلسطينية »في هذا المجال ، ونعني بذلك بالتحديد مقالي د• محجوب عمر (عدد نيسان ١٩٧٦) والاخ سميح سمارة (عـــدد حزيران ١٩٧٦) •

* *

تناول المقالان جوانب متعددة من البرنامج السياسي وبعمق وجديـــة متفاوتين • ومقال الاخ سمارة بالتحديد تميز بالكثير من الخفة وعدم الاستيعاب لفكر الجبهة الديمقراطية ومنطلقاتها ووصل في بعض تعابيره الى حد التجنـي

والتشويه المقصود لخدمة هدف التجريح المجاني ـ ولنا عودة الـــى هـــذا الجانب ـ ٠

لكننا سنبدأ بمعالجة الاطروحات التي نعتبرها اساسية في البرنامج والتي تناولها المقالان بشكل خاص ٠

مسالة السلطة الوطنية والبرنامج المرحلي :

تميزت الجبهة الديمقراطية في السنوات الاخيرة بانها كانت اول مـــن طرح علنا وامام الجماهير (في صيف ٧٣) برنامجا محددا يتلخص فـــي شعار « السلطة الوطنية على الارض التي يتم دحر الاحتلال الاسرائيلي عنها » ، هذا الشعار الذي تم تبنيه من قبل المجلس الوطني الفلسطيني بالاغلبية الساحقة في دورته الثانية عشرة (حزيران ١٩٧٤) ٠

ولا مجال هنا للعـودة الى النقاشات التي تلت هذا الطرح والى كـل ما قيل حول « الدولة الفلسطينية التي ستمنح » او حول « موازين القوى التي لا تعطي سلطة وطنية » ٠ فالمهم اليوم ان نؤكد البرنامج المرحلـــي لم يات نتيجـــة اتفاق سري بين الدولتين الاعظم ـ كما كان يتوهم بعض انصار الفكر التآمري ـ ولا هو مشروع في الجيب يعكس ميزان القوى الآني الجامد (الستاتيكي) ٠ لقد كان منذ طرحه برنامجا نضاليا لامد زمني لا هو بالقريب العاجل ولا بالبعيـــد المؤجل ، برنامجا يمكن بطرحه من « تعميق اقصى درجات التعبئة الوطنية لشعبنا وبوطد نضاله المشترك مع حلفائه الطبيعيين عربيا ودوليا » ـ كما جاء فـــي البرنامج السياسي نفسه (٢) ٠

وتاتي احداث السنوات الاخيرة لتؤكد جملة من الحقائق:

ـ لقد تحقق (ولاول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني المعاصر التفـــاف شعبي شامل حول قيادة موحدة (منظمة التحرير) بصفتها الممثل الوحيد له ولتطلعاته ٠ وقد ترجم هذا الالتفاف نفسه في الاراضي الفلسطينية المحتلـــة بانتفاضة متواصلة عمليا منذ تشرين الثاني ١٩٧٤ وحتى اليوم ، لم تقتصر على الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ،بل امتدت (وباشكال متميزة) الى الجليل الذي يشهد تناميا متسارعا للشعور الوطني الفلسطيني وللاستعدادات النضاليـــة الجذرية ٠

ـ بعد نضال عنيد استطاعت منظمة التحرير ان تنتزع في مؤتمر الرباط اعترافا عربيا شاملا بتمثيلها للشعب الفلسطيني باسره ٠ ورغم المؤامـــرات

والتراجعات والاستعداد الدائم للنظام الاردني وحلفائه للعودة عن هذه القرارات فقد اصبحت منظمة التحرير منذ ايلول الماضي عضوا كاملا في جامعة الدول العربية واعادت قمة القاهرة تاكيد قرارات الرباط بشانها ٠

واخيرا وبالرغم من « الاستنزاف اللبناني » ، تمكنت منظمة التحرير من تحقيق وتنمية رصيد عالمي هائل تمثل في الاعتراف الكامل بها كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني من قبل البلدان الاشتراكية وبلدان العالم الثالث وحتى بعض البلدان الغربية ٠

وقد اقر « د ٠ محجوب بهذه الانجازات وعددها بالاسم (قرارات الرباط وقرارات الامم المتحدة والنهوض القومي النضالي لعرب الارض المحتلة (٣)) ٠ وذهب الى حد المطالبة « بتشديد النضال من اجل تثبيت قرارات الرباط وعدم السماح لاحد بالالتفاف عليها او الغائها » (٤) ٠

ولا يسعنا الا ان نؤيد هذه المطالبة بلا تحفظ ٠ لكن يهمنا من اجل توضيح النقاش ان نورد النص الاساسي في قرار قمة الرباط المتعلق بالقمة الفلسطينية٠ يقول القرار (كما وزعته وكالة وفا) في بنديه الاولين والاهم :

« يقرر مؤتمر القمة العربي السابع ما ياتي :

١ ــ تاكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره ٠

٢ ــ تاكيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة السلطة الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني على اي ارض فلسطينية يتم تحريرها ٠ وتقوم الدول العربية بمساندة هذه السلطة عند قيامها في كل المجالات وفي كل المستويات » (٥) ٠

فاذا كان د٠ محجوب يطالب بتثبيت قرارات الرباط التي حرر نصها الوفد الفلسطيني والتي تتطابق مع البرنامج المرحلي الذي تبناه المجلس الوطني الفلسطيني ، فاين يختلف مع الجبهة الديمقراطية في طرحها لنفس البرنامج؟

في مقال الاخ سمارة نجد بالمقابل تبنيا واضحا للبرنامج المرحلي على اعتبار انه كان متمشيا ــ على حد تعبير الكاتب ــ مع نتائج « حرب تشرين الوطنية وذلك من حيث تحديده للحلقة المركزية في هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني » (٦) ٠

ولكن يفترق المقالان في تقييم الحقبة اللاحقة لحرب تشرين . فالدكتور محجوب يعتبر ان « نسبة القوى تتحول لصالح الثورة العربية بشكل عام والثورة الفلسطينية بشكل خاص » (٧) . اما الاخ سمارة فيرى نقيض ذلك تماما ويعتبر ان السلطة الوطنية اصبحت ابعد مما كانت بعد تشرين مباشرة ويذهب الى حد المطالبة بالتخلي عن البرنامج المرحلي واعتماد برنامج جديد (٨) . ويقترح الاخ سمارة اساسا لهذا البرنامج « العودة الى الينابيع الاولى اي الميثاق الوطني الفلسطيني » ، ويعتبر ان هذا هو الامر المنطقي الوحيد (٩) !!

اما مقال د . محجوب فيصل الى نتيجة مشابهة ولكن بتماسك منطقي مع منطلقاته (تحسن نسبة القوى) . واختلافنا معه يكمن في هذه المنطلقات بالتحديد . ففي حين تحسن بالتاكيد ميزان القوى لصالح « العرب » (لنستعمل مؤقتا هذا التعبير العام) بعد حرب تشرين الوطنية ولصالح الشعب الفلسطيني بشكل خاص كمحصلة لنضاله المسلح الطويل وتحركاته الجماهيرية والسياسية والاعلامية المترافقة ، الا ان هذا التحسن نسبي ولا يشكل هزيمة حاسمة للحلف الاسرائيلي – الاميركي الامبريالي . اكثر من ذلك ، نقول ان البورجوازيات الحاكمة في مصر وسوريا (وفي مصر بشكل اخص) بددت من خلال تهالكها على الوساطة الاميركية وسيرها في ركاب مشاريع كيسنجر ، الكثير من المكاسب التي حققتها حرب تشرين وليس فقط المكاسب الوطنية العامة للشعبين ، بل وحتى المكاسب التي كان يمكن ان تجنيها كبورجوازيات لها مصالحها الخاصة .

ويكفينا تعبيرا عن هذا التبديد الحرب الاهلية اللبنانية التي اشعلتها القوى المرتبطة بالامبريالية الاميركية ، والتي سرعان ما تحولت الى حرب عربية – عربية تستنزف فيها كل القوى المشاركة في الوقت الذي تستعيد فيه الدولة الصهيونية انفاسها وتؤمن لنفسها شهورا طويلة من الهدوء المطلق على حدودها . وقد عبر هنري كيسنجر نفسه عن هذا التحول في تصريح اخير له قال فيه بالحرف الواحد : « الظروف الآن ... تبدو بالنسبة الينا افضل مما كانت عليه في اي وقت منذ انتهاء الحرب » (١٠) .

وعلى الصعيد الفلسطيني ، وبالرغم من كل النزيف البشري في لبنان ومحاولات الحصار ومصادرة تمثل الشعب الفلسطيني ، ما زالت المقاومة الفلسطينية تحتفظ برصيدها الجماهيري الهائل (الذي تعبر عنه يوميا انتفاضات الارض المحتلة) وبرصيدها الدولي بالتاكيد . لكن حالة التردي في « التنسيق » العسكري (لنستعمل تعبيرا مخففا عن واقع الحال) بين قوى المواجهة مع العدو الاساسي (التي وصلت بالنسبة لمصر بعد اتفاقية سيناء الى حد التجميد الكامل لامكانيات الضغط العسكري على اسرائيل) ليست دون اثر بالتاكيد

على ميزان القوى الاجمالي وبالتالي على القدرات الفلسطينية لانتزاع مكاسب ملموسة على صعيد البرنامج المرحلي ٠

ويستنتج الاخ سمارة من هذه التحولات الموضوعية ضرورة استحداث برنامج سياسي جديد للنضال الفلسطيني بدل « البرنامج المرحلي » ٠ واذا سلمنا بضرورة برنامج جديد فهذا البرنامج اما ان يكون اقصى من البرنامج المرحلي او دونه ٠ وفي الحالة الاولى يشكل هذا التجديد هروبا حقيقيا الى الامام لن يقود الا الى المزيد من الارباك والتخبط على كافة الاصعدة (الجماهيرية والعسكرية والسياسية والدبلوماسية) ـ هذا اذا لم يقد الى تسهيل مهمة الخصوم باعادة عزل المقاومة عربيا ودوليا وبالتالي تسهيل تطويقهاوشلها ٠ اما الطريق الثاني، فهو طريق الانحدار الى مستنقع التنازلات غير المبدئية والمتواصلة الذي تسلكه البورجوازيات العربية منذ تشرين ٧٣ ٠

اما ما يطرحه الاخ سمارة (العودة الى الميثاق الوطني الفلسطيني) وهو ما يسميه (« العودة الى الينابيع الاولى ») فهو هروب الى الوراءودفن للرأس في الرمل ٠ فبين الميثاق الوطني الفلسطيني والبرنامج السياسي المرحلي عشر سنوات عجيدة في تاريخ الشعب الفلسطيني سلك فيها الشعب بمجمله درب النضال بكل اشكاله وفي مقدمتها النضال الثوري المسلح واكتسب خبرة نضالية ثمينةجدا على كافة الاصعدة ، خبرة لم تكن عنده او عند قياداته في اية حقبة من تاريخه٠ فشتان ما بين الشعب الفلسطيني عام ١٩٧٤ المسلح بهذه الخبرة والملتف حول قيادة شرعية واحدة (منظمة التحرير) وبين الشعب الفلسطيني عام ١٩٦٤ الذي كان يعيش حالة من التمزق والارباك وتوزع الولاءاتبالاضافة الى قمع الانظمة العربية المتنوعة ٠

علاوة على ذلك فان المعطيات في منطقتنا تعرضت لتغييرات عميقة في هذه السنوات العشر وبشكل متسارع ٠ ولا نعتقد بان الاخ سمارة ينكر ذلك ٠ ولا نعتقد بانه يرضى بان تكتفي قيادة المقاومة عام ١٩٧٦ بطرح الامور كما لو ان شيئا لم يكن ٠ هذا بالاضافة الى ان الميثاق الوطني ليس برنامجا سياسيا ليحل مكان برنامج اخر (والا لسمي كذلك) ٠

ويذكرنا هذا الموضوع بمحاولات ايجاد التفسير لكل الاكتشفات العلمية والتطورات الاجتماعية والسياسية في الكتب الدينية ٠ او بمحاولات بعض « الفلاسفة » الهروب من صخب الواقع وتعقيداته الى هدوء الريف وسكينة الماضي البسيط ٠

وخلاصة الموضوع ان الموقف السياسي السليم في الظرف الحالي هو التمسك بالبرنامج المرحلي وتشديد النضال ـ تحت اشكاله المختلفة ـ من اجل الاسراع في احداث التغيير الضروري في ميزان القوى الذي يؤمن تحقيق هذا البرنامج . فهذا البرنامج ما زال هو الاقرب تحقيقا بالرغم من كل المتغيرات على واقع المنطقة والواقع الدولي . وما زال برنامجا نضاليا ـ وليس مشروعا في الجيب كما توهم البعض ـ ويحتاج بالتأكيد لتضافر كل العوامل المساعدة على التغيير ، المحلية منها والعالمية . ومن هنا اهمية الحرص على الوحدة الوطنية الفلسطينية وتطويرها وعلى التحالفات الوطنية العربية والتحالفات على الصعيد الدولي . واي استخفاف باي من هذه العوامل ـ تحت اية حجة مهما بدت ثورية لفظا ـ لا يؤدي الا الى المأزق (في احسن الاحوال) .

كلمة اخيرة حول هذا الموضوع : ليس البرنامج السياسي المرحلي بالتأكيد نهاية المطاف ولا هو « وثيقة ابدية »تصلح لكل زمان . فهو قابل للاستبدال لا بل يتوجب استبداله حينما تحدث تغييرات جوهرية على طريق تحقيق الاهداف المرحلية التي ينص عليها (وهو « مرحلي » بهذا المعنى) . والجبهة الديمقراطية التي تتبنى الماركسية ـ اللينينية نهجا ودليلا (١١) والتي تعمل على امد ابعد من اجل « التطور الاشتراكي لفلسطين » (١٢) ومن اجل « الوحدة القومية لكافة الاقطار العربية » (١٣) بما فيها فلسطين « الديمقراطية الموحدة المناهضة للصهيونية والامبريالية » (١٤) بعد تحقيق « تصفية الصهيونية » على كامل ترابها (١٥) ، ان الجبهة الديمقراطية اذن لا يعقل ان تعتبر تحقيق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وختام النضال كما يوحي بذلك مقال د . محجوب (١٦) بل الارجح لا بل شبه المؤكد أن قطاعات واسعة من البورجوازية الفلسطينية المنخرطة حاليا في النضال الوطني بكل اشكاله هي التي ستعتبر تحقيق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وتتحول من قوة وطنية مناضلة الى قوى محافظة قمعية لمحاولات الاستمرار بالنضال .

مسالة حق تقرير المصير :

يتناول المقالان السالفان الذكر موضوعة « حق تقرير المصير » بالنسبة للشعب الفلسطيني وكانها تنازل من الشعب الفلسطيني او لغم محشو بالاخطار . ففي مقال د . محجوب مثلا فقرات عديدة يتناول فيها هذه الموضوعة بلهجة سلبية وينتهي الى القول بان « قيادة م.ت.ف لم تقبل (في قمة الرباط) بقاعدة حق تقرير المصير بعد دحر الاحتلال عن الضفة الغربية وغزة ، وكان موقفها هو الصواب » (١٧) .

بالمناسبة وكما ذكرنا اعلاه ، تضمنت قرارات الرباط في بندها الاول تاكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير مصيره (١٨) . وما رفضته قيادة المقاومة ليس حق تقرير المصير ، بل تعليق مستقبل الضفة الغربية وغزة حتى اجراء استفتاء بين السكان . وهذا الامر الذي طرحه الملك حسين في المؤتمر يستهدف ابقاء المواطنين في الضفة والقطاع في حالة ارباك وانتظار. علما باننا لا نشك مطلقا في نتيجة اي استفتاء قد يجري ونعتبر ان الانتفاضات الشعبية المتتالية ومواقف الهيئات والمنظمات النقابية والمهنية الممثلة لمختلف قطاعات الشعب تحت الاحتلال قد حددت منذ الان وبوضوح كامل ما هو طريق ممارستها لحق تقرير مصيرها : التخلص من كابوس الاحتلال الاسرائيلي في اسرع وقت وتسلم منظمة التحرير الفلسطينية لزمام الامور في هذه الاراضي.

ويطرح د. محجوب عددا من التساؤلات حول كيفية ممارسة هذا الحق وعلى اية اراضوحول قطاعات الشعب الفلسطيني الذي ستمارسه في اطار تحقيق البرنامج المرحلي او لاحقا حين تحقيق الحل الجذري للمسالة الفلسطينية (١٩) . ويطرح المقال حق تقرير المصير كمرادف لحق الانفصال .(ويرى د. محجوب باستنتاج مفاجيء ان الانفصال المقصود في برنامج الجبهة الديمقراطية هو الانفصال الفلسطيني عن الاردن اما الاتحاد المتضمن في دعوة الجبهة لاعادة توحيد الوطن في مرحلة متقدمة في اطار « دولة ديمقراطية مستقلة » فهو توحيد مع اسرائيل ، اي ان الجبهة الديمقراطية تطالب بالانفصال عن الاردن والتوحيد مع اسرائيل . اسمعوا يا عرب) .

وسنعود للحديث عن مسالة الحق في الانفصال على الصعيد النظري . ولكن يهمنا مباشرة ان نؤكد على ما يلي :

ـ اولا : ان « الانفصال » الذي يتضمنه حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة هو انفصال عن « الاحتلال الاسرائيلي » . لان « الانفصال » عن « الضم الهاشمي » قد تحقق جغرافيا عام ١٩٦٧ لصالح اسرائيل او سياسيا بالاعتراف العربي الشامل به في قمة الرباط وبعد ذلك بالاعتراف الدولي في الامم المتحدة .

ـ ثانيا : البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لا يعتبر اي « انفصال » من هذين « الانفصالين »نهاية المطاف . فهو يتحدث عن « تجديد واعادة بناء الوحدة بين الشعبين (الفلسطيني والاردني) » بعد قيام « نظام وطني ديمقراطي في الاردن » وذلك على اسس من « التكافؤ والمساواة الديمقراطية والاختيار الطوعي الحر والنضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية »(٢٠).

كما يتحدث عن النضال من اجل « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين مناهضة للصهيونية والامبريالية » . (٢١) فاين « الانفصالية عن المعروبة » و« الوحدوية مع اسرائيل (الدولة الصهيونية) » ؟ اللهم الا اذا كان المقصود هو التحريض ضد الجبهة الديمقراطية في الاوساط القومية العربية .

نعود لموضوعة « الانفصال » . ذلك انها تحتاج الى بعض التوضيح . ففي مقال د. محجوب « حق تقرير المصير يعني في الاساس حق الانفصال » (٢٢) واكثر من ذلك يرى ان بامكان اليهود (اذا اعتبروا قومية) ان يمارسوا حق تقرير المصير وبالتالي حق الانفصال عن الدولة الفلسطينية الديمقراطية الموحدة (١٣) .

في مقال الاخ سمارة تاكيدات عجيبة في هذا الصدد : فهو يعتبر ان البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية « يقوم على قاعدة الاعتراف البديهي وغير المشروط ... بالقومية اليهودية » (٢٤) (ولا ندري من اين نبش هذا الاعتراف بالقومية اليهودية ؟) ويصل الاخ سمارة الى حد كبير من الخفة حين يطالب « جميع الدعوات الكيانية القومية الفاشستية بتقديم طلباتها الى الجبهة الديمقراطية لكي تمنحها صك الاعتراف بها »(٢٥)، ويتفهم على هذا الاساس اعتراف الجبهة الديمقراطية « بالحركات الانفصالية في الصحراء المغربية والعراق !! » (اما نحن فنفهم هذا على انه تاييد من الاخ سمارة لمواقف حكومة فرانكو اسبانيا « الثورية » ونظام المغرب « التقدمي » ورفض للاقرار بوجود قومية كردية متمايزة عن القومية العربية . وما طالبت به الجبهة الديمقراطية في الحالتين هو ممارسة حق تقرير المصير للشعبين الذي لا يعني بالضرورة وفي كل الاحوال « الانفصال » كما سنرى) .

ولا غرابة بعد كل هذا ان يستغرب الاخ سمارة ان تعرف الجبهة الديمقراطية الحركة الصهيونية بانها « تعبير سياسي قومي زائف عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية » (٢٦) ، وان يجد تناقضا بين الاقرار بالحق في الانفصال والمطالبة بالدولة الديمقراطية الموحدة (٢٧)،(الحق الذي يعتبره الاخ سمارة حقا لليهود بالانفصال وتفصيل دولتهم كما يرغبون . اليس ذلك هو حق تقرير المصير ؟)

ان حق تقرير المصير الذي تحدث عنه ماركس واستفاض لينين في معالجته هو حق تقرير المصير للقومية المضطهدة (بفتح الهاء) وليس للقومية المضطهدة (بكسر الهاء) . وكذلك حق الانفصال . يقول لينين في اطروحاته عن «الثورة الاشتراكية وحق الشعوب بتقرير مصيرها » :

« ان حق الشعوب بتقرير مصيرها يعني فقط حقها في الاستقلال السياسي

والانفصال السياسي للحر عن الشعب الذي يضطهدها ٠» (٢٨)
ويضيـــف :

« وتعني هذه المطالبة بالديمقراطية السياسية عمليا الحرية الكاملة للتحريض لصالح الانفصال وحل هذه المسالة عن طريق استفتاء في اطار الشعب الـــذي ينفصل » (اي الشعـــب المضطهد ــ بفتح الهاء ــ وليس المضطهد ــ بكسرهـــا ــ كما ورد في مقال الاخ سمارة وكاحتمال مستقبلي في مقال د٠ محجوب) ٠

ويؤكد لينين بعـــد ذلك ان هـــذا الاعتراف بحق الانفصال ليس الا «التعبيـــــر المتماسك عـــن النضال ضد كل اضطهاد قومي »، ولا يعني ان الاشتراكية تتبنـــى تجزئة العـــالم الى دويلات صغـــيرة ٠ فالعـــكس هو الصحيح اي ان الاشتراكية « تهدف الى وضـــع حـــد لتجزئة الانسانية » وتوحيد الشعـــوب ٠ والاعتـــراف بحق تقرير المصير وحق الانفصال للشعـــوب المضطهدة يشكل « مرحلة انتقالية» وضرورية ــ على حد تعبير لينين ــ على طريق اعـــادة توحيد الشعوب عـــلـــى اسس جديدة ٠ (٢٩)

ويميز لينين بين « انماط ثلاثة من البلدان بالنسبة لحق الشعـــوب في تقريـــــر مصيرها » :

١ ــ البلدان الراسمالية المتقدمة التي لم يعد لحركاتها القومية اي دور تقدمي لا بـــل تقوم باضطهاد واستغـــلال شعـــوب اخـــرى ٠

٢ ــ البلدان الاوروبية التي لم تكن انذاك (عام ١٩١٦) قد استكملـــت تطورها البورجوازي وما زال لحركاتها القومية البورجوازية دور تقدمي تلعبه٠

٣ ــ البلدان المستعـــمرة وشبه المستعـــمرة التي طالب لينين بدعـــم كلي ومطلق لحقها في التحرر وتقرير مصيرها (٣٠) ٠

فتطبيق حق تقرير المصير ليس مبدأ مطلقا في كل الحالات فهو لا ينطبق بالتالي على الاسرائيليين في موضوعـــنا ٠ والشعب الوحيد المعني بهذا الحق في اطار ما يسمى « بمشكلة الشرق الاوسط » هو الشعـــب الفلسطيني دون غـــيره ،وهو الذي يحق له بالتالي المطالبة بالاستقلال الوطني (الذي سماه لينيـــــن انذاك « الانفصال » لانه كان يفكر بالاساس بالامبراطورية القيصرية) وهو الذي يحق له اقامة دولته الوطنية الخاصة ٠

اما اليهود الاسرائيليون فوضعهم خاص وسنأتي عليه بتفصيل اكبر تحت العنوان التالي . ويمكننا مؤقتا ـ وبتحفظ شديد وانما للتبسيط ـ وضعهم في الخانة الاولى . علما بان لينين اشار في كراسه المذكور اعلاه الى ان ماركس اتخذ موقفا سلبيا من بعض الحركات القومية الاوروبية في اواسط القرن الماضي واعتبر ان هناك «امما رجعية» و«امما ديمقراطية ثورية» (٣١) هكذا بالتحديد .

المسالة اليهودية ومستقبل فلسطين :

في مقال الاخ سمارة محاضرة كاملةحول المسالة اليهودية وجذور الصهيونية يرد فيها اسمكل من ماركس واسحق دويتشر (الكاتب يصفه «بالماركسي اليهودي») وابراهام ليون (وهو «ماركسي يهودي» اخر) .

وبعض ما ورد في هذه المحاضرة :

ـ «(المسالة اليهودية) لماركس ... هو اول موقف علمي من مسالة اضطهادهم (اي اليهود) على يد الراسمالية الاوروبية» . (٣٢) .

هذا مع ان الراسمالية الاوروبية ـ وبالتحديد بعد الثورة الفرنسية ـ هي التي حررت اليهود وحولت «المسيحيين انفسهم الى يهود» (اي الى متعاملين بالمال ورأس المال) على حد تعبير ماركس في المقال ذاته . والاضطهاد الذي يشير اليه الاخ سمارة والذي مورس على نطاق واسع ضد اليهود في اوروبا الشرقية بالاساس لم يتخذ هذه الاحجام الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر اي بعد اكثر من ثلاثين عاما من كتابة ماركس لمقاله الشهير «المسالة اليهودية».

ـ «الايديولوجية الصهيونية التي جرى بعثها على يد البورجوازية اليهودية الصغيرة بدفع ودعم كاملين من البورجوازية الاوروبية» (٣٣) .

ان هذا الدفع والدعم لم يكن واردا بالاساس لان البورجوازية الاوروبية لم تكن معنية بالصهيونية في مراحل «بعثها» من قريب او بعيد ولم تأخذها على محمل الجد الا ـ بالنسبة لبعض هذه البورجوازية ـ في مطلع القرن العشرين (علما بان نشوء الصهيونية السياسية يعود على الاقل الى مطالع ثمانينات القرن الماضي) . والبورجوازية الاوروبية الغربية لم تكن كلها معادية لليهود (فاقطاعات اللبيرالية منها اتخذت مثلا موقف المدافع عن

دريفوس في فرنسا) والقطاعات المعادية لم تكن بالضرورة مؤيدة للصهيونية . الا ان تحولا كبيرا حصل في القرن العشرين بالتأكيد بعد استكمال تقاسم العالم بين الامبرياليات المختلفة وتفاقم التنازع فيما بينها لتحسين خارطة مناطق النفوذ لكل واحدة منها (الاخ سمارة يتحدث عن «الاستعمار» اعلى مراحل الرأسمالية » !) (٣٤) .

وحجة كل هذه المحاضرة جهل الجبهة الديمقراطية بالمسالة اليهودية الذي دفعها الى الاعتراف بالقومية اليهودية (هكذا) وبحقها في تقرير مصيرها !! (٣٥) .

ويستغرب الاخ سمارة بعد ذلك ان امين عام الجبهة الديمقراطية صرح في كراس نشر بعد حرب تشرين (٣٦) ان « الكيانات العنصرية ... سواء في فلسطين او في افريقيا ... » تسير نحو الزوال . ويستنتج ان الجبهة الديمقراطية « كرست » بنسبة ١٨٠ درجة !! (٣٧) .

وفي بعض تعليقاته الاخرى في هذا الصدد ، يصل الاخ سمارة الى استنتاجات مفاجئة وعجيبة . فهو مثلا يتناول الفقرة من برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي التي تتحدث عن « احلال المستوطنين اليهود محلهم (اي محل المشردين من شعب فلسطين) واقامة دولة اسرائيل كدولة يهودية مغلقة تعتبر نفسها وطنا لجميع يهود العالم على الارض الفلسطينية » (٣٨) ليخرج باغرب النتائج . فهو يعتبر ان الجبهة الديمقراطية تعترض على انغلاق الدولة اليهودية (وليس على الاستيطان واقامة الدولة كما هو واضح من النص) . واكثر من ذلك يعتبر ان النص « يحمل مطالبة بانفتاح هذه الدولة على الجماهير والاقطار العربية كخطوة اولى لحل التناقض القومي بينهما (اي بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين اليهود) (٣٩) .

ولا غرابة ان يجد الاخ سمارة مرة اخرى تناقضا في مواقف الجبهة الديمقراطية (كما فهمها او بالاحرى كما لم يفهمها) . والتناقض المزعوم يكمن هنا بين الدعوة « لفك » انغلاق اسرائيل والانفتاح على العالم العربي من جهة والاعتراف المزعوم ايضا بالكيان القومي الصهيوني من الجهة الاخرى .

وحتى ننتهي من مشكلة « الانغلاق » هذه التي احتلت حيزا كبيرا من مقال الاخ سمارة ، نشير الى كون الانغلاق المقصود هو الانغلاق العرقي (او الاثني) وليس الجغرافي الناتج بالاساس عن الايديولوجية الصهيونية المنغلقة (مبدأ « العمل العبري » الخ) . وما كانت تطرحه القوى الوطنية

والتقدمية الفلسطينية انذاك هـو الدولة الديمقراطية المشتركة (اي التي تضم العرب واليهود عـلى قدم المساواة) • واذا كان الاخ سمارة ضد هذا الحـل الديمقراطي (عـام ١٩٤٨)فهـو بالتاكيد ضده في المستقبل ، واذا كان مـع القضاء عـلى اليهـود بشريا او الالقاء بهـم في البحر فليقل ذلك حتى يتضح النقاش • لا شك ان احد بنود البرنامج السياسي الذي اثار النقاش وركز عليه المقالان هـو البند الـذي يتحـدث عـن هـذا الموضوع : موضوع الحـل الديمقراطي الثوري للمسالة الفلسطينية • فالبرنامـج السياسـي للجبهـة الديمقراطية يتحدث عـن « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين ، مناهضة للصهيونية * والامبريالية يتعايش فيها العـرب واليهود في ظل المساواة القومية الكاملة بعيدا عـن اي اضطهاد او تمييز قومي او عنصري او ديني ، وترتبـط بعـلاقات وحدوية مع سائـر اقطار الوطن العربي • » (٤١) •

ويعترض د• محجوب مثلا عـلى المساواة بين العـرب واليهود على اعتبـار ان العـرب قومية واليهود ليسوا قومية (٤٢)•

كما يتعرض الاخ سمارة على الموضوع ذاته ويتحدث عن المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني التي تقول بان « اليهـود الذين كانوا يقيمون اقامة عـادية في فلسطين حتى بدء الغـزو الصهيوني لها يعتبرون فلسطينيين » •

ونحن نريد ان نطرح على الكاتبين سؤالين محددين :

اولا ـ هل هناك موافقة عـلى الشعـار الذي طرحته حركة فتح باقامة دولـة ديمقراطية يتعايش فيها « المسلمون والمسيحيون واليهود » والذي فسر في بعض التصريحات على انه تعايش بين كل اليهود (الاسرائيليون حاليا) الذيـن يقبلون بهذا التعايش وبين كل الفلسطينيين (المقيمين والعائدين منهم) ؟

يبدو تماما ان الاخ سمارة غـير موافق عـلى هـذا الشعـار • فهو يستند الى المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني ليستنتج منها (بشكل غـيـر مبرر) ان اليهود الذين كانوا مقيمين في فلسطن قبل بدء الغزو الصهيونـي (عمليا حتى نهاية القرن الماضي) هم الوحيدون الذين يحق لهـم البقاء فـي « فلسطين المحررة » • في حين ان الميثاق يحـدد في هـذه المادة من هـم الفلسطينيون بين اليهود المقيمين حـاليا في فلسطين المحتلة •

ثانيا ـ اذا كانت هناك موافقة عـلى هـذا الشعـار وقبول بامكانية التعـايش (التاكيد بعد نضال طويل ليس هو موضوع بحثنا الان) ، فعلى اي اساس

---

* التشديد منا (الكاتب)•

سيكون هذا التعايش ؟ هل هو تعايش بين طوائف تنتمي الى قومية واحدة مثلا ، كما يفسر البعض شعار « التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود » ؟

مرة اخرى حسم الاخ سمارة موقفه بوضوح في مقاله · فهو مع التعايش الطائفي ·وهو يستخرج عبارة اخرى من الميثاق الوطني ليتحدث عن « اليهودية بوصفها دينا سماويا »وينهي بذلك المشكلة ·

في مقال د· محجوب هناك محاولة لتفادي الخوض في الموضوع باستثناء نفي كون اليهود قومية ·

ونحن نعتقد كذلك ان اليهود ليسوا قومية · اليهود المتواجدون في الاتحاد السوفياتي وفي اوروبا والولايات المتحدة وفي انحاء اخرى من العالم ليسوا قومية وليست لهم اية صفات قومية تجمعهم ·لا بل ان الدعوات القومية التي نشات في اوساطهم لعبت تاريخيا دورا رجعيا حطم التضامن بين كادحيهم وكادحي الذين يعيشون فيه واوجد توافقا موضوعيا بين هذه الدعوات وبين الحركات العنصرية المعادية لليهود ، ولاحقا توافقا اخير مباشرا ومستمرا حتى الان مع الامبرياليات الرئيسية ·

ولا نحتاج بالطبع للاطالة في هذا المجال · فالادبيات الماركسية كثيرة حول الصهيونية والحركات القومية اليهودية الاخرى (البوند) · لينين نفسه خاض حربا ايدولوجية شرسة ضد البوند (تنظيم عمالي يهودي في روسيا) بالرغم من ان البوند لم يكن صهيونيا (اي لم يطالب بهجرة اليهود الى فلسطين)· وفي المؤتمر الثاني للاممية الثالثة الذي انعقد في موسكو عام ١٩٢٠ والذي اشرف عليه لينين نفسه تبنى المؤتمر ضمن القرارات الخاصة بالبلدان المستعمرة فقرة واضحة تدين الحركة الصهيونية وتحالفها مع الامبريالية البريطانية ضد شعب فلسطين ·

لكن الموضوع ليس هنا · لان البحث لا يتعلق بكون اليهودية قومية ام لا، فالامر محسوم بوضوح ·السؤال الاساسي هو : ما هي هوية اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة ، اي اليهود الاسرائيليون ؟

معظم هؤلاء اليهود (هكذا يسمون هم انفسهم · ولا يعني استعمال هذا التعبير ـ للتبسيط ـ لا الاعتراف بهم كطائفة ولا كقومية)اتوا طبعا ضمن حملات استيطانية واقاموا دولتهم على انقاض الشعب الفلسطيني وقامت هذه الدولة

بالتنكيل بهذا الشعب وما زالت وستبقى المهمة لا يبدو قصيرا ، ولهذا فان نضال الشعب الفلسطيني مستمر حتى كسر شوكتها وتصفية الصهيونية وكافة اجهزتها وتحقيق عودة الشعب الفلسطيني بكامله الى وطنه وممارسته لحق تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني ـ كما نص على ذلك برنامج الجبهة الديمقراطية (٤٣) .

هذا الحل الجذري للمسالة الفلسطينية الذي يتطلب تغييرا هاما في موازين القوى العالمية والمحلية سيضعنا امام وضع جديد يختلف عن وضع فلسطين عام ١٩١٧ او عام ١٩٤٨ . فاليهود (الاسرائيليون حاليا) في غالبيتهم الكبيرة من مواليد فلسطين . فهم في غالبيتهم ابناء واحفاد المستوطنين الاوائل او ابناء واحفاد اليهود الفلسطينيين اصلا . والسؤال المطروح اذن هو :

هل يشكل هؤلاء اليهود قومية ؟

لقد وجد كل من د. معجوب والاخ سمارة في البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية ردا بالايجاب على هذا السؤال (بل اكثر من ذلك وجدا ان الجبهة الديمقراطية تقر بوجود قومية يهودية كما رأينا وهو بالتاكيد امر غير وارد في نص البرنامج السياسي لا من قريب ولا من بعيد) . والاخ سمارة يذهب في استنتاجاته الى نتائج مفاجئة باستمرار . فهو يتناول مثلا الفقرة الواردة في البرنامج السياسي التي تشير الى « نشوب تناقض قومي محتدم بين الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) وبين الشعب الفلسطيني » . (٤٤) ليستنتج ان «الاعتراف بالتناقض القومي يتضمن اعترافا واضحا بكيان قومي يهودي في فلسطين يعتبر الصهيونية وتجسيدها السياسي معبران عنه » !! (٤٥) .

فاذا لم يكن هذا التناقض قوميا فماذا هو ؟ هل هو تناقض طائفي مثلا او لغوي او عرقي ؟ ام هو تناقض قبلي (بين قبيلة غازية وقبيلة مقيمة) ؟ اذا لم يكن هذا التناقض قوميا فعلى اي اساس يجري تعبئة الشعب الفلسطيني بكل طبقاته لمجابهته ؟ علما بان الشعب الفلسطيني نفسه لا يشكل قومية . كما ان الطرف المعتدي لا يشكل بالضرورة قومية .

لنعد الى موضوعنا . ما هي سمات اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة (اليهود الاسرائيليين) ؟

نحن بالتاكيد نختلف مع انصار اعتبارهم مجرد طائفة دينية . فهم في غالبيتهم ليسوا حتى متدينين وعناصر التوحيد في ما بينهم لا تقتصر على العنصر الديني لا بل تتجاوزه بالتاكيد الى عناصر اخرى : لغة مشتركة ، ثقافة مشتركة بنيت على

ارضية هذه اللغة وسوق مشتركة ودولة مشتركة منذ ٢٨ عاما • اي بعض سمات التشكل القومي (مشابهة من هذه الزاوية لسمات الاقلية البيضاء في جنوب افريقيا) •

لكن هذه الكتلة البشرية تتميز عن الكتل الذابتة بحركة غير عادية وبعناصر عدم استقرار لا يستهان بها (تميزها حتى عن الاقلية البيضاء في جنوب افريقيا) •فالهجرة والهجرة المعاكسة ملازمتان لهذه الكتلة •والهجرة المعاكسة (اي الى خارج فلسطين) شهدت تفاقما متزايدا منذ حرب تشرين ١٩٧٣ وستبقى عنصرا ملازما لهذه الكتلة يزداد حدة مع الازمات ومع اي تحول لميزان القوى لغير صالح اسرائيل • وعلى الصعيد الاقتصادي ما زال الاقتصاد الاسرائيلي يعتمد الى حد كبير على خفيات الاعانات الخارجية ، (والاميركية بشكل خاص) ويشكل من هذه الزاوية حالة منفردة من نوعها في العالم • ويعاني المجتمع الاسرائيلي الى جانب ذلك من تصدع داخلي ناتج عن التمايز « الاثني » بين اليهود الغربيين (الاشكنازيم) والشرقين (السفارديم) الذي يتخذ احيانا طابع صراع حاد (ظاهرة الفهود السود) • كل هذه العناصر تشكل ارضية لاحتمالات تفسخ مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها منذ الان •

ان تعايش عناصر التوحيد مع عناصر التفسخ هذه في المجتمع الاسرائيلي تجعل من غير المبرر الحديث عن وجود قومية « يهودية اسرائيلية » متكونة حاليا او عن احتمالات تبلورها في المستقبل • فليس بمقدورنا منذ الآن حسم هذا الموضوع • التطورات الموضوعية هي التي ستقرر • كما انه ليس بمقدورنا الآن ان نحدد طبيعة العلاقة بين الشعب العربي الفلسطيني وبين من يتواجد من هؤلاء « اليهود الاسرائيليين » في اطار الدولة الديمقراطية الموحدة المستقبلية • فالمعطيات التي ستكون انذاك – اي لحظة تشكل الدولة الديمقراطية – هي التي ستحدد ذلك • الا ان المهم منذ الآن هو التأكيد على انتفاء اي اضطهاد قومي او طائفي او عرقي من هذه الدولة (والا لما استحقت تسمية « الديمقراطية» •وهذا ما فعل البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية • وهذا ما حاول الكاتبان تفسيره على انه حسم للمسائل المطروحة اعلاه • في حين انه ليس بالتأكيد كذلك •

كلمة اخرى لانصار « المساواة الطائفية » (اي الطرح القائم على اساس المساواة بين المسلمين والمسيحيين واليهود كطوائف) • نحن نعتبر هذا الطرح رجعيا جملة وتفصيلا • ليس لانه يعتبر اليهود (غير الفلسطينيين وغير العرب) طائفة فلسطينية فحسب بل لانه كذلك يضع المسيحيين (الفلسطينيين والعرب) في مصاف التمايز عن المسلمين بمقدار اليهود (مما يحمل بذور احياء اصطناعي لطائفة غير واردة حاليا) • والانكى من كل ذلك فان شعار « المساواة الطائفية »

لا يستنتج الدروس الضرورية من تجربة النظام الطائفي في لبنان . وباعتقادنا ان من الضروري محاربة هذا الشعار وما يمكن ان يحمله من اوهام تنطلق من الحلم باعادة الوضع الفلسطيني الى ما كان عليه قبل ستين عاما دون اخذ التجارب البشرية الجديدة بالاعتبار وكذلك تطور المعطيات في المنطقة والعالم .

ملاحظة اخيرة في هذا الموضوع . في مجال تعليقه على مطالبة برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي « بتصفية المؤسسات الصهيونية » . يقول د. محجوب : « هناك مؤسسات غير صهيونية في الكيان الاسرائيلي » (٤٦) . ونحن نتساءل ماذا يعني د. محجوب بهذه الملاحظة ؟ هل يطالب بمثلا بتصفية الطائفة اليهودية الصغيرة المقيمة في القدس والتي ما زالت حتى اليوم ترفض الاعتراف باسرائيل لان قيامها لم يجر وفقا لتنبؤات التوراة . هذه الطائفة التي ما زالت حتى الان ترفض الاشتراك في الانتخابات العامة بسبب هذا الموقف وترمي السيارات الحكومية التي تمر في احيائها بالحجارة ؟ أم يطالب بتصفية الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) وهو الحزب الوحيد غير الصهيوني الممثل في الكنيست (ومن بين قادته المرحوم الشاعر الوطني توفيق زياد والكاتب القصصي الكبير اميل حبيبي)؟نحن يهمنا بالفعل ان نعرف ما هي المؤسسات غير الصهيونية في اسرائيل حاليا التي يرى الكاتب ضرورة تصفيتها . اما نحن فنرى الصهيونية ومؤسساتها اخطبوطا كبيرا مسيطرا على كل كبيرة وصغيرة في حياة يهود اسرائيل . وما هو غير صهيوني فهو اما هامشي واما محاصر ومحارب بلا كلل من قبل هذا الاخطبوط بكل مؤسساته . والمناضلون الشيوعيون واليساريون الثوريون الاسرائيليون يعرفون معنى وثمن هذا « الخروج عن الخط » .

بين الاصلاحية والثورية :

في احدى كتاباته يورد لينين قصة انغلز مع عدد من عناصر الكومونة البلانكيين الذين اوردوا في بيان لهم العبارة التالية :

« نحن شيوعيون لاننا نريد ان نصل الى هدفنا دون المرور بالمراحل الوسيطة وبالمساومات التي لا تؤدي الا الى ابعاد يوم النصر واطالة عصر العبودية » . ويعلق انغلز على هذا البيان : « يا للسذاجة الطفولية التي تحول الاستعجال الذاتي الى حجة نظرية ! » (٤٧) .

ومع كل التقدير لبسالة وشجاعة بلانكي واتباعه كان كل من ماركس وانغلز يحذر من المازق والمخاطر التي يقود اليها الفكر والممارسة الانقلابيين البلانكيين. لكن الافكار والممارسات عمرها طويل على ما يبدو .

في الكثير من النقد الذي وجه لبرنامج الجبهة الديمقراطية السياسي ، تتردد نفس الملاحظات حول « اعتدال » بعض مطالب البرنامج ، « واصلاحية » التوجهات في هذا القطاع اوذاك و « التخلي عن شعار اسقاط النظام الاردني » (بسبب طرح مهام تفصيلية امام منظمة الجبهة في الاردن تتناول الحياة اليومية للجماهير الكادحة وهمومها المباشرة) ، (٤٨) والقبول بمرحلة النضال الفلسطيني الخ.

فكل بحث مهما دون التحرير الشامل وكل اثارة لقضايا الجماهير المباشرة وتضالاتها الجزئية دون الحديث عن اسقاط هذا النظام او ذاك او القضاء على هذا الكيان او ذاك ، كل ذلك ابتعاد عن الثورية ووقوع في الاصلاحية . نفس المنطق البلانكي بحذافيره - فلا علاقة بين النضال الجزئي والنضال الكلي وبين النضال المطلبي والنضال المسلح ولا علاقة بين الاهداف الصغيرة والقريبة التي تعبيء أوسع القطاعات الجماهيرية والهدف الكبير والاخير . ولا علاقة بين الانتصارات الصغيرة والجزئية والانتصار الكبير النهائي . كل شيء او لا شيء.

وهناك موضوع اخر لا بد من التطرق اليه . فقد كان مجال اثارة واسعة في بعض الاوساط . وهو موضوع « الكفاح المسلح » . وخلاصة الموضوع ان برنامج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لا يؤكد بوضوح كاف على ما يبدو على الكفاح المسلح كاسلوب نضالي ويكتفي بايراده كشكل من اشكال النضال .والاخ سمارة ذهب طبعا الى حد اتهام الجبهة الديمقراطية « بالتخلي الكامل والنهائي ... عن الكفاح المسلح » (٤٩) وقبل ان نتناول هذا الاتهام الغريب لا بد من عودة الى الوراء .

عندما انطلق الكفاح المسلح الفلسطيني المعاصر في مطلع عام ١٩٦٥ شكل بكل تاكيد مبادرة فذة حطمت جمود المسالة الفلسطينية وحققت (بعد هزيمة ١٩٦٧ بشكل خاص ثم معركة الكرامة) التفاف الشعب الفلسطيني باوسع قطاعاته حول هذا الاسلوب واقراره به اداة رئيسية لتاكيد الوجود الوطني الفلسطيني . ومن هنا فلا مجال لانكار امساك حركة فتح بمسالتين مركزيتين ومبادرتها في تثبيتهما. وهما مسالة استقلالية الشخصية الوطنية الفلسطينية ومسالة الكفاح المسلح .

ومنذ اواخر الستينات اصبح الكفاح المسلح كاسلوب نضالي رئيسي امرا مقرا فلسطينيا ولم يعد موضوع نقاش . وكذلك الامر بالنسبة للشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة التي نالت اعترافا واقعيا انذاك من العالم باسره (تكرس سياسيا وقانونيا عام ١٩٧٤ في الرباط والامم المتحدة) . منذ ذلك الوقت كان لا بد من الانتقال الى مرحلة ارقى ، من تحديد اهداف اعلى للنضال

الفلسطيني من اجل تحقيقها • ومن هنا كان برنامج السلطة الوطنية ، البرنامج الوطني المرحلي •

وبالمناسبة « فالكفاح المسلح » و « وحرب الشعب » « والعنف الثوري » ليست برامجا ولا اهدافا بل هي وسائل لتحقيق برامج واهداف • ولهذا فلا مجال للمقارنة بين « البرنامج الوطني المرحلي » و « استمرار الكفاح المسلح » • فالشعار الثاني لا يشكل برنامجا ولا يحدد اهدافا ولا يغني عن ضرورة وضع البرنامج والاهداف •

ملاحظة اخرى : اتهام الجبهة الديمقراطية بالتخلي او التوجه نحو التخلي عن الكفاح المسلح يفتقر الى الحد الادنى من حسن النية ، ازاء ما قدمته الجبهة الديمقراطية من تضحيات خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة سواء على الارض الفلسطينية المحتلة او على ارض لبنان حيث كانت قواتها متواجدة عمليا على كل الجبهات وفي كل المعارك • فالمسالة اذن ليست فيمن يردد لفظة الكفاح المسلح اكثر من الاخر بل فيمن يمارسه على ارض الواقع فعلا • وقد علمنا رفاقنا الفيتناميون درسا عظيما يجب ان نستفيد منه : ان تكون الشعارات والكلمات دائما دون مستوى الفعل والامكانيات وليس العكس ، اي ما معناه ان التصلب الفعلي هو في الممارسة وليس في الالفاظ ، والظروف غالبا ما تقتضي ان تكون الالفاظ اكثر مرونة واعتدالا من الممارسة •

وحينما يشير د • محجوب مثلا في مقاله التحول « اللفظي » في لغة الجبهة الديمقراطية بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٥ (عام صدور البرنامج السياسي) ، نقول بان وراء هذا التحول في « الالفاظ » تحولا في البنية والهوية الطبقية بالتاكيد • فالجبهة الديمقراطية ، رغم اهمية طرحها آنذاك للفكر اليساري على الساحة الفلسطينية ، الا انها كانت تصطبغ بالتاكيد في فترة ولادتها بصبغة التطرف اليساري الطفولي الناتج عن بنية بورجوازية صغيرة مثقفة بالاساس • وما حدث في السنوات الاخيرة وخاصة منذ عام ١٩٧٣ هو انها تحولت شيئا فشيئا طبقيا باتجاه ديمقراطي ثوري يعبر عن مصالح وتطلعات الطبقات الكادحة (والطبقة العاملة بشكل متزايد) • ولا غرابة آنذاك ان تتحول لغة الجبهة من « الالفاظ الثورية » التي تقفز فوق الواقع الى الارتباط بالنضالات والهموم المباشرة والقصيرة الامد للجماهير الكادحة في اطار استراتيجية ثورية طويلة الامد تاخذ بعين الاعتبار موازين القوى المحلية والعالمية والية تغييرها لصالح الثورة والجماهير الكادحة •

وملاحظة اخيرة : نحن لم نتمكن بالتاكيد من مناقشة كل القضايا التي اثارها

البرنامج السياسي . فمناقشة كهذه تحتاج الى كتاب وليس الى صفحات قليلة في مجلة دورية . لكننا تناولنا القضايا الرئيسية وتفادينا في المناقشة اسلوب الرد السجالي قصداً بالرغم من أن مقال الاخ سمارة بالتحديد الذي يتضمن شتائم واضحة (بالمعنى الحرفي وليس المجازي للكلمة) يستدعي اكثر من نقاش هادىء . لكننا آثرنا ان نترك الحكم للقارىء .

الحواشي :

(١) البرنامج السياسي : صفحة ٢٤
(٢) المصدر نفسه : صفحة ٥٠
(٣) شؤون فلسطينية عدد (٥٦) : صفحة ٢٦
(٤) المصدر ذاته والصفحة نفسها .
(٥) النهار ١٩٧٤/١٠/٣٠ نقلا عن «رفاء» .
(٦) شؤون فلسطينية عدد (٥٨) : صفحة ٦٢ .
(٧) المصدر (٣) : صفحة ٢٦ .
(٨) المصدر (٦) : صفحة ٦٣ .
(٩) المصدر ذاته .
(١٠) جريدة « الصفير » ١٩٧٦/١٠/١٤ .
(١١) النظام الداخلي للجبهة الديمقراطية : مطلع المقدمة .
(١٢) البرنامج السياسي : صفحة ٢١ .
(١٣) المصدر ذاته : صفحة ٤٥ .
(١٤) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ .
(١٥) المصدر ذاته : صفحة ٣٥ .
(١٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٩ .
(١٧) المصدر ذاته : صفحة ٢٦ .
(١٨) راجع المصدر (٥) .
(١٩) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ـ ٢٣ـ٢٤ .
(٢٠) البرنامج السياسي : صفحة ٥٨ .
(٢١) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ .
(٢٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٣ .
(٢٣) المصدر ذاته : صفحة ٢٧ .
(٢٤) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٩ .
(٢٥) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ .
(٢٦) المصدر ذاته : صفحة ٧٢ .
(٢٧) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها .
(٢٨) V. Lénine Oeuvres Choisies Editian du Progrés , Mascou صفحة ١٥٦
(٢٩) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها .
(٣٠) المصدر ذاته : صفحة ١٦٠ .
(٣١) المصدر ذاته : صفحة ١٥٩ .
(٣٢) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٧ .
(٣٣) المصدر ذاته .
(٣٤) المصدر ذاته : صفحة ٦٨ .
(٣٥) المصدر ذاته : صفحة ٦٧ .
(٣٦) اي قبل اقل من عام من اقـــرار البرنامج السياسي .
(٣٧) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٧١
(٣٨) البرنامج السياسي : صفحة ٣٠ـ٣١
(٣٩) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٨ـ٦٩ .
(٤٠) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ .
(٤١) البرنامج السياسي : صفحة ٣٢ .
(٤٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ .
(٤٣) البرنامج السياسي : صفحة ٢٢ .
(٤٤) المصدر ذاته : صفحة ٣١ .
(٤٥) المصدر (٦) : صفحة ٦٩ .
(٤٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ .
(٤٧) المصدر (٢٨) اعلاه : صفحة ٥٦٩ .
(٤٨) في مقال الاخ سمـــارة : صفحة ٧٤ـ٧٥ .
(٤٩) المصدر ذاته : صفحة ٧٤ .

التكامل الاقتصادي العربي لبناء الصناعة الحربية *

الدكتور خيرات البيضاوي

تتصارع وتيرة « سباق التسلح » بين الدول العربية واسرائيل بصورة لم يسبق لها مثيل منذ زرع الكيان العنصري الاستيطاني الاسرائيلي في قلب الوطن العربي : فلسطين . الا أن اسرائيل قد استطاعت ، عبر شبكة نفوذها الصهيوني الهائل تخطي جميع العقبات، والقفز فوق كل الحواجز لاقامة « ترسانة » حربية في الاراضي الفلسطينية المحتلة . وليس يسر أن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية قد حملت كل ما تستطيع من الات واجهزة حربية متطورة من «عنابر» البنتاغون الذي سمح لقادتها بانتقاء كل ما يلزم جيشهم العدواني . ولم يكتف جنرالات اسرائيل بما قدمته لهم الولايات المتحدة من اسلحة ، بل حاولوا ادخال بعض التعديلات على ما في حوزتهم منها ، وطوروا بعضها الاخر ، واستخدموا خمسة الاف عالم ، ومهندس ، وتقني في قطاع صناعتهم الحربية (١) . تتيح تلك الصناعة الحربية الاكتفاء الذاتي في ميدان التسلح بالنسبة لاسرائيل ، الا انها تعتبر رديفا لتدفق سيل الاسلحة اليها من أميركا من جهة ، ومجالا لاستيعاب شريحة من العمالة الاسرائيلية من جهة أخرى . ومن الواضح أن الصناعة الحربية الاسرائيلية لا ترتكز على الاعمدة الصلبة التي يقوم عليها صرح الاقتصاد القومي والمتجسدة في :

رأس المال ، والمواد الاولية ، والطاقة ، والاسواق ، والتنمية ، والمعرفة . وهي كلها عوامل تفتقدها اسرائيل ، وهي تستوردها ، كلها تقريبا من الخارج اي من الجاليات اليهودية المتواجدة خارج حدود الوطن المحتل وخصوصا في الولايات المتحدة الاميركية . فاذا ما انقطع وصولها ، لاي سبب من الاسباب ، اصفرت أوراق شجرة الصناعة الحربية الاسرائيلية ، ولفظ دخان معاملها انفاسه ، وغاب سواده عن سماء فلسطين .

اما العرب فالعوامل السالف ذكرها كلها متوافرة لديهم باستثناء التقنية (التكنولوجيا) أي « طريقة وضع المعرفة العلمية داخل الجهد الانساني الفكري والمادي ، بقصد رفع الانتاجية ومقلنة التصميم وعمليات الانتاج » (٢) . وهي تمثل في الواقع ذروة التقدم العلمي المتراكم عبر عشرات السنين . فالثورة الصناعية الغربية لم تؤت ثمارها بين ليلة وضحاها ، بل كانت محصلة عصارة فكرية خلاقة تراكمت عبر السنين لتفرز المدنية

* يعالج هذا المقال ، خلفية بناء صناعة حربية عربية ، ولا يتطرق بالتحليل للمحاولات الموجودة فعلا ، والتي سنعالجها في دراسة لاحقة .

الصناعية الحاضرة • ويتبع التقدم الصناعي عادة قاعدة « التكاثر الهندسي » لا الحسابي • من هنا تضاعف سرعة وتيرته مع الزمن • وذلك ما حصل فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، بدءا بتفجير الذرة وانتهاء بهبوط اول انسان على سطح القمر ومرورا باكتشاف العقول الالكترونية ووضع الاقمار الصناعية في مداراتها حول الارض •

الطابع المميز للصناعة الحربية

هناك اجماع تقريبا بين علماء الاقتصاد على أن الصناعة الثقيلة هي ذروة الاقتصاد القومي • واما سدرة منتهاها فهي : الصناعة الحربية • وتتميز هذه الاخيرة بعلامات فارقة تصبغها بطابع خاص يتمثل بما يلي :

١ ـ انتاج سلعها باهظ التكاليف ولا يعود بمردود ربحي اذا كانت سوقها محصورة • وهي تعتبر في المفهوم الاقتصادي استثمارات غير منتجة الا اذا كانت من الجودة والضخامة والتعقيد بما يسمح لها بالتصدير والمنافسة في سوق الاسلحة العالمية مثل : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، وبريطانيا وفرنسا •

٢ ـ تداخل الصناعة الحربية مع صناعات مدنية اخرى مثل الزجاج المطاط والاسلاك المعدنية وعدسات التصوير ووسائل الاتصالات اللاسلكية والعقول الالكترونية والرادار وغيرها •

٣ ـ نوعية العاملين فيها والمستوى التقني العالي المفروض توافره فيهم •

٤ ـ ضرورة توزيع المعامل في رقعة مكانية واسعة لئلا تصبح هدفا سهلا للتدمير من جانب العدو •

٥ ـ اعتبار الصناعة الحربية الدرع الواقية للدفاع الوطني ، والوسيلة الناجعة في استرداد اجزاء الوطن السليب ، واسترجاع الحقوق المغتصبة •

الواقع الماساوي للاقتصاد العربي

ان العوامل الطبيعية المتوافرة لتكامل الاقتصاد العربي لم تستطع حتى الان اختراق الاسوار العالية التي اقامتها الانظمة السياسية في وجه تحقيق الحد الادنى من التكامل • فالتشريعات الجمركية ، والقيود المفروضة على انتقال رؤوس الاموال ، وطريقة استثمارها في هذا البلد العربي او ذاك ، ومنع تنقل العمال العرب بين قطر واخر الا باجازات خاصة ، والفوارق الهائلة الموجودة بين العملات ، كل هذا يجعل من الحديث عن الاقتصاد العربي الحالي كوحدة قائمة بذاتها امرا غير علمي • والمقارنة هنا تكاد تكون ماساوية • فالدول المختلفة اللغات ، وذيه المتكاملة اقتصاديا بدات بعد الحرب العالمية الثانية في الانضواء تحت لواء منظمة اقتصادية خاصة لمساعدتها في التغلب على مشاكلها الاقتصادية ، والتنسيق فيما بينها منعا للتنافس في انتاج السلعة الواحدة•

التكامل الاقتصادي العربي الممكن ايجازها فيما يلي :

أولا : توافر رؤوس الاموال اللازمة لاقامة صرح اقتصاد عربي متين تستطيع فوائض العائدات النفطية مده بكل ما يلزمه من اموال تثمير حتى يستطيع الوقوف على قدميه وانتاج سلع صناعية ذات مردود ربحي .

ثانيا : ضخامة السوق العربية المؤلفة من كتلة تضم ١٢٠ مليون مستهلك تقريبا .

ثالثا : القدرة الشرائية الهائلة لمواطني الدول العربية النفطية ، وتعويضها عن عامل الحجم السكاني ذي الكثرة العددية وانخفاض الدخل الفردي فيه (مصر مثلا)، وهو ما يعرف بعلم الاقتصاد بـ « اقتصاديات الحجم » . Economies Of Scale

رابعا : سهولة انشاء شبكة مواصلات بين الدول العربية ، واتصالها الجغرافي الطبيعي فيما بينها . وهناك ارتباط وثيق بين المسافة الجغرافية الطبيعية بين مكان واخر (٧) وه المسافة الاقتصادية التي لا تحتمد على بعد المسافة التي تقاس عادة بالميل أو الكيلومتر بين مكانين جغرافيين ، بل على سهولة الاتصال فيما بينهما وعلى كثافة الحركة التجارية القائمة بين طرفيهما ».

خامسا : تواجد المواد الاولية الخام التي تؤلف « العمود الفقري » لكل صناعة ثقيلة أي الحديد والصلب ومشتقاتهما .

سادسا : رخص سعر الطاقة المحركة لكل الالات وتوافرها بكثرة هائلة .
سابعا : كثرة اليد العاملة ورخص اجورها .

القاعدة الاقتصادية العربية للصناعة الثقيلة :

لا شك بأن القاعدة الاقتصادية العربية تتمتع بالمزايا الضرورية والعوامل الكفيلة لتجعل منها قوة صناعية ان لم تستطع المنافسة في الاسواق العالمية ، فانيوسعها على الاقل ، تحقيق شبه الاكتفاء الذاتي للمواطنين العرب القاطنين بين طرفي المحيط والخليج . ومن الواضح ان الكلام هنا يعني الاقتصاد العربي كوحدة ، وليس كحلقات متفككة مبعثرة لا يجمع بينها جامع ، وتمنع الانظمة السياسية أي تحرك جدي نحو تحقيقها . وه المسح الاقتصادي ، على أرضية الواقع الاقتصادي العربي ككل ، يظهر بوضوح رجاحة العوامل المشجعة في ميدان التصنيع الثقيل الكفيل بتلبية متطلبات الصناعة العسكرية ، على العوائق التي تقف حجر عثرة في طريقها . والصناعة الثقيلة في كل بلد ، وبصورة عامة ، قادرة في ايام السلم على انتاج الالات الضخمة والحركات اللازمة للاستهلاك المدني أو الصناعي غير الحربي مثل البرادات والجرارات والحفارات ، والشاحنات وغيرها . وهناك ايضا الصناعات الخفيفة المرتبطة مثل المطاط ، والانسجة ، والاسلاك المعدنية ، والاخشاب والجلود ، والبطاريات ومنتجات البلاستيك والنايلون . وهي كلها تتداخل بشكل أو بآخر في الصناعة الحربية . فالبسة الجنود مثلا وخوذهم ،

وه جزماتهم ،وغيرها تكلف تزويد الجيوش العربية بها عشرات الملايين من الدولارات التي من السهل توفير القسم الاكبر منها ، وذلك عن طريق توحيد انتاجها ، وتوزيعه على الجنود العرب • وبالاضافة الى التوفير المالي هناك الفرصة الجديدة المتاحة امام العمال العرب للعمل في تلك الصناعات التي تشكل جزءا هاما وحيويا من استكمال عدة كل جندي ذاهب الى ميدان القتال ، أو مستقر في الثكنات •

رؤوس الاموال :

اذا كان المال « عصب الحرب » فهو ايضا ، والى حد كبير ، « عصب الصناعة الثقيلة » • فالثروات الطبيعية المخزونة في جوف الارض لا يمكن اخراجها من بطنها الا بتوظيف أموال ضخمة تنفق على شراء التجهيزات الالية اللازمة وصيانتها ، وبدفع اجور العناصر البشرية من مهندسين ، وتقنيين ، وعمال ، ولا يفتقر العرب الى قلة الاموال ، بل على العكس ، تتراكم لدى الدول النفطية العربية وتوظف وتستثمر خارج الوطن العربي • وفي معرضة ، على الرغم من ضخامتها « الاسطورية » ، الى الفرق في مياه التضخم أو التخفيض الرسمي لبعض العملات الاجنبية • ولقد ذكر الدكتور علي عتيقة ، الامين العام لمنظمة الدول العربية المصدرة للبترول ، بان الدول العربية النفطية قد خسرت في العام ١٩٧٥ حوالي مليارى دولار بسبب سقوط قيمة الجنيه الاسترليني ، وارتفاع مؤشر التضخم في الدول الصناعية •

ان التقديرات شبه الرسمية للاموال العربية الموظفة خارج الوطن العربي ، أو القابعة في خزائن بعض المصارف الاجنبية تشير الى انها تقارب الثلاثين مليار دولار • وهي مرشحة للقفز الى ما يقارب المائة والخمسين مليار دولار في أواسط الثمانينات ، وهو مبلغ خيالي لا يمكن لاي خبير اقتصادي ان يتخيل بقاءه « رأسمالا طائرا » أو موظفا في سبيل الربح « الرهيب » بدل تشميره في مشاريع انتاجية دائمة داخل الوطن العربي •

المواد الاولية الخام

يتربع الحديد على عرش المواد الاولية اللازمة للصناعة الثقيلة • فكمية انتاجه مع ترامه من الصلب تصنف مركز الدول الصناعية في العالم • (٨) « فالدول الاربع الصناعية الاولى في العالم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والمانيا الاتحادية واليابان ، تحتل المراكز الاربعة الاولى في انتاج الصلب والحديد » • وتمتلك البلاد العربية خامات الحديد بكميات متباينة (٩) « تتوزع بين مصر والجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا والسعودية » • ويقدر الاحتياطي المكتشف منها في البلاد العربية حتى الان بحوالي ٨مليارات طن • ويتضاعف الطلب على الحديد والصلب ومنتجاتهما كل ١٥ سنة • تشير الدراسات التي قامت بها لجان الحوار العربي ـ الاوروبي (١٠) الى « ان العالم العربي يحتاج حتى يصبح متوسط استهلاك الفرد الواحد فيه من منتجات الحديد والصلب مائة كلغ في عام ١٩٨٥ ، الى انتاج اضافي قدره ٢٢ر٥ مليون طن سنويا تستلزم استثمارات يقارب حجمها الى ١٥ مليار دولار » • وتؤكد الدراسات والاحصائيات في الدول الصناعية على أن صناعة الحديد والصلب تخلق فرص عمل للسكان اكثر من اية صناعة اساسية اخرى ، وتؤدي الى تكوين مهارات فنية وأطر (كوادر) فردية

اكثر مما توفرها اية صناعة اخرى • وتسهم صناعة الحديد والصلب في حال تطويرها ، بمكننة الزراعة العربية راسيا وافقيا ، فمعدل انتاج الوحدة الزراعية العربية حاليا يقل حوالي ٨ مرات عن معدلات الانتاج العالمية ، بسبب افتقارها الى الجرارات والآت الحصاد والبذر والدرس والحصد ، فالدول المتطورة تستهدف تخصيص جرار ذي قوة ٦٠ حصانا لكل ١٠٠ هكتار اي ٨ر٠ حصان / هكتار • أما الدول العربية فنسبتها من الحصان / الهكتار هي كما يلي :

مصر : ٢ر٠ ، سوريا : ٠٦٧ر٠ ، المغرب : ٠٦٥ر٠ ، ليبيا : ١ر٠ ، الجزائر : ٤ر٠٠ وتقدر احتياجات الدول العربية من الجرارات الزراعية سنويا بحوالي ٢٢ الف جرار (قدرة ٤٥-٦٠ حصانا) • وهي لا تكاد تنتج منها شيئا الان •

هناك مجمع للحديد والصلب في حلوان ينتج حوالي مليون طن سنويا • وتحاول الجزائر انشاء مجمع خاص بها بالقرب من الحدود المغربية ـ الجزائرية • ومن الممكن تجميع انتاج الدول العربية من صناعات الحديد في مركز واحد • ويمكن اعتبار مجمع حلوان نواة ذلك المركز الذي من السهل جدا توسيعه بل وشراء كل ما يلزمه من معدات حسب الاتفاقات المعروفة بـ اتفاقات المفتاح باليد ، ـ Turn-Key ـ وتوافر الاموال العربية يسهل تلك العملية ويجعلها ممكنة التطبيق في المستقبل المنظور•

ويدخل الحديد والصلب في تركيب وتجميع كل الاسلحة التقليدية تقريبا من القواصة الى الصاروخ ومرورا بمحركات الطائرات والدبابات والمصفحات والمدافع والصواريخ وناقلات الجنود ومختلف انواع الذخيرة التقليدية • والى جانب صناعة الحديد والصلب، لا بد من اقامة صناعات رديفة لاستكمال تجهيز الاسلحة الحربية من مطاط ، والومنيوم ، وزجاج ، وعدسات ، واسلاك وغيرها •

الطاقة

منذ اكتشاف الطاقة الناجمة عن الاحتراق ، وسواء كان ذلك البخار الناتج عن الفحم والحطب وغيرهما ، فقد تفوق النفط عليها جميعا في اوائل القرن الحالي نظرا لرخص استخراجه ووفرة احتياطيه ،ولقد ثبت عند اكثر من خبير نفطي (١١) ان « العالم العربي يسبح فوق محيط من النفط ، ويحتفظ في جوف اراضيه بما يتراوح بين ٦٥ و٧٥ في المائة من الاحتياطي العالمي المكتشف حتى الان من الذهب الاسود • فالولايات المتحدة تمتلك ٧٪ من الاحتياطي العالمي ، والقارة الافريقية ٨ر٥ ٪ ، والقارة الاميركية من شمالها الى جنوبها ٤ر١٣ ٪ ، والعالم الاشتراكي ١ر١٦ ٪ » • ولا (١٢) « تتجاوز تكاليف التنقيب عن البرميل الواحد من النفط في البلاد العربية سنتا واحدا ، بينما تبلغ في الولايات المتحدة ٤٧ر١ دولارا ، و٩٧ سنتا في اوروبا الغربية ، و٧٠ سنتا في كندا ، و١٧ سنتا في القارة الافريقية » • ولا يزال النفط المادة الحرارية الاكثر استعمالا في العالم بالنسبة لثلاثتها المستخرجة من الطاقة الفحمية او المائية او الغازية الطبيعية او النووية ، فنسبة استعماله ، (١٣) تبلغ ٥ر٤٤٪ من مجموع الطاقة المستعملة في الولايات المتحدة ، و٥ر٥٩ ٪ فرنسا ، و٣ر٤٣ ٪ في بريطانيا ، و٧ر٧٥ ٪ في ايطاليا ، و٣ر٥٨٪ في المانيا الاتحادية و٦ر٥٢ ٪ في مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ، و٨ر٦٩ ٪ في

اليابسان » ٠

وهكذا يوفر النفط للدول العربية الاموال اللازمة لاقامة مصانع الصناعة الثقيلة ، كما يوفر لها الطاقة شبه المجانية لادارة محركاتها مع صناعاتها الوليدة التي تساعد على زيادة الانتاج الزراعي والخلاص من « حرب التجويع » التي تلوح بها الولايات المتحدة بوجه العرب كلما شعرت بوجود خطر مباشر أو غير مباشر يهدد الكيان العنصري الاسرائيلي ٠

الاسواق :

يكاد يجمع علماء الاقتصاد والاجتماع ان أسباب الحروب ، ومهما اختلفت اسبابها المباشرة تبقى في النهاية اقتصادية ، وتتجسد في المنافسة على الاراضي الغنية بالمواد الاولية ، والتزاحم على الاسواق لتصريف السلع ، وهي تصطبغ تارة بالايديولوجية ، وطورا بالشعور الشوفيني القومي ، الا انها تبقى في جوهرها فصلا من مسلسل الصراع ، والاسواق بالنسبة الى السلع المصنعة مسألة حيوية ، فاذا لم تتوفر الاسواق اللازمة لتصريفها ، انقلبت الى كارثة على اصحابها اذ يخسرون راس المال الذي استهلك لانتاجها، من هنا تكامل العوامل التي تجعل من الوطن العربي وحدة اقتصادية طبيعية تمتلك رؤوس الاموال ، والمواد الاولية ، والطاقة والاسواق، ومن الواضح ان الكثافة السكانية العربية تجعل من الوحدة الاقتصادية العربية سوقا تجارية رابحة على كل صعيد ٠

عوامل نجاح اقامة صناعة حربية عربية :

ثمة حقيقة ازلية لا يمكن تجاوزها وهي ان « الانسان اغلى رأسمال في العالم » ، فوجود راس المال والمواد الاولية والطاقة والاسواق لا تكفي كلها لاشادة بناء الصناعة الحربية الثقيلة اذا لم يتوفر لها العقل الانساني المبدع الخلاق ٠ وتبقى ركائز القاعدة الاقتصادية بحاجة الى الذكاء الذي يستقرىء ويستنتج ، ويقارن ويجرب ، ويخطىء ويصيب ليلاحق المعالم بالاكتشافات والاختراعات التي حققت في النصف الثاني من القرن العشرين ذروة التقدم الصناعي ، والمبدعون من العلماء والمخترعين هم النخبة في كل بلد صناعي متقدم٠

اما بالنسبة الى البلاد العربية فان هجرة النخبة من ابنائها اي (١٤) حملة الشهادات العالمية واصحاب الكفاءات والمواهب كالعلماء ، والمهندسين والخبراء والفنيين « الى البلدان الصناعية المتقدمة قد خلق مشكلة قومية ذات ابعاد مستقبلية خطيرة على الصعيدين الانساني والاقتصادي ، فبدلا من استفادة مختلف البلدان من الطاقات العلمية لابنائها في سبيل دفع عجلة مشاريع انمائها للحاق بركب القرن العشرين ، تسلم الى استقدام الخبراء والتقنيين الاجانب فتصبح خسارتها حينذاك مضاعفة عشرات المرات لان (١٥) « تعليم وتدريب العالم الواحد يقدر بحوالي ٢٠ الف دولار » ٠ اما المردود المالي لاستثمار خبرة وموهبة العالم الواحد للاقتصاد الاميركي (١٦) « فتقدر بحوالي ٢١٤ الف دولار »٠ فاذا ما علمنا ان هناك (١٧) «حوالي ١٠ الاف من ارباب المهن العرب ، وعلى راسهم العلماء والمهندسين والاطباء والخبراء يهاجرون كل عام من ثمانية اقطار عربية هي : لبنان وسوريا والاردن والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر ، وان ٧٠ في المائة من العلماء العرب الذين يسافرون الى الاقطار الغربية للتخصص لا يعودون الى بلدانهم الاولى » ادركنا مدى

الخسارة الاقتصادية والانمائية التي تتحملها سنويا بعض الاقطار العربية ٠

لقد أدركت بعض الدول العربية مثل العراق وسوريا ومصر والاردن خطورة استمرار نزيف الادمغة العربية فسارعت منذ عام ١٩٦٨ الى اصدار التشريعات اللازمة لاستعادة الادمغة المهاجرة ، وذلك عن طريق اغراء أصحاب « الخلايا الرمادية » بالمزايا المادية التي تمنح لهم بعد عودتهم من تأمين العمل ذي المردود الربحي المتناسب مع كفاءاتهم ، وتقديم قطع أرض مجانية لبناء منازل لهم ، ووضع تحت تصرفهم كل ما يطلبونه من مختبرات وآلات وتأسيس مراكز ابحاث للاسهام في نهضة بلادهم عن طريق ما حصلوا عليه من خبرة وعلم طوال اقامتهم في الخارج ٠

ان فقدان العنصر البشري اللازم والضروري لاقامة الصناعة العربية الثقيلة مثل المهندسين الكهربائيين ، والميكانيكيين ، والعلماء المتفرغين للعمل في المختبرات ومراكز الابحاث العلمية الصناعية يمثل عائقا هاما ٠ الا أن التغلب عليه ممكن اذا ما بدأت الدول العربية في سياق عد عكسي مع الزمن حول :

- استعادة اكبر عدد ممكن من الادمغة العربية المهاجرة ٠
- استقدام بعض الخبراء العالميين لتدريب جيل عربي تقني على أيديهم ٠
- انشاء مراكز البحوث الخاصة بالصناعة المتطورة ٠
- تهيئة الادمغة العربية اللازمة للصناعة الحربية المعقدة عن طريق ارسال البعثات العلمية الى الخارج ٠
- توسيع دائرة النواة التقنية العربية المتواجدة حاليا في كل من مصر والجزائر ٠

ومن المؤسف القول أنه لا يوجد علماء او تقنيون عرب اخصائيون في شؤون الصناعات الالكترونية مثل الكمبيوتر والاقمار الصناعية ، وعلم الاشعات ، والاشعاعات ، وهي كلها تتداخل في صلب الصناعة الحربية ٠ ولقد تطورت هذه الاخيرة بعد الحرب العالمية الثانية تطورا مذهلا جعل صناعة الطائرات والصواريخ الموجهة ، والآلات الالكترونية والاشعة (ليزر) تمثل ثلثي الاموال الموظفة في الصناعات الحربية، والرقم القياسي في غلاء أسعارها ٠ واصبح العامل الالكتروني عنصرا حاسما في كل آلة حربية معقدة ، فالطائرة الحربية تكاد تصبح مختبرا الكترونيا قائما بذاته ٠ من هنا ضرورة انشاء صناعة قومية خاصة متطورة للطائرات الحربية ٠

الا أن هذا العائق لا يقف حائلا دون اقامة مصانع تجميع لمحركات الطائرات ، والاتفاق مع الدول أو المصانع المنتجة لذلك الصنف من الطائرات على شراء حق تجميع اجزائها، (١٨) فـ « الهند مثلا قد استطاعت انتاج طوافات Alouette الفرنسية ، وطائرات ميغ ـ ٢١ السوفياتية ، وطائرات مقاتلة من نوع Gnat البريطانية وطائرة Marut القاذفة ، وهي تنتج في الهند وتنقل اهم أجزائها من المعامل أو الدول التي اتفقت معها الحكومة الهندية على انتاج ذلك النوع من الطائرات او ذاك الطراز من الصواريخ ، وليس ما يمنع الدول العربية من احتذاء مثل الهند ٠ فالاموال لديهم متوافرة وتجارة السلاح دهليز لا يستطيع الدخول اليه والخروج منه محملا بكل ما يحتاجه من انواع الاسلحة الا صاحب الامكانيات المالية ٠

ان الكلام عن العرب هنا يعني مجموعة الدول العربية الغنية منها بالاموال والمواد الخام من جهة ، والغنية بالعناصر البشرية القادرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة من جهة اخرى ، فالدول الخليجية النفطية مثلا لم يتح لها الوقت بعد لانشاء نواة علمية قادرة على الاسهام في انتاج الاسلحة • فالتراكم العلمي المفروض تواجده مفقود تماما هنا • ويكفي من تلك الاقطار اسهاما بما لديها من اموال وطاقة ، اما مصر والجزائر وسوريا والعراق ولبنان وتونس فبامكانها تقديم العناصر البشرية المتوافرة لديها حاليا ومضاعفة عددها ، وتحسين نوعيتها ، وتمكينها من استيعاب كل ما يستجد في عالم التقنية ، اما القراغ الهائل الذي يشكو منه العرب فيلخص في ميدان التقدم الكهربائي ـ المغناطيسي المتجسد في العقول الالكترونية ، ووسائل الاتصالات اللاسلكية ، واستخدام مجالات الاشعة وخصوصا (الليزر) منها • فهنا لا بد من البدء من الصفر تقريبا • الا ان رحلة الالف ميل تبدا بخطوة • وقد يقال هنا ان تلك الصناعة الكهربائية ـ المغناطيسية اللاسلكية تدخل في نطاق عالم الاسرار التي تحتفظ بها الدول لنفسها • ولكن هناك آلات معقدة أصبحت في متناول من يدفع ثمنها • وهي تكفي للبدء في تمرين الجيل العربي الجديد على استعمالاتها المختلفة ، وليس يسر أيضا ان الاموال تملك مفاتيح جميع خزائن الاسرار : الحربية منها والسياسية •

هنا لا بد من ايضاح • فالصناعة الحربية العربية سوف تنحصر في حدود القدرة على الدفاع عن الوطن العربي الممتد من المحيط الى الخليج ، واسترجاع الوطن السليب للسطين، وما قضمته اطماع بعض جارات العرب من الاراضي العربية • وهي معروفة وليست هناك حاجة لتسميتها • فعامل الربح والخسارة المادية لا يدخل في حساب اقامة الصناعة الحربية العربية • فالعدو الاسرائيلي ما زال يغوز انيابه في الجسد الفلسطيني الذبيح ، ويبقي الاراضي العربية المحتلة بين شدقيه ، ويزيد تسلحه لدرجة انه يخصص لموازنته الحربية اكبر نسبة عالمية من دخله القومي اذ بلغت في العام الماضي ٢٦ في المائة ، وبالاضافة الى المكاسب القومية التي يجنيها العرب من اقامة الصناعة الحربية ، فهناك توفير نسبي أيضا في الاموال المخصصة لموازنات الدفاع في البلدان العربية • ففي الاحوال الراهنة ، يضطر كل بلد عربي الى رصد اعتمادات دفاعية قد لا تتناسب مع دخله القومي وكما يتبين من الاحصاءات البيانية التالية : (١٩)

تطور موازنات الدفاع بملايين الدولارات نسبة الدخل القومي المئوية المخصصة للدفاع

الدولة	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
الجزائر	٢٣٩	٣٧٦	٤٠٤	٢٨٥	٤ر	٣ر٩	٤ر٧	٦ر٦
مصر	١٥١٢	٢٧٥٧	٤٠٧١	٦١٠٣	٢١ر١	٣١ر٩	٣١ر	٢٢ر٨
العراق	٤٧٣	٨١٥	٨٠٣		١٢ر٧	١١ر٣	١٦ر٤	١٤ر٢
الاردن	١١٧	١٤٧	١٤٢	١٥٥	١٤ر٨	١٦ر	١٦ر٤	١٤ر٢
ليبيا	١٧١	١٤٥	٤٠٢	٢٠٣	٢ر٣	٣ر	٢ر٨	٦ر٨
المغرب	١٤٢	١٩٦	١٩٠		٢ر٩	٣ر٢	٣ر٥	٣ر٢
السعودية	٩٤١	١٤٧٨	١٨٠٨	٦٣٤٣	١٥ر٦	١٩ر٢	١٨ر٣	١٥ر
السودان	١٢٠	١١٤	١١٨	٩٧	٥ر١	٥ر٢	٤ر٦	٤ر٣
سوريا	٢٤٩	٤٠٥	٤٦٠	٦٦٨	١٨ر٨	١٢ر١	١٦ر	١٥ر٧

ان مفتاح البدء باقامة صناعة حربية عربية يكمن في اعتبار البلاد العربية كلها وحدة اقتصادية متكاملة قائمة بذاتها . فمقولة اموال العرب وثروات العرب للحرب صحيحة مائة في المائة . فالالماني القاطن في الرور لا يعتبر مناجم الفحم والفولاذ الموجودة في جوفه ملكا لسكان الرور . وكذلك الحال بالنسبة للاميركي القاطن في تكساس . فهو لا يفكر فـــي الاحتفاظ بالعائدات النفطية المتوفرة من آبارها ملكا لولايته بل ثروة للامة الالمانية وللامـة الاميركية ، وكذلك الامر فيما يخص الامة العربية ، فالارتفاع الى المستوى القومي واجب يعلو كل النزعات الاقليمية والمنافع المادية الصغيرة . الرهان مصيري ، ويتعلق بمستقبل ومكانة الامة العربية تحت الشمس . فجميع العوامل متوافرة لاقامة صناعة حربية عربيـة تقليدية وشبه متطورة . ولا يحول دون انشائها سوى اتخاذ القرار السياسي المناسب ووضعه موضع التنفيذ فورا ، وتجاوز كل الخلافات الهامشية والاجتهادات العقائدية التي عطلت حتى الآن اكثر من مشروع قومي كان من الممكن أن يعود بالنفع على كل العرب .

(١) ابو النمل ، حسين : بحـــوث فـــي الاقتصاد الاسرائيلي ـ منظمة التحريـــر الفلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت ـ ١٩٧٥ ـ ص : ٥٥

(٢) « ندوة الدراسات الانمائية » عدد ٢٣ ـ « تثمير العائدات البترولية في الانماء العربي » ص : ٢٢٤

(٣)
Ballassa' B : « The Theory Of Economic Integration ; George Allen And Unwin London , 1969 ; PP : 21 - 56

(٤) عزيز ، محمد : مجلس العمـــون الاقتصادي المتبادل (الكوميكون) حاضره ومستقبله ، « المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ . ص : ٢٢ـ٢٣

(٥) الفرا ، محمد علي : « التنميـــــة الاقتصادية في دولة الكويـــت » منشورات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ ، ص : ٣٥٠

(٦) كامل ، امين حلمي : « مذكرة عـــن الحوار العربي ـ الاوروبي » مرفوعة الى الاجتماع الاول لوزراء الصناعة العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص : ١٢ـ١٤

(٧)
Makower , H . And Morton , G.A « A contribution ToWards A Theory Of Customs Unions » : The Economic Journal , March 1953 ; PP : 33 - 49

(٨)
Westdeutsche Landsbank Giroyentrale ; Quarterly Report , 1/1/1975, Dusseldorf , 1975 ; p : 12

(٩) كامل ، امين حلمي : المصدر السابق ، ص : ١٣

(١٠) المصدر السابق : ص : ١٥

(١١)
Jean, Pierre : Pètrole : La Groisième Guerre Mondial ; Calmann Léry , Paris, 1974 ; p : 97

(١٢) المصدر السابق : ص : ٩٩

(١٣)
Khader , Bichara : Le Petrol Politique (Mai Juin Juillet) 1974 Paris P : 105

(١٤) زين ، الياس : « هجرة الادمغـــة العربية » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص : ٧

(١٥) المصدر السابق ، ص ٧٥

(١٦) المصدر السابق ، ص : ٧٥

(١٧) المصدر السابق ، ص ٧ـ٩

(١٨)
Dubos , Jean - François : Ventes D'armes : Une Politique ; Gallimard Paris ' 1974 ; P : 32

(١٩) The Military Balance 1975 , An iiss Publication . The International Institute For Strategic Studies , London, 1975 .

الايوبي ، الهيثم ـ عبدالله ، هشام : ميزان القوى العربـــي ـ الاسرائيلي ـ دراسات فلسطينية ٩٨ ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركزالابحاث ـ بيروت ، اذار (مارس) ١٩٧٤ ـ ص ٨

اشارات على مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ★

سميح سمـاره

● ملاحظـات واشكالات عامـة :

نسجل في البدء اعتقادنا انه باعلان القيادة السياسية الفلسطينية عن موعد الـدورة الثالثة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في كانون الاول المقبل ، وذلك بهدف اجراء مراجعة وتحديد مسار حركة الجماهير الفلسطينية في ظل المعطيات الراهنة ، انه بذلك فان صـراع الجماهير العربية في الساحة اللبنانية ضد قوى التحالف الامبريالي ـ الرجعي ، يكون قد وصل الى احد الفاصل الرئيسية له ، المرتكز على اجراء مراجعة وتقييم واضحين للمسألة الرئيسية التاليـة :

● حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الجماهير ،

● ثم حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الاعداء ،

وذلك لاعتبار يشير الى ان المعركة القادمة التي خاضتها وتخوضها الجماهير العربية في لبنان قد قدمت لحركة التحرر العربية العديد من الاجابات الواضحـة على الاسئلـة الغامضة ، وبينت مغالطة الكثير من المقدمات الرئيسية والقناعات المسلم بصحتها ، وشكلت بحد ذاتها نقاط ضوء بارزة ، تستطيع القوى الثورية العربية على اساسها وبواسطتها ان ترى الواقع وتفسره وتحل اشكالاتها النظرية خلال ذلك . هذه الاشكالات التي كانت وما زالت

★ يعتمد تحليلنا في هذه المقالة على قانون رئيسي يشدد ويؤكد على جدلية العلاقـة القائمة وتداخلها بين النضالات الطبقية ضد القوى الاجتماعية المرتبطة براس المـال الامبريالي والمعادية لاهداف الجماهير العربية في التحريـر والوحدة والاستقـلال الاقتصادي ، وبين النضالات القومية ضد العدو الرئيسي المتمثل بالامبريالية العالميـة والصهيونية (الحركة الصهيونية والقاعدة الامبريالية الصهيونية) ، وباعتمادنا هذا القانون كمرشد رئيسي في النظر الى اشكالات الواقع يكون خلافنا قد تحدد مع التوجهات ذات الاساس القطري كوجهة نظر سياسية ، تعتقد أن حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الوطن العربي ككل قد تجاوزتها وخلفتها وراءها ، وسببت لها مثل هـذا المـأزق

تشكل عقبة رئيسية في طريقها ، انصرفت بها نحو اتجاهات طفولية او ضيقة الافق ، مما اتاح للقوى العدوة ان تتكل بالقوى الثورية تنكيلا في العديد من الاقطار العربية ، فتخلو الساحة لها لتزوير ارادة الجماهير ٠

فان تقود القوى الحاكمة عملية الابادة الموجهة ضد الجماهير والقوى السياسية التي تقودها في ساحة لبنان ، مع اختلاف موقع كل قوة في هذه العملية ٠

وان يهد العدو الامبريالي ـ الصهيوني كل هؤلاء الوكلاء المحليين في هذه المرحلة من نضال الجماهير العربية ٠ ثم ان تغمر المفاجأة بذلك القوى التي تقود جبهة الجماهير ، وحتى حلفائها الاستراتيجيين ، الامر الذي يعكس نفسه على قرارها السياسي ٠

ثم ان تباشر القوى المرتبطة ارتباطا عضويا بالامبريالية اتصالا وتعاملا علنيا ومكشوفا مع العدو القومي دون اي رادع ، ودون اي خشية ٠

ان يحدث كل ذلك ، فان هذا يشير اولا وقبل كل شيء الى خلل رئيسي يتوجب اكتشافه

التاريخي الذي تعيشه الآن ٠ اذ في تقديرنا انه اذا كان المأزق التاريخي لحركة التحرر العربية يتمثل في احد جوانبه بتقييم القوى الثورية العربية لدور البرجوازية في المعنية الثورية ، فان الجانب الآخر له والاشد خطورة هو في تلك التوجهات القطرية اساسا التي تعمل القوى الثورية على فرضها واقحامها على الواقع ، وكان التجزئة في بلادنا هي قانون ثابت وراسخ ونهائي او خارج اطار المرحلة على الاقل ، وليست نتيجة رئيسية للسيطرة الامبريالية على بلادنا ٠

اننا لا نستطيع ان ننظر الى كل صراع في اي ساحة قطرية الا بكونه صراع جبهة الجماهير العربية ضد اعدائها التاريخيين ، اي صراع كل القوى الثورية العربية كتعبير سياسي تاريخي عن الطبقات الثورية المتحالفة ، ضد الامبريالية العالمية والطبقات المحلية الحليفة لهـا ٠

من هنا يجيء اطلاق تسمية « الساحة الرئيسية » على اقطار مصر ، سوريا ، لبنان، الاردن ، وفلسطين ٠ وذلك انطلاقا من شبه الاتفاق السائد ـ في تقديرنا ـ بان محور صراع القوى الثورية العربية ضد الامبريالية يتجه ، ولا بد ان يتجه اساسا واولا ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية في فلسطين ٠ لذا فان الاقطار العربية المحيطة بفلسطين تشكل بمجملها الساحة الرئيسية في الوطن العربي بين كافة الساحات ٠ هذا بالاضافة الى ان هذه الساحة تشكل الثقل البشري الاول ، حيث يزيد عدد سكانها عن نصف الامة العربية ، ثم موقعها الاستراتيجي ٠ والاهم من هذا كله هو اعتقادنا بان كافة التناقضات الرئيسية في هذه الساحات القطرية هي تناقضات يرتبط حلها جميعا ترابطا عضويـا بعملية الصراع مع القاعدة الامبريالية الصهيونية من اجل تصفيتها او تثبيتها ، والملاحظ والملموس ان الصراع في هذه الساحة الرئيسية يقرر دوما اتجاه وطبيعة الصراع في الساحة العربيـة ككـل ٠

في اساس الموقف النظري ـ السياسي لحركة التحرر العربية ٠

ان الصراع المفتوح الذي تخوضه جماهيرنا العربية الآن ضد اعدائها ، سوف لن يعيقنا عن اجراء مثل هذه المراجعة الضرورية ، بل ان ذلك يشكل حافزا رئيسيا لاجرائها ، لان ذلك هو الشرط الرئيسي ، والذي بدونه ، يصبح من المستحيل على جبهة الجماهير ان تصل الى أهدافها وتكسر هذا الطوق الذي تفرضه عليها جبهة الاعداء في هذه اللحظة ٠

ان الظاهرة السائدة التي لا ترى غير الشقوق في جبهة الاعداء فتحاول الانسلال منها ، والتي لا تجد امامها غير رهانها على التناقضات الثانوية في جبهة الاعداء ٠ والتي تعطي العوامل الخارجية حجما في حساباتها اكثر بكثير مما تستحق واكثر بكثير من الحجم الذي تعطيه للعوامل الذاتية ٠

ان مثل هذه الظاهرة التي ليست الا انعكاسا لخلل فادح في بنية الحركة الثورية ، يجب أن يتم التوقف عندها باسهاب ، ويجب ان يتم اكتشاف الخلل التي هي انعكاس له ٠

وفي المقابل ، وبتوفر مثل هذا الشرط ، يصبح الرهان على تقييم وفهم موضوعي وجدلي لحدي المعادلة (جبهة الجماهير وجبهة الاعداء) ممكنا ووواردا ٠

هكذا ، وفي ضوء ذلك ، نتجه الى اجراء القراءة السريعة التالية لحركة القوى السياسية في الساحة الرئيسية بشكل خاص ، وذلك كتمهيد لمناقشة الاشكالات النظرية ـ السياسية العامة ٠

● حلف « الرياض » وموضوعة التضامن :

تتجه القيادة الوطنية الفلسطينية الآن نحو عقد مؤتمرها الوطني العام بعد ان اعتبرت انها قد تمكنت من الخروج من معركتها في لبنان بانتصار سياسي مركزي يؤكد على ان القرار السياسي الفلسطيني لم يخرج من يدها الى ايدي اخرين في الساحة الرئيسية يراهنون فعلا على « اعتقال » هذا القرار ٠

وفي هذا المجال ، لقد كانت معركة بحمدون التي خاضها المناضلون الفلسطينيون واللبنانيون هي المقدمة الضرورية للنتيجة التي اعتبرت القيادة الفلسطينية أنها انتزعتها من مؤتمر الرياض والتي اكدت على صيانة حق التمثيل الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية، واغلقت بذلك الباب امام المنافسة السورية ، الاردنية على هذا الحق ٠

وبكل حال سواء جاء هذا الانتصار كنتيجة لمعركة بحمدون ام نتيجة لدائرة التناقضات العربية الثانوية ام للسببين معا ، فان القيادة الوطنية الفلسطينية تستطيع ان تعتبر الآن انها قد ارست بشكل اكثر رسوخا مسألة الاعتراف بها كطرف مستقل ضمن المجموعة العربية الحاكمة ٠ وهذا بحد ذاته وفر نتيجة اخرى يجيء المؤتمر الوطني العام القادم لتلبيتها وتحديدها ٠ وهي نتيجة ترتكز بشكل رئيسي على ضرورة انسجام هذا القرار السياسي الفلسطيني المستقل مع القرار السياسي العربي العام ، وذلك بهدف ان تخوض

هذه المجموعة منسجمة معركتها السياسية لعام ١٩٧٧ ، التي تراهن من خلالها على التوصل الى « تسوية سياسية » لمسألة الصراع العربي ـ الامبريالي الصهيوني ، تعتقد انه ليس امـام العدو القومي من اختيارات اخرى غير التسليم بهـا !

وهكذا بين الاستقلال والانسجام يقع العمل الفلسطيني في الفترة القادمة ·

في هذا الوقت كانت القيادة الوطنية اللبنانية تسعى الى مراجعة حساباتها لصياغـة تحالفات جديدة يمكن ان تساعدها في احداث ضغوطات سياسية على القـــوى المقررة في المنطقة ، تحصل هذه القيادة بها على مطلبها المركزي بان تكون شريكا في اتخاذ القـرار السياسي اللبناني ، طالما ان مسألة الاعتراف بها كممثل للجماهير العربية في لبنان غيـر واردة على الاطلاق ، ولا ميزان القوى يستطيع ان يفرضها ، خصوصا بعد ان اعتمد الحلف البرجوازي في الرياض والقاهرة ممثل البرجوازية الوسيطة في لبنان (الياس سركيس) كوكيل عام ينفذ القرار السياسي العربي الصادر اساسا من الرياض · فيكون بذلك قد تـم تقليص الدائرة التي تتحرك بها كل من الاستقلالية الوطنية المعادية للامبريالية ، والاستقلالية الانعزالية المرتبطة بالامبريالية ، وان لم يغلق الباب مع ذلك امام مشاركة كل من هذيـــن الطرفين في صنع القرار السياسي المحلي المهيمن عليه تمامـا ·

وفي هذا الوقت · كانت برجوازية السلطة (١) في كل من مصر وسوريا تعمق مـدن تحالفها مع البرجوازية الكمبرادورية الحاكمة في اقطار الخط العربي ، والقابضة عمليا على القرار السياسي العام بحكم لعبها لدور العمل الرئيسي لكل الاطراف في الساحة ، فتخضع لشروطها محليا وعربيا ودوليا ، مما يعمق ارتدادها عن الخط المعادي للامبريالية، ويجعلها كتلة لا اكثر في جيش البرجوازية العربية الخاضعة في قرارها السياسي للفئة المرتبطـة منها ارتباطا موضوعيا وتاريخيا بالامبريالية ، فيذوب الحجم التاريخي لكل مـــن ساحتـي مصر وسوريا ، وتذوب مركزيتهما السياسية الفاعلة في الوطن العربـي ·

في هذا الوقت ، لم تفلح محاولات نفخ البرجوازية المرتبطة في الاردن ، على اسـاس ان تتشكل كجزء من محور يمكن ان يقف في وجه هيمنة محور الرياض ـ القاهرة · فتعيد البرجوازية الحاكمة في شرق نهر الاردن هيمنتها على الاوض والجماهير الفلسطينية ، مقابل ان تسلم للبرجوازية السورية بمركزية اليهمنة على ساحة المشروع الكونفدرالي المطروح ·

لكن ، وبعد اعلان الحلف البرجوازي في الرياض عادت البرجوازية الاردنية المرتبطة الى احتلال حجمها الطبيعي كقواد سياسي صغير يستخدم وقت حاجة القوى السائدة له ·

هكذا ، اذن ، وفي اطار هذه الصورة العامة ، برزت مسألة « التضامن العربي » كتعبير سياسي عن هذا الحلف الجديد ، وهو « التضامن » الذي سبق له ان تفكك وتفسخ خلال معركة لبنان ، اي معركة استقلال الاطراف المختلفة ، وبرزت بذلك الحقائق التالية :

١ ـ يقوم هذا « التضامن العربي » في مضمونه الاساسي على تسليم البرجوازيـات

القطرية المعادية للامبريالية لعنق استقلالها السياسي الى البرجوازية الوسيطة والطفيلية العربية المرتبطة بالامبريالية ارتباطا عضويا ، مع ما يتضمن هذا التسليم من انعكاسات حتمية على الصعيد الداخلي تتناول صيغة تحالف هذه البرجوازية مع الفئات والشرائح والطبقات الطفيلية والراسمالية المرتبطة برأس المال الامبريالي ـ الرجعي ، مما يكرس بالتالي فقدان هذه البرجوازية النهائي لاستقلالية قرارها السياسي ، ولدورها في الجبهة المعادية للامبريالية ، ويؤكد تبعيتها الكاملة للقرار الامبريالي ـ الرجعي ·

٢ ـ اننا نشهد بذلك خاتمة نهائية للصراع ضد الامبريالية والقوى المحلية المرتبطة بها ، الذي قادته برجوازية السلطة التي هيمنت طوال العقدين السابقين على القرار السياسي للساحة الرئيسية ، والتي « اكملت دورة حياتها وانتكست الى نظام تابع خاضع للسيطرة الامبريالية » ، (٢) وذلك بعد سقوطها التاريخي امام الامبريالية في حزيران ١٩٦٧ ، وهو السقوط الذي حاولت ترميمه في حرب تشرين ١٩٧٣ · وها نحن نشهد الآن لحظة الاجهاض لهذه المحاولة ·

٣ ـ هكذا وفي ظل هذه النتيجة التاريخية ، يجيء نضال قوى اخرى من برجوازية السلطة في اقطار اخرى من الساحة الرئيسية ، وذلك كرهان على امكانية انتزاعها لاستقلالية قرارها السياسي ، وحصولها على سلطتها الوطنية ، دون ان تتعلم ولا حتى ان تقف عند تجربة الفئات الماثلة لها والتي تمتاز عنها ، حتى ، بتوفر الاساس موضوعي واسع لسعيها نحو الاستقلال ، هذا الاستقلال الذي تمكن اخيرا التكالب الامبريالي ـ الرجعي من تدميره نهائيا · يجيء هذا النضال لكي يشبه تماما اولئك الذاهبين الى الحج بعد ان انتهى الموسم كله ، وعاد جميع الحجاج ·

ان ظاهرة الهيمنة الامبريالية ـ الرجعية ، والتي يقابلها ارتداد كامل من قبل البرجوازية المعادية للامبريالية عن دورها المركزي السابق في قيادة حركة الصراع الطبقي (ضد القوى البرجوازية المرتبطة تاريخيا وموضوعيا بالامبريالية) ـ القومي (ضد العدو الامبريالي والقاعدة الامبريالية الصهيونية) تشير ـ هذه الظاهرة ـ وبشكل رئيسي الى ان كل محاولة للتخلص من هذا القانون الذي يحكم الوطن العربي الآن ، من جانب باقي فرق هذه البرجوازية المعادية للامبريالية ، والتي لم يقصم ظهرها بعد ، وخصوصا في بعض اقطار الساحة الرئيسية ، ليست الا محاولة تدل على الخرق الكامل الذي يشمل بنية هذه الفئات · وتشير من جهة اخرى الى ان الاختيار الوحيد الذي ما زال مفتوحا امام هذه الفئات هو اعلان انحيازها الكامل الى برنامج جبهة الجماهير حتى يكون لها دور في الجبهة المتحدة العريضة التي ستقود نضال الجماهير العربية في المرحلة القادمة التي نقف عند ابوابها الآن·

ان مثل هذا الفهم لمسالة « التضامن العربي » ، ولبروز ظاهرة الهيمنة ـ الارتداد ، التي شملت اقطار الساحة الرئيسية جميعها ، يشكل في تقديرنا المقدمة الضرورية لرؤية مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ، ولمناقشة مسائله :

التناقض والوحدة في الدائرة البرجوازية :

ان المسالة المركزية ـ في تقديرنا ـ التي يجب التدقيق فيها ، واتخاذ الموقف الواضح

منهـا ، حتى يمكن على ضوء ذلك تفسير كثير من الظواهر وعلامات الاستفهام التي افرزها الصراع في الساحة الرئيسية ، هي ما يتعلق بالموقف من البرجوازية العربية بمجمـــوع فصائلهـــا وفئاتهـــا ٠

ان كثيرا من الاخطاء القاتلة والمازق التي تقع فيها حركة التحرر العربية تعـود في اساسها الى الموقف من هذه الطبقة ، هذا الموقف الذي رأيناه يفرز كثيراً من التعويـــلات القاعدة الى اساسهـا ، ومن المراهنات الخاسرة سلفـا ٠

فمن المراهنة على الامكانية الواسعة للتحالف مع بعض فصائل البرجوازية ، وبقيادتها ، لتنفيذ برنامج الثورة « الوطنية » الديمقراطية ٠

حتى تفسير ارتدادها ، او ارتداد بعض فصائلها ، باسباب خارجة عنها ٠ مسرورا بمحاولة غمر العلاقة الصراعية القائمة معها بخيمة التناقض الرئيسي العربي ـ الامبريالي٠

او استثناء بعض فصائلها من قوانين هذه العلاقة ، او تطبيق القوانين على فصائـل منها ، واستثناء فصائل مماثلة ، والسعي لايجاد المسوغات لذلك ٠

في اطار هذه المراوحات التجريبية الفاقدة الى الاساس الصراعي المبدئي الثابت الذي لا بد ان يحكم العلاقات بين الطبقات ، رغم تداخلها في بعض المراحل ، يقع تقييم حركـــة التحرر العربية ومجمل التحليلات والتنظيرات ، لدور البرجوازية العربية في هذه المرحلة من الصراع الطبقي ـ القومي العربي ٠

فمثلا : يعتبر الاستاذ ميشيل كامل ان ازمة نظم « راسمالية الدولة الوطنية » ، « لا ترجع الى عوامل خارجية او تآمر اجنبي ، بل تعود في الاساس الى عناصر وتناقضـــات داخلية » اي « ازمة نظام ، تفجرها تناقضاته ، مما يفترض ضرورة تجاوز النظام بكامله ، باعتباره السبيل الوحيد لانجاز الاهداف القومية » ٠ فيطبق هذا القانون بشكل صارم على النظام الحاكم في مصر ، لكنه وفي نفس الوقت ، وفي نفس المقال (٣) يعمل جاهداً لاستثناء انظمة مماثلة من هذا القانون ، بل هو يحمل كثيرا على « الجبهة العريضة من الناقورة الى العقبة » !! ويعتبر ان دخول قوات النظام السوري الى لبنان قد جاء بفعـــل « توريط » الامبريالية الامريكية لسوريا في لبنان ـ اي لعوامل خارجية ؟!

ايضا ، وفي نقطة مقابلة ، نلمس تشديدا بالغا على العوامل الخارجية ، وعلى مسالـــة الصراع العربي ـ الامبريالي في مجموعه ، بحيث يتم غمر الجانب الطبقي من الصراع في هذا الاطار الواسع (٤) ٠

اذ صحيح ان « المعركة العربية مع العدو الرئيسي هي معركة قومية ، اي انها معركة جميع الطبقات الوطنية العربية » ٠

وصحيح ان الثورة الفلسطينية « تشكل تحالفا طبقيا واسعا يمارس ارقى انواع الكفاح : الكفاح الشعبي المسلح ، الذي يفترض ديمقراطية جماهيرية واسعة نسبياً » وهذه مسائـل

لا تثير بحد ذاتها خلافا على الاطلاق ، لكن الخلاف يقع حين نلحظ مثل هذا الاصرار من قبل الاستاذ خالد جابر على القفز عن تساؤل بسيط واساسي هو :

على اي اساس يقوم هذا التحالف بين مجموع هذه الطبقات الوطنية ، وما هـــو برنامجه ، وبرنامج اية طبقة يتم ؟؟

ان هذين المثلين ، وهناك غيرهما الكثير فعلا ، يجدر ان يشكلا دافعا مهما لنا لتحديد الموقف الواضح من هذه القضية المطروحة (البرجوازية العربية) ، وعبره من مجمـــوع الاطر السياسية الحاكمة او الساعية للحكم في الوطن العربي ، وفي الساحـــة الرئيسية خصوصا بحكم مركزيتهـا ٠

القطرية البرجوازية كظاهرة سائـدة :

ليس لدينا شك ان الاعتقاد ببرجوازية قومية قائمة او يمكن ان تقوم في الوطـــن العربي ، لتنفيذ برنامج الثورة القومية الديمقراطية ليس الا نتيجة خاطئة لمقدمات خاطئة ٠ وفي تقديرنا ان المدخل الرئيسي لفهم حركة الصراع الطبقي ـ القومي العربي الراهنة لا بد من ان تمر عبر رؤية العلاقة التي تشكلت بين الوطن العربـــي بمختلف اجزائه وبيـــن الامبريالية خلال قـرن مضى ٠

ان عملية تفتيت وتجزئة البرجوازية العربية القومية الى برجوازيات عربية قطرية يفصل بينها اكثر من عشرين حاجز جمركي ، وهي العملية الفاضحة التي فرضها تنازع الامبرياليات في بلادنا ، قد حكمت على البرجوازية بالتمزق منذ بدء نشوئها ، بل ان عملية انشائها واعادة صياغتها على اساس قطري قد نفذت على ارضية التجزئة الامبريالية لبلادنا ، اي علـــى ارضية التبعية الكاملة للامبرياليـــة ٠

من هنا ، يجيء سقوط كل رهان على امكانية قيام هذه البرجوازية او مساهمتهـا في اية عملية توحيدية للوطن العربي او لاجزاء منه ٠ ولا حتى بقيادتها وبرنامجها ، وذلـــك بسبب التداخل القائم بينها وبين المشروع الامبريالي ، بحيث انها تحولت الى سرطان حقيقي في الوطن العربي ، تصب لديها كل خبرة الامبريالية واساليبها في النهب وقمع وتضليـــل الجماهير ٠ وبفضل ثرائها الفاحش والطفيلي اساسا ، فهي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا ٠ لكن ، وضمن هذه الاطر القطرية الناتجة عن « التجزئة المفروضة بقوة العنف الامبريالي » ، (غ٠ جابر ـ المصدر السابق) فقد نضجت منذ بداية الخمسينات وبمسرّعت ظاهرة الصراعات على اقتسام الثروة ، وتملك وسائل الانتاج ، والاستيلاء ـ بالتالي ـ على السلطة السياسية بين الشرائح المختلفة المكونة لهذه الطبقة في معظم هذه الاطر القطرية ، وحسب درجة التطور العام لكل قطر ، وذلك بسبب التناقض الناتج عن موقع كل شريحة في عملية الانتاج ٠ اي ان عملية التبعية الكاملة للامبريالية التي تقودها الشرائح الكبيرة مـن البرجوازية عجزت عن ان تعبر عن مصالح الشرائح المتوسطة والدنيا من نفس الطبقة ٠

في نفس الوقت الذي كانت تتناقض فيه هذه العملية تماما مع مصالح الجماهيـــر والطبقات الكادحة العربيـــة ٠

وقد كان وعي الامبريالية ، من جهة اخرى ، لضرورة تفتيت وسحق العناصر المكونة لبنية المجتمع العربي حتى بعد تفتيت الكيان القومي للبرجوازية ، وذلك لاغلاق الباب نهائيا امام الصراعات الطبقية القادمة بفعل حركة التطور الطبيعي للواقع ، حافزا اضافيا ، لكنه قدم نتائج عكسية ، لمنع توفير قواسم مشتركة يتم خلالها توحيد البرجوازية العربية القطرية في اطار واحد يدافع عن نفسه في وجه الهجوم الطبقي القادم ٠

وقد جاء انشاء الكيان الامبريالي الصهيوني في فلسطين ، وبالمساهمة والمشاركة الفعلية للبرجوازية الطفيلية المرتبطة بالامبريالية ليكشف امام الشرائح المتوسطة والدنيا من هذه البرجوازية ان مسالة التبعية الكاملة للامبريالية مسالة لا تلبي ، بل تتعارض تماما مع المصالح الحقيقية لها ٠ حيث ان هذه التبعية لا تقدم لها غير الفتات من الثروة الاجمالية، بينما تستولي الشرائح الكبيرة على القسم الاعظم منهـا ٠

وقد برزت هذه الظاهرة بشكل خاص بعد اضطرار البرجوازية المرتبطة واضطـرار الامبريالية ذاتها الى « عصرنة » المجتمعات العربية القطرية بغرض تسهيل عملية ربطهـا بالسوق الامبريالي ، مما ادى الى توسيع قاعدة الشرائح المتوسطة والفقيرة من البرجوازية، النازحة من الريف الذي تم تدميره الى المدن ٠

جاء هذا الاضطرار لكي يزيد من حدة التناقض بين هاتيـ..ن الشريحتين المكونتين للبرجوازية القطرية وبراكمـــه ٠

هذا بالاضافة الى حدة وفحش ودموية الغزوة الامبريالية للساحات القطرية العربيـــة المختلفة وانعكاسات ذلك على وعي الجماهير المتوسطة في المدن العربية ، التي أصبحت ترى، وكانت الشواهد امامها كثيرة ، ان عملية التدمير الامبريالي سوف لن تقفز عليها بل هـي ستشملها بالضرورة ٠

ويتبلور هذا التناقض بين شرائح البرجوازية العربية القطرية طوال خمسة عقود من الزمن وبعودة جيوش البرجوازية المرتبطة المهزومة من فلسطين ، فقد جاءت الخمسينـــات لكي تفجره في عدد من الساحات القطرية ، وبواسطة الاداة الوحيدة للفئـــات المتوسطة ، المتمثلة بالجندرد وضباط الصف الصغار ذوي الاصول الطبقية الفلاحية ٠

وهنا ، يكون قد تم احداث شرخ اساسي وقاصم في اطار التحالف القائم بين الشرائح البرجوازية ، بحيث يتطور هذا بعد فترة بسيطة الى علاقة صراع محتدم بين الشريحتين على مستوى الوطن العربي كلـــه ٠

ففي حين بقيت الشرائح المرتبطة بالامبريالية على ارتباطها القديم ، قادت الشرائـــح المتوسطة ممثلة بانظمة ما يسمى بـ « رأسمالية الدولة الوطنية » او البرجوازية البيروقراطية التي نطلق عليها برجوازية السلطة معركة العداء الواضح ضد الامبريالية من جهة ، وضـــد البرجوازية المرتبطة بها من جهة اخرى ٠

هذا ادى بدوره الى خلق محورين متصارعين او قناتين للصراع على ساحة الوطن العربي ككل ، قادت طرفه الاول البرجوازية المعادية للامبريالية ومركزها القاهرة ، وقادت طرفه الثاني البرجوازية المرتبطة بالامبريالية ومركزها الرياض • فقادت الاولى معركة استقلال الوطن العربي وتوحيده ، وخاضت ضد الاستعمار والاقطاع والراسمال الامبريالي المحلي معارك عديدة • وقادت الثانية معركة تطبيق المشروع الامبريالي المضاد بمذاهيره •

وهنا نقف عند الاشارات البارزة التالية :

١ ــ تتميز البرجوازية المعادية للامبريالية (برجوازية السلطة) اولا وقبل كل شيء بعدم التجانس في صفوفها بحكم تكونها من اصول طبقية متعددة ، مما يؤدي الى حدوث عملية فرز واستقطاب مستمرة داخلها ، وذلك اثناء (وفي فترات الهدنة خصوصا) خوضها لمعركتها الرئيسية ضد الهيمنة الامبريالية ــ المرتبطة •

٢ ــ تقوم هذه البرجوازية في بداية تسلمها للسلطة بالبحث عن قواسم مشتركة بينها وبين الطبقات الكادحة كي تحصل على الدعم الجماهيري المطلوب في معركتها المصيرية ، فتقوم بطرح شعارات التحرير والوحدة والاستقلال الاقتصادي وتحقيق الديمقراطية ، اي شعارات الطبقات الكادحة ذاتها ، التي تجد رغم شكها العميق في ماهية هذه الشعارات ، ولعامل افتقادها الى قيادتها التاريخية المتمثلة بحزب الطبقة العاملة ، ان من مصلحتها ان تقاتل دفاعا عن هذه الاهداف التاريخية ، هذا بالاضافة الى توفر قواسم مشتركة راهنة بينها وبين برجوازية السلطة كما تعبر عنها هذه في عدائها الواضح للسيطرة الامبريالية•

٣ ــ ان احتدام المعركة مع الامبريالية لا يمنع الطبقات الكادحة من رؤية واقعها اليومي، رغم حرص اعلام برجوازية السلطة الشديد في التركيز على هذا الصراع « الخارجي » • لكن تراكم التناقضات الثانوية الصغيرة والتفصيلية اليومية بين الحلف الطبقي القائم في هذا الاطار السياسي • ثم الضغط الامبريالي المتنوع لاحداث الشروخ في بنية هذا الحلف ، كما تمثل ذلك بنقاء في التجربة المصرية ، يجعل برجوازية السلطة تسير بين حدي الموس • فهي من جهة لا تستطيع ان تتبنى وتنفذ البرنامج الجماهيري • ولا تستطيع من جهة اخرى ان تخفف من عدائها للامبريالية والمرتبطين بها •

٤ ــ يتمثل المأزق الرئيسي لهذه البرجوازية في قطريتها ، فهي من جهة تدعي انها تخوض معركتها مع الامبريالية على المستوى القومي ، اي انها تخوض معركة الامة ضد عدوها الرئيسي • لكنها وفي ذات الوقت لا تستطيع ومن المستحيل موضوعيا عليها ان تنجز مسألة توحيد الامة وان تقود عملية انجاز اهداف الثورة القومية الديمقراطية •

وفي الوقت نفسه فان مسألة احتفاظها باستقلالها القطري مسألة مغلقة تماما •

من هنا يجيء عجزها الحتمي عن توفير شروط الانتصار النهائي في الصراع ضد الامبريالية والبرجوازية المرتبطة بها •

٥ ــ هذه الدائرة المغلقة التي تدور فيها برجوازية السلطة تفقدها توازنها تماما ، فيتوفر بذلك ظرف نادر للقوى المضادة لتوجيه ضربتها القاضية كما حدث في حزيران ١٩٦٧ • فتهلك لها كل ادواتها وتقصم ظهر التحالف الذي قام بينها وبين الطبقات الكادحة ، وتعيدها

الى خطيرة التحالف مع البرجوازية المرتبطة ، ومع الامبريالية مباشرة ، وذلك كما يعلمنا الواقع الراهن للساحات القطرية العربية بشكل جلي وبالغ الوضوح ٠

٦ ـ في هذا الوقت تكون البرجوازية المرتبطة قد احتفظت طوال فترة الصراع بكامل قوتها ، بحكم استمرار قيامها بعملية النهب الواسعة ، وتنفيذها لسياسة الامبريالية في اضطهاد وقمع الجماهير ، ولعبها دور الحارس الشديد الاخلاص للمصالح الامبريالية التي في مقدمتها : الاحتكارات النفطية والقاعدة الامبريالية الصهيونية واكثر من ذلك فهي تتنازل ، بمرؤتها التقليدية ، عن اجزاء هامة من الوطن العربي وتبطش بالجماهير بالمشاركة الكاملة مع الامبريالية والبرجوازية الايرانية في الخليج العربي وتعمل بنشاط لتكريس التجزئة ، وتدعو الى تثبيت القاعدة الامبريالية الصهيونية والاعتراف بها واقامة العلاقات معها ٠

هذا لا تجد البرجوازية المعادية ، سابقا ، للامبريالية غير الخضوع الكامل لهذا البرنامج البرجوازي ـ الامبريالي وتنفيذه ٠

٧ ـ وعلى هذه البرجوازية ان تقدم الادلة السريعة والواضحة على خضوعها وارتدادها وتحالفها الجديد ، فنرى انقلابا جذريا في السياستين الداخلية والخارجية لهذه البرجوازية حينئذ يحدث ان يصاب الذين راهنوا وربطوا مصير نضالهم بمصير هذه البرجوازية بخلخلة كاملة في خطوطهم السياسية وبرامجهم ، وبصيبهم بفعل ذلك الكثير من الضيم ، وهو الامر الذي نشهده هذه اللحظة بالذات ٠

٨ ـ ومع كل ذلك ، علينا ان نراعي مسألة مهمة يجب ان نراها ، خصوصا في مثل هذا الظرف الدقيق الذي نمر به ٠ وهو انه رغم التحالف الجديد المعلن والموثيق بين كل من البرجوازية المرتبطة وبرجوازية السلطة ، الا ان هذه الاخيرة لا تستطيع في الواقع الا ان تحتفظ ولو بخيوط رفيعة تربطها مع الطبقات الكادحة في المجتمع ٠ وهو ما يفسر هذا الاصرار من جانب اعلام برجوازية السلطة على ادعاء دفاعها عن البرنامج المعادي للامبريالية (الحفاظ على المقاومة الفلسطينية وصيانة وحدة لبنان مثلا) ٠ هذه الخيوط الرفيعة هي التي تشكل المأزق القاتل والخانق لهذه البرجوازية ٠ اذ انه عبر عملية ارتدادها وارتباطها الجديد بالامبريالية فهي تراهن في الواقع على امكانية ان يحقق لها هذا الارتداد ولو جزءا من برنامجها ، او برنامج التحالف القديم ، حتى تقدمه للطبقات الثورية كدعم لابقاءها في السلطة ٠ وهو جزء يتمثل ـ كما في حالة البرجوازيات الحاكمة في اقطار الساحة الرئيسية ـ بتحرير الاراضي التي احتلت من قبل الامبريالية عام ١٩٦٧ ٠

اي ان تحقيق هذا الشرط هو الحد الادنى الذي على ضوئه يمكن لبرجوازية السلطة ان تبقى وتستمر في السلطة ولو لفترة من الوقت ٠

لكن ، وفي نفس الوقت ، فان الحلف الامبريالي ـ البرجوازي المرتبط يشترط خضوعا كاملا وحاسما له ، بل هو في الواقع عاجز عن تقديم هذا الحد الادنى المطلوب لبرجوازية السلطة لان ذلك يخل بشرط هيمنته على المدى البعيد او حتى المتوسط ٠

٩ ـ ان هذا المأزق الرئيسي يشير بشكل واضح الى نتيجتين رئيسيتين :

١ ـ الاستحالة الموضوعية ، للتسوية السياسية ، لمسألة الصراع العربي ـ الامبريالي

الصهيونـــــي ٠

ب ـ ليس امام برجوازية السلطة غير السقوط الكامل والنهائي ، وهو الامر الـذي يعتمد من جهة ثانية على توفر العامل الذاتي المتمثل ببلورة البرنامج الثوري لانجاز مسالة اسقاط برجوازية السلطة ٠

● على ضوء ذلك فباي اتجاه يسير الصراع في الساحة الرئيسية ؟

الهيمنة ـ الارتداد ٠٠ والمأزق التاريخي لحركة الصراع في الساحة الرئيسية :

نجد ضرورة للتاكيد هنا على ان القانون الجديد الذي بـات يحكـــم حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية بصورة خاصة والوطن العربي كله بالمجمل هـــو قانون الهيمنة ـ الارتداد الذي تم على اساسه :

● الحاق الهزيمة ببرنامج برجوازية السلطة ٠

● تشكيل علاقة توازنية جديدة اطلق عليها « التضامن العربي » ٠

وقد ثبت بالملموس الآن ان المحاولة السورية للتمرد على هذا القانون العام قد باءت بالفشل ، حيث تم في مؤتمري الرياض والقاهرة منعها من تحقيق هدفها المركزي الذي كان يقضي بالحاق الساحات القطرية اللبنانية والفلسطينية والاردنية بها ، وتشكيل محور يقوم قاعدة الوقوف في وجه هذا القانون ومحاولة كسره ٠ وهي محاولة كانت تفتقد فعلا الـى اسس نجاحها ٠ وهذا لا يعود الى قوة الخصم بالدرجة الاولى ٠ اذ ان البرجوازية السورية كانت تستطيع ان تقف وان تنتشر في وجه هذا القانون لو انها طرحت مشروع علاقة تحالفية بين هذه الساحات القطرية تقوم على قاعدة البرنامج المعادي للامبريالية ، وتشكيل جبهـة مقاتلة بالفعل « من الناقورة الى العقبة » ٠

اذن ، كان لا بد لهذا المشروع من السقوط ، بحكم افتقاده الى كل حليف ، وتناقضه مع البرنامجين : المرتبط بالامبريالية والمعادي لها (٥) ٠

وبهذه النتيجة ، تعود برجوازية السلطة نهائيا الى حظيرة البرنامج الامبريالي ، لكي تحل معه تناقضها الذي بات شكليا ، بعد ارتدادها الموضوعي ٠ ولكي تلتقي بذلك مع رديفتها المصرية ، على اساس رهانهما المشترك بان يحل لهما البرنامج الامبريالي ـ البرجـــوازي المرتبط ازمتهما الداخلية بايجاد « تسوية » لقضية الصراع بين البرنامـــج الامبريالي ـ الصهيوني ـ البرجوازي ، وبين البرنامج الثوري العربي الذي ما زال يفتقد ـ في الواقع ـ الى قيادته التاريخية القادرة على تحقيقه ٠ وخصوصا بعد الهزيمة الكاملة التي تم الحاقها ببرجوازية السلطة المعادية للامبريالية ٠

وقد اصبح معروفا الآن ان محاولة هذه البرجوازية لحل ازمتها الداخلية في تشرين ١٩٧٣ لم تقدم اي حل او تسوية لاي بند من بنود البرنامج الذي يلح حتى في حده الادنى

(استرجاع الاراضي التي احتلت بعد ١٩٦٧ ، واقامة سلطة وطنية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة) في قطب التناقض الكامل مع البرنامج الامبريالي · وقد كانت اتفاقية سيناء وخطوات كيسنجر دليلا كاملا على ذلك · اذ انها لم تقدم للبرجوازية المصرية غير اتفاق الخضوع ـ وان عملت على تغليفه امام الجماهير العربية ـ للبرنامج الامبريالي ـ الصهيوني ـ البرجوازي المرتبط · وهو الامر الذي عكس نفسه في الخطوات السابقة واللاحقة للاتفاق محليا وعربيا ودوليا ·

وفي نفس الوقت ايضا فانه من الصعب القبول بان تقدم البرجوازية المرتبطة القائدة للثورة المضادة في بلادنا الآن ، على تفجير تناقض ، ولو تكتيكي ، مع المشروع الامبريالي الذي تتولى هي تنفيذه في الوطن العربي ، الا اذا اعتبرنا أن مأزق برجوازية السلطة قد اصبح يشمل الآن البرجوازية المرتبطة كذلك ، واصبح مطلوب منها ـ بالتالي ـ ايجادمخرج واضح لهذا المأزق كمثل الاقدام على عمل حربي خامس ضد حلفائها الاساسيين · ودون ان نغرق في البحث عن ايجاد المخرج لمأزق القوى المضادة ، فاننا نرى تطور حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية تدور بين القطبين التاليين :

●● عمل حربي خامس ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية يستخدم كمخرج للحلف البرجوازي الجديد ·

●● او سقوط انظمة برجوازية السلطة التي كشفت عن عورتها · وسقوط الحلف البرجوازي كله بالتالي ، وتقدم الطبقات الكادحة العربية لتسلم السلطة في اقطار الساحة الرئيسية ·

وعلى اساس هذا القطب الاخير يطرح سؤال رئيسي :

اين هي تلك القيادة التاريخية للطبقات الكادحة لتنجز مثل هذه المهمة ، وتحقق برنامجها ؟؟

هذه هي المسألة · وهذا هو المأزق ·

الحواشي :

(١) نعتمد هذه التسمية للتفريق بين هذه الفئة من البرجوازية العربية وبين فئة البرجوازية الكمبرادورية (الوسيطة) او المرتبطة عضويا بالامبريالية ، والتي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا ·

(٢) ميخيل كامل ـ المأزق التاريخي لحركة التحرر الوطني العربية ـ شؤون فلسطينية (٥٨) حزيران ١٩٧٦ ·

(٣) المصدر السابق ·

(٤) خالد جابر ـ التوازنات المسلحة ـ شؤون فلسطينية (٥٧،٥٨،٥٩) ٠

(٥) يجب ان نسجل اختلافنا هنا مع الاسباب التي طرحها بعض الرفاق لاضطـــرار مشروع البرجوازية السورية الى التراجع ٠ اذ ان بناء الموقف السياسي على اســـاس الرهان على الظواهر الخارجية لحركة الصراع دون محاولة اكتشاف القانون الذي يربط هذه الظواهر ويعيدها الى جذورها ، كثيرا ما يوقع ـ وسوف يوقع حتما ـ في مازق قاصمة٠

ان استمرار النظر الى كل صراع في اي ساحة عربية على انه صراع مغلق تحكمه قوانين الحركة وموازين القوى داخل هذا القطر ٠ وان العجز المزمن عن رؤية القوانيـــن الواحدة للصراع في الساحتين القطرية والقومية ، والتشابك الموضوعي بينهما ، وان العجز المزمن عن رؤية حركة الصراع الطبقي ـ القومي لمجموع الوطن العربي ٠ وان استمرار النظر الى واقع التجزئة الامبريالية على انه قانون موضوعي ثابت ٠

ان ذلك في تقديرنا هو المازق الرئيسي والمركزي لمجمل « الحركات الوطنية ، والاحزاب والتنظيمات ذات الاساس القطري المنتشرة في الساحات القطرية العربية ٠ وهو المازق الذي يقتل بنفس الوقت القتل الحتمي لهذه الحركات والاحزاب ٠

وبكل حال ، اننا نراهن على ان يتمكن الصراع الجاري في الساحة اللبنانية من ان يعرف في طريقه ايضا مثل تلك الاتجاهات السياسية ذات الاساس القطري ، التي لن يمضي زمن طويل حتى تكتشف انها قد اصبحت خارج الزمن تماما ٠ ونراهن كذلك على ان يتمكن الصراع الجاري من فرض اضافات نوعية تقلب البنية الداخلية لتلك الاتجاهات ٠

راجع رهانات الرفيق جورج حاوي في « الخطط الامريكي ـ السوري امام الهزيمـــة الحتمية ، دار الفارابي ٠

وثيقة "كنيغ" والمأزق الصهيوني

حسين أبو النمل

في ١٩٧٦/٩/٧ نشرت صحيفة هآرتس ، الناطقة بلسان حزب مابام ، احد اطراف التجمع العمالي الحاكم في اسرائيل ، مذكرة اعدها يسرائيل كنيغ * ، متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية والذي يضم القضية عكا والناصرة وطبريا وصفد حيث يعيش اكبر تجمع للعرب في اسرائيل . وقد كانت هذه المذكرة سببا في ردود فعل ما زالت تتصاعد داخل وخارج الارض المحتلة . والرقعة للتزايد يوما بعد يوم نظرا لخطورتها وذلك لما احتوته من مقترحات عملية ، وللروح العنصرية التي تطبعها من أول حرف الى اخر حرف فيها .

يقدم الدكتور صبحي ابو غوش مدير المحاكم الشرعية في اسرائيل اربعة اسباب تجعل من مذكرة كنيغ مثيرة للاهتمام وهي «لان لها تاثير مصيري على مستقبل الاقلية العربية في اسرائيل .. (ولانها) تتسم بالتعصب ، ولان لها صلة مباشرة بالواقع الذي يعيشه العرب في اسرائيل ولان السيد كنيغ كان في موقع المسؤولية مدة حوالي ١٥ سنة وقد توصل اليها - اي المذكرة - بعد عمل مع المواطنين العرب طيلة هذه المدة ...» (١) واما الشاعر سالم جبران ، عضو واكاح وأحد محرري جريدة الاتحاد ، فقد عمق وجهة نظر الدكتور ابوغوش واعتبر « ان كنيغ ليس ظاهرة فردية شاذة في السياسة الاسرائيلية تجاه الاقلية العربية .. فقد كان طوال كل السنوات الماضية يمثل السياسة الحكومية وساعد على تعميق التخلف في المجتمع العربي ...» (٢)

---

* سقطت سهوا ، جملة ، من الفقرة (ز) من وثيقة كنيغ المنشورة في عدد ٦٠ من شؤون فلسطينية ، ص ١٨٢ والفقرة الصحيحة والكاملة هي :

« ترك الاضراب انطباعا قويا لدى العامل ومؤسسات الخدمات ، بان حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة العربية . وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود . هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بغرض خلق مشاعر « الكرامة العربية » التي لا بد ان عرب اسرائيل سيستثمرونها وسيستغلونها » .

وعدم السيد جبران الطابع العنصري لوثيقة كنيغ واعتبرهـا نموذجـا للمجتمـع العنصري الاسرائيلي ٠٠ ، فاراء كنيغ ليست شاذة ٠٠ بـل هي افـراز طبيعـي عـلى تربة السياسية الاسرائيلية الرسمية ٠٠ واستمرار طبيعـي لها ٠٠٠ (٢) ٠

واعتبر سبب « الصدى الواسع ٠٠ اولا وقبل كل شيء البرنامج التفصيلي التطبيقي الذي يقترحه السيد كنيغ » ٠ فمذكرته «ليست وثيقة فلسفية او فكرية ولكنهـا وثيقـة سياسية تطبيقية ٠٠» (٤) ٠

أن العلاقة بين الطابع العنصري للمذكرة المذكورة ، والمقترحـات العمليـة التي تقدمت بها ، هي علاقة السبب بالنتيجة ٠ فسياسة الحكومة الاسرائيلية بالاستيلاء على الارض العربية وطرد سكانها ، هي سياسة ثابتة للحـركة الصهيونية ما قبل وما بعـد انشـاء الكيان العنصري في إرضنا المحتلة ، وليس مصادفة ان تكون بداية تاريخ الصراع العربي الصهيوني في عـام ١٨٨٦ عندما هاجم الفلاحـون المطرودون من اراضيهم التي اصبحت تعرف بمستعمرة بتاح تكفا ـ مليس ٠ وبالتاكيد فان هـذه المذكرة ليست هـي المذكـرة الاولى التي اعدت ، لان السياسة التي دعـت اليها ، ليست سياسة جديدة عـلـى الاطلاق فمصادرة الاراضي وتهجير السكان العرب هي من صلب مفاهيـم الحـركة الصهيونية ٠ خصوصا منذ تبلورت نظرية احتلال الارض والعمل ٠ وقد حاولـت أجهزة الاعـلام الاسرائيلية ، بعـد ان شربت الوثيقة ، ان تلقي المسؤولية عـلـى كاتبها ، في محاولة مفضوحة للاستمرار بادعاءاتها ان اسرائيل كدولـة ، وكشعـب يتوقون الى تقـدم المواطنين العـرب فـي البلاد ، ويريدون العيش بتفاهـم وبانسجـام، وان سياسة الحكومة اثبتت هذا الشيء منـذ ان قامت دولة اسرائيل ، وان مذكـرة كنيغ تمثل اراء شخصية ، ولا تمثل سياسة واراء الحكومـة ٠٠(٥) » ولكـن هـل هذا الادعـاء صحيح ؟٠

هنالك كثير من الوقائع التي تؤكد ان كنيغ في مذكرته كان يعبر عن سياسة الحكومة ، وأنني فوجئت بنشر المذكرة ووجدت نفسها مضطرة لاء التحفظ » عـليها فقط ، فالجنـة الداخلية في الكنيست « تنتقد تسريب المذكرة الى الصحف ، ولا تقول كلمة عـن مضمـون المذكرة ٠٠٠ » وء الاصوات التي انتقدت المذكرة كانت اصواتا شعبية ٠٠ من صحفيـين وسياسيين » ٠ وقد فضح ازدواجية موقف الحكومة التي « تعلن ليلا نهارا ان سياستها سياسة مساواة ولكنها عـلى الطبيعـة ليست سياسة مساواة ٠٠ » (٦) ٠

اضافة الى كل ما تقدم ، فان اهمية مذكرة كنيغ تنبع من شخص واضعـها الذي قضى في منصبه خمسة عشر عـاما ، اي انه من صلب المؤسسة الحاكمة ، ويعبر عن وجهـة نظرها ، وطول المدة التي قضاها في منصبه ، يعني انه عايش مرحلتين سياستين من تعامل المؤسسة الصهيونية مع عـرب الارض المحتلة : مرحلة الحكم العسكري والذي رفـع لتحل محله سياسة المرحلة الاكثر «ليبرالية» ، وبالتاكيد فاننا نستطيـع اعتبـار موقـف الحكومة الاسرائيلية برفع الحكم العسكري اعترافا بفشل تلك السياسة ، وهـا هـو كنيغ ياتي ليطالب بالتراجع عـن السياسة « الليبرالية » ، وهذا بحـد ذاتـه اعتـرف بفشل هذه السياسة ايضا في تحقيق الاهداف التي توختها اسرائيل من وراء السياستين المشار اليهمـا ٠

ويمكن ايجاز معاني مذكرة كنيغ في ثلاث مسائل : روحها العنصرية ، كونها برنامج عمل ، واخيرا الخلفيات والابعاد السياسية للمذكرة المذكورة . ولا شك ان المسألة الاخيرة هي الاكثر اهمية وخطورة ، وليس نعصر الحديث في المسألة الاخيرة ، نظرا لان المسألتين الاوليين في منتهى الوضوح ولا تحتاجان الى كثير عناء لاكتشافهما ، فكلمات المذكرة واضحة وحاسمة ومحددة ومباشرة ولاتحتمل اكثر من تفسير ..

اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيل

قبل تناول هذه المسألة لا بد من الاشارة الى اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيل ، والاسباب التي تجعل اسرائيل تولي هذه المنطقة واهتماما خاصا . فقد كان الجليل وعلى الدوام مشكلة بالنسبة لاسرائيل نظرا لتركز غالبية عربية بلغت عام ١٩٧٥ ٣٨ر٤٦٪ من عدد السكان ، (٧) ونظرا لتزايد عدد السكان العرب بنسبة تبلغ حوالي اربعة اضعاف نسبة تزايد السكان اليهود (٩ر٥ ٪ عرب ، ٥ر١ ٪ يهود) . يتوقع ان تبلغ النسبة سنة ١٩٧٨، ٥١ ٪ واكثر من ذلك فان نسبة العرب في بعض الاقضية تزيد عن نسبة اليهود ، فنسبةالعرب في الجليل الغربي تبلغ ٦٧٪ من السكان .

الجليل ، جنوب لبنان ، أم شمال اسرائيل ؟!!

ان تركز اعداد كبيرة من المواطنين العرب هو عنصر اساسي في استمرار الخصائص المميزة وتراث وتقاليد المواطنين العرب وتعوهم بشكل جماعي ، وبالتالي ضعف المؤثرات الخارجية عليهم فيما لو كانوا اقل كثافة . وان الذي يزيد من خطورة هذه المشكلة بالنسبة لاسرائيل ، هو قرب الجليل من الجنوب اللبناني ،ووجود حركة المقاومة الفلسطينية هناك، بما لهما من تاثيرات على عرب الجليل . وامكانية نقل هذا الوجود ، في ظل ظروف تاريخية معينة في مكانية واردة ، وقد سبق لاسرائيل ان كشفت بعض هذه المحاولات . وقد عبرت اسرائيل عن انزعاجها من هذه المسألة اكثر من مرة ، وخير تعبير عن ذلك التساؤل الذي طرح عما اذا كان الجليل هو جنوب لبنان ام شمال اسرائيل ؟! (٨) وقد عبر كنيغ عن هذه المسألة بقوله : وهيشعرالقوميون ـ وهذا تقديري ايضا بالنسبة للسكان العرب ـ ان تكاثرهم في الجليل يكمنفيه الخطر الذييهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة،ويفتح المجالللدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل . ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لدى عرب اسرائيل واستعدادهم للمساهمة في ذلك » .

الجليل العربي وامكانية طرح شعار حق تقرير المصير له

وفي موازاة هذا الاحتمال فلا يمكن لاسرائيل انتتجاهل ان شعار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني قد اصبح يحتل حجما سياسيا كبيرا في كافة الاوساط المحلية والعالمية ، الرسمية والشعبية . وتؤكد عليه كافة القرارات الصادرة عن الهيئات والمحافل الدولية . يضاف الى ذلك ان الجليل كان خارج حدود الدولة اليهودية

حسب قرار التقسيم الشهير ، ونظرا لانه من المتفق عليه في كافة الاوساط الدولية ان حق تقرير المصير يعني حق الانفصال ، فان امكانية اثارة المشكلة دوليا هي امكانية لها حظ كبير من النجاح وتستند على شرعية دولية ، وعلى امكانية عملية كذلك نظرا لوجود اغلبية واضحة مرشحة لان تبلغ ٥١٪ عام ١٩٧٨ ، وبالتاكيد فان اسرائيل لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، والتي فيما لو طرحت ، تكلف اسرائيل على الصعيد السياسي غاليا ، وفي الوقت نفسه فانها لا تكلف العرب او الفلسطينيين شيئا ، وقد اشار كينتج الى هذا المسالة عندما اشار الى «قول رئيس بلدية معلية، المعتبر شخصا «ايجابيا» ... ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل ...» وكذلك عندما توقع أن « يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي ... بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شانه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ...» ، ولذا فقد نبه كنيغ الى انه « يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل او باخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ...»

وفي هذا السياق تاتي مذكرة كنيغ ، وقبلها قرار الحكومة الاسرائيلية بمصادرة ٣٠ الف دونم ضمن سياسة اسرائيل الدائمة لتهويد الجليل ، حيث كانت الحكومة الاسرائيلية ترجه جزءا كبيرا من جهودها لتطبيق هذه السياسة ، وحتى في الفترات التي كانت اسرائيل تعيش فيها ازمات اقتصادية حادة ، كما حدث بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ،حيث اضطرت الحكومة الاسرائيلية لخلض مصروفاتها ، وخصوصا في قطاع الاستثمارات والبناء ، فان الجليل كان مستثنى من هذه الاجراءات ، وانطبق عليه في حينه ما انطبق على المصروفات الامنية حيث استثنيت ميزانية وزارة الدفاع ووزارة الداخلية (٩) وبهذا كانت الحكومة الاسرائيلية تعامل موضوع الجليل بوصفه مسالة امنية .

المضامين الايديولوجية لمذكرة كنيغ :

ان وجهة النظر التي تحصر النقاش في الطابع العنصري والمقترحات التطبيقية لمذكرة كنيغ هي وجهة نظرة قاصرة واحادية الجانب ، ولا ترى افاق وخلفيات المذكرة المذكورة ، لكنيغ ، لم يقدم ، ولم يشا ان يقدم وجهة نظر فكرية وفلسفية ، بل حصرها في عرض المشكلة ، تقديم المقترحات والتوقعات ، وان لم يقدم كنيغ وجهة نظر فلسفية او فكرية ، ولكنه بشكل غير مباشر قدم رؤية فكرية هي بالتاكيد اهم من كل الجانب العملي والتطبيقي التي تعرضت له ، اهميتها تكمن في الفرضيات السياسية التي اكدتها او فندتها تلك المذكرة ، واكثر من ذلك فهذه الفرضيات لا تتعلق بوجهة النظر العربية او الفلسطينية بل بقناعات اركان المؤسسة الصهيونية ، وكيفية نظرتهم للامور فكنيغ يتحدث في مقدمة مذكرته عن «اراء» سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ...» وانه قد « وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات ... » .

ماذا يعني المساس بالفرضيات الصهيونية ؟ انه تاكيد على صحة الفرضية

النقيضة !! فما هي الفرضية الصهيونية ؟٠ انها « اراء تقول ان قبول هـذا الجزء من السكان العـرب ـ بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة ٠٠ » ولكن الذي حـدث هـو وقوع « حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعت علامة سؤال كبيـرة علـى ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها ٠٠ » ٠ حديث كنيغ الـذي قضـى ١٥ عـاما في الاشراف علـى شؤون العـرب « اعتراف بفشل اسرائيل في تذويب الاقلية العربيـة ونفي هويتها القومية ، وعلى الجانـب الاخر اعتراف صهيونـي بوجـود قوميتين تربطهما عـلاقة تناقض ، واحداهما ترفض مبدأ وجود اسرائيل ٠ اي ان مشكلة عـرب الارض المحتلة ليست مسالة « احترام الاصول الدينية والتربوية للعـرب ٠٠ » (١٠) بل « مشكلة قومية لها حقوقها ولها مصلحتها ٠٠ » (١١) ٠

اهتزاز فرضية صهيونية حـول عرب الأرض المحتلة :

لقد اهتزت وبعنف الفرضية السياسية الاسرائيلية التي كانت تشكل موقف اسرائيل تجاه عـرب الارض المحتلة ، حيث كانت ترى فيهـم كما مهملا يتلقى بسلبية مفرطة ايـة اجراءات اسرائيلية ٠ وقد اكد كنيغ هذا الاهتزاز ، سواء على صعيـد الوقائع التـي قدمها ، او علـى صعـيد اللغـة التي استعـملها عـند تقديمه لارائه ٠٠ فهنالك « تعاظم الشعـور القومي ٠٠ وهنالك « تطوع غـير عـادي » لسكان الناصرة لمساندة بلديتهـم الديمقراطية ٠ هنالك توقع بـان « الاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ٠٠ » ٠ ويقول عـن الزعـماء الرسميين ـ الايجابيين « أن التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هـم ايضا ٠٠ » ٠ وعـندما يتحـدث عـن اضراب يوم الارض يقول عـنه « النجاح الكلـي للاضراب » ٠ « وتضامن فيه كل السكان العـرب في اسرائيل عـن وعـي وبصـورة عـلنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي ـ متطرف واستعـداد نفسي للعـمل من اجـل تحقيقه ٠٠ » ٠ و« يعتزون بانهـم كانت لديهم الشجاعـة للتصادم مع القـوات الرسمية للدولة ٠٠ » ويستعـمل تعبير « النجاح التاريخي » ، « والتوحيد المطلق » عـند وصفه لما حققه اضراب يوم الارض ٠ وعـن العـلاقة بين العـرب واليهـود يتحـدث عن « الهـوة العميقة » والتي « سينتج عنها انعكاسات حـادة سواء على صعـيد السكان اليهود أو العـرب ٠٠ » ٠

ان « تعاظم الشعور القومي » و« التطوع غير العـادي » و« النجـاح الكلـي للاضراب » و« تضامن كل السكان عـن وعـي » و« النجاح التاريخي » و« التوحيـد المطلق » و« الهـوة العـميقة و« الانعكاسات الحادة ٠٠ » هي تعبيرات ملاى بالمضامين، انهـا تعـكس الحالة الذهنية ، والسياسية ، والايديولوجية لقادة الحركة الصهيونيـة ، والتي تسلمت الاوهـام الصهيونية حـول وجـود الاقلية العـربية في المناطق المحتلة ١٩٤٨٠ واصبحت اسرائيل في مواجهة مشكلة عربية بكـل ما تعـني الكلمة من معـنى ، وليس مشكلة مواطنين عـرب للدولة الاسرائيلية ، لا يعـدو استكمال هضمهم ودمجهم كونـه مسالة وقت فقط ٠ لقد اتضح ان المسالة ليست مسالة وقت بل مسالة مبدأ ٠ هذه المشكلة لم تتبلد في اثر يوم الارض كما حاول كنيغ الادعاء ، وان اخذت اجلى مظاهرها في ذلك اليـوم ٠ فهي موجودة قبـل ذلك وقد اشار اليهـا في الجـزء الاول من مذكرتـه التي أعدها قبل حدوث اضراب يوم الارض ، حيث اشار الى الهـوة بين العـرب والصهاينة

بقوله : « احدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لحسه تجاه المواطن العربي » و« تحرش بسيط » يؤدي« الى انفجار غير مرغوب فيه وتصعب السيطرة عليه ..» ومن هنا فيوم الارض لم يخلق الهوة بل قدم الدليل على وجودها ، وأوضح ان سياسة اسرائيل التي كانت تحلم بتعميق (اندماج) العرب قد انتهت الى تعميق (الانفصال) .. وما كان من الممكن الا أن تنتهي سياسة الاندماج ، بتعميق الانفصال، وسوف نناقش هذه المسالة لاحقا ..

افتراض فرضية صهيونية حول الاستيطان

الفرضية الثانية التي افترضت بعدم هي نظرية احتلال الارض والعمل من قبل اليهود . فتمسك الحكومة الاسرائيلية والحركة الصهيونية بهذه النظرية لا يوازيه تمسك مساو بها من قبل المستوطن اليهودي ، فمقابل تمسك المواطن الفلسطيني في ارضه ، كما عبر عن ذلك في يوم الارض ، هنالك « عرب العمال اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية ..» . واكثر من ذلك « فقد اقيم مصنع في معالوت لتشغيل سكانها ، ولكن الذي حدث ان عماله هم من ابناء القرى العربية المجاورة ». ولا يختلف الامر كثيرا على صعيد المزارع حيث تؤجر للعرب والذين يقومون بتشغيلها ، ومن هنا كان اقتراح كنيغ بالا يتجاوز عدد العمال العرب ٢٠٪ . بينما اشار الى انهم حاليا يبلغون نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و٥٠٪ « علما بان هذه المشاريع كانت مخصصة اصلا لليهود « ووظفت فيها اموال ضخمة بغرض زيادة عدد السكان اليهود ..» . وبالاضافة الى هذا فهنالك انحسار في عملية الاستيطان في الجليل رغم سياسة الحكومة ، فرغم ان عدد سكان الجليل يتكون من ٢٨٩ الف يهودي ، مقابل ٢٥٠ الف عربي ، فان التزايد كان خلال عام ١٩٧٤ ، ٧٥٩ نسمة يهود مقابل ٩٠٣٥ عرب . علما بان الزيادة الطبيعية في عدد السكان اليهود هي ٤٣٣٥ نسمة ، بواقع نسبة تزايد سنوي تبلغ ١٫٥٪ . اي ان مشاريع اسرائيل لتمدد الاستيطان قد انتهت بتقلص رغم كل المحاولات والاجراءات التي اتخذتها .

بداية استيطان عربي مضاد :

وفي مواجهة تعثر عمليات الاستيطان الصهيوني ، هنالك نشاط عربي مضاد . لهذا نشأ « خوف جدي من انه خلال العقد المقبل ستنفذ عملية استيلاء عربية من الناحية الديمغرافية والسياسية على عكا ومنطقة الناصرة ... « وهذا الامر بالاضافة الى انه ناتج عن التكاثر الطبيعي للعرب ، فهو ايضا بفعل عمل منظم ومخطط . فقد « بدأت تظهر عمليات منظمة لشراء العرب عقارات في مناطق الشمال ، ويظهر ذلك بشكل بارز في الناصرة العليا وهكذا ويظهر بشكل مثير للقلق في مرج ابن عامر ..» وفي الناصرة العليا التي يتحدث عنها كنيغ والتي اراد الصهاينة من وراء انشائها خنق مدينة الناصرة ، هنالك عملية شراء او استئجار للبيوت من قبل العرب ..» وهنالك من اليهود من كان يطالب بصوت عال بمنع العرب من دخول المنطقة . وما ان لاحت له الفرصة ووجد مشتريا لبيته حتى باعه للعائلة العربية التي اجزلت الثمن (١٢) «الامر الذي اعتبره البعض « غزو العرب للمكان الذي اعد ليكون لليهود فقط ..(١٣) « .وقد كان من اللفت للنظر « ان العرب الذين يأتون لشراء منازل مستعدون لدفع اي ثمن

يطلب منهم ٠٠ ان هذا الامر يدل على محاولة منظمة تزيدها مصادر مالية ٠٠ انهم ينفقون الاموال بسخاء وسهولة وحتى انهم لا يساومون ٠٠(١٤) ٠ ولعل هذا ما عناه كنيغ عندما اشار الى « تجميع الاموال وخاصة السوداء منها ، في ايد غير مرغوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك أن تشكل قاعدة للتبرعات التي تجمعها عناصر معادية ٠٠٠» ١ ٠

ان الفرضيات الاسرائيلية بصدد الاستيطان والوجود القومي للعرب الارض المحتلة يمكن لنا ايجازه بكلمات أحد مندوبي اتحاد الطلبة العرب الذي قال ٠٠ « اننا نعتبر انفسنا جزءا لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ٠٠ وما داموا لا يعترفون بحقنا في تأييد اخواننا في مخيمات اللاجئين فلن يكون هنالك هدوء في الجامعات ٠٠٠ واذا كان من حق الطلبة اليهود التظاهر من أجل الاستيطان فمن حقنا التظاهر ضده ٠٠» (١٥)٠

ان حديث مندوب اتحاد الطلبة العرب انما يوجز الطابع التناحري للصراع داخل الارض المحتلة ٠ ويؤكد على الطابع القومي لهذا الصراع ، ومضامينه المتمثلة بمسالة الارض ٠ وقد اعترف كنيغ بهذه المسالة ٠٠ وبان بعض الفرضيات قد مست ٠٠ ولكن كنيغ ، ممثل الحكومة الاسرائيلية ، وايديولوجيتها الصهيونية ، كان عاجزا عن الاعتراف بالحقيقة كاملة ، ولذا فقد قدم مقترحات لا تمت بصلة الى المقدمات التي انطلق منها والوقائع التي سجلها ٠٠

الصهيونية ايديولوجية الانفصال وليس الاندماج : ٠

كنيغ ، يعمل على تنفيذ سياسة الحكومة الاسرائيلية الداعية الى (دمج) و(هضم) عرب المناطق ، وقد سجل الظواهر ، وقدم مقترحات من صلب الايديولوجية الصهيونية ٠ من أجل ماذا ؟ من اجل الدمج ، وهنا وقع في خطيئة كبيرة عندما قفز فوق الحقيقة المعروفة الا وهي ان الايديولوجية الصهيونية ، ليست ايديولوجية الاندماج ٠٠ بل خلقت خصيصا لصنع الانفصال ٠٠

الفرضية الثالثة التي اهتزت

ومن هنا الفرضية الثالثة التي لم يسجلها كنيغ ، ومن المستحيل على صهيوني ، ان يعترف بها : استحالة دمج العرب بالدولة الصهيونية ٠٠ واستطرادا المازق الذي لن تستطيع الخروج منه اسرائيل او الحركة الصهيونية وسيتضح هذا معنا من خلال استعراضنا للمقترحات التي قدمها للخروج من المازق ٠٠ والتي لن تؤدي الا الى الدخول في مازق جديدة ، وخير معين لنا في فهم هذه المسالة هي الايديولوجية الصهيونية بحد ذاتها كما عبر عنها بعض دعاتها ومنظريها ٠٠

الاضطهاد ٠٠ و٠٠ الانفصال ٠٠

يقول روف بريغر عضو اللجنة الوطنية للهستدروت وعضو المكتب السياسي لحزب مابام « تضامن اليهود في وجه الاغتصاب والقطائع ٠٠» (١٦) و« بدون معتقد خاص لا تكون

انفصالية وبدون انفصالية لا يكون بقاء بل انصهار عاجل ٠٠ وبدون بقاء تكون نهاية اسرائيل ٠٠ (١٧) ٠ «الطرد والفيتوات امنت بقاءنا ٠٠» (١٨) » و « الانفصال القسري هو في طبيعة الاشكال والمحظورات الكثيرة في ديانتنا ٠٠»(١٩) ٠٠ « هذه المحظورات ادخلت في سجيل الحفاظ على الانفصال ٠٠(٢٠) » ٠

و« لتحت اللاسامية عيني على العودة الى هويتي النسية ٠٠ (٢١) » واما هرتزل فيقول « اللاسامية هي قوة شديدة لا شعورية بين الجماهير ٠٠ انني اعتبرها حركة مفيدة للشخصية اليهودية ، فهي تمثل تثقيف جماعة بواسطة الجماهير ٠٠ ويتم التثقيف عن طريق الضربات القاسية وحدها » (٢٢) ٠٠ وسيقدم المعادون للساميين الماثل ٠٠(٢٣) ٠

الاضطهاد وسيلة تثقيف جماعي

« الضربات القاسية وحدها ٠٠ الكلمات لهرتزل ، والممارسة لكنيغ ولحكومة اسرائيل ٠٠ والضحية هذه المرة عرب الارض المحتلة ٠٠ وهذه الضربات القاسية التي يقترحها كنيغ ٠ ان تكون عملية تثقيف جماعي ٠٠ للعرب هذه المرة ٠٠ ومفيدة للشخصية العربية الفلسطينية هذه المرة ايضا ؟٠ الن تفتح العيون على الهوية النسية ٠٠ هذا ان نسيت أصلا ٠٠ والتضامن في وجه الاغتصاب والفظائع ٠٠ كما يقول روف بريئر الذي يكون هو تضامن العرب ٠٠ لانهم ضحية الاغتصاب والفظائع ؟٠ اليست هذه هي السياسة التي مارستها اسرائيل ضد عرب الارض المحتلة ٠٠ ويأتي كنيغ داعيا لمزيد من اجراءات الاغتصاب والفظائع ٠٠ لنعد لالقاء نظرة على كلمات مذكرة كنيغ ٠٠ ولنقرأها في ضوء الجمل المختارة من الفكر الصهيوني ٠٠ يقول كنيغ « تعاظم الشعور القومي» و« النجاح الكلي للاضراب » و« تضامن كل السكان عن وعي » و« النجاح التاريخي » و« التوحيد المطلق » و« الهوة العميقة » و« الانعكاسات الحادة ٠٠» ٠

في ضوء ما تقدم يمكن لنا تسجيل الفرضيةالثالثة الا وهي استحالة حل مشكلة الاقلية العربية في الارض المحتلة و(دمجها) و(احتوائها) في (دولة) اسرائيل على اساس البرنامج الصهيوني ٠ والذي فصل اساسا للحفاظ على (انفصال) و (وتمايز اليهود)٠ انفصالهم وتمايزهم)عن محيطهم ٠٠ ماذا يعني هذا ؟ انه يعني بمسألة شديدة (انفصال) و (تمايز) غير اليهود ايضا ٠٠ مع فارق جوهري في معنى الانفصال والتمايز بالنسبة للطرفين ، فالانفصال والتمايز ، يحملان معنيين متناقضين ، فالاول يحمل معنى أيجابيا ، بمعنى تمييز لصالح اليهود ٠٠ والثاني تمييز ضد العرب ٠٠ ولهذه المسالة اهمية كبيرة جدا في حياة الصهيونية واسرائيل وخوفهما من اندماج اليهود في دول الشتات كما يحلو لهم التسمية ، فين غوريون يقول« ان مبدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هو الذي يجعل خطر الاندماج اشد ٠٠» (٢٤) ٠ ان حديث بن غوريون انما يمس مسالتين في غاية الاهمية ، وهما مفتاح فهمنا للعديد من القضايا٠

المسالة الاولى كيفية نشوء المسالة اليهودية ، والمسالة الثانية كيفية استغلال الحركة الصهيونية للمسالة اليهودية لتنفيذ المشروع الصهيوني واقامة دولة يهودية في فلسطين لعدم مساواة اليهودي في اوروبا منح عملية الذوبان وأوجد

وضعا استغلته الحركة الصهيونية التي قالت ان طريق الخلاص هو البرنامج الصهيوني ٠٠

وايس مصادفة تاريخية ان تكون اولى واوسع الهجرات اليهودية قد كانت من روسيا القيصرية ٠٠ واذا كان (عدم المساواة) بالمعنى السلبي ، اي التمييز لغير صالح اليهود قد كان عنصرا رئيسيا في نجاح المشروع الصهيوني ٠ فان عدم المساواة هذه المرة ، بمعنى التمييز لصالح اليهود ، يشكل عنصرا رئيسيا في سياسة الحركة الصهيونية لاستمرار وجود اسرائيل وضمان تدفق المهاجرين وبحيث يكون المهاجرون « متأكدون انهم بذلك يحسنون مركزهم ٠٠ وان الخروج ـ اي الهجرة ـ سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا ٠٠ (٢٥) » ٠

« تحسين مركزهم » و« الارتقاء الطبقي » و« التمايز » ان يحتاج الى طرف اخر ٠ « يسماء مركزه » و« يهبط طبقيا » و« يعاني من التمايز » ٠ هذا هو المجتمع الصهيوني الذي انشيء ، ويأتي كنيغ ويقدم اقتراحاته بشأن الاقلية العربية ٠٠ فهل اخرجت مقترحات كنيغ اسرائيل من مأزقها وعقده الانفصال التي تعاني منها والمرشحة للتزايد لدرجة الخطر ٠٠

المقدمات الخطأ ٠٠ والنتائج الخطأ :

نظرا لان كنيغ ينطلق اساسا من ايديولوجية رجعية هي الايديولوجية الصهيونية ، فان كافة النتائج المترتبة على تلك البداية الخاطئة ستكون رجعية ولن تخرج اسرائيل من مأزقها ٠٠ بل على العكس من ذلك فان عملية الانفصال والتناقض ستتعمق اكثر فاكثر ٠٠ فمقترحاته تتلخص بكلمة واحدة ٠ الاضطهاد ٠ الاضطهاد في كل شيء ٠ والاضطهاد وحسب القاموس الصهيوني يعني شيئا واحدا : الانفصال ٠ فماذا يقترح كنيغ ؟٠

كنيغ الذي تأثر كثيرا بيوم الارض ، يقفز كليا فوق هذه المشكلة ويقدم مقترحات لا علاقة لها من قريب او بعيد في جوهر المشكلة ويقدم مقترحات تحت خمسة عناوين ، فبالنسبة للمشكلة « الاولى والتي يسميها « المشكلة الديمغرافية وظواهر القومية العربية » يقترح « توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية ٠٠٠ ويجب درس امكانية تخليف عدد السكان فعلي التجمعات السكانية العربية القائمة » ، وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولة بفرض تقييد عمليات الاستيطان العربية في اقسام الدولة المختلفة ٠٠٠ ٠ ماذا يعني ، هذا الاقتراح ؟٠ طرد العرب من اماكنهم الاصلية ، ومنعهم من الاقامة في مناطق اخرى ٠٠ اذا اين يقيمون ؟!٠ الطرد الى الخارج ! الى اين ؟ ولكن اقتصاد اسرائيل يحتاج اليهم ٠٠ هنا يقدم كنيغ رغبة ولكنها تكاد تكون مستحيلة !٠

و« لتجريد حزب ركاح من الريادة في حمل لواء النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل، ولاعطاء متنفس للجالسين على (المحافة) يجب تأسيس حزب شقيق لحزب العمل يكون التركيز فيه على مبادىء المساواة والانسانيات والثقافة والعدالة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة ٠٠» اقتراح حسن ، ولكن الم توجد احزاب شقيقة قبل ذلك ، و « مبادىء المساواة » التي يقترح كنيغ أن يرفعها الحزب الشقيق اتعني ان تصادر اراضي العربي لتعطى لليهودي ؟٠ ركاح يعلن موقفه صراحة ، ويؤكده بالممارسة ٠٠٠

والحديث المكثف عن المساواة والانسانيات ... غيرها من مبادىء الحزب الشيوعي هل تعوض الفلاح عن أرضه المصادرة ؟

ومن اجل « خلق نموذج مواطن عربي موال للدولة .. » يقدم كنيغ مقترحة الثاني بشأن « الزعامة العربية وتأثيرها » .. يقول بوجوب « التخلص من الزعامة العربية الحالية » و« تغيير معظم العاملين في القطاع العربي التابعين للاجهزة الحكومية والشرطة والاحزاب بما فيها ذلك واضعي السياسة .. » والتشهير بقادة ركساح « واتخاذ خطوات فردية ضد كل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ... » ولان السيد كنيغ منذ الى الخطأ الذي وقعت فيه « السياسة التي لم تأخذ في الحسبان الطبيعة العربية الشرقية والسطحية غير المتعمقة والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل ..(٢٦) » يقترح ايجاد « قادة قادرين على أن يكونوا نموذجا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهم من الاجابة على اسئلة المرتبكين المقلصين ومن سوقهم الى الحل المعقول على الصعيد الشعبي والشخصي .. » .

ولكن هذا « البطل » ماذا سيكون جوابه على سؤال يطرحه فلاح شرقي سطحي ، غير متعمق ، خيالي ، لا عقلاني . كما يصفه كنيغ . وسؤال هذا الفلاح لماذا يصادرون ارضي ؟. ماذا سيكون جواب الزعيم وما هو الطريق الذي سيقترحه ؟ بالتأكيد أن الارتباك سينتقل من الفلاح الى الزعيم .. هنا افرط كنيغ الى درجة السذاجة في تقدير سذاجة ذلك الفلاح أو العامل الذي لن يجد جوابا أيضا عندما يتساءل لماذا اجري اقل من أجر زميلي اليهودي الذي يؤدي نفس العمل ؟..

واما على صعيد المشكلة الثالثة ، اي الاقتصاد والعمل فان كنيغ يعتبر « بسبب الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصاد بكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام ، والنهضة التي تميز فروع الاقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة ، أعطت شعورا بالفسحة لمدى عرب اسرائيل ... هذا الواقع يقدم له الحل التالي « يجب وضع اتفاقيات مناسبة مع كل ادارة مشروع أو معمل خاضع له قانون استثمار راس المال » في المناطق الحساسة .. بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها على نسبة ٢٠٪ .. » و« تعميق الجباية » و« تحييد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم » .. الاقتراحان الاخيران هما في متناول يد السلطات الاسرائيلية ، ولكن العنصر الاهم هو دور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي . هنا يتناسى ان تحديد نسبة العمال العرب ، مسألة لا تمسهم فقط بل تمس الاقتصاد الاسرائيلي ككل . فان طرد العمال العرب ،فاين سيعملون ؟!؟ ان مصيرهم هو البطالة . وهي المشكلة الاولى ، وأما الثانية ، فمن اين سيأتي السيد كنيغ بالبديل ، وهو نفسه يعترف بـ « الفارق الشاسع بين العرض والطلب .. » فقد يستطيع احضار عمال يهود ولكن ، من سيملا مكانهم الشاغر ؟ وفيما لو وجد من يحل مكان العمال العرب ، فهل سيرضى العمال اليهود بممارسة المهن التي يؤديها العرب ؟ . هل سيرضون بنفس الاجور ؟..

والاخطر من ذلك ، أن العمال العرب والمهن التي يؤدونها ليست مسألة نسبية مئوية فهم لا يشغلون نسبة ٢٠٪ فقط ، هم مسؤولون عن مرحلة انتاجية لا يمكن الاستغناء عنها ، وبدون هذه المرحلة الانتاجية ، فان ما يتبقى من مراحل الانتاج عرضه

للشلل (٢٧) . فهل سيغامر كنيغ بطرد العمال العرب ؟ ان مغامرته ستهدد خلخلة هيكلية الاقتصاد الاسرائيلي ككل . وستؤدي حكما الى هبوط الناتج القومي .. واثار اخرى لا يستطيع الاقتصاد والاسرائيلي تحملها بدون هزات ستعرض كل التركيب الاجتماعي في اسرائيل للخطر .

مقترحات كنيغ على صعيد « التعليم » لا تختلف عن مقترحاته على الاصعدة الثلاثة السابقة . فهو يقترح تقليل عدد الطلاب وضمان استيعابهم بعد التخرج ، وتوجيههم نحو « المواضيع التي لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ..» . و« تسهيل السفر الى الخارج ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل ..»

اقتراح كنيغ هذا (وجيه جدا) ويصح ان يقدم الى « اليونسكو » كمبرر جديد لطرد اسرائيل من هذه المؤسسة الثقافية الدولية . انها دعوة صريحة للتجهيل .. ولكن هل هي سياسة جديدة ؟. المعروف ان عددا كبيرا من حاملي شهادة « البجروت » الثانوية العامة يعملون عمالا ، وذلك بفعل سياسة التمييز ضد العرب ، فمن بين ١٢٠ الف موظف في الدولة يوجد ١٢٠٠ موظف عربي اي ما نسبته ١٪ فقط (٢٨) اي ان العقبات امام دخول الطلاب الى الجامعات ، او الى مجالات العمل هي عقبات موجودة منذ انشاء دولة اسرائيل . ونتيجتها توقعها مساعد توليدانو مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عندما قال « اذا لم يستوعبوا ستزداد بينهم مشاعر خيبة الامل الناجمة عن وضعهم الاقتصادي بالاضافة الى خيبة املهم على اساس قومي..» ومراهنة كنيغ على التخصصات التي « لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية ..» هي مراهنة خاسرة سلفا ، ولنا في تاريخ الصهيونية ، ودور حاييم وايزمن ، الكيماوي ، دليل ساطع ، وفي المرحلة الراهنة فان التنظيم الفلسطيني الاكثر تطورا يقوده مهندس هو ياسر عرفات ، والتنظيم الثاني في الساحة الفلسطينية يقوده دكتور هو جورج حبش .. وكنيغ عندما يقترح وضع العراقيل امام عودة الخريجين من الخارج وامام عملية تشغيلهم ، سوف يتخلص من خريج ، بابتائه خارج الحدود، ولكنه سيكون على صدام مع الامتدادات الاجتماعية لهذا الخريج في داخل الارض المحتلة .. وعدم تشغيله ، سيجعل من ذلك الخريج قضية متحركة في المجتمع ودليلا ساطعا على سياسة التمييز التي تمارسها السلطات العنصرية .. خصوصا اذا ما تذكرنا ان لهذا الخريج العربي « زميل يهودي » ينتسب لنفس الجامعة، او الفرع العلمي ، ويجد وظيفته جاهزة .. بينما يقذف بالعربي الى سوق البطالة ... عندها يكون السيد كنيغ قد خلق محرضا سياسيا من الطراز الاول ..

واما على الصعيد الخامس فيقترح كينغ تطبيق القانون وبعدد اكثر من مثيل على عملية خرق القانون ، كما في حالة البناء غيرالقانوني مثلا .. ولعل اطرف توقع هو اعتباره ان « عدد السكان العرب ١٤ ٪ . مخالفة هذه النسبة للقانون قد تتخذ طابع التمرد ..» هنا لا يقدم اقتراحات لعدم تجاوز هذه النسبة . ولكنه على صعيد تنفيذ القانون يقترح التشدد . هنا يطرح تساؤل لماذا يخرق العرب القانون ؟. الرغبة في التجاوز ؟ وبالذات على صعيد البناء . السبب ان القانون يقيد حق العرب في البناء .. ولان القانون جائر ، اصبح خرقه ضروريا . ولنفترض جدلا ان الحكومة الاسرائيلية قد نجحت في منع المخالفات وطبقت القانون الجائر فاين يقيم العرب اذن ؟. في

الاحياء اليهودية ٠٠ هنالك مقاومة رسمية اذا ، يتكدسون في اماكنهم الضيقة ٠٠ هذا تعبيد لماذا ؟ النتيجة الوحيدة هي الانفجار ٠٠ لان ذلك العربي عيونا ترى الشقة الحديثة التي تجهز لمهاجر متوقع ولم يحضر بعد ٠٠

في هذا الصدد بقيت كلمة اخيرة ٠٠ ان مذكرة كنيغ مذكرة (ممتازة) ، ليس لحل مشكلة عرب الارض المحتلة ٠٠ بل لدفعهم الى اقصى درجات العنف والتوتر ٠٠ ان وثيقة كنيغ هي برنامج مناسب لاحداث انفجار !!

خلاصات ومقترحات :

١ ـ ان مذكرة كنيغ ، بغض النظر عن مستقبل صاحبها ، يجب ان تكون محل عناية واهتمام قيادة الشعب الفلسطيني ،كجزء من عملية الاهتمام في الاراضي المحتلة عموما وفي مناطق ١٩٤٨ خصوصا ٠٠ ولا يجوز ، لاي سبب كان ان لا تعطي الاهمية التي تستحقها !!

٢ ـ ان الفرضيات التي مست ، هي فرضيات في منتهى الخطورة والاهمية على الصعيدين العربي والاسرائيلي وقد سبق لنا تناولها ٠ وان اية سياسة تجاه عرب الارض المحتلة لا بد وان تاخذ بعين الاعتبار هذه المسالة والتي نلخصها : بصعوبة الاندماج ، وتلكوء مشاريع الاستيطان ، واستحالة تقديم اسرائيل لحلول مناسبة لقضايا عرب الارض المحتلة ٠ وكافة الحلول التي تقدمها هي حلول قاصرة ، وتخرج قادة العدو من مازق لتدخله في مازق اخر ٠ وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى اننا لمست المرة الاولى التي تهتز بعنف بعض الفرضيات الصهيونية ٠ خصوصا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، حيث بدات تطرح في ذهن المستوطنين الصهاينة تساؤلات شتى حول صحة البرنامج الصهيوني من اساسه ٠

٣ ـ ان عرب الارض المحتلة هم القنبلة الموقوته والاكثر خطرا على اسرائيل والمفصل الاكثر ايلاما لها ، سواء اخذ هذا الوجود شكلا كميا او نوعيا ، باعتبار ان تطوره لا يخرج عن اطار القوانين العلمية التي تحكم سير ونمو اي مجتمع من المجتمعات ٠٠ ومن هنا فلا بد من رفع شعار (نموت ولا نهاجر) ووضعه موضع التطبيق العملي والتعامل مع مسالة الوجود داخل الارض المحتلة باعتباره قضية مقدسة وواجبا وطنيا ولا بد من ادانة اي عملية خروج من الارض المحتلة ، تحت اي مبرر او حجة ، وبالتحديد على صعيد الكفاءات والرموز ، والمرشحة لان تكون قيادة العرب الارض المحتلة ، خصوصا وان جزءا من اجراءات اسرائيل ستتوجه نحو اضعاف المستوى العلمي والثقافي لعرب الارض المحتلة ، وبكلمة اخرى اضعاف امكانيات تولد القيادات٠

٤ ـ ان عملية التجهيل المقصودة ضد عرب الارض المحتلة يجب ان تعوض بعملية تحريض ثوري وسياسي من الخارج بواسطة كافة وسائل الاتصال ، بدءا من الاغنية الشعبية الفلسطينية انتهاء بارقى الوسائل والاساليب ٠ ولا بد من ان تكون هنالك سياسة موحدة تجاه عرب الارض المحتلة من قبل كافة الاطراف المعنية ، باعتبار ان اوضاع الداخل لا تحتمل ما يمكن ان يحتمله الخارج ٠

٥ ـ لا يجوز لاي سبب كان ان نطعن نضالات عرب بالارض المحتلة • هؤلاء الذين يأبون الاعتراف بالوجود الصهيوني رغم سنوات الاحتلال الطويلة • وان اي موقف سياسي متهاون تجاه اسرائيل سيهز الفرضيات السياسية التي تشكل موقف عرب الارض المحتلة ، والذين سيكونون امام حائط مسدود عندما يفاجئون باعتراف عرب الخارج بوجود اسرائيل ، وهم في الداخل ، والذين يعانون من اقسى الاجراءات واكثرها عنفا وشراسة لم يفرطوا بهذه المسالة ولم يتسرب الى نفوسهم اليأس •

٦ ـ لا بد من العمل بكافة الوسائل باتجاه تكريس ودعم زعامات فلسطينية في الداخل في مواجهة الزعامات التي تحاول اسرائيل ان تخلقها • وقد يكون هنالك ثمة تحفظات لهذا الفريق السياسي او ذاك او ذاك على الاطروحات السياسية لبعض القوى العاملة داخل الارض المحتلة ، ومع اهمية هذه التحفظات والتي تستند الى اسس مبدئية ، ولكن رغم هذا ، فلا بد من التعامل مع القوى الموجودة في الارض المحتلة ليس في ضوء اطروحاتها النظرية فحسب ، بل على اساس النتائج الموضوعية لممارساتها العملية • ودورها في فرز وتصعيد التناقضات داخل الارض المحتلة •

٧ ـ ان نجاح البرنامج الصهيوني للاستيطان لا يرتبط بالاعتبارات المحلية فقط ، فاسرائيل قد تستطيع مصادرة الاراضي • ولكن حريتها ليست مطلقة على صعيد ثلاث مجالات ١٠ ـ المجال الامني • ب ـ تمويل عمليات الاستيطان • جـ ـ المادة البشرية ، وعلى الصعيد الاول ، فقد اصبح دور عمليات المقاومة في الجليل دورا مسلما به في الحد من عمليات الاستيطان •• وفي هجرة المستوطنين •• وعلى الصعيد الثاني فان تمويل عمليات الاستيطان مسالة هامة ولا يمكن تجاوزها ، فالمستوطن بحاجة للمنزل ، ولكان العمل ، الامر الذي يلقي على عاتق اسرائيل اعباء مالية لا يمكن لها ان تتجاوزها بسهولة لولا المساعدات الخارجية ، وهي مجال ضغط لا بد من ممارسة الجهود الملائمة كي تخف هذه المساعدات • ولعل اخطر الجوانب في هذه النقطة هي المسالة الاخيرة الا وهي توفير المادة البشرية • وقد اصبحت مصادر الهجرة الى اسرائيل محصورة بشكل رئيسي في دول الكتلة الشرقية • وهنا لا بد من توضيح ابعاد هذه المسالة وخطورتها لان هجرة ١٠٠ الف يهودي سنويا يعني ١/٢٥ من عدد سكان اسرائيل اليهود حاليا (١٠٠ الف ـ ٢٫٥ مليون)• ومهما قدرت الاعتبارات والمصالح السياسية وراء السماح بهجرة اليهود ، ولكنها لا ترقى الى درجة الخطر المصيري الذي تمثله بالنسبة لوجود اسرائيل وبالنسبة للثورة الفلسطينية وللشعب فلسطين • ولانه من غير المبدئي ان تشن النضالات ضد الاستيطان وفي الوقت نفسه تمون عمليات الاستيطان بالمادة البشرية اللازمة •

ومن هنا فلا بد للثورة الفلسطينية ، وفي ضوء علاقاتها المبدئية والرفاقية مع المعسكر الاشتراكي ، ومن توضيح خطورة هذه المسالة والتي هي مسالة وجود او عدم وجود بالنسبة للثورة الفلسطينية او لاسرائيل • واي خطوة ايجابية على هذا الصعيد هي اكثر تاثيرا ودعما لثورتنا ، من اي مساعدات مادية او معنوية اخرى تقدم لنا • فلا قيمة لمشاريع الاستيطان بدون مستوطنين !•

٨ ـ في موازاة سياسة التجهيل التي تعمل لها اسرائيل • وحيث تقترح وثيقة كنيغ ممارسة اشد على هذا الصعيد ، وفي ظل حاجة عرب الارض المحتلة للكوادر

اللازمة ، وفي ظل استحالة استيعاب، وبكلمة ادق استعداد الجامعات الاسرائيلية لاستيعاب الاعداد المطلوبة من الطلبة العرب ، لا بد من السعي لدى الدول الصديقة لزيادة اعداد الطلبة المقبولين في جامعاتها من عرب الارض المحتلة • فكما هو واضح فان اهمية الخريج من فلسطيني لبنان او سوريا •• الخ • لا تساوي اهمية الخريج من فلسطينيي المناطق المحتلة ١٩٤٨ • ولا يتسع هنا المجال لمزيد من التفاصيل العملية الضرورية والممكنة •

٩ ــ من المتوقع ان تمارس اسرائيل سياسة اكثر تشددا وعنفا ، لمواجهة وجود عرب الارض المحتلة • ومن هنا فلا بد من المبادرة باسرع ما يمكن الى تنظيم حملة عالمية لفضح السياسة الاسرائيلية على هذا الصعيد والاستفادة منها على صعيدين : الاول تقييد حرية اسرائيل في التصرف ، برأي عام على الصعيد العالمي ويفضح طبيعتها العنصرية • والجانب الثاني سياسي يهدف خلق المزيد من المشاكل السياسية لها • ولا شك ان اسرائيل ستعاني من متاعب جمة فيما لو اثير موضوع الاقلية العربية في الارض المحتلة وحقها في تقرير المصير • وقد لا تلاقي هذه الدعوة نجاحا ، ولكنه من المؤكد انها ستفضح زيف ديمقراطية وليبراليه اسرائيل • وهذا ما يمكن لنا ان نسميه التعاطي الايجابي مع الراي العام العالمي بمعنى تقديم المسائل التي تلقى قبولا وتفهما • وليس كما يفهم البعض التعاطي الايجابي باعتباره تقديم التنازلات المبدئية •

١٠ ــ تستطيع الجزم ان اسرائيل ، لاكثر من سبب اقتصادي ، واجتماعي ، وسياسي، لا تستطيع التخلي عن الاقلية العربية الموجودة داخل الارض المحتلة • ورغم ان هذه الاقلية هي اقلية خطرة وغير مرغوب فيها ، فهنالك حاجة لها • ولا يمكن الاستغناء عنها الا اذا وفر البديل الذي يمون اقتصاد اسرائيل بحاجته من العمال اليدويين وانصاف المهرة • ودراسات اسرائيل ــ كما اتضح من دراسات متخصصة عديدة ــ هي على ايجاد مصادر بديلة ، تعطي لاسرائيل اليد العاملة ، ولا تحملها الاعباء السياسية التي تلقيها عليها الاقلية العربية داخل الارض المحتلة حاليا • ومن هذه المصادر دولة او كيان عميل مرتبط باسرائيل اقتصاديا • او توقيع معاهدة سلام مع العرب تضمن فتح الجسور واقامة علاقات اقتصادية • وفيما لو قدم لاسرائيل هذا الامر ، فانه يزيل عن كاهلها عبئا ثقيلا ممثلا في عرب الارض المحتلة ، الذين تحتاج اليهم بمقدار ما لا ترغب في وجودهم • وقد اشار كاتب (بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي) الى هذه المسالة عندما قال « ان توفير مصدر اخر لليد العاملة العربية سوف يساعد اسرائيل على تنفيذ رغبتها بافراغ المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ من المواطنين العرب • باعتبار ان وجودهم هناك يؤدي هدفين متناقضين ، اولهما، حاجة اقتصاد اسرائيل الماسة لما توفره الاقلية العربية من عرض للايدي العاملة الرخيصة وغير الفنية تلبية لحاجة اقتصادها المتزايد لهذا النوع من الطاقة العاملة : ثانيا : هذا ما كان يحد من قدرتها على تنفيذ اجراءات التهجير للاقلية العربية خوفا من تزايد تلك الاقلية الى درجة تهديد التركيب الديمغرافي بين العرب واليهود •• وعندما يتوفر لها مصدر بديل لليد العاملة الرخيصة ، فان هذا يساعدها على ان تخطو واسعا بعملية تهجير عرب الارض المحتلة ١٩٤٨ • وبهذا تكون اسرائيل قد وامنت بين الهدفين المتناقضين اللذين يقدمهما وجود الاقلية العربية ، حيث ستجد اليد العاملة الرخيصة وبدون اية اعباء مكانية او سياسية ••» (٢٠)

١١ ـ في موازاة البرنامج الصهيوني ، والذي تعبر عنه خير تعبير وثيقة كايغ ، والذي لن يؤدي الا الى المزيد من المازق ، والذي يقدم حلا رجعيا وعنصريا لما يسمى « المسالة الفلسطينية » ، يتسع المجال امام تقديم الحل البديل ، الحل التقدمي ، للمشكلة الحقيقية والتي هي «المسالة اليهودية » ، ومن هنا ضرورة تعميق وتعميم طرح حركة المقاومة الفلسطينية عن الدولة الديمقراطية ، التي تكفل المساواة في الحقوق والواجبات للجميع ،

١٢ ـ لا بد من الاقلاع نهائيا عن اي تفكير بامكان ايجاد حلول تكفل « الحقوق المشروعة الشعب الفلسطيني » و « حقه في تقرير المصير » الا اذا حطمت الايديولوجية الصهيونية بكل مؤسساتها وهياكلها الرسمية وغير الرسمية ، فالعلاقة بينها وبين الشعب الفلسطيني ، هي علاقة تناقض تناحري لا مجال لحلول وسط فيه ، وان لديه اوهام بامكان انتزاع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في ظل وجود اسرائيل ، وفي ظل هيمنة الايديولوجية الصهيونية عليها ، وفي ظل ميزان القوى الحالي ، نقول لهم ان قادة الحركة الصهيونية يعرفون طابع التناقض جيدا ... انهم يقولون بلسان كتيغ اخر هو موشي ديان ... « عندما قامت دولة اسرائيل ، فانها قامت مكان ، وعلى حساب مناطق فلسطينية ، او سكان فلسطينيين » وكما ارى الامور ، ولا ارى سببا لتجاهلها ، فان (ساريد) مكان (خنيفس) و (شاعر هعماكيم) قامت مكان (خربطة) و (نهلال) مكان (معلول) و (تل جنان) مكان (بلد الشيخ)وفي (الشيخ مونس) تقام الان (جامعة تل ابيب) و (وادي الحوارث) هو (مجيمك حيفا) ومكان مستوطنتي النقب (نيريم ونيريتسحاق) كان يقيم (بدو العزازمة والمزيل وغيرهم)! انها نقطة البدء ... انها نقطة النهاية ... وما تبقى تفاصيل ،

ن

الحواشي

(١) الحديث ادلى به في ندوة تلفزيونية يوم ١٧ـ١٠ـ٧٦ واشترك به سالم جبران الشاعر ، والمحرر في صحيفة الاتحاد والسيد صالح دراوشة رئيس مجلس محلي ترية اكسال ،والسيدة نزهة قصاب،عضو الكنيست عن حزب العمل الاسرائيلي المحاكم ...

(٢) ندوة تلفزيونية ، المصدر نفسه ،
(٣) المصدر نفسه ،
(٤) المصدر نفسه ،
(٥) ندوة تلفزيونية ، مصدر نفسه ،
(٦) ندوة تلفزيونية ، مصدر نفسه ،
(٧) لا نملك الا ان نتحفظ على الارقام المعطاة باعتبارها تمثل عدد سكان الجليل من العرب ، فهنالك ثمة اجماع على ان نسبة العرب تزيد عن نسبة اليهود ،
(٨) ملحق دافار ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٥
راجع نشرة الارض ، السنة الثانية العدد ٢٤ الصادر في ٧ـ٩ـ١٩٧٥ ، راجع ايضا ، كتاب ، عرب فلسطين عام ١٩٤٨ـ انتماء وصمود ، الصادر عن مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ـ دمشق ـ لحبيب قهوجي ،
(*) كافة الاستشهادات والفقرات المأخوذة من وثيقة كيتنغ لم يشر اليها ،
(٩) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ، بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي الصادر عن مركز الابحاث ، الصفحات ١٤٨ وما يليها ،
(١٠) ندوة تلفزيونية ، مصدر سابق
(١١) المصدر نفسه ،
(١٢) انتماء وصمود ـ حبيب قهوجي ، مصدر سابق ، ص ٩٢ ، عن دافار ٢٤ـ٩ـ١٩٧٥ ،
(١٣) مصدر نفسه ص ٩٢.
(١٤) المصدر نفسه ص ٩١ـ٩٢.
(١٥) المصدر نفسه ص ٥٨ عن يديعوت احرونوت ٢٣ـ٤ـ١٩٧٥ ،
(١٦) مجلة الازمنة الحديثة ـ العدد الخاص بالنزاع العربي الاسرائيلي ، العدد ٢٥٣ ، ص ٤٢٣ ، ذكرها ج، ب، جانسن في الصهيونية ، واسرائيل واسيا ، صادر

عن مركز الابحاث ، ص ٣٥ .
(١٧) برنير ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٠ ، جانسن ، مصدر نفسه ، ص ٣٥ .
(١٨) الفكرة الصهيونيـــة ـ نيويورك ـ ١٩٥٩ ، الكتاب مترجم بنفس العنـــوان صادر عن مركز الابحاث ، ذكرها ج. ب. جانسن ص ٣٦ .
(١٩) الفكرة الصهيونية ، مصدر سابـــق ص ٣٢١، جانسن ص ٣٦ .
(٢٠) الفكرة الصهيونية ، مصدر سابق، ص ٢٢٨ ، جانسن ص ٣٦ .
(٢١) ج. ب. جانسن ، مصدر سابـــق ، ص ٤٥ .
(٢٢) هرتزل ـ المذكرات ، الصفحات ٥٦ ، ٧٢٨ ، ٨٣ ، ٨٤ اشار اليها ، جانسن ، مصدر سابق ، ص ٤٨ .
(٢٣) تيودور هرتزل ـ دولة اليهود ،ص٥٧
(٢٤) شؤون فلسطينيةعدد ٥٠/٥١ ص٤٠٨
(٢٥) تيودور هرتزل ، دولة اليهود ، راجع الصفحات ٣٠ و ٦٠ و ٧٠ و ٨٥ .
(٢٦) التعبير لكنيغ .
(٢٧) للتعرف على الاهمية النسبية لليـــد العاملة العربية راجع كتاب (بحوث فـــي الاقتصاد الاسرائيلي) البحث الـــخاص بـ « دور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي» ، ص٧٣ ـ ص ٩٨ .
(٢٨) جريدة الاتحاد الصادرة في الارض المحتلة عدد يوم ٧ـ٢ـ١٩٦٩ .
(٢٩) هارتس ، عدد ١٧ـ٢ـ١٩٧٥ ، ذكرها حبيب قهوجي مصدر سابق .
(٣٠) بحوث في الاقتصـــاد الاسرائيلي ، مصدر سابق ، ص ١١٥ .
(٣١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملحق العددين ١ و ٢ ، ١٦ ك٢ ١٩٧٦ ، مقابلة موشي دايان مع هارتس ، عـــدد ١٩ـ١٢ـ١٩٧٥ .

رسالة من نيويورك

الحرب الأهلية اللبنانية في الاعلام الأميركي

اخذت الحرب الاهلية اللبنانية في وسائل الاعلام الاميركي حجما كبيرا لا يعكس في الحقيقة اهتمام الولايات المتحدة بلبنان ، بقدر ما يعكس مدى اهتمام واشنطن بما يجري على حدود اسرائيل الشمالية ، وبتاثير الحرب اللبنانية على المقاومة الفلسطينية من جهة ، وعلى مستقبل الحلول المطروحة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي من جهة اخرى.

ومن المؤكد ان الاعلام الاميركي ما كان ليركز اهتمامه على هذه الحرب ، لو انها دارت في بلد صغير اخر ، محروم كلبنان من الثروات الاقتصادية الضخمة ، ولا يحتل موقعا استراتيجيا حساسا . ولكن قرب لبنان من اسرائيل ، ووجود المقاومة كجزء من طرفي النزاع اللبناني ، وامكانات تاثر امن اسرائيل بما يجري على الارض اللبنانية ، كانت من العوامل التي جعلت الصحافة والاذاعة ومحطات التلفزيون في الولايات المتحدة تتسابق على تقديم الاخبار والتحليلات ، واضعة نصب عينيها دائما وفي جميع مراحل الحرب مسالة « امن اسرائيل ».

ولقد تطورت محاور اهتمامات الاعلام الاميركي مع تطور الحرب . وكان التركيز في البداية يدور حول ماسي القتال وفظائعه . وعندما كانت المقاومة والحركة الوطنية تحققان الانتصارات ، وكان « جلد الحزن » الذي تسيطر عليه « القوات اللبنانية » يتقلص يوما بعد يوم ، وكانت « الجبهة اللبنانية » تتحدث عن التقسيم ، كان الاعلام الاميركي يؤكد ضرورة الحفاظ على وحدة الاراضي اللبنانية ، ويشدد على مسالة عدم

تدخل قوى خارجية في النزاع ، ويبدي مخاوفه من سيطرة المقاومة الفلسطينية والقوات المشتركة على المناطق الحدودية الجنوبية ، وما يمكن ان تؤدي اليه هذه السيطرة من تزايد للنشاط الفدائي ضد اسرائيل ، الامر الذي قد يدفع الدولة الصهيونية الى القيام بفعل عسكري واسع او محدود ، يمكن ان يتحول الى حرب تعرقل مسيرة قطار الحل السلمي .

وفي هذه الفترة ايضا دار حوار حول امكانية تاثير الاحداث على مركز لبنان الاقتصادي . واحتمالات انتقال الشركات الاجنبية العاملة في لبنان الى بلدان مجاورة اوروبية او عربية . ثم لم يلبث هذا الحوار ان توقف بعد ان انتقلت غالبية الشركات الاجنبية فعلا الى اليونان وقبرص والاردن والكويت . وكان الاعلام يلفت الانظار الى سلامة الرعايا الاميركيين في لبنان ، ويؤكد ضرورة اتخاذ التدابير الكفيلة بحمايتهم او ترحيلهم عند اللزوم بسفن الاسطول السادس . ويؤكد ان الولايات المتحدة ليست طرفا في النزاع ولا تؤيد استمراره ، وانها تسعى الى التهدئة بكل الوسائل .

وعندما دخلت القوات السورية وقوات جيش التحرير المعركة في اواخر سنة ١٩٧٥ لمساعدة المقاومة و « القوات المشتركة » ، عمل الاعلام ما في وسعه للتهوين من اهمية هذا الامر ، والتاكيد على انه لن يبدل موازين القوى على حدود اسرائيل، ولن يهدد امنها ، وان حجم القوات محدود لا يتطلب من الادارة الاميركية تبديل موقفها ، والخروج عن دورها الظاهري « كمراقب للاحداث » . وكانت الغاية من ذلك : تهدئة اسرائيل ومنعها من اتخاذ التدخل السوري ذريعة للقيام بعمل عسكري ، وافهام اليمين اللبناني بان ما يجري على الارض اللبنانية لا يتطلب رد فعل عسكريا اميركيا على غرار انزال ١٩٥٨ ، واقناع الرأي العام العالمي والاميركي بان الولايات المتحدة لم تتخل عن دورها العالمي ، ولم تترك اصدقاءها يجابهون مصيرهم دون عون ، ولكنها ترى ان الضربات التي يتلقونها اصغر من ان تدفعها الى التدخل المباشر لحمايتهم .

وكان الاعلام الاميركي مع المبادرات السلمية السورية المتكررة . وعندما قام العميد الاول عزيز الاحدب بحركته في ١١ اذار ١٩٧٦ ، تجاهل الاعلام هذه الحركة، او قلل من اهميتها على الاقل ، رغم تاييد الولايات المتحدة المعروف للانقلابات العسكرية في بلدان العالم الثالث . ويرجع ذلك باعتقادنا الى سببين : اولهما ، اعتقاد واشنطن بان هذا الانقلاب ، الذي لم تكن المقاومة هدفه بعنف ، يمكن ان يشوش على المبادرات السلمية السورية ولو لفترة قصيرة . والسبب الثاني هو ان الاجهزة الاميركية ، الواعية لموازين القوى الحقيقية على ارض النزاع ، قدرت بان القوى المادية التي يمكن ان تدعم حركة ١١ اذار اصغر من ان تسمح للعميد الاول الاحدب

بحسم الموقف لصالحه ·

وظهرت بوادر التفاؤل على الاعلام الاميركي عندما تم انتخاب الرئيس الياس سركيس ، الذي وجد فيه الاميركيون شخصا معتدلا وغير متورط في النزاع ، ويكسب ثقة جميع الاطراف ، ويتمتع بصفات الرئيس المطلوب لمرحلة بناء لبنان الجديد · ولكن استمرار تدهور الاوضاع بسبب امتناع الرئيس السابق سليمان فرنجية عن الاستقالة، ووجود اصطدام السوريين مع « القوات المشتركة » والمقاومة الفلسطينية في حزيران ١٩٧٦ ، جعل الاعلام الاميركي ينقل اهتماماته من تاييد الحل السياسي الى تاييد الحسم العسكري السوري · مع التاكيد على ان الوجود السوري في لبنان لن يؤدي الى تهديد امن اسرائيل · ولقد ظهرت هذه المسالة في وسائل الاعلام الاميركي ايضا عندما دخلت قوات الامن العربية الى لبنان ، وابدت اسرائيل مخاوفها من وجود قوات عربية راديكالية (جزائرية ، ليبية ، عراقية) كثيفة على حدودها الشمالية ·

ولقد انشغل الاعلام خلال ترحيل الرعايا الاميركيين من لبنان بمسالتين هما : وصف عمليات الترحيل ، وابراز الاتصالات التي تمت بين اجهزة المقاومة وموظفي السفارة الاميركية في بيروت لتسهيل العمليات ، والشكر الذي قدمته الادارة الاميركية لمنظمة التحرير ، مع التاكيد على ان هذه الامور تتعلق بوضع خاص ، ولا تعني ان هناك تبدلا في موقف واشنطن من منظمة التحرير ، كما لا تعني ان هناك استعدادا اميركيا للاعتراف بهذه المنظمة ·

وليس هناك موضوع استاثر باهتمام الاعلام الاميركي مثل التدابير الاسرائيلية على الحدود · فمنذ شهر ١٩٧٦ ، نشر عدد كبير من المقالات حول المعونات الطبية والغذائية التي تقدمها اسرائيل الى سكان الجنوب ، وحول فرص العمل التي تقدمها لهم · وقدمت محطات التلفزيون افلاما عديدة تظهر البون الشاسع بين شراسة المتحاربين العرب في لبنان وبين « انسانية » الاسرائيليين · ويرى الكثير من المعلقين ان من شان هذه التطورات ان تؤدي الى مرحلة جديدة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وان تفتح المجال امام تطور العلاقات غير العدائية ، بعد مرحلة العلاقات العدائية الطويلة التي سادت بين اسرائيل وجيرانها ، وان هذا الامر من اهم آثار الحرب اللبنانية على مستقبل العلاقات العربية ـ الاسرائيلية ·

وفي ايلول ١٩٧٦ ابرز الاعلام الاميركي العلاقة بين اسرائيل والقوى اليمينية ، وتحدث عن المساعدات العسكرية التي حصلت عليها « القوات اللبنانية » من اسرائيل مباشرة ، او عن طريق تجار الاسلحة الوسطاء ، الذين سهلوا لليمينيين شراء اسلحة كانت اسرائيل قد استولت عليها خلال حروبها السابقة مع العرب · كما تحدث عن زيارات اسرائيلية لميناء جونيه ، والحصار المصري الاسرائيلي على مواني المنطقة التي تسيطر عليها القوى الوطنية ، وتدريب عدد من اللبنانيين

في اسرائيل وتزويدهم بالاسلحة لاستخدامهم ضد المقاومة الفلسطينية ، والافادة منهم في تشكيل الحاجز الامني على حدود اسرائيل الشمالية ، الامر الذي جعل اسرائيل طرفا مباشرا في الصراع الدائر على الاراضي اللبنانية ، وهذه هي المرة الاولى منذ سنة ١٩٧٠ (ايلول الاسود) التي تجد فيها اسرائيل نفسها متضامنة مع العرب في بلد مجاور لها ،

ولقد رافق هذه المعلومات المفصلة عن العلاقات الاسرائيلية ـ الكتورية ، حديث مكرر عن اثر الحرب السلبي على منظمة التحرير الفلسطينية ، التي يدعي الاعلام الاميركي انها فقدت خلال الحرب الاهلية اللبنانية الكثير من قواها العسكرية ، وخسرت كثيرا من المكانة الدولية التي احتلتها في السنوات الاخيرة وخاصة بعد حرب تشرين ، « ووجدت امامها بالعودة الى وطنها بتضاءل يوما بعد يوم » ولم يشر الاعلام الاميركي الى المكاسب التي حققتها المقاومة والمتمثلة في : احباط مخطط تصفيتها على الطريقة الاردنية ، وتصلب عودها ، وتخلصها من الوصاية التي كان بعض الدول العربية يحاول فرضها عليها ،

ومع استمرار القتال وانعقاد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة ، لبدت اجهزة الاعلام الاميركي ارتياحها لنتائج المؤتمرين وقراراتهما ، واعتبرتها مدخلا معقولا لحل الازمة وتهدئة الوضع بضمانات الدول العربية عامة ، والدول العربية المعتدلة بشكل خاص ،

ويلاحظ ان الاعلام كان يؤكد خلال مختلف المراحل على نقاط اربع لم يتوقف عن ترديدها وهي :

١ ـ ان الولايات المتحدة لم تشارك في صنع الاحداث ، ولم تكن وراء التخطيط لها ، مع ان كل الدلائل تشيرالى ان المخطط كان يستهدف ضرب المقاومة كمدخل لتطبيق السلام الاميركي في المنطقة ،

٢ ـ ان الخسارة الكبيرة التي اصابت لبنان تتطلب بذل الجهد لاعادة تعمير البلد المدمر ، وان اميركا مستعدة للمشاركة في هذا الجهد عن طريق تقديم المساعدات المالية والطبية والغذائية و « الانسانية » بشكل عام ،

٣ ـ ان الصراع في لبنان يؤثر على حل ازمة الشرق الاوسط ، وان تهدئة الاوضاع ستؤدي بالضرورة الى تحريك الحل الشامل في المنطقة بدءا من مطلع العام ١٩٧٧ سواء تم هذا الحل في جنيف ام باساليب اخرى ،

٤ ـ ان الولايات المتحدة ستعمل ما في وسعها لحل الازمة اللبنانية واضعة نصب عينيها ان اي حل ، مهما كان شكله ، ينبغي ان لا يؤثر على امن اسرائيل الذي يبقى قضية فوق كل القضايا ، واهم من جميع الاعتبارات ،

سامي حداد

١٩٧٦/١١/١

تقـــريـــر :

سفيـنـة التجسّـــس "ليـبرتي" مثال للتواطؤ الاميركي - الاسرائيلي

تحتل★ العلاقة العضوية بين الامبريالية الاميركية وقاعدتها المتقدمة اسرائيل مكانا هاما في السياسة الامنية الاسرائيليـــة ، وهي عامل لا يمكن تجاهله عنـد بحـث الصراعات بين الدول العربية والدولـة الصهيونية ، نظرا لانه يؤثر عـلى موازين القوى بشكل مباشر وغـير مباشر ، او عند التخطيط لاية مجابهة مع اسرائيـل ، لان تناسي عـامل الدعـم الاميركي عنـــد التخطيط لاي حرب عربية ـ اسرائيلـية ، وعدم الاستعداد لمجابهة الاحتمالات التي تنجم عـنه ، يعـني في النهاية عـدم فهـم حقيقة الصراع العربي ـ الاسرائيلي كجزء من صراع حركة التحرر الوطني العربيـة ضد الامبريالية العـالمية ، ويؤدي الـى تعرض المعسكر العربي لمفاجآت لم يحسب حسابها .

ويأخذ الدعـم الاميركـي للعسكرية الاسرائيلية اكثر من شكل ويتمثل بمـا تقدمه الادارة الاميركية من اسلحة وذخائر متطورة ، ومعـدات للحرب الالكترونية ، ومعلومات مستقاة من مختلف المصـادر وبشتى الوسائل بما في ذلك الاقمـار الاصطناعية وسفن التجسس . وتقـدم حادثة سفينـة التجسس الاميركيـة "ليبرتي" مثالا للدعـم العسكري الاميركي غير المباشر ، ودليلا عـلى مدى تواطـوء واشنطن مع حكام اسرائيل ، واستعـداد الادارة الاميركيـة للتضحية بمصالـح الولايات المتحـدة وسمعتها من اجل ارضاء اسرائيل والصهيونية العالميـة .

كانت « ليبرتي » واحـدة من عـدة سفن شحن اميركية بنيت في اواخـر الاربعينات . ونظرا لسرعتها القصـوى التي تبلغ ١٨ عقدة بحرية في الساعة ، فقد قامت البحرية الاميركية بتحويلهـا الى سفينة تجسس ، وزودتها بالهوائيات اللازمة وبجهاز تنصت الكتروني مـن طراز « بيغ ايز » BIG EAR

وغدا مجال قوة مراقبتها وتنصتها على الاتصالات اللاسلكية يغطي دائرة نصف قطرها ٥٠٠ ميل . وكان طاقمها يضم ١٥ ضابطا ، و٢٧٩ بحارا ، وثلاثـة مدنيـين فنيين من وزارة الدفـاع الاميركية . وكانت هذه السفينة تابعـة للاسطول الاميركي السادس . ولقـد دفعها قائد الاسطول الى شرقـي البحـر

★ المعلومات في هذا المقال مأخوذة عن مجلة PENTHOUSE تاريخ ايار ١٩٧٦ وحزيران ١٩٧٦ .

الابيض المتوسط في ايار ١٩٦٧ ،عندما توتر الوضع في الشرق الاوسط وقـــدا اندلاع القتال بين العـرب واسرائيـــل محتملا ٠

وفي صباح الخامس من حزيـــران ١٩٦٧ ، كانت « ليبرتي » تقف في الميـاه الدولية مقابل ساحل سيناء ، وتباشـر اعمالها لتنفيذ اربع مهمـات : ١) مراقبة تحركات الاسطول السوفياتـــي وانـذار الاسطول السادس الاميركي في حالـــة تدخله لصالح مصر ، ٢) التشويش على الاتصالات اللاسلكية للقوات المصريـــة العاملة في سيناء ، ٣) مراقبـــة سير العمليات الحربية واعـلام واشنطن اذا تدهور الوضع ضد مصلحة اسرائيل، ٤) مراقبة مدى التزام اسرائيل بالخطة العسكرية التي وضعتها الدولة الصهيونية بالاتفاق مع اميركا لتسديد ضربة سريعة ومحدودة للقوات المصرية (بصورة لا تؤدي الى استفزاز السوفيات ولا تمنحهم فرصـــة التدخل) بغية تدميـــر الجيش المصري في سيناء ، وهز النظام المصري بشكل يؤدي الى سقوط الرئيـــس عبـد الناصر الذي اصبح يشكل خطرا عـلـى المصالح الاميركية بسبب تحالفه مـــع السوفيات ، ومهاجمته المستمرة للانظمـة العربية التقليدية ، وتحريضه المستمـر ضد النفوذ الامبريالي في الـــدول العربية ودول العالم الثالث ، واتســاع هيبته عربيا وعالميا ، وتوسيع نشـاط عمل قواته المسلحة خارج مصر ٠ وتدعي المصادر الاميركية ان الخطة كانت تنـص على عـدم فتح جبهات اخرى غيـــر جبهة سيناء ، عـلى اعتبـار ان تسديـد الضربة المحدودة الى مصر سيؤثر عـلى جميع الدول العربية الراديكالية الاخرى (وخاصة سورية) ويجعـل بالامكـان اخضاعـها للسيطرة الاميركية ، كما ان من الضروري عـدم تسديد اية ضربـة الى القوات الاردنية حرصا على صداقة الملك حسين وعدم تعريض العلاقـــات الاردنية ـ الاميركية لنكسة خـطرة ٠

ولكن اسرائيل التي حصلت عـلـــى الضوء الاخضـــر من اميركا ، ارادت استغـلال الوضع وتسديد ضربة الـــى سورية والاردن ، تؤمن لها تطبيـــق سياستها التوسعـية ٠ ولتحقيق هـــذا الغرض كان عـليها دفع الاردن الـــى القيام بعمليات هجومية ، واقناع الزعماء العرب بأن المعركة تسير في سيناء لصالح الجيش المصري ، ودفعهم الى اطـــلاق تصريحات هجومية تستغلها اسرائيـــل عالميا لاظهور بمظهـــر المعتدي عليـــه ، الامر الذي يبرر عملياتها الهجومية على الاردن وسورية ، ويظهرها وكأنها هجمـات معاكسة للدفاع عن النفس٠

لهذا كله كانت محطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية RELAY STATION تلتقط الرسائل اللاسلكية المتبادلة بيـن الزعماء العرب وتعيد بثها بعد تحويرهـا (عملية طبخ الرسائـــل اللاسلكيـــة) حتى توحي للزعماء العرب بان العمليات العسكرية على جبهات القتال تجـــري لصالحهم ٠ ففي اليوم الاول للحـــرب (٦/٥) ارسلت القاهرة رسالة لاسلكيـــة الى عمان ودمشق تتحدث فيهـــا عـن خطورة الوضع عـلى الجبهة المصرية ، فاعترضت محطة الخداع اللاسلكـــي الاسرائيلية هذه الرسالة واعـادت بثـها

بعد ان صاغتها بكلمات اخرى تفيد بأن سلاح الجو الاسرائيلي قد دمر فوق القاهرة ، وان الطائرات التي يراها الرادار الاردني ليست سوى طائرات مصرية تغير على الاهداف الاسرائيلية، مع انها كانت في الحقيقة طائرات اسرائيلية عائدة الى قواعدها بعد ضرب المطارات المصرية . وفي يومي ٦و٧ حزيران (يونيو) قامت محطة الخداع اللاسلكي بتضليل الملك الاردني بأن زودته بمعلومات تؤكد أن الجيش المصري يقوم بهجوم معاكس في سيناء وانه بحاجة الى مساعدة من الجيش الاردني على شكل هجوم واسع ضد المواقع الاسرائيلية . الامر الذي دفع الملك الى تبني خطة هجومية تستهدف قطع اسرائيل الى جزئين منفصلين . وفي الوقت نفسه كانت محطة الخداع اللاسلكي ترسل الى المصريين برقيات تؤكد ان الاردنيين يحققون نجاحات عسكرية كبيرة في المواقع الاسرائيلية . الامر الذي جعل المصريين يؤخرون سحب قواتهم الى الضفة الشرقية للقناة السويس .

ولكن « ليبرتي » كانت تراقب المعركة عن كثب ، وتحدد الموقف الصحيح بدقة وتكشف دور محطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية في تطور الاحداث بشكل يخالف الخطة ، وترسل تقاريرها تباعا الى لجنة الامن القومي الاميركية . وازاء هذا التطور الغريب لسير العمليات العسكرية ، قام « اوجين روستوف » من الادارة الاميركية باستدعاء السفير الاسرائيلي في واشنطن « ابراهام هارمان » في مساء ٦/٧ وطلب منه ان يخبر حكومته بضرورة البقاء ضمن اطار الخطة ، وخاصة بالنسبة الى الاردن . وعندما ادعى « هارمان » ان اسرائيل تقوم بصد الهجوم المصري عليها ، واكد ذلك بما تقوله اجهزة الاعلام العربية ، افهمه « روستوف » بأن هذا ناجم عن خطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية ،دون ان يعلمه بأن « ليبرتي » هي التي كشفت ذلك . وبعد ٤ ساعات من هذه المقابلة ، صدرت الاوامر الى الطيران الاسرائيلي بوجود سفينة تجسس اميركية تعمل في المياه الدولية مقابل سيناء ، وضرورة مراقبتها . ولقد وجد الاسرائيليون ان تدمير «ليبرتي» أمر ضروري وحيوي جدا لان استمرار وجودها في مياه البحر الابيض المتوسط سوف يفسد عليهم مخططهم ، ويكشف مدى تجاوزهم لاغراض الحرب المحددة المتفق عليها سلفا . فاعطت القيادة الاسرائيلية الاوامر بتدمير السفينة بشكل يدفع الاميركيين الى اتهام المصريين او السوفيات ، ويجعل الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي اشد تماسكا .

وفي الساعة ١٤،١٠ من يوم ٦/٨/ ١٩٦٧ قامت ٣ طائرات ميراج اسرائيلية بمهاجمة السفينة « ليبرتي » . وطبقت خلال ذلك اسلوب الهجمات المتقاطعة CRISS-CROSS ATTACKS التي تدوم الواحدة منها ٥ـ٦ دقائق ، فدب الذعر في قلوب البحارة الذين فوجئوا بهذا الهجوم ، واصيبت السفينة اصابات مباشرة ، فتدمر مركز مراقبتها ،وتحطمت ميمنتها ، واصيب بعض ضباطها وبحارتها .

وعندما تعذر على قائد السفينة الكوماندر « ماك غونغل » تحديد هوية الطائرات المغيرة ، طلب من الملازم مورريس بدث ، أن ينقل على الفور تقريرا الى رئيس العمليات البحرية الاميركية يعلمه فيه ان السفينة تتعرض لهجوم من طائرات مجهولة الهوية ، ويطلب منه المساعدة الفورية . وبعد أن رأى تصميم الطائرات المغيرة على تدمير السفينة ، وخشية أن لا يصل التقرير اللاسلكي الى رئيس العمليات البحرية الاميركية بسبب الدمار الكامل الذي حل بهوائيات السفينة للاتصالات اللاسلكية ، قرر الكوماندر أن يرسل رسالة استغاثة دولية تبث على جميع الاقنية طالبا المساعدة الفورية .

وما أن توقفت الهجمة الجوية ، حتى ظهرت في الساعة ١٤،٢٤ ثلاثة زوارق طوربيد تتجه نحو الجانب الايمن للسفينة بسرعة ٢٧ـ٣٠ عقدة بحرية . واعلم هذا الخطر امر «ماك غونغل» برفع الراية الرسمية للسفينة بعد ان سقط العلم الاميركي عن ظهرها اثر الغارة الجوية ، وكان طول الراية ١٣ قدما وعرضها ٧ اقدام ، وهي اكبر راية موجودة ، لعلها توضح للمهاجمين هوية السفينة الاميركية وتدرأ بالتالي خطر الهجوم بالطوربيدات ، كما حاول ارسال اشارات ضوئية من مصباح الديس ، حيث يمكن مشاهدته عن بعد ٢٠٠٠ متر ، حتى يعلن بواسطته جنسية السفينة ، علما بان جهاز بث الاشارات الضوئية على « ليبرتي » كان قد دمر اثناء الغارة الجوية . وكانت وسائط دفاع « ليبرتي » عبارة عن مدفعي رشاش عيار (٥٠) من نوع براوننغ ، واحد في مقدمة السفينة والثاني في مؤخرتها ، فتح هذان المدفعان النار على الزوارق المندفعة باتجاه السفينة ، لكن سرعان ما امطرت الزوارق الاسرائيلية « ليبرتي » بوابل من النيران ، فقتلت سدنة المدفعين وبعض البحارة .

وفي الساعة ١٤،٣٥ اصاب السفينة طوربيد في جانبها الايمن وتحت خط عومها ببضعة امتار ، فاهتزت من شدة الانفجار الذي فتح فيها فجوة يبلغ اقصى عرض فيها حوالي ٣٩ قدما . وتسبب هذا الطوربيد بمقتل ٢٥ شخصا كانوا في غرفة الاتصالات اللاسلكية الواقعة تحت ظهر السفينة ، وكان بين القتلى « الميجر » وهو الشخص المسؤول عن تحليل الشيفره التي كانت تلتقطها السفينة ثم تبثها للقيادة الاميركية ، وعن المراقبة الرادارية ، وعن كل ما يمت بصلة الى مهمة « ليبرتي » التجسسية . كما قتل ايضا الاخصائي في الاتصالات اللاسلكية . وتوقفت « ليبرتي » اثر هذه الضربة عاجزة عن اية حركة ، وكان ذلك في الساعة ١٤،٣٦ . عندها اوقفت الزوارق الاسرائيلية الهجوم ، وبقيت في وضع المراقبة على بعد اقل من نصف ميل عن السفينة .

وبعد نصف ساعة من هذا الهجوم البحري على السفينة ، حلقت فوقها طائرتا هليوكوبتر اسرائيليتان ، وصدر عن مكبر الصوت في احداها نداء يقول ان معهما اسعافات طبية مع مسعفين والملحق العسكري من سفارة الولايات المتحدة الاميركية في تل ابيب ، لكن «ماك غونغل» رفض قبول المساعدة ، فانصرفت الطائرتان .

وبدأ فريق اصلاح الاضرار في السفينة يعمل في سباق مع الزمن ،واخذ يسد الفجوات في الهيكل ، وقام المهندسون باصلاح المحركات . وفي الساعة ١٥،١٩ نجح المهندسون في تشغيل المحركات من جديد ، ولكنهم عجزوا عن اصلاح جهاز التوجيه . واصر الكوماندر على السير بالسفينة نحو اي مرفأ صديق . فوضع بعض البحارة على الدفة خلف غرفة التوجيه، واخذ يصدر اليهم الاوامر بالهاتف ليتمكنوا من توجيه السفينة يدويا . وكان « مالكفونغل » يعمل رغم جرحه البليغ، ويراقب الاثر الذي تتركه السفينة على سطح الماء ليتاكد من خط العوم ، ويتابع التقدم مبتعدا عن القطع البحرية الاسرائيلية .

وشعرت القيادة الاسرائيلية بالقلق ، لان « ليبرتي » لم تغرق رغم اصابتها بشكل مباشر . الامر الذي قد يؤدي الى كشف هوية المهاجمين . لذا قررت اغراقها باية وسيلة ، فارسلت في الساعة ١٦،٦٥ طائرتي ميراج بهدف الانتهاء كليا من « ليبرتي » ، وما ان وصلت المقاتلتان الاسرائيليتان بالقرب من السفينة حتى انسحبتا خوفا من الصدام مع المقاتلات النفاثة الاميركية التي انطلقت من حاملتي الطائرات الاميركيتين « ساراتوغا » و « اميركا » بعد وصول نداء الاستغاثة اليهما . وكانت الحاملتان على بعد ٦٠٠ ميل شمال غربي مكان الحادث . وحوالي الساعة ١٨،٤٥ حامت طائرة هليوكوبتر اسرائيلية فوق السفينة وحاول احد الاشخاص ان ينزل الى ظهر السفينة بواسطة سلم ، ولكن « مالكفونغل » منعه من ذلك . وتكرر المنع عندما عادت الطائرة بعد ١٠ دقائق تقريبا .

وفي ٦/١٤ وصلت « ليبرتي» الى ميناء «فاليتا » في جزيرة « مالطة » تواكبها المدمرة « يو.س.س. دافيز » وقاطرة بحرية من الاسطول السادس ، وتحرسها دوريات الطائرات الاميركية المنطلقة من حاملتي الطائرات . وقطعت الرحلة بقوة محركاتها المصلحة (اصلحت السفينة بعد ذلك جزئيا وعادت الى الولايات المتحدة في اواسط تموز ١٩٦٧ . ثم شطبت من الخدمة الفعلية لتعذر اصلاحها ، وبيعت في العام ١٩٧٤ كسفينة مستهلكة) .

ولم تشرح قيادة الاركان البحرية الاميركية اسباب هذا الهجوم على «ليبرتي» ، والذي تسبب بمقتل ٣٤ اميركيا وجرح ١٦٤ من بينهم قائد السفينة .وادعى الاسرائيليون ان الهجوم كان نتيجة الخطأ في تحديد هوية السفينة. وقبلت الادارة الاميركية علنا هذا الادعاء ، رغم ان العلم الاميركي البالغ طوله ٨ اقدام وعرضه ٥ اقدام كان يرفرف فوق ظهر السفينة في وضح النهار ، كما ان اسم السفينة كان مطبوعا بشكل كبير وجلي على مؤخرتها ، بالاضافة الى ان كلمات « بحرية الولايات المتحدة الاميركية » كانت مكتوبة بحروف كبيرة ظاهرة للعيان على جانبي السفينة . وكان بوسع طائرات الاستطلاع الاسرائيلية من طراز «ميستير» التي تحمل الات تصوير متطورة، كشف هوية اية سفينة بكل سهولة وعلى ارتفاع يزيد عن ثلاثة اميال ، وهي المسافة التي كانت تفصل هذه الطائرات عن « ليبرتي» .

ولم تجد الحكومة الاميركية خيارا سوى مساعدة الاسرائيليين على لفلفة الحادث بأكمله ، وقد تمثل تواطؤ الحكومة الاميركية مع حكومة اسرائيل بالمجهود الكبير الذي قامت به لتحبط كل محاولة تهدف الى كشف خلفيات الحادث واسبابه ، ولتعرقل كل الدعاوي القانونية التي رفعها ذوو الضحايا على حكومة الكيان الصهيوني . ووجهت الادارة الاميركية باتجاه السوفيات الغضب الذي سيطر على اعضاء لجنة العلاقات الخارجية الاميركية عندما وصلهم خبر الهجوم (مجهول الهوية) على « ليبرتي » . فقال وزير الخارجية الاميركية انذاك « دين راسك » : «انهم الروس » ، بينما قال رئيس لجنة العلاقات الخارجية الاميركية انذاك « وليام فولبرايت » : انهم (اي الروس) صعدوا الحرب ويريدون تغيير مسارها » . وحتى بعد انكشاف الدور الاسرائيلي ، فقد فضلت الادارة الاميركية التعتيم على الموضوع ، حتى لا تستثير الرأي العام الاميركي ضدها ، وهي المتورطة في دعم الدولة الصهيونية الى ابعد مدى . واكتفت بالاشادة ببطولة قائد وبحارة « ليبرتي » ومنحهم الاوسمة والميداليات في احتفالات رسمية اغفل في الكلمات التي القيت خلالها ذكر هوية المعتدين . واكتفى بالحديث عن هجوم قامت به « طائرات نفاثة وزوارق طوربيد غريبة » .

وفي ١١ حزيران من العام ١٩٦٧ ،قال رئيس لجنة التحقيق الاميركية في حادثة الهجوم على « ليبرتي » الاميرال « ا. ي. كيد » ، عندما صعد على ظهر السفينة المهشمة التي كانت راسية في ميناء « فاليتا » ، ان نجاتها كانت اشبه بمعجزة وان مهمته ليست لكشف الاسباب التي ادت لهذا الخطأ في الهجوم ، بل ليسجل كيف استطاع قائد السفينة وبحارتها الافلات من براثن الموت المحتم . ويقول الموظف السابق في الاستخبارات الاميركية « باتريك ماك غارفي » الذي كان ينسق تقارير الاستخبارات لقيادة الاركان المشتركة الاميركية عند اندلاع الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثالثة، انه صدر امر للطيران الاميركي بضرب قاعدة زوارق الطوربيد الاسرائيلية في حيفا ، لكن سرعان ما الغى البيت الابيض هذا الامر .

وتكملة لخطة طمس كل ما يتعلق بقضية « ليبرتي » وطمس كل ما يمكن ان يؤدي الى كشف الدور التواطيء للادارة الاميركية ، فان الحكومة الاميركية رفضت ان تعطي تفسيرا معقولا لسبب ضياع ثلاث رسائل انذار موجهة من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تخطرها فيها بخطورة موقفها ، وتطلب منها الانسحاب الفوري والالتجاء الى الاسطول السادس الاميركي ، ولماذا لم تتدخل ادارة الرئيس الاميركي آنذاك « ليندون جونسون » وعلى اعلى المستويات مع الحكومة الاسرائيلية للحؤول دون مهاجمة السفينة ، بعد معرفة الادارة الاميركية ان الاسرائيليين بصدد القيام بعمل عسكري عدائي ضد « ليبرتي » .

وكانت رسالة الانذار الاولى تحمل طابع الاولوية القصوى . وقد بثت لاسلكيا من خلال محطة لقط وارسال تابعة للمخابرات المركزية الاميركية الموجودة في

« اسمرة » في « اثيوبيا » ، الا ان هذه الرسالة لم تصل « ليبرتي » في الساعة التاسعة من صباح يوم ٨ حزيران ١٩٦٧ ، كما كان مقررا لهما ، وضلت طريقها ، والتقطتها محطة اللقط والارسال الاميركية الموجودة فيخليج «سوبيك» في «الفيليبين» وانتهت بعد ساعات في دائرة الامن القومي الاميركي في « فورت مياد »FORT MEADE

وفي الساعة ١١٫١٧ من اليوم نفسه امر قائد الاسطول السادس الاميركي سفينة القيادة « ليتل روك »ان ترسل رسالة ثانية اتية من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تعلم قائدها بالهجوم الاسرائيلي المرتقب على سفينته ، وارسلت هذه الرسالة الى « اسمرة » لترسل منها الى « ليبرتي » ، ولكن هذه الرسالة ضلت طريقها ايضا ، والتقطتها محطة اللقط والارسال التابعة لوكالة المخابرات المركزية في « الرباط » ، وانتهت ايضا في ادراج « فورت مياد » . اما الرسالة الثالثة فقد أرسلت في الساعة ١٤٫١٠ وقبل ثوان من الهجوم الاسرائيلي عن طريق محطة الارسال الاميركية في « نابولي » ، فضلت طريقها والتقطتها محطة خليج « سوبيك في « الفيليبين » والرسالة الوحيدة التي التقطت كانت في الحقيقة رسالة الاستغاثة الدولية التي بثتها « ليبرتي » على جميع الاذنية ،والتي وصلت بعد فوات الاوان الى الاسطول السادس الاميركي .

وبفضل هذه الرسالة تم انقاذ «ليبرتي» من هلاك محتم ، كما تم كشف المعتدين ، ولم يعد بالامكان القاء تبعة الحادث على عاتق القاهرة أو موسكو . وكان من الممكن ان يؤدي هذا الكشف الى اتخاذ تدابير اميركية شديدة ضد دولة الكيان الصهيوني ، ولكن التواطؤ الاميركي – الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ كان في نظر الادارة الاميركية ، اهم من ارواح الاميركيين واغلى من ممتلكات الحكومة الاميركية وسمعتها .

يوسف خضر

الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق

شريف ماهر

ان ما يميز معظم الدراسات والابحاث التي تطرقت لتاريخ الحزب الشيوعي في فلسطين انها قد صدرت اما عن اعداء طبقيين للحزب او عن عناصر تنكرت لماضيه الثوري وارتدت عليه ، فكان هدفها بالتالي تشويه نضالات ومواقف الحزب وتلطيخ سمعة مئات من الشيوعيين العرب واليهود الذين قدموا حياتهم في النضالات الطبقية والمادية للامبريالية والصهيونية ، في سبيل التحرر القومي والاجتماعي .

ومع ان عددا كبيرا من هذه الدراسات قد كتب من وجهة نظر صهيونية معلنة ، الا ان بعض الباحثين العرب الذين تطرقوا لهذا الموضوع ، قد تأثروا بوجهات نظر كاتبيها وتبنوا عددا من اطروحاتهم ، مدفوعين في ذلك بدوافع طبقية معادية للحزب ، او لاتباع السهولة في البحث وعدم التدقيق الجدي بالمصادر التي تم الاعتماد عليها (١) .

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق في العام ١٩٢٩ ، مناسبة فضلى لتشويه مواقف الحزب ، خاصة وان حوادث هذه الهبة قد جرت في ظروف خاصة معقدة ، تداخل فيها العامل الديني بالعوامل القومية والاجتماعية ، في وقت كان الحزب فيه يعاني من ازمة داخلية حادة نتيجة الصراع الدائر بين التيار الثوري من جهة والتيار اليميني الانتهازي من جهة اخرى ، وكانت قيادته آنذاك لا تزال مقتصرة على العناصر اليهودية (٢) .

يستعرض « جوزيف برغر » (٣) في مقاله « اللطيمة مع الشيوعيين » (٤) موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام ١٩٢٩ فيذكر : « لقد احدثت اصطدامات يوم الجمعة في ٢٣ اب بلبلة شديدة في صفوف الحزب ، فالحوادث بدأت تتحول الى مذابح عنصرية ضد اليهود ... حينئذ قررت قيادة الحزب ان يلتحق اعضاء الحزب واعضاء الكتلة العمالية بصفوف منظمة الدفاع الذاتي تحت قيادة الهاجانا ، وذلك للمساهمة

بالدفاع عن الاحياء اليهودية » ، ويستطرد « ج ٠ برغر » بان هذا القرار « الذي فرضته الاحداث كان طبيعيا جدا ، حيث حاز على اجماع اعضاء سكرتارية اللجنة المركزيـــة للحزب ، وعلى موافقة مبعوث الاممية الشيوعية الذي كان يزور فلسطين آنذاك » ٠(٥)

ان هدف هذا البحث هو دحض وتعرية هذه الاكاذيب التي يختلقها « جوزيف برغر » حول موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام ١٩٢٩ ، واظهار حقيقة موقف الحزب من هذه الحوادث ، هذا الموقف الذي عبر عنه الدكتور « اميل توما » بقوله : « ان حوادث اب لم تكن مجرد اصطدامات بين عرب ويهود ، بل كانت جوهريـــا هبـــة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية (٠٠٠) وهذا ما جعل الشيوعيين اليهود والعرب يقومون الحوادث بغض النظر عن سلبية بعض مظاهرها والاسي التي سببتها ، انتفاضة ثورية معادية للامبريالية والصهيونية في جوهرها ٠٠ وهذا التقويم انزل عليهم غضب القيادةالصهيونية وحقدها فاتهمتهم « بالعمالة » للاممية الثالثة وموسكو » ٠ (٦)

ان دحض افتراءات واكاذيب « ج ٠ برغر » ، حول موقف مبعوث الاممية الشيوعية من حوادث اب الدامية في فلسطين ، يمكن ان يتم بسهولة من خلال مراجعة المقال الذي كتبه هذا المبعوث بعد عودته الى موسكو مباشرة ، والذي يعبر فيه عن حقيقة موقف قيادة الاممية من حوادث فلسطين آنذاك ٠ تحت عنوان « لننتبه اكثر الى حوادث فلسطيـــن والبلدان العربية » (٧) كتب « شميرال » : « لقد كانت الايام الدامية في القدس بمثابـــة الانفجار الاول للطاقات الثورية الكبرى المعادية للامبريالية والمتراكمة في نفوس جماهير الفلاحين والبدو ٠٠ ولم تكن هذه الحوادث الدامية الا بمثابة نقطة الانطلاق لحركة كبرى في (هذه) الاراضي ذات الاهمية الكبرى (ويقصد فلسطين والبلاد العربية م ٠ ش)٠ لهذا يجب على الطبقة العاملة العالمية ومنظماتها (احزابها ، صحفها ، النجدة الحمراء العالمية، وبشكل خاص الحزب الشيوعي الانكليزي) ان تتابع هذه الحوادث وان تدعم التطور اللاحق لهذه الحركة ٠٠

ان من واجب حركة القوى المتحدة للفلاحين والبدو العرب ان تتطور في اتجـــاه نضالي ثوري حقيقي ، ضد الامبريالية ومن اجل الثورة الزراعية ٠ ويجب السعي لعدم تكرار المحاولة التي جربها المرجعيون الانكليز والصهاينة والعرب في الايام الاولى مـــن الحوادث التي جرت في القدس ،بحرف الهيجان الثوري عن هدفه ، بالقتال معارك دينية حمقاء ٠٠ وليس للعمال اليهود (جاءت بالنص العرب ، وهذا يعود لخطأ مطبعي حسـب اعتقادنا ٠ م ٠ ش) اي مصلحة بان تتعارض مصالحهم مع مصالح الغالبية من الجماهير الفلاحية العربية ، فلقد خدعوا هم ايضا بنفاق الامبريالية الانكليزية ، واستغلوا وعوملوا مثلهم معاملة قاسية ٠٠٠ وسيتحول نضالهم (اي الفلاحين العرب م ٠ ش) الى ثورة معادية للامبريالية ٠٠٠ وامام هذا التوجه للاحداث وبسبب الاهمية الخاصة للاراضي العربية ، يجب ان يتزايد الانتباه الاممي لتطور هذه الاحداث ، ويجب ان يتضاعف دعـــم النضال التحرري الكبير للبلدان العربية ، وذلك بكافة وسائل التضامن الاممي (وليس بالتضامن السياسي وحده) »

* *

لقد اعتمدنا في انجاز هذا البحث على مادة وثائقية حية وموثوق بها تاريخيا . هي مجموعة المقالات التي ظهرت على صفحات مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » . (٨) وتعرضت لاوضاع الحزب الشيوعي ولظروف النضال القومي والاجتماعي في فلسطين . خلال الفترة التاريخية التي نحن بصدد دراستها . ويمكننا اعتبار هذه المقالات بمثابة تقارير دورية تعكس مواقف قيادة الحزب من تطور الاحداث المحلية والعالمية . (٩)

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين فرعا وطنيا من فروع الاممية الشيوعية . يناضل في سبيل تطبيق استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية على الظروف الخاصة السائدة في فلسطين . ولهذا فان تحليل اي موقف من مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني تحليلا موضوعيا ، لا يمكن ان يتم بمعزل عن توجهات الاممية الشيوعية وعن الظروف التي كانت تسود في فلسطين خلال الفترة التاريخية التي نحن بصددها .

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق محكوما بثلاثة عوامل رئيسية ، لا بد من التطرق اليها قبل استعراض موقف الحزب بحد ذاته من الاحداث الدامية في العام ١٩٢٩ ، وهذه العوامل هي :

١ – المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية .

٢ – خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث .

٣ – الاوضاع الذاتية للحزب خلال تلك الفترة .

★ ★

١ – المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية . (١٠)

انعقد المؤتمر العالمي السادس في موسكو خلال الفترة الواقعة بين ١٧ تموز و ١ ايلول العام ١٩٢٨ . (١١) وقد انعقد هذا المؤتمر في ظروف خاصة تميزت بتعزيز عملية البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، بعد ان تقرر زيادة وتيرة التصنيع الثقيل وتجميع الاراضي في الريف . وفي الوقت الذي كانت فيه تناقضات الراسمالية تتفاقم نتيجة قانون التطور المتفاوت في عصر الامبريالية وتتزايد اخطار الحروب الامبريالية والتهديدات ضد الدولة الاشتراكية ، كانت الحركة العمالية الثورية تواصل نضالها في سبيل تعزيز مواقعها ، وتخوض صراعا حاميا ضد السياسة الاصلاحية للقيادات الاشتراكية – الديمقراطية العمالية ، التي كانت تقف في وجه كل تحرك عمالي جماهيري وتجهض كل المحاولات الرامية الى وضع حد لانقسام الحركة العمالية العالمية . ولقد كانت انتفاضة « كانتون » في كانون اول العام ١٩٢٧ ، التي قامت بها البروليتاريا لاقامة النظام السوفياتي في الصين ، الاشارة لبدء مرحلة نهوض ثوري جديد في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة .

في مثل هذه الظروف ، توصل بعض الشيوعيين الى الاستنتاج بان مرحلة الاستقرار الجزئي للراسمالية قد شارفت على نهايتها ، وان انفجار ازمة النظام الراسمالي قد باتت وشيكة ، وان الظروف قد نضجت بالتالي لتقدم العملية الثورية العالمية • وقد اعتقد هؤلاء الثوريين بانه يجب تصعيد النضال ليس فقط ضد الاحزاب البورجوازية وانما ايضا ضد الاشتراكية الديمقراطية في البلدان الراسمالية وضد البورجوازية الوطنية في المستعمرات وشبه المستعمرات • وهكذا بدا يتبلور داخل الاممية الشيوعية تكتيك جديد ، اطلق عليه رسميا فيما بعد اسم تكتيك « طبقة ضد طبقة » وقد انعكس هذا الاتجاه في بعض التعديلات التي اجريت على سياسة الاممية وتوجهاتها ، خلال المؤتمر العالمي السادس ، حيث تقلص شعار الجبهة العمالية المتحدة ليصبح « وسيلة لفضح وعزل القيادات الاصلاحية » في الفترات التي يتعثر فيها المد الثوري ، وطالب المؤتمر الاحزاب الشيوعية بالنضال في سبيل اقامة الجبهة المتحدة من القاعدة ، وفي سبيل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا العالمية •

اعلن المؤتمر أن الاتجاه العام لسياسة البورجوازية العالمية بعد انتهاء مرحلة الاستقرار الجزئي للراسمالية هو التحضير لحرب امبريالية ضد الاتحاد السوفياتي ، وطالب الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد خطر الحرب ومن اجل حماية الاتحاد السوفياتي ، وضد تدخل الامبريالية في الصين ، والدفاع عن الثورة الصينية وعن الانتفاضات المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات •

اشار المؤتمر الى ضرورة النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية في صفوف الاممية الشيوعية وحدد طبيعة هذه الانحرافات بانها اساسا (انحرافات يمينية مرتبطة بمرحلة الاستقرار الجزئي للراسمالية وبتعاظم تاثير الاشتراكية الديمقراطية » ، وقد نوه المؤتمر الى الخطورة الكبرى لمثل هذه الانحرافات داخل الحركة الشيوعية العالمية والضرورة محاربتها بشدة •

اعار المؤتمر السادس انتباها خاصا لنضال الحركة المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات • وقد كان لتصاعد نضال البروليتاريا الثورية الصينية، وارتماء الفئات العليا من الكومينتانغ في احضان الامبريالية ، اثر كبير على القرارات التي صاغها المؤتمر فيما يتعلق بنضال الحركة الثورية التحررية في المستعمرات ودور البورجوازية الوطنية داخل هذه الحركة • ومع ان الاممية الشيوعية كانت قد انتقدت الاتجاهات الانقلابية والانعزاليةداخل الحزب الشيوعي الصيني ومع ان مقررات المؤتمر السادس قد فصلت بين معسكر القومية الاصلاحية البورجوازية وبين المعسكر الاقطاعي ـ الامبريالي ، الا ان تقييم المؤتمر العام لدور البورجوازية الوطنية قد طبع بطابع انعزالي ، حيث نصت احدى مقرراته مثلا على ان « البورجوازية الوطنية لا تمثل قوة مناهضة للامبريالية » وانه يجب « رفض كل تحالف بين الحزب الشيوعي وبين المعارضة القومية الاصلاحية » ، الا اذا كانت تحالفات مؤقتة لا تعيق التنظيم الثوري المستقل للعمال والفلاحين • (١٢)

اشار المؤتمر الى الدور المتزايد للطبقة العاملة داخل الحركة التحررية في المستعمرات واشباه المستعمرات وذلك على الرغم من الصعوبات الموضوعية العديدة التي تعترض

نضالها (ارتباطها بالريف ، عدم ثبات قواها ، الامية ، تأثير الافكار الدينية ...) ، واعلنت مقررات المؤتمر بان الطبقة العاملة في المستعمرات قد دخلت بعد المؤتمر الخامس للامية في مرحلة نضالية جديدة ، تتميز اساسا بظهورها على ساحة الصراع السياسي كقوة طبقية مستقلة تناضل في سبيل مصالحها الخاصة وتعارض البورجوازية الوطنية في النضال من اجل فرض هيمنتها على قيادة الثورة الوطنية . وطالبت مقررات المؤتمر الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بالعمل على تصعيد النضال في سبيل الثورة الزراعية ، وضد التاثيرات الرجعية لرجال الدين داخل صفوف الفلاحين ، وجاء في بعض التوصيات أن نوع الثورة الذي ينطبق على حالة الشرق يتطلب من الحزب الشيوعي ، وكمهمة رئيسية ، العمل على تاليف منظمات مستقلة للعمال والفلاحين والخروج عن تاثير البورجوازية الوطنية .

اقر المؤتمر العالمي السادس في نهاية اعماله « برنامج الامية الشيوعية » الذي حدد استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية خلال الفترة التاريخية التي ستعقب مؤتمرها .

وقد كان للمؤتمر العالمي السادس ولقراراته ولبرنامج الامية الصادر عنه ، انعكاس مباشر على سياسة الاحزاب الشيوعية في الشرق العربي ، ومنها الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وهذا ما سنلمسه لاحقا من خلال موقف الحزب من هبة البراق .

٢ ـ خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث . (١٣)

يقول الدكتور « اميل توما » : « لقد القت على التربة الفلسطينية ثلاث قوى تفاعلت فيما بينها ، كل بقدر طاقاتها ، وخلقت بصراعاتها القضية الفلسطينية :

ـ الامبريالية البريطانية .

ـ الحركة الصهيونية .

ـ الحركة القومية العربية » .

ان التعرف على خصوصيات الاوضاع السائدة في فلسطين قبل اندلاع الحوادث يتطلب ضرورة التعرف على الملامح الرئيسية لكل قوة من هذه القوى الثلاث التي كانت تتفاعل وتتصارع على الارض الفلسطينية .

وابدا بالامبريالية البريطانية : لقد كان القضاء على الانتفاضة السورية في العام ١٩٢٧ ، الذي تزامن مع هزيمة الثورة الصينية حافزا دفع الامبرياليتين الفرنسية والانكليزية لتشديد سياستيهما العدوانيتين في الشرق الاوسط . وقد تابعت الحكومة العمالية الانكليزية التي استلمت السلطة في بداية العام ١٩٢٩ برئاسة « رمزي ماكدونالد » نفس السياسة الامبريالية العدوانية التي كانت تنتهجها حكومة المحافظين في البلدان

المستعمرة او التابعة لنظام الانتداب • وفي فلسطين ، كانت سياسة حكومة حزب العمال اكثر ضراوة من سياسة المحافظين • فبعد ان انتقد نواب حزب العمال ، خلال مناقشات البرلمان حول قضية المستعمرات ، ادارة فلسطين لانها لم تتحرك بصورة جذرية ضد السكان العرب المحليين ، ولم تستخدم بشكل كاف كل السلطات التي يمنحها لها نظام الانتداب ، قررت الحكومة البريطانية تشديد سياستها الامبريالية وزيادة وزن الموظفين الانكليز في اجهزة ادارة فلسطين • وفي سبيل تدعيم مواقعها على الضفة الاخرى من قناة السويس ـ فلسطين ـ خاصة بعد توقيع معاهدة مندرسون مع الحكومة المصرية ، وبسبب حاجتها الى مبرر معقول لزيادة تواجدها العسكري في فلسطين ، لتبرير النفقات الهائلة التي سيكلفها ذلك امام الجماهير العمالية في انكلترا ، سعت الحكومة العمالية كل جهدها لتاجيج التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود في فلسطين • « فحماية اليهود » من المذابح يمكن ان يكون المبرر المعقول لتقوية التواجد العسكري في فلسطين في الوقت الذي بدات فيه الامبريالية البريطانية تحس بعدم ثبات مواقعها في مصر •

من جهة اخرى ، كان تململ البورجوازية الصهيونية والحاحها على بريطانيا لتنفيذ التزاماتها (وعد بلفور) ، وبدء تقاربها مع الرأسمالية الاميركية ، الحافز الذي دفع الحكومة العمالية لتسهيل عملية اقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين •

ـ الحركة الصهيونية : في منتصف العام ١٩٢٨ توقفت حركة الانحدار في الهجرة اليهودية الى فلسطين ، التي كانت قد رافقت فترة « الهدوء » التي امتدت بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ ، والتي تميزت بهبوط حدة الخوف العربي من « الوطن القومي اليهودي » نتيجة الازمة التي انتابته • وقد تزامن تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين (١٥٠ الف في منتصف العام ١٩٢٨) ، مع تضاعف مساحة الملكيات اليهودية في الاراضي حيث وصلت هذه المساحة الى حوالي المليون دونم في العام ١٩٢٨ •

من جهة اخرى ، تابعت القيادة الصهيونية ممارسة سياستها الشوفينية والعدوانية الرامية الى « احتلال العمل » ، و « احتلال الارض » • وهكذا اسهمت الصهيونية في تفاقم ازمة البطالة بين العمال العرب وفي زيادة عدد الفلاحين العرب المعدمين الذين وصل عددهم خلال هذه الفترة الى ٢٩٫٤ ٪ من الفلاحين ـ حسب بيان الحكومة البريطانية في العام ١٩٣٠ ـ • ولتنفيذ ماربها تابعت القيادة الصهيونية سعيها لمنع اي تقارب بين الجماهير الكادحة من العرب واليهود ، وحاربت كل الجهود التي كان يبذلها الشيوعيون في سبيل التآخي الاممي بين العمال العرب واليهود •

وكان ابرز حدث في حياة الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة قيام الوكالة اليهودية في العام ١٩٢٩ • وكان القصد من قيامها استنفار يهود العالم لمد يد العون لاقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين • وقد استفز قيام هذه الوكالة مشاعر معارضة واسعة من الشعب العربي الفلسطيني •

لقد كانت بعض الدوائر الصهيونية تفكر بأن لشوب نزاع ذي طابع ديني بين اليهود

والمسلمين قد يثير اهتمام قطاعات واسعة من اليهود ، خاصة في خارج فلسطين ، ويحفزهم على زيادة دعمهم المادي وعلى الهجرة . وهكذا بدأت هذه الدوائر تفكر جديا باستفزاز مشاعر المسلمين الدينية .

الحركة القومية العربية : خلال هذه الفترة كانت القيادات الاقطاعية ـ الدينية لا تزال تحتل المواقع الرئيسية في قيادة الحركة القومية العربية ، ولم تكن البورجوازية الصناعية العربية ، قد وصلت الى مركز الحسم في القيادة القومية . ولقد استغلت الامبريالية البريطانية هذا الواقع ـ الذي ساهمت بصنعه حيث لعبت دورا هاما في توطيد مواقع مالكي الاراضي الكبار في قيادة الحركة القومية ـ لتنفيذ سياستها « فرق تسد » ، وذلك بتشديد التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود وحرف النضال القومي المعادي للامبريالية عن طريقه الصحيح .

لقد كان ابرز حدث في حياة الحركة القومية العربية خلال هذه الفترة هو انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع في شهر حزيران العام ١٩٢٨ . وقد كان هذا المؤتمر الذي دل على رغبة بعض القيادات الفلسطينية بالوصول الى اتفاق مع الامبريالية على حساب الجماهير الشعبية ، من اضعف المؤتمرات العربية على الاطلاق ، حيث ساهم فيه مزيج عجيب من المندوبين يمثلون تناقضات في الرأي لا سابق لها ، شاملا ذلك من وصفهم عزت دروزة « بالجواسيس وسماسرة بيع الاراضي لليهود » وقد كاد المؤتمر يسفر عن المطالبة بحكومة وطنية في ظل الانتداب القائم . ولقد حولت الانقسامات والخصومات الشخصية بين القيادات اللجنة التنفيذية الجديدة المنتخبة عن المؤتمر الى هيئة عاجزة كل العجز .

لقد بدأت تحصل في صفوف الحركة القومية العربية خلال الفترة التي سبقت حوادث اب مباشرة ، عدة تمايزات اجتماعية ، كان ابرز مظاهرها بدء تحرك الطبقة العاملة العربية كقوة سياسية ، وذلك على الرغم من قلة عددها وضعف تنظيمها ، وقد ساهم ممثلون عن العمال العرب ولاول مرة في المؤتمر العربي السابع . وعرفت تلك الفترة عدة اضرابات عمالية عربية ، كان من اهمها اضراب عمال الخابز في القدس ، واضراب عمال شركة « مبروك » للسجائر في حيفا ، وعدة اضرابات صغيرة نظمها عمال البناء العرب .

من جهة اخرى ، كان لتصاعد حركة الاستيلاء الصهيوني على الاراضي العربية وتشريد الاف الفلاحين العرب اثر مباشر في تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف وبروز مسالة الارض كمسالة ملحة يعاني منها اكثر من ٨٠ ٪ من السكان الزراعيين العرب . وقد شهد الريف الفلسطيني خلال هذه الفترة عدة اصطدامات بين الفلاحين العرب والمستوطنين الصهيونيين وبين الفلاحين وكبار الاقطاعيين العرب كان ابرزها الاصطدامات التي وقعت في « وادي الحوارث » وفي « عين كارم » .

٣ ـ الاوضاع الذاتية للحزب الشيوعي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث . (١٤)

انعقد الكونغرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين يومي ١ و ٢ كانون الاول

العام ١٩٢٨ ، في ظروف سرية صعبة ، وقد ساهم فيه (٢٤) مندوبا قدموا من مختلف المناطق ٠

لاحظ الكونغرس في بداية اعماله ان السلطات الامبريالية لم تتمكن من تحقيق هدفها بالقضاء على الحركة الشيوعية في فلسطين ، وان الحزب قد تابع نشاطاته « وذلك على الرغم من تفاقم سياسة الارهاب الامبريالي ليس فقط ضد اعضاء الحزب ولكن ايضا ضد اعضاء الكتلة العمالية والنجدة الحمراء (ملاحقات متواصلة ، اعتقالات ، احكام جائرة ، تهجيرات ٠٠ الخ) » ٠

ركز الكونغرس اهتمامه على قضية « خلق نواة ثورية صلبة من العمال اليهود والعرب ، واتباع أساليب تنظيمية كفيلة بترسيخ الحزب خلال النضالات الاتية » ٠ وقد ادان الكونغرس بشدة « المشاعر الانهزامية التي بدأت تظهر داخل الحزب بتأثير محيطه البورجوازي الصغير » ، وعبر المندوبون عن ثقتهم باللجنة المركزية ٠

اعلن الكونغرس ان اهم توقعات الحزب السياسية قد تأكدت خاصة فيما يتعلق « بتزايد الفقر الذي تعاني منه جماهير العمال والفلاحين واحتدام المواقف العدوانية للبورجوازية الصهيونية وتعاظم نفوذ الرجعية في البلاد ، وتنامي الفاشستية » ، وقد ادان الكونغرس السياسة « الطوباوية والخائنة » للقيادات العمالية الصهيونية ، هذه السياسة التي تركت الطبقة العاملة « عزلاء من السلاح في مواجهة المد الرجعي ، خاصة وانها لا تملك منظمة نقابية اممية قادرة على مقاومة سياسة الادارة الامبريالية والبورجوازية بصورة فعالة » ٠ وفي هذا الاتجاه هاجم الكونغرس منظمة الهستدروت « التي يسعى قادتها دوما للسلم الطبقي (بعد) ان خانوا المصالح العمالية على مذبح هيكل الصهيونية » ٠ وقد انتقد الكونغرس « المغامرة الجديدة » التي ينوي قادة الهستدروت تنفيذها والمتمثلة « بالعمل على تنظيم هجرة يهودية جديدة الى فلسطين في الوقت الذي تعاني فيه اكثر من (٦٠٠) عائلة في تل ابيب (وحدها) من اثار البطالة » ٠

اشار الكونغرس الى تنامي الاتجاه نحو التنظيم بين العمال العرب واكد على ان قضية تنظيم العمال العرب قد بدأت تحتل اهمية كبرى خاصة بعد ان اصبحت البورجوازية العربية والوجهاء « على استعداد لابرام اتفاقية طوعية مع الحكومة البريطانية تكون على حساب مصالح الفلاحين والعمال » ، وذلك بعد ان اعلنت القيادة العربية عن رغبتها « بالاعتراف بالانتداب والتعاون معه » ٠

استعرض الكونغرس في مقرراته السياسية التحضيرات التي تقوم بها الامبريالية الانكليزية لشن حرب عدوانية على الاتحاد السوفياتي « هذه التحضيرات التي تتمثل اساسا في فلسطين « ببناء ميناء حيفا » ٠ وقد هاجم الكونغرس الحركة الصهيونية « بما فيها الجناح اليساري « بوعالي تسيون » واتهمها بانها اداة الامبريالية البريطانية في عملية تحضيرها للحرب ضد الاتحاد السوفياتي ٠

استمع الكونغرس الى تقرير عن اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، حيث تضامن مع مقرراته وتوصياته كما حيا بصورة خاصة القرار « برنامج الاممية الشيوعية » ، واعلن بأن هذا البرنامج سيكون « هدف دراسة معمقة في كافة خلايا

الحزب » .

انتخب الكومنترن في نهاية اعماله مجلسا حزبيا ، ليساهم في اعمال اللجنة المركزية ، كما قرر التوجه بنداء الى الطبقة العاملة يدعوها فيه « الى المجيء لتقوية صفوف الحزب » .

لقد ذكرنا سابقا ان النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية اليمينية داخل الحركة الشيوعية العالمية كان محورا من محاور اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية.

وفي اعقاب المؤتمر طالبت اللجنة التنفيذية للاممية جميع الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد « خطر الانتهازية ، وتطهير صفوفها من اليمينيين وتجاوز المواقف المساومة تجاه الوسطيين » (١٥) .

ويبدو ان المناقشات الحامية التي دارت داخل منظمات الحزب الشيوعي الفلسطيني حول مقررات المؤتمر العالمي السادس وخاصة فيما يتعلق بشعارات « الثورة الزراعية ، و «اقامة حكومة العمال والفلاحين » في الشرق ، قد ترافقت مع بروز اتجاه انتهازي يميني داخل صفوف الحزب عارض تبني شعار « حكومة العمال والفلاحين » في فلسطين ، وبدأ ينشر افكار انهزامية تطالب الحزب بالتراجع امام المد الرجعي في البلاد ، وتشكك بالامكانية الثورية للجماهير ، وخاصة لجماهير الفلاحين ، وذلك بالرغم من ان اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية كانت قد اوصت قيادة الحزب رسميا « بتبني شعار اقامة حكومة العمال والفلاحين في فلسطين » في الرسالة التي بعثتها الى اللجنة المركزية للحزب في كانون اول العام ١٩٢٨ .

في اوائل العام ١٩٢٩ ، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين جلسة موسعة ناقشت خلالها قضية الانحراف اليميني داخل الحزب وكيفية النضال ضده . وقد اقرت هذه الجلسة الموسعة قرارا صريحا يدين الانحراف ويطالب بتصفيته ، وقد جاء في هذا القرار انه يكمن خلف الانحراف « التقليل من قوة البروليتاريا في البلدان العربية عموما وفي فلسطين خصوصا ، بالاضافة الى اتجاهات انهزامية حول دور الحزب الشيوعي » .

كتب « بوبر » من يافا مقالا ظهر على صفحات مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » يستعرض فيه ملابسات « النضال ضد الانحراف » اليميني في الحزب الشيوعي في فلسطين» جاء فيه : « ان الرفاق الذين يطالبون قيادة الحزب باستبدال شعار « اقامة حكومة العمال والفلاحين » بشعار « اقامة الجمهورية الديمقراطية »وذلك بهدف كسب الفئات البورجوازية الصغيرة (التي يبالغون بتاثيرها) ، لا يعون حقيقة انه يكمن خلف شعار « الجمهورية الديمقراطية » ، خطر ولادة اوهام ديمقراطية ضارة بين صفوف الجماهير ، خاصة في الوقت الذي يحاول فيه القادة البورجوازيون للحركة القومية الوصول الى اتفاق مع الامبريالية البريطانية ... ان الخصوم الانتهازيين لشعار حكومة العمال والفلاحين لا يقدرون انه في ظل اشتداد حركة النضال الطبقي في فلسطين وفي البلدان المجاورة ،

لا يمكن لشعارات الحزب الشيوعي ان تتضمن فقط جملا عامة حول تحرر البلاد واستقلالها الوطني ، بل يجب تحديد محتوى النضال التحرري بشكل دقيق . فالحركة الشعبية الواسعة لا يمكن لها ان تثبت وتتطور الا اذا كان لدى جماهير العمال آفاق التحرر الاجتماعي ولدى الفلاحين آفاق الثورة الزراعية ، اي تقسيم اراضي الملاك الكبار فيما بينهم والفقراء الدبون المستحقة للمرابين..ان العناصر اليمينية التي لا تلمح تطور نضالات البروليتاريا البطيء ولكن المتلاحق ، والتي تقلل من نسبة توسع الحزب (خاصة بين العمال العرب) والتي تشكك بنجاحاته ، ان هذه العناصر ، لا تلمح سوى الهجوم المتعاظم للقوى الرجعية وترى بان على الحزب ان يتراجع خلال هذه الفترة ... » . وبعد ان يربط كاتب المقال الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين بالمعارضة اليمينية داخل الاحزاب الشيوعية الاوروبية « التي تفسر مقررات المؤتمر العالمي السادس للاممية على طريقة تراندلير »(١٦)يؤكد بان الحزب الشيوعي في فلسطين،الذي احتفل مؤخرا بالذكرى العاشرة لتاسيس اول مجموعة شيوعية في فلسطين ، قد مر منذ تاسيسه بعملية بلورة ايديولوجية، وقد استطاع ان يهزم كافة بقايا الديماغوجية الصهيونية والاشتراكية الصهيونية، واستطاع تصفية اتجاه المقاطعة والاتجاهات الانقلابية ووضع حدا لنظرية الهجرة ، وهكذا فتح الطريق نحو كسب الجماهير من خلال تجميع افضل عناصر البروليتاريا في فلسطين خلف علمه ... ان الحزب الشيوعي في فلسطين هو اليوم بالافعال وليس بالاقوال فقط ، الحزب الاممي الوحيد ذو التكتيك الثوري » .

لقد كانت القضية الزراعية احدى القضايا الرئيسية التي شغلت اهتمام الحزب الشيوعي في فلسطين خلال هذه الفترة . وكان توجه الحزب هذا ، يتوافق تماما مع مقررات وتوصيات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية الذي طالب الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بتصعيد نضالاتها في سبيل « الثورة الزراعية » وفي سبيل « اقامة حكومة العمال والفلاحين » .

لقد كان الحزب يرى بان النضال في سبيل الارض قد غدا « القضية الاهم ، القضية المركزية في الحياة السياسية والاقتصادية في فلسطين » ، وحمل الامبريالية البريطانية التي وعدت « بوطن قومي لليهود » في فلسطين ، والحركة الصهيونية « التي يتناقض سعيها لاقامة هذا الوطن تناقضا اساسيا ودائما مع مصالح الجماهير العربية، خاصة مع مصالح الفلاحين » ، مسؤولية النتائج التي تنتج عن تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف خاصة بعد تشريد آلاف الفلاحين العرب من اراضيهم . كما فضح الحزب الدور الذي يلعبه كبار الملاك المقاربين العرب « تجار الارض » ومسؤوليتهم في تشريد الفلاحين العرب ، بعد بيع الاراضي التي يعملون فوقها الى الجمعيات الصهيونية ، والاساليب التي يتبعونها في عملية بيع الاراضي والتي تتمثل « بالعقود البيرقراطية .. والتحايل على القانون خاصة فيما يتعلق بشروط تسجيل ملكية الاراضي .. والرشوات التي تقدم للسلطات الحكومية .. » ، وهاجم الحزب فكرة الكيبوتز « الذي يقام على انقاض المزارع العربية الصغيرة ، بعد صدامات دموية بين العمال اليهود المعدمين والمدفوعين من الاحزاب الاشتراكية الصهيونية وبين الفلاحين العرب الصغار ، وذلك ليستثمر عدد من الرأسماليين (اليهود) مئات العمال اليهود الذين استولوا على اراضي الفلاحين العرب » .

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين يساهم خلال هذه الفترة في كافة التحركات

التي تنظم للتصدي لحملات نزع ملكية اراضي الفلاحين العرب وتشريدهم . ففي ٨ حزيران العام ١٩٢٩ ساهم الحزب بنشاط في التظاهرات التي نظمتها بعض المجموعات القومية العربية في مدينة يافا ضد الحملات الصهيونية لنزع ملكية اراضي الفلاحين العرب ، وحاول توجيهها في اتجاه معاداة الامبريالية ، خلف شعارات « الارض لمن يزرعها » ، « تآخي العمال العرب واليهود في النضال ضد عصابات الكيبوتز الموتورة وضد نفاق الاشتراكيين ـ الامبرياليين » ، « تصعيد النضال ضد الامبريالية والصهيونية والوجهاء العرب في سبيل مصادرة اراضي كبار الملاك وتوزيعها بين الفلاحين » ..

لقد كان الحزب يؤمن بان الحل الجذري لمسالة الارض في فلسطين لن يتحقق الا بعد طرد المستثمرين الامبرياليين ، وتسلم العمال والفلاحين لزمام الامور في البلاد ، وتوزيع اراضي الملاك الكبار بين الفلاحين بعد مصادرتها » .

تركز نشاط الحزب الشيوعي في فلسطين خلال الفترة التي سبقت اندلاع حوادث اب مباشرة (شهر تموز اساسا) على تحضير « اليوم الاحمر ضد الحرب الامبريالية » ، او كما اسمته صحف الاشتراكية ـ الديمقراطية « يوم الاممية الشيوعية » . وكانت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد اتخذت في جلستها الموسعة العاشرة قرارا بهذا الخصوص جاء فيه : « تنفيذا لقررات المؤتمر العالمي السادس حول تنظيم يوم عالمي للنضال ضد الحرب الامبريالية ، تصادق الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية على التوصية التي اقرها اجتماع ممثلي (١٣) حزبا شيوعيا في بروكسل بتحديد يوم الاول من اب ، يوما عالميا للنضال ضد الحرب الامبريالية . ان الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية تطالب كافة فروع الاممية بجعل الاول من اب مناسبة لتنظيم اضرابات ومهرجانات سياسية جماهيرية ، وتظاهرات شوارع وذلك على الرغم من الوسائل القمعية للبوليس .. »(١٧)

وبالفعل قام الحزب الشيوعي في فلسطين بتوزيع نشرات جديدة ، ووجه مئات النداءات باللغة العربية والعبرية تدعو الطبقة العاملة في فلسطين للاحتفال بالاول من اب « يوم نضال البروليتاريا العالمية ضد خطر الحرب » . وقد حدد الحزب اهداف هذا اليوم بالنضال « ضد خطر الحرب ، في سبيل اقامة جمهوريات عمالية وفلاحية في البلدان العربية ، من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، وضد الصهيونية والاصلاحية » .

وبهدف منع هذه التظاهرة الشيوعية ، استنفرت السلطات الامبريالية قواتها وجمعت وحداتها العسكرية في اهم المدن الفلسطينية ونظمت حملات التفتيش والاعتقالات ، واصدر قائد الشرطة في (٣١) تموز قرارا بمنع كافة التظاهرات » . وبالرغم من كافة الوسائل القمعية« نظم الحزب عدة تظاهرات جماهيرية اجتازت شوارع المدن الرئيسية الثلاث (القدس ويافا وحيفا) ، خلف اعلام الحزب الشيوعي .. وقد ساهمت مجموعة كبيرة من العمال العرب في هذه التظاهرات وذلك على الرغم من موجة الاثارة الشوفينية والدينية التي كانت تتصاعد من جديد في البلاد ... وكان هذا تأكيدا حيا للتضامن العمالي الاممي المعادي للامبريالية » .

في استعراضها لنتائج « اليوم الاحمر العالمي » ، كتبت « البرافدا » صحيفة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في ١٨ اب العام ١٩٢٩ (١٨) : « في فلسطين ، المستعمرة

الانكليزية ، نجح الحزب الشيوعي ٠٠ رغم وضعه السري الصعب ورغم الملاحقات الوحشية التي يتعرض لها اعضاؤه ، بتعميم شعارات اليوم الاحمر العالمي بين الجماهير العمالية ٠ ففي المدن الرئيسية الثلاث في البلاد : في القدس ويافا وحيفا نظمت عدة نشاطات خلال الاول من آب ٠ وقد تظاهر العمال خلف شعارات الحزب الشيوعي ، وقد ترك نزول العمال الثوريين الى الشارع ، بعد عامين من القمع المتواصل ، انطباعا حسنا في نفوس جماهير العمال ٠ كما كانت مساهمة مجموعة من العمال العرب في هذه النشاطات دليلا على التضامن الاممي للبروليتاريا ٠٠ هذا وقد حدثت صدامات عديدة بين رجال البوليس وبين المتظاهرين ، وقد كانت صدامات القدس وتل ابيب حامية جدا ، حيث دافع العمال عن انفسهم ببسالة ، وتم جرح عدة ضباط من البوليس بينهم ضابط انكليزي ، وقد تم اعتقال (٤٠) عاملا ، عوملوا بقسوة شديدة ٠٠ » ٠ وفي نهاية تعليقها حملت الميرافدا « اللورد باسفيلد » ، وزير المستعمرات في الحكومة العمالية البريطانية مسؤولية المعاملة القاسية التي يعاملها السجناء في فلسطين ، وهاجمت الصحيفة الفلسطينية للاممية الثانية « دافار » ، التي تبرر « طبعا » هذه الاعمال القمعية ٠

اعلن الحزب الشيوعي في فلسطين ان نجاح تظاهرات الاول من آب ، كان بمثابة ضربة وجهت « لشاعر الاستسلام (التي يبثها) الانتهازيون اليمينيون ، في صفوف الحزب ٠ ودعا كوادره الى زيادة نشاطها ومتابعة « النضال الصارم ضد الانتهازية اليمينية » ، وطالبها باستغلال نجاحات الاول من آب لجذب الاعداد المتزايدة من العمال « الذين يديرون ظهورهم عن الصهيونية وعن القيادات القومية الخائنة » الى صفوف الحزب ٠

الحزب الشيوعي الفلسطيني وحوادث آب الدامية ٠

لقد كان هدفنا من دراسة خصائص الظروف التي كانت تسود في فلسطين ، والتعرف على الاوضاع الذاتية للحزب وتوجهات سياساته في اعقاب المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، التمكن ـ قدر المستطاع ـ من اعطاء تحليل موضوعي شمولي للواقع التاريخي المحدد الذي اتخذ فيه الحزب الشيوعي في فلسطين موقفه من حوادث العام ١٩٢٩ ٠

لقد ذكرنا في بداية البحث اننا سنعتمد في انجازه اساسا على مادة « المراسلات الصحفية الدولية » ، ومن هذا المنطلق ، سنستعرض اهم المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة ، والتي يعرض فيها قادة الحزب موقفهم من الحوادث ، وسنستعرض هذه المقالات، المرسلة من فلسطين مباشرة ، وفقا لتسلسلها التاريخي ٠

المقال الاول « حوادث فلسطين » (١٩) ، ظهر مباشرة بعد اندلاع الحوادث بامضاء « الين » ALINI ، وقد استهله الكاتب بدعوة البروليتاريا الثورية العالمية « للتدخل النشيط لدعم الحركة في فلسطين ، خاصة بعد ان اتسعت نضالات عرب فلسطين ومعاركهم ضد الجيش والبوليس الانكليزي ، وضد العصابات الصهيونية الفاشية » ، مما يدل على ان الحركة التي اندلعت في فلسطين بدأت « تأخذ اتجاها ثوريا » ٠ وبعد ان يتحدث كاتب المقال عن اهمية فلسطين الاستراتيجية والعسكرية، وعن السياسة العدوانية والقمعية التي

تنتهجها السلطات الانكليزية في هذا البلد ، وعن مواقف الحركة الصهيونية « اداة الامبريالية البريطانية وحركها ، ليس فقط ضد الجماهير العربية في فلسطين ، وانما ايضا ضد كل الشعوب المضطهدة في الشرق الاوسط ... » ، ينتقل الى تحليل تطور سياسة ومواقف قيادة الحركة القومية « التي بدأت خاصة بعد المؤتمر القومي السابع بانتهاج سياسة موالية للامبريالية » ، ولتغطية سياستها هذه « التي تنتقص من هيبتها » ، تحاول « تقوية النضال ضد الصهيونية » . ويستنتج الكاتب في نهاية مقاله انه « مهما تكن الاسباب التي تفسر الانتفاضة .. ومهما تكن مصالح الطبقات المختلفة .. فالجماهير العمالية العربية كانت مدفوعة بالاستغلال السياسي والاقتصادي للامبريالية ولعملائها .. ولهذا فان النضال بامكانه ان يكتسب طابعا ثوريا معلنا في سبيل تحرر الجماهير الكادحة من نير الامبريالية .. وان على عاتق الحزب الشيوعي تقع مهمة تحقيق التآخي بين الجماهير العمالية اليهودية والعربية والعمل على تسلمها قيادة الانتفاضة بهدف ضمان طابعها الثوري وقيادتها حتى النهاية ضد الامبريالية ، ضد وعد بلفور ، ضد الصهيونيين وضد المستغلين العرب » .

في المقال الثاني « المذبحة في « الارض المقدسة » » (٢٠) كتب « ج . ب » من القدس: « لقد كانت معارك الشوارع التي نشبت يوم ٢٢ آب .. بين اليهود والعرب ... المؤشر لانتفاضة عامة لعرب فلسطين ، امتدت الى البلد المجاور شرق الاردن .. غير ان هذه الانتفاضة الشعبية التي كانت تعبيرا عن تخمر الطاقات الثورية المقموعة للشعب المسلم وخاصة في صفوف جماهير الفلاحين والبدو ، قد طبعت في مرحلتها الاولى بطابع معاد لليهود وغير معاد للانكليز ... » ، وقد نتج هذا « عن لعبة خبيثة شاملة (نسجت خيوطها) الامبريالية الانكليزية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة ومع المجلس الاسلامي... (وهكذا) تحولت قضية « حائط المبكى » الى قضية الساعة السياسية ورمز النضال في سبيل الهيمنة السياسية فوق « الارض المقدسة » .. » ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور كل قوة من هذه القوى الثلاث فيذكر ان الاقطاعيين والبرجوازيين العرب « الذين فقدوا هيبتهم نتيجة لمساوماتهم مع الامبريالية وخيانتهم القومية قد تجمعوا حول المجلس الاسلامي وبدأوا بمساعدة قسم من جهاز الامبريالية البريطانية ـ الذي تركه « الاشتراكي » ماكدونالد محافظا على جبروته ـ يثيرون مشاعر الكره المتزمت للمسلمين ضد « الكفار » اليهود الذين يريدون مهاجمة الاماكن المقدسة الاسلامية ... » ، وقد رد الفاشست الصهاينة على هذا الموقف « باثارة التعصب القومي الشوفيني الصهيوني وذلك بتنظيم مظاهرات عديدة مليئة بالاثارة والتحريض .. » ، وكانت السلطات الامبريالية « تتذبذب بين المعسكرين ، ساكبة قطرات من الزيت في المكان الذي تهدد فيه النار بالانطفاء وذلك بهدف منع اي تقارب بين العرب واليهود ، هذا التقارب الذي بالامكان اقراره خلال السنين الاخيرة ، خاصة بين صفوف البروليتاريا وذلك على الرغم من جهود الامبرياليين والصهيونيين والقيادة العربية الخائنة لمنعه .. » .

بعد تحليل دور القوى ، ينتقل الكاتب الى رسم صورة سير الاحداث الدامية التي بدأت « .. حين اندفعت الجماهير المتزمتة من الفلاحين والبدو تحت قيادة البورجوازية والاقطاعيين ورجال الدين لمهاجمة واحراق المستوطنات اليهودية الفقيرة .. حيث اقترفت مذابح مخيفة .. » ، اما الصهيونية الفاشية « فقد بقيت محافظة حتى اللحظة الاخيرة على

مهمتها الامبريالية ، حيث قامت بقتل العرب الذين لم يتمكنوا من مغـــادرة « المنطقـــة اليهودية » ، واحراق المنازل العربية ·· وبفظاعة وحشية تم قتل عاملين عربيين في اكثر شوارع القدس ازدحاما يوم ٢٤ آب ··· » ، ويحمل الكاتب الحركة الصهيونية مسؤولية « دماء الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » وذلك حين ربطت الصهيونية مصيرها « بمصير الامبريالية البريطانية من خلال وعد بلفور ، وتحولت موضوعيا الـــى الموقـــع المتقـــدم للامبريالية داخل البلدان العربية ·· (وهكذا) دفع القادة الصهاينة ثمن خدماتهم اصالح الامبريالية من دم الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » ·

اما قوات الامبريالية الانكليزية ··التي كانت تصل دوما بعد ارتكاب الفظائع ··ولكن في الوقت المناسب ايضا ، لتنظيم مذابح جديدة بين الفلاحين العرب ، مستخدمـة فـــي ذلك بنادقها الرشاشة وقنابل طائراتها ومصفحاتها ··· » ، فهي تتحمل المسؤولية المباشرة عن وقوع هذه الاحداث الدامية » ·· فتقوية الوجود العسكري الانكليزي (في فلسطين)·· بهدف حماية الضفة الشرقية من قناة السويس ·· هو الهـدف السياسي الرئيسي الـــذي بامكانه تفسير هذه المذبحة من وجهة نظر مصالح السياســـة العالميـــة للامبرياليـــة البريطانية ·· » ، اما الهدف الثاني الذي سعت اليه الامبريالية من وراء هذه اللعبة الخبيثة فهو « ·· التشكيك بالحركة القومية العربية بدفعها في اتجاه المذابح الدينية وذلك بهدف اضعافها داخليا والعمل على ارهابها فيما بعد ، بشكل يصبح فيه مستحيلا حدوث انتفاضة ثورية حقا ·· » · غير ان الامبريالية لم تتمكن من تحقيق اهدافها فقـد استطاعت الحركة « ·· ان تمر بسرعة من فوق رؤوس القيادات القومية ـ الاصلاحيـــة والسلطات البريطانية وتحولت من مذبحة الى انتفاضة معادية للامبريالية · ففي المدن العربية الصرفة ، مثل نابلس وطولكرم ·· حيث لا يوجد اي حاجز صهيوني ، ثم مهاجمة الادارة الحكومية ورفع العلم القومي العربي · وفي شرق الاردن انتفض البدو وقدموا لنجدة اخوانهم الفلسطينيين ·· »

ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور الحزب الشيوعي الفلسطيني خـــلال هذه الاحـداث فيذكر بان الشيوعيين : « كانوا المجموعة الوحيدة ، الى جانب مجموعة « حمدي الحسيني» القومية ـ الثورية » ، التي اعتقل قائدها لانه كان يحذر الجماهير العربية من الانحـــراف المجازر ويدعوها للوقوف ضد الامبريالية ، التي كانت تدعو بدون كلل الى تآخي العمال اليهود والعرب في تضالهم المشترك ضد الامبريالية البريطانية ··· ومنذ صباح الجمعة الدموي ·· كانت حوائط القدس مغطاة بالنداءات التالية : « لا تقتتلوا فيما بينكم » ! « ايها العمال العرب واليهود قفوا سوية ضد عدوكم المشترك ، الامبريالية البريطانية » ! « اقيموا حكومة العمال والفلاحين المستقلة » ! ··· وقد كان كل شيوعـــي يحرض في مكان عمله وفي الشارع بهذا الاتجاه ·· غير ان الحزب الشيوعي لم يتمكن بسبب ضعـــف كادره العربي وبسبب الخسائر الكبيرة التي اصيب بها بعد الاول من اب ، من التاثير في حركة الجماهير ـ التي كانت تتعاظم باستمرار ـ مدفوعة بالتعصب الديني الاعمى ، ومع ذلك فقد ساعدت شعارات الحزب في اجماع العمال على تحميل مسؤوليـــة الحـــوادث للامبريالية البريطانية ، وفي فهم ضرورة التآخي ·· وفي حدوث عدة اعمال عبرت عـن تضامن العمال الاممي ، مثل قيام العمال العرب بحماية رفاقهم اليهود وبالعكســـس ، والتصدي للميري الفتن من الجانبين ·· ومن وجهة نظر تنظيمية ، لم يكـــن بمقـــدور الشيوعيين لعب دور مؤثر (خلال الاحداث) ، غير ان تجربة هذه الحركة الكبرى ـ التي

لم تهدأ بعد والتي تلقي ضوءا اسود على مرحلة « السلام » التي افتتحها عهد ماكدونالد ، وتتضح جيدا خطورة الافكار التي يذيعها الانتهازيون اليمينيون – بامكانها ان تكون (تجربة الحركة) قاعدة لنشاطات الشيوعيين اللاحقة ... » .

في المقال الثالث « الاوضـــاع السياسية في فلسطين » (٢١) يصل « الميني » خصائص الاوضاع التي كانت تسود في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ، وبعد ان يربـط بين تطور الحركة القومية في فلسطين وتطور الحركة القومية في البلدان العربية الاخرى (سوريا ، الاردن ، العراق ومصر) ، يستنتج بان تعاظم عدوانية السياسة الامبريالية ، خاصة بعد القضاء على الثورة السورية واستسلام قيادتها – ما عدا السلطان الاطرش – قد ساعد « على توجه الحركة القومية في البلدان العربية ومنها فلسطين في اتجاه اليمين والمساومة مع الامبريالية وتحولهايالتالي الى حركة قومية – اصلاحية ... » ، وقد تمكنت العناصر الاقطاعية والبورجوازية « من دفع الحركة القومية العربية في اتجاه المساومة مع الامبريالية ، خاصة بعد المؤتمر العربي الصايخ ، بسبب غياب المنظمات الجماهيرية العربية ... ففي فلسطين لا يوجد حزب قومي – ثوري جماهيري ، والمؤتمر العربي لـم يكن ينتخب الا من قبل كبار الملاك العقاريين ومن البورجوازية وجزء من المثقفين .. اما محاولات الجناح القومي الثوري الضعيف ، الذي يقوده « حمدي الحسيني » – المعتقـل حاليا لدى السلطات الانكليزية – لتاسيس حزب قومي – ثوري يساري فلم تبدا الا فـي الاونة الاخيرة » .

لقد خشيت العناصر الصهيونية من امكانية حدوث تقارب فعلي بين القيادة العربية وبين السلطات الانكليزية ، فقامت « بتشديد صراعها ضدمطالب الحرب البرلمانية ، وفي سبيل بقاء النظام التعسفي الذي يديره الموظفون الانكليز ... واستطاعت تمرير عـدة اصلاحات تخدم مصالحها .. (مثل) اقرار حق الهجرة بدون قيود ، والعمـل علـى استيطان المهاجرين في الاراضي الواقعة تحت سيطرة الادارة البريطانية ، واعفائهـم من دفع ضريبة الارض خلال السنوات الاولى ، والمطالبـة بزيادة عدد المستخدمين اليهـود في صفوف البوليس والدرك وسلك الموظفين ، وزيادة عدد العمال اليهود المستخدميـن في مؤسسات الحكومة .. » .

وبعد ان ينهي الكاتب تحليله لمظاهر المد الرجعي في البلاد ، واشتداد السياسـة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية ينتقل الى رسم صورة للاوضاع والتمايـزات التي بدات تظهر في صفوف الطبقات الكادحة في فلسطين ، حيث يترافـق التطـور الراسمالي للبلاد « مع زيادة استثمار الجماهير العمالية .. ومع الافقار المتزايد للفلاحين الذين سلبت اراضيهم .. مما دفع الجماهير العريضة من العمال والفلاحين الى حالـة التململ ضـد مستثمريهـم .. » . وقـد ساعـدت هـذه الاوضـاع على « تصاعد نضالات العمال والفلاحين العرب .. حيث تتلاحق في الريف الاصطدامات الزراعية منذ العام ١٩٢٧ .. وتتزايد اضرابات العمال .. واهمها اضراب عمال شركة التبغ « مبروك » في حيفا ، واضراب عمال المخابز وعمال البناء ، واضراب المستخدمين في متحف « روكفلر » في القدس ، والاضراب الذي جرى في مقلع الحجارة بالقرب من القدس .. » . ومع أن هذه الظواهر تدل على تزايد « راديكالية الجماهير الكادحة فـي فلسطين » ، الا ان كاتب المقال يحذر من « المبالغة في تقدير درجة تزايـد راديكاليـة الجماهير .. التي تدل على تعاظم قوة الحركة الثورية ، غير انها لم تصل بعـد الـى

حد يضمن الانتصار الحاسم للهجوم الثوري الذي يخوضه العمال في فلسطين ضد اعدائهم ٠٠ »٠

وبعد ان يستعرض الكاتب دور الحزب الشيوعي في فلسطين « ٠٠ الذي يخوض صراعا حاسما ضد الامبريالية الانكليزية وعملائها الصهيونيين والطبقات المالكة العربية حول شعارات استقلال فلسطين وسائر البلدان العربية ، واقامة حكومة العمال والفلاحين ، والثورة الزراعية ٠٠٠ وذلك على الرغم من الظروف السرية الصعبة والملاحقات التي يتعرض لها (اعضاؤه) من قبل سلطات الحكومة العمالية الانكليزية التي تتابع بتصميم اكبر نفس السياسة الامبريالية لسابقتها المحافظة ٠٠ » ، يصل الى الاستنتاج بان الوضع السياسي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث قد تميز « بتزايد عدوانية الامبريالية الانكليزية التي تستند على الصهيونيين وعلى الموقف الرجعي للجنة التنفيذية القومية ـ الاصلاحية من جهة ، وبتعاظم راديكالية العمال ٠٠ خاصة العمال العرب من جهة اخرى ، غير ان هذه الراديكالية لم تصل بعد الى الحد الذي يسمح بانتصار الثورة في فلسطين »٠

في المقال الرابع « عودة « السلام » الى فلسطين » (٢٢) ، يحاول « ج ٠ ب » تفنيد ادعاءات السلطات الامبريالية التي تبشر بعودة الهدوء والاستقرار الى فلسطين ويذكر بان « الضمان الوحيد للسلام » يتمثل حاليا « بقوات ومدافع وطائرات ومصفحات الامبريالية البريطانية » ، التي تم تقويتها وزيادة عددها بعد اندلاع الحوادث ٠ وبعد ان يستعرض مظاهر السياسة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية في البلاد « ٠٠ حيث وصل عدد المعتقلين العرب الى (١٥٠٠) ٠٠ يضاف اليهم (١٥٠) معتقلا يهوديا ٠٠ »٠ ينتقل الكاتب الى فضح المواقف «السلمية» التي يدعيها لنفسه جزء من الصحافة الصهيونية « ٠٠ التي تريد طرد العمال والفلاحين العرب « سلميا » من اراضيهم ، وتنفيذ وعد بلفور بصورة « سلمية » ايضا ٠٠ » ، كما يدين الحملة التي تشنها الصحافة الصهيونية وصحافة الاممية الثانية وحتى صحافة حزب « البوعالي تسيون ـ الذي يدعي اليسارية ـ » ، ضد مواقف الحزب الشيوعي في فلسطين من الانتفاضة ، هذه الصحافة التي لا تتورع عن نشر « ٠ الاكاذيب والحكايات الدموية الدنيئة » امام الراي العام العالمي في محاولة منها لاظهار الحركة الشيوعية العالمية « ٠٠ كعليف لثيري المذابح ٠٠٠ واظهار الاممية الشيوعية وكانها تحيي ثورة حزب الفتي ٠٠ » ٠ من جهة اخرى يهاجم الكاتب مواقف « ٠ القوميين ـ الاصلاحيين العرب ٠٠ الذين بدأوا من جهتهم ايضا « بشن حملة تحريضية معادية للشيوعية ٠٠ وذلك لانهم يراقبون من تزايد نفوذ الشيوعيين ٠٠ خاصة وان الحزب الشيوعي قد فضح دورهم منذ فترة طويلة ٠٠ » ٠ وبعد أن يستعرض كاتب المقال قاعدة البرنامج الذي طرحه الحزب لعودة السلام الى البلاد والذي يرفض فيه فكرة « ٠٠ السلام » المجرد القائم في ظل رقابة حكومة العمال والفلاحين الثورية ٠٠ » ، يؤكد على ان : « تجمع افضل عناصر البروليتاريا والفلاحين الفقراء ٠٠ حول علم الحزب الشيوعي ٠٠ والتضامن الفعال للبروليتاريا الثورية العالمية (مع الحركة الثورية في فلسطين) ٠٠ تجاه هجوم الامبرياليين والاشتراكيين الامبرياليين والبورجوازية الصهيونية والعربية ٠٠٠ سيسهل على طليعة البروليتاريا التصدي لهذا الهجوم وخلق جبهة ثورية متحدة من الجماهير الكادحة ، قادرة على التصدي لعودة السلام الذي يريد تحقيقه مرتزقة ماكدونالد بالحديد والنار »٠

في المقال الخامس « الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، (٢٣) يستعرض « بوب » من يافا اعمال ومناقشات الاجتماع الموسع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « لبحث دور ومهمات الطبقة العاملة في فلسطين ، ودور حزبها خلال الانتفاضة العربية » ، حيث ظهر واضحا ان اعضاء الحزب « ٠٠ قد استطاعوا مقاومة الموجة الشوفينية العامة التي نتجت عن حرف الانتفاضة في طريق الاقتتال العنصري والديني ٠٠ وظهر الحزب في اوقات « السلم » كما في اوقات الحرب القومية التي دفع لها الرجعيون ٠٠ القلعة الوحيدة للاممية في البلاد ٠٠ » ٠

كان جدول اعمال الاجتماع يتضمن النقاط التالية : « ٠٠ (١ ـ الوضع الدولي ، الانتفاضة في فلسطين ، والاوضاع الداخلية للحزب ، (٢) تعريب الحزب وقضايا تنظيمية اخرى » ٠ وخلال المناقشات التي جرت حول النقطة الاولى في جدول الاعمال « اكد المجتمعون على سلامة الخط السياسي العام الذي اتخذته اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث ٠٠٠ فتقدير الحركة كانتفاضة شعبية والنضال ضد طابعها الرجعي عندما تتجه باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ٠٠٠ والمحاولات التي قام بها الحزب لتوسيع الحركة وطرح الشعارات المعادية للامبريالية ٠٠٠ كل هذا ، كان يتوافق تماما مع مصالح الفئات الكادحة ومع مصالح الحركة الثورية في فلسطين » ٠

ومع اشارته للدور الايجابي الذي لعبه الحزب في فضح مواقف الامبريالية والصهيونية من جهة اخرى، والقيادة الاقطاعية الدينية من جهة اخرى، الا أن الاجتماع انتقد الاخطاء التي ارتكبتها اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث « ٠٠ والتي ادانتها بنفسها في الاطروحات التي عرضتها امام منظمات الحزب ٠٠٠ (هذه الاخطاء) التي تمثلت اساسا بعدم توقع التطور السريع للحوادث ، وتباطؤ الحزب في الانعطاف نحو اليسار ، وفي التلاؤم العملي مع المهام الثورية التي قد تطرح خلال المرحلة الثالثة (مرحلة انتهاء الاستقرار النسبي للرأسمالية) ٠٠ وقد حدث انعطاف الحزب نحو اليسار متاخرا وبصورة غير جذرية ، حيث تعرقل عمرما خلال النقاشات التي جرت مع المعارضة اليمينية داخل الحزب ٠٠ » ٠

اعترف الاجتماع الموسع بحقيقة ان الحزب الشيوعي في فلسطين « ٠٠ لم يتمكن من لعب دور مؤثر خلال الحوادث ٠٠ وذلك نتيجة ضعفه التنظيمي وتمتعه بدرجة كفاحية ناقصة ٠٠ الا انه بمقدوره لعب دور فعال في المستقبل خاصة اذا تجاوز اخطاءه وتابع انتهاجه لخط سياسي سليم واذا كانت الحوادث التي جرت ، التعبير عن الموجة الاولى من الانتفاضة العامة التي نضجت ظروفها في البلدان العربية ٠٠ » ٠ وقد اعلن الاجتماع ان« ٠٠ الغالبية الساحقة من اعضاء الحزب قد استخلصت الدروس اللازمة من هذه الحوادث الدامية ٠٠ » ، وهاجم بشدة العناصر الانتهازية اليمينية « ٠٠ التي تستخدم الحوادث كمبرر لشن هجوم عام ضد خط الحزب وضد خط الاممية الشيوعية ٠٠ مستغلة في ذلك واقع ان اللجنة المركزية للحزب لم تطبق اجراءات تنظيمية حاسمة كفيلة بتصفية الجناح الانتهازي داخل الحزب ، واكتفت بخوض صراع ايديولوجي ضد الافكار اليمينية التي تعني عمليا تصفية الخط الثوري للحزب ٠٠ » ٠

لقد وقفت المعارضة الانتهازية اليمينية « ٠٠ ضد انعطاف الحزب نحو اليسار ،

وادعت بان المرحلة الثالثة ما هي الا بدعة ابتدعتها قيادة الاممية الشيوعية ، وانكرت تزايد راديكالية حركة الجماهير ، وحاربت مظاهرات الاول من ايـــار والاول من اب ، ورفضت الالتزام بالمبادىء التنظيمية السائدة داخل الحزب ٠٠ » ٠ وخلال الحوادث انتقدت لجنة الحزب في مدينة حيفا « ٠٠ حيث تأثير اليمين قوي جدا ٠٠ » النداء الـذي وزعتـه اللجنة المركزية للحزب والذي يصف الحوادث بانها التعبير عن « ٠٠ حركة تحرر للجماهير العربية ٠٠ » ، وادعت بان الحوادث كانت « ٠٠ تعبر فقط عن مذابح ٠٠ ولم يكن هنالك وجود لاي حركة تحرر ٠٠ » ٠

وقد ادان الاجتماع الموسع هؤلاء « الشيوعيين » « ٠٠ المذهولين بصرخات الهـــول التي اطلقها جهاز دعاية الصهيونيين وحزب البوعالي تسيون ٠٠ فلم يروا فـي الحوادث سوى صراعات قومية واعتداءات وحشية ٠٠ ولم يلاحظوا القوى الاجتماعية للحركـــة والانتفاضات المعادية للامبريالية التي حدثت حتى في المناطق التي لا يوجد فيها حواجز يهودية صهيونية ٠٠ وانكروا ان يكون بمقدور الطبقة العاملة تسلم قيادة الحركـــة ٠٠ واعلنوا ان التكتيك الوحيد الذي ينبغي للحزب اتباعه هو البقاء في مكانه وانتظـــار نهاية « المذابح » وقد باشرت لجنة الحزب في حيفا بعد ذلك « ٠٠ هجومها الفاضح علـى خط الحزب وحجزت بكل بساطة النداء الذي اصدره الحزب والمخالف لطامحها ، وهكـذا فتحت المجال امام اعداء الحزب الشيوعي للقيام بشن حملة تشهير واسعة ضد الحزب ، من خلال نشر الاكاذيب الفاضحة حول موقف الشيوعيين ، وزرع الشكوك في صفـــوف العمال المتناصرين مع الحزب ٠٠ » ٠

في مثل هذه الظروف ، كان على الاجتماع الموسع ان يتخذ موقفا صريحا ضـــد المعارضة اليمينية ٠٠ » وكانت الادانة الجماعية التي اتخذت ٠٠ متوافقة مع توصيات السكرتاريا التنظيمية للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية التي ارسلت الى اللجنة المركزية للحزب في رسالة خاصة مؤرخة في ٢٣ اب (وصلت فقط في وسط الانتفاضة) ، والتي تؤكد فيها السكرتاريا التنظيمية على ان الدفاع عن الايديولوجية اليمينية يتعارض مـــع الانتماء اللاحق للحزب ، وتطالب اللجنة المركزية بتطهير صفوف الحزب وبسرعة من جميع ممثلي الانتهازية والبوعالي‌تسيونية البورجوازية الصغيرة ٠٠ » ٠

من جهة اخرى ادان الاجتماع مواقف « العناصر الوسطية المساومة الذين لا يتفقون مع اطروحات اليمين الا فيما يتعلق بتقدير درجةراديكاليةالجماهير خلال تظاهرات الاول‌من اب ٠٠٠ ويمانعون ضرورة اتخاذ اجراءات تنظيمية حاسمة ضد ممثلي الخط اليميني داخل الحزب ٠٠ » ٠ وقد اعتبر الاجتماع الموسعان « ٠٠ مقال الرفيق اليني الذي ظهر في العدد (٨٦) من مجلة المراسلات الصحفية الدولية يمثل القاعدة السياسية لمواقف هذه العناصر الوسطية ٠٠٠ (ففي المقال المذكور) لا يحارب (اليني) شعارات حكومة العمال والفلاحين والثورة الزراعية ، وجبهة النضال ضد البورجوازية القومية الخائنة‌هذه الشعارات التي وقف ضدها في السابق ــ ٠٠ ولكنه يرى ان الخطر يكمن في التقدير المبالغ فيه لتزايـــد راديكالية الجماهير العمالية ويعتقد ان الوضع لم ينضج بعد لشن هجمة عمالية ٠٠٠ » ٠ وفي نقده لهذه الموضوعة نوه الاجتماع الى ان « ٠٠٠ خطأ الحزب كان يكمن اساسا في التقدير الناقص لدرجة تزايد راديكالية الجماهير ٠٠ فالظرف الموضوعي كان ناضجا لشن

هجوم جذري واوسع من الهجوم الذي بداه الحزب بعد انعطافه اليساري ... » .

وقد جاء في التقرير الذي اصدره الاجتماع الموسع « ... انه ليس بامكان العناصر المساومة البقاء في الحزب ما لم تتخل عن موضوعاتها الخاطئة وتبدأ فعلا لا قولا خوض النضال ضد خطر الانحراف اليميني ... » .

خلال النقاشات التي دارت حول النقطة الثانية في جدول الاعمال ، تحسس الاجتماع الموسع « ... وبالاجماع ضرورة دفع سير وتيرة تعريب الحزب الى اقصى درجة ... (خاصة) وان الظروف الموضوعية قد نضجت بسبب حالة الغليان الثوري التي تعيشها الجماهير ، وبسبب خيانة قيادة الحركة القومية العربية .. فبزيادة كوادره العربية ، سيستطيع الحزب ان يلعب دورا هاما خلال المرحلة القادمة من تطور الحركة الثورية ... وهذا ما تشعر به الحكومة البريطانية وحلفاؤها من القوى الرجعية ... فالملاحقات ضد الحزب تنتج اساسا من الخوف من تعاظم الحركة الثورية العمالية والشيوعية ... » .

في المقال السادس «مشانق وسياط ماكدونالد في فلسطين » (٢٤) ،يستعرض روح ،بعض القدس ، الوسائل والاساليب الوحشية التي تستخدمها حكومة ماكدونالد الامبريالية ضد الجماهير العربية ، وذلك بهدف قمع الانتفاضة والحد من توسعها وامتدادها .

فامام هذه الاساليب الوحشية « ... بدات الجماهير العربية تعي حقيقة اعدائها... وتفهم طبيعة الاكاذيب التي كانت تعيشها القيادات العربية (من خلال الادعاء) بان الحكومة الامبريالية تقف الى جانب العرب .. » .

ويهاجم كاتب المقال بشدة مواقف القيادات العربية « ... التي حاولت التقليل من اهمية الاضراب العام الذي جرى يوم ١٦ تشرين الاول ... وحاولت كل جهدها لمنع الجماهير من شن هجوم مباشر على السلطات الامبريالية ... والتي اتخذت موقفا مساوما امام لجنة التحقيق البريطانية الامبريالية ...» . غير ان حركة الجماهير العربية « ... تمكنت من تجاوز (هذه) القيادات .. وبدات تاخذ يوما بعد يوم طابعا معاديا للامبريالية .... » . وهكذا « ... لم يكن من المستغرب ان تتصاعد الحركة ، وان تنظم اضرابات ومظاهرات عفوية في كافة مناطق البلاد للتنديد بالاساليب الوحشية التي تستخدمها السلطات لقمع الحركة ، وان يصبح هم كل فلاح وكل عامل عربي شراء قطعة من السلاح حتى ولو باع اخر اسماله،وان تتسع الانتفاضة وتمتد الى البلدان المجاورة...» كذلك لم يكن مستغربا في هذه الظروف « ... ان يكون للشعارات التي اطلقها الحزب الشيوعي صدى واسع في صفوف الجماهير العربية (وخاصة) في صفوف الفلاحين ... (حيث كان) لشعارات الحزب التي كانت تدعو للاستيلاء على اراضي كبار الملاك العقاريين واراضي الصهيونيين الاغنياء ، وعدم دفع الضرائب ، والنضال حتى النهاية ضد الامبريالية ، صدى واسع في صفوفهم ... » .

في نهاية المقال يستنتج الكاتب ان « الظروف اللازمة لتجميع القوى الاجتماعية ، ولتسلم البروليتاريا والحزب الشيوعي قيادة الحركة في المرحلة القادمة... قد اصبحت جاهزة... » .

ويلاحظ بان ماكدونالد « يعي تماما هذه الحقيقة ... » ، لذلك تتزايد حدة الاساليب الوحشية المتبعة من قبل السلطات البريطانية « ... فالملاحقات ضد عناصر الحركة العمالية الثورية في فلسطين ، لم تأخذ ابدا في السابق مثل هذه الحدة ... ولم تظهر ارادة تصفية الحركة المدافعة عن مصالح الجماهير الكادحة اليهودية والعربية ، بمثل هذا الوضوح ، الا في ظل سلطة ماكدونالد ، وهندرسون ، وباسفيلد ... » . وبعد ان يدين الكاتب حكومة العمال الانكليزية « ... مفخرة الاممية الثانية » ، يدعو الجماهير العمالية في انكلترا وفي البلدان الراسمالية الاخرى ، لدعم نضال « ... الجماهير الكادحة الفلسطينية التي تناضل حتى الموت ضد الامبريالية البريطانية ... » .

في المقال السابع والاخير ، يستعرض «ج ب» من القدس « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » (٢٥) ، واتجاهات تطور الانتفاضة « ... بعد ان دخلت المعارك المعادية للامبريالية في مرحلة جديدة تتميز اساسا بالمجهود التي تبذلها البورجوازية الاقطاعية العربية لتصفية الانتفاضة والوصول ، في اقرب وقت ، الى اتفاق مع السلطات الانكليزية ... » . غير ان الجماهير العربية استطاعت « ... على الرغم من اساليب القمع الامبريالية وعلى الرغم من خيانة قياداتها ... دفع الحركة في اتجاهين : معارك الانصار غير المنظمة ، خاصة في الريف ، وانفجارات جماهيرية عفوية ، خاصة في المدن ... » . ويمثل الكاتب طبيعة معارك الانصار « ... ذات الطابع الزراعي اساسا ... والتي تعبر احيانا عن مقاومة الفلاحين العرب لعملية نزع اسلحتهم ، كما حصل في القرى المحيطة بمدينة القدس ، او عن دفاع الفلاحين الذاتي ضد المحاولات التي يقوم بها المستوطنون الصهيونيون لنزعهم اراضيهم ... او عن مهاجمات فلاحية بدائية لمراكز السلطات الانكليزية وليعض المستوطنات الصهيونية ...» ويرجع الكاتب اسباب هذه المعارك الفلاحية الى تدني المستوى المعاشي لجماهير الفلاحين والبدو العرب « ... الفئة الاجتماعية الاكثر فقرا بين الفقراء ... » . ومع ان الصهاينة يدعون بان حركات الفلاحين هذه ما هي الا « حركة لصوص وقطاع طرق » ومع ان الانكليز « ... يحاولون كل جهودهم لايجاد اثار هذه « العصابات » ... الا ان الهدوء لم يستقر بعد ... » .

اما في المدن « ... فقد استطاعت حركة الجماهير ايضا تجاوز قياداتها ... وفشلت محاولات البورجوازية التجارية العربية التي شهرت سلاح المقاطعة لضمان ارباح اكبر في المنافسة مع التجار اليهود ، في تأطير الحركة في اطار معاداة اليهود ... بل على العكس ، فقد تهجمت السلطات الامبريالية بالطابع التحريضي لشعار المقاطعة واعتقلت عددا من الناضلين المعادين للامبريالية ، مثل « حمدي الحسيني » وعددا من انصاره ، الذين اتهموا زورا بالشيوعية وعلى اثر ذلك نظمت في مدينة يافا حركة جماهيرية واسعة للتنديد باعتقالهم واعلن الاضراب العام ... » .

وامام استمرار الاضراب واتساعه ، اضطرت السلطات الامبريالية « ... لتحريك بارجة حربية وعدة طائرات عسكرية ... في محاولة منها لارهاب الجماهير ... وقدمت القيادات الاصلاحية العربية ، مرة اخرى ، مساعدة فعالة للامبريالية عندما حاولت التهويل من خطر الحركة ... حيث ادعت بانها قد تحولت الى انتفاضة مسلحة وان فلاحي القرى القريبة من يافا قد قدموا بكثافة للمساهمة فيها ... (وهكذا) استطاعوا القضاء على الحركة الوطنية وتصفية الاضراب ومنع مظاهرات التضامن في المدن الاخرى ... » .

ويعد ان يذكـر الكاتب بان هذا الموقف الذي اتخذته القيادات العربيـة من اضراب يافا ، كان يتوافق تماما « ... مع البيان الذي عممه الملتي الكبير على الجماهير ، والذي يطالبها فيه بالحفاظ على الهدوء ، خلال الفترة التي تبقى فيها لجنة التحقيق في البلاد ... » ، ينتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي « .. الذي قام بتوزيع عدة نداءات باللغة العربية يدعو فيها الجماهير الى تحويل الاضراب العام الى انتفاضة معادية للامبريالية ، وتشكيل لجان ثورية من العمال والفلاحين لنزع قيادة الحركة من ايدي القيادات الخائنة ، والنضال في سبيل الاستيلاء على اراضي المستوطنين الصهيونيين الاغنياء ... كما قام الحـزب بتوزيع عدة نداءات باللغة العبرية يحض فيها العمال اليهود على التآخي مع الحركة الثورية العربية .. » . ويذهب الكاتب مقاله مؤكدا على ان « ... الجذرية المتواصلة للجماهير ، ستفتح في المرحلة القادمة من تطور الاحداث الثورية ، افاقا اوسع امام قيادتها الثورية الواعية » .

★ ★

قبل التطرق لاهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها خلال هذا البحث ، سنحاول استعراض اهم ما جاء في الوثيقة التي قيمت فيها اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية موقف الحـزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث هبة البراق (٢٦) .

بعد ان تحلل الوثيقة طبيعة الحركة الثورية في فلسطين وفي البلدان العربية ، ودور مختلف الطبقات الاجتماعية في الانتفاضة ، تنتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي ، منجزاته واخطاءه فتذكـر بان الانتفاضة « .. قد كشفت الجوانب الايجابيـة لنشاط الحزب ، كما كشفت مكامن الضعف عنده .. فالانتفاضة فاجأت الحزب على حين غرة ، لانه مكـون اساسا من العناصر اليهودية ويفتقد الى صلات وثيقة مع الجماهير العربية عموما ومـع الفلاحين بصورة خاصة .. » . وقد اكدت الانتفاضة « .. مقدار صحة التعليمـات المتكررة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية حول ضرورة تعريب الحزب . (ذلك) ان تواقص الحزب واخطاءه خلال الانتفاضة ، قد نجمت عن عجزه عن سلوك نهج واضح وصريح باتجاه تعريب الحـزب من القاعدة الـى القمـة . ففي الماضي كان الحزب يوظف قواه وامكاناته على نحو خاطيء ، اذ ركـز نشاطه في المقـام الاول بين العمـال اليهود ، بدلا من توظيف اكثرية قواه وامكاناته في العمل بين جماهير العمال والفلاحين العرب . ولقد فسرت عملية تعريب الحزب على انها عملية ضم آلية لعدد من الرفاق العرب الى اللجنة المركزية . ولم يفلح الحزب ببناء منظمات حزبية عربية قوية ، ومنظمات نقابيـة عربية .. اما بالنسبة للعمل في صفوف الفلاحين والبدو ، فقد ساد جو من التشاؤم داخل الحزب . وقد ادى جو التشاؤم والتشكك من نتائج العمل وسط الجماهير العربية الى اتخاذ بعض الرفاق لمواقف انعزالية وسلبية ، والى استصغار الامكانات الثورية في المشرق والمبالغة بتاثير القوى الرجعية على الجماهير العربية وانتهاج اساليب روتينية وغير مرنة في التكتيك تجاه الحركة الاصلاحية العربية وتجاه مجموعة حمدي الحسيني القومية . ان الاعضـاء اليهود داخل الحزب وداخل اللجنة المركزية لم يدركوا دوما بان دورهم تجـاه العامـل العربي وتجـاه الحركة الشيوعية وسط العمال العرب ، يجب ان يكون دور « المساعد » ، وليس دور القائد ، وهذا ما اشار به لينين الى البلاشفة الروس الذين كانوا يعملون وسـط المجموعات القومية داخل الاتحاد السوفياتي . وبما ان الحزب كان يملك كادرا صغيرا من العمال العرب فقد وجد نفسه مقطوعا عن الحركة التي اخذته على حين غرة ، ولم يستطـع التاثير على الجماهير الاساسية من العمال في المدن ، والجماهير الفلاحية في الريف .

وبهذا الخصوص يجب على الحزب ان يستخلص كافة العبر من الانتفاضة ٠٠ » ٠

وبعد ان تنتقد وثيقة الاممية الشيوعية الحزب الشيوعي لانه لم يلحظ التطور السريع للاحداث » ٠٠ باتجاه حركة عربية شاملة ، معادية للامبريالية وفلاحية ٠٠٠ ولم يتمكن بالتالي من طرح الشعارات التي تتطلبها المرحلة ٠٠ (وهذا كله) يمكن تفسيره بالترددات الانتهازية اليمينية داخل الحزب ٠٠ » ، تنتقل الى تحديد مهمات الحزب الثورية خلال المرحلة القادمة ٠

المهمة الرئيسية والعاجلة هي » ٠٠ التوجه بتصميم وجرأة باتجاه تعريب الحزب من القاعدة الى القمة ٠ وبذل ما يلزم من جهد لانشاء نقابات عربية وعربية ـ يهودية ٠ » اما المهمة الثانية للحزب فيجب ان تتركز على » ٠٠٠ التغلب بأي ثمن على جو التشاؤم والسلبية داخله بصدد المسالة الزراعية ٠٠ ويتوجب عليه انجاز برنامج زراعي يأخذ بعين الاعتبار المطالب الجزئية للفلاحين والبدو ٠٠ » ٠

وبعد ان تؤكد الوثيقة على ضرورة متابعة النشاط بين العمال اليهود وداخل النقابات الصهيونية الاصلاحية ، تطالب الحزب بالنضال في سبيل قيام اتحاد للاحزاب الشيوعية في البلدان العربية ٠ وتنتهي الوثيقة بالتاكيد على ان هذه المهام لن تتحقق الا » ٠٠ بشن نضال حازم ضد الانحراف اليميني داخل الحزب ٠٠ » ، هذا الانحراف الذي يعبر عن نفسه » ٠٠ بالاستخفاف بالامكانات الثورية ، وبالمعارضة الصريحة او المخفية لتعريب الحزب ، وبمقاومة شعار حكومة العمال والفلاحين ٠٠ » ٠ ويجب على الحزب في نضاله ضد خطر الانحراف اليميني » ٠٠ الا يغفل في نشاطه من اجل الاممية الثورية ، خطر المبالغة اليسارية التي ترتكز على اهمال العمل وسط العمال اليهود ، والاستخفاف بدورهم التاريخي في خلق حركة عمالية جماهيرية وخلق فرع محلي للاممية الشيوعية في فلسطين ٠٠ » ٠

وتلاحظ الوثيقة اخيرا انه » ٠٠ كان هناك تردد وغموض في بعض البلدان وفي بعض الصحف الشيوعية حتى داخل الاتحاد السوفياتي بالنسبة لتقييم طبيعة الحركة في فلسطين (خاصة) في بداية الانتفاضة ٠٠ » ٠ وتطالب فروع الاممية ومنظماتها الجماهيرية » ٠٠ بالقيام بحملة حازمة لنصرة الحركة القومية العربية وضد نظام الرعب الابيض في فلسطين ، وضد دعاية المذابح التي تحث عليها الامبريالية البريطانية والبورجوازية الصهيونية والاممية الثانية ٠٠ » ٠

والآن ، ما هي اهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها من خلال هذا البحث ٠٠

اولا : موقف الحزب من الاحداث وتقييمه لها

اعتبر الحزب احداث اب بمثابة التعبير عن انتفاضة قومية عربية معادية للامبريالية، وربطها بسلسلة من النضالات العمالية والفلاحية العربية الناتجة عن تفاقم الازمة الاجتماعية

في البلاد ، وتصاعد سياسة النهب الامبريالي واشتداد عدوانية الحركـــة الصهيونية خاصة ضد جماهير الفلاحين ٠

وقد انتقد الحزب الوجه السلبي للاحداث الناجم عن الانحراف في التوجه النضالي باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ، هذا الانحراف الذي نتج عن لعبة خبيثة نسجت خيوطها الامبريالية البريطانية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة من جهة ، ومع القيادة الاقطاعية ـ الدينية العربية من جهة اخرى ٠

لقد كانت العناصر الانتهازية اليمينية داخل الحزب (خاصة اعضاء لجنة الحـــزب في حيفا) ، هي الوحيدة التي اعتبرت الاحداث بمثابة التعبير عن مذبحة ضد اليهود ، ورفضت تقييم اللجنة المركزية للحزب باعتبارها التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهيـــر العربية ٠ ولقد ساعدت المواقف الانهزامية والمتشككة التي اتخذتها هذه العناصر في الفتـرة التي سبقت اندلاع الحوادث ، في عدم تلمسها للطبيعة الثورية للاحداث ، وللعوامـــل الاجتماعية والسياسية التي فجرتها ٠

وهكذا نرى بان الموقف الحقيقي الذي اتخذه الحزب الشيوعي في فلسطين من احداث اب ، يتناقض تماما ادعاءات « جوزيف برغر » ، ويفضح اكاذيبه وافتراءاته المغرضة ، كما يظهر خطأ الراي الذي يتبناه بعض الكتاب العرب الذين يعتبرون بان موقف الحزب من هبة البراق قد تغير بعد أن تسلمت قيادتـــه التوجيهات الصائبة من قيادة الاممية الشيوعية (٢٧) ٠

ثانيا : دور الحزب خلال الاحداث وامكاناته الفعلية في التاثير على مجراها ٠

ليس هناك من شك بان هبة البراق قد فاجات الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ وقـــد كانت المهمة الرئيسية للحزب بعد اندلاع حوادث اب الدامية السعي في سبيل دفع الانتفاضة في الاتجاه الثوري المعادي للامبريالية ضد محاولات حرفها في اتجاه الاقتتال الديني والعنصري ، وذلك من خلال النضال لتحقيق التاخي الاممي بين الجماهير الكادحـــة العربية واليهودية ، ودفعها للعب دور مؤثر خلال الانتفاضة ، بهدف ضمان انتصارهـــا النهائي على طريق تحقيق الاستقلال التام لفلسطين ، وتحقيق مطالب الفلاحين العرب ٠

وعندما بدات القيادات القوميةالعربية تتخوف من اتجـــاه الاحداث في الاتجـــاه الثوري المعادي للامبريالية ، وتسعى للحد من اتساع الانتفاضة ، ناضل الحزب في سبيـــل دفع الجماهير العربية لتجاوز قياداتها ، وحثها على متابعة النضال ٠ وقد ساهم الحـــزب في عدد من النضالات الجماهيرية التي جرت في المدن (الاضراب العـــام في يافا) ، ودعم مجموعات الانصار الفلاحية في الارياف ٠ ويذكر الدكتور « عبد الوهاب الكيالي»(٢٨) ان (١١) عضوا من الاعضاء الاربعة والعشرين الذين كانت تتالف منهم لجنة سريـــة ارهابية ، مهمتها ارهاب واغتيال الاشخاص الذين يعملون ضد المصالح الوطنية (خلال احداث هبة البراق) ، كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

ومع ذلك كله ، لم يتمكن الحزب من لعب دور هام ومؤثر خلال الاحداث ، وهـــذا ما اعترفت به لجنته المركزية التي ارجعت ذلك الى ضعفه التنظيمي وعدم تمتعه بكفاحيـــة

عالية ، وعدم توقعه لتطور الاحداث السريع باتجاه انتفاضة حقيقية، بالاضافة الى نقص كادره العربي ، واصابته بضربة موجعة قبل ايام من اندلاع الاحداث (الاول من آب) ، افقدته عددا من كوادره . وقد حملت قيادة الحزب ، المعارضة الانتهازية اليمينية داخل صفوفه ، المسؤولية المباشرة في عدم تمكن الحزب من لعب دور مؤثر خلال الاحداث .

سنحاول التوقف قليلا عند سببين من الاسباب : الاول ، الانحراف الانتهازي اليميني، والثاني ، نقص الكادر العربي .

يبدو انه كان هناك خطر اكيد من بروز اتجاه انتهازي يميني داخل الحزب ، رافقه ظهور عدة افكار انهزامية . وهذا ما دفع بقيادة الاممية الشيوعية للتدخل المباشر اكثر من مرة ، ومطالبة اللجنة المركزية للحزب بالتصدي الحازم للعناصر الانتهازية اليمينية والعمل على فصلها من الحزب.وبهذا الصدد نعتقد ـ كما ذكرنا سابقا ـ بان احد الاسباب التي تكون قد دفعت اللجنة التنفيذية للاممية الى ارسال احد مبعوثيها (شميرال) الى فلسطين ، هو خطورة هذا الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي . ومما يدعم هذه الفكرة ، ان مبعوث الاممية الى فلسطين هو نفسه الذي اوفد الى منغوليا لعرض مخاوف قيادة الاممية حيال ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الثوري الشعبي المنغولي . هذا وقد اشار قرار السكرتاريا السياسية للجنة التنفيذية للاممية الى اثر التيار اليميني في اعاقة الحزب الشيوعي في فلسطين عن لعب دور مؤثر خلال الانتفاضة .

غير اننا عند محاكمتنا ـ الان ـ لهذا التيار الانتهازي اليميني ، علينا ان نفصل بين الافكار الانهزامية التي كان يشيعها ومقاومته لعملية تعريب الحزب ، ورفضه اعتبار احداث اب بمثابة التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهير العربية من جهة ، وبين رفضه تبني بعض شعارات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، وخاصة شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » من جهة اخرى .

وبمعنى آخر ، فاننا اذا حاكمنا هذا التيار على اضواء رفضه لقرارات المؤتمر العالمي السادس الخاصة « بحكومة العمال والفلاحين » ، فانه سيبدو لنا واقعيا ، ومتجاوزا للتطرف الذي حكم بعض قرارات ذلك المؤتمر ،خاصة وان شعار « حكومة العمال والفلاحين» كان يطرح في تلك الفترة ، وكأنه شعار مباشر قابل للتطبيق،وليس كشعار استراتيجي لمرحلة كاملة . فاليوم ، وفي ظروف التغيير العظيم لموازين القوى لصالح الاشتراكية والتحرر الوطني ، وحتى بعد تكون الدول القومية وانجاز مهمات الاستقلال السياسي ، لا تسقط الاحزاب الشيوعية العربية من حسابها التحالف مع اقسام من البورجوازية الوطنية ، ولم تصل بعد رغم كل ما انجزته ، الى رفع شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » .

غير ان العناصر الانتهازية اليمينية قد اتخذت من معارضتها لمقررات المؤتمر العالمي السادس المتطرفة ، منطلقا او مبررا لتشويه طبيعة نضال الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضة ١٩٢٩ التحررية في اساسها .

السبب الثاني والاهم ، هو نقص الكادر العربي ، وهذا يطرح قضية معقدة ، هي

قضية تعريب الحزب الشيوعي في فلسطين (٢٩) ٠

لقد كان نقص الكادر العربي للحزب ، وضعف صلاته بالجماهير العربية ، وخاصة جماهير الفلاحين ، من اهم العوامل التي اعاقت الحزب عن لعب دور مؤثر خلال الاحداث وهذا ما اشارت اليه وثيقة الاممية الشيوعية ، التي طالبت قيادة الحزب بالعمل السريع والجدي في سبيل انجاز مهمة التعريب ٠

من جهة اخرى ، كان للطابع الانعزالي لتوجهات الحزب تجاه قيادة الحركة القومية العربية ، اثره في عدم تمكن الحزب من التأثير على توجهات هذه الحركة ٠ وقد شجع هذا التوجه الانعزالي للحزب ، سعي قسم من القيادات القومية العربية ، للتعاون الصريح مع الامبريالية البريطانية ، والوصول الى اتفاق معها ، يكون على حساب مصالح الجماهير خاصة بعد انعقاد المؤتمر العربي السابع ٠

الحواشي

١ ـ اننا لا نصدر احكاما قاطعة بهذا الخصوص ٠ لقد اردنا فقط تبيان الاتجاه العام لاغلب الدراسات والابحاث التي تطرقت لهذا الموضوع ٠

٢ ـ لم تتسلم العناصر العربية مسؤوليات قيادية داخل الحزب الا خلال الفترة التي اعقبت هبة البراق ٠ وكان الحزب قد اوفد عددا من الكوادر العربية للتعليم « بجامعة كادحي الشرق » في موسكو ، في العام ١٩٢٧ ٠

٣ ـ اسمه الحقيقي « برزيلي » بولوني الاصل ٠ كان واحدا من ابرز قياديي الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ كان يساهم بتأمين الارتباط بين الحزب الشيوعي في فلسطين وبين مركز الاممية الشيوعية ٠ في اواخر العام ١٩٢٩ غادر فلسطين الى برلين (عصبة مناهضة الامبريالية) ، ومنها انتقل الى موسكو ٠ اعتقل في العام ١٩٣٥ وبقي في المنفى حتى العام ١٩٥١ ٠ بعد ان اعفي عنه هاجر الى بولونيا ومنها الى اسرائيل ، حيث يساهم بفعالية في حملات التشهير والطعن التي تشنها الاقلام الصهيونية ضد الماضي الثوري للحزب الشيوعي ، وذلك بعد ان ارتد عليه (حصلنا على المعلومات الخاصة بسياة « ج ٠ برفر » ، من مجلة ESPRIT عدد تموز ـ اب ، ١٩٦٧ ، ص : ٩٧) ٠

٤ ـ جوزيف برفر : « القطيعة مع الشيوعيين » ، في « الدفاتر الجديدة » LES NOU VEAX CAHIERS رقم ١٣ ـ ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ ـ ٣٨ ٠

يتبنى الكاتب المغربي « عمار الطالبي » وجهة النظر التي يعرضها « ج ٠ برفر » عن مساهمة اعضاء الحزب الى جانب الهاجانا ٠ (انظر : عمار الطالبي : « الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها » في شؤون فلسطينية ، رقم ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ١٧٥) ٠ كما يتبنى الكاتب التروتسكي « ناتان فاينشتوك » (N. WEINSTOCK) في كتابه الصهيونية ضد اسرائيل ، وجهة النظر هذه ، التي اعتمدها بدوره عن « ج ٠ برفر » ٠

٥ ـ في منتصف اب العام ١٩٢٩ ،

وصل الى فلسطين ، قبل ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، موفد خاص للاممية الشيوعية ، هو القائد الشيوعي التشيكي شميرال » (CHMERAL) ، عضو اللجنة التنفيذية للاممية . وقد كان الهدف من زيارته التباحث مع قيادة الحزب في فلسطين حول الاوضاع الداخلية للحزب، والالتقاء بعدد من العناصر الشيوعية العربية ، لدراسة امكانية اصدار جريدة حزبية ، والاستفسار منهم عن اوضاع الفلاحين العرب . وشميرال هو احد مؤسسي الحزب الشيوعي التشيكي ، مناضل بارز في صفوف الاشتراكية الديمقراطية التشيكية قبل الحرب العالمية الاولى (١٨٨٠ ـ ١٩٤١) . في العام ١٩١٦ كان يترأس اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الديمقرطي التشيكوسلوفاكي . ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وانتخب عضوا في لجنته المركزية عشية تأسيسه في العام ١٩٢١ . في العام ١٩٢٤ انتخب عضوا في مجلس رئاسة الاممية الشيوعية ، حيث تم تكليفه اعتبارا من العام ١٩٢٧ بالاهتمام بقضايا الحركة الشيوعية في الصين والشرق الاقصى . سافر الى منغوليا في العام ١٩٢٨ على رأس وفد خاص من الاممية الشيوعية ، كانت مهمته طرح مخاوف قيادة الاممية امام ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الثوري الشعبي المنغولي .

اننا نعتقد بأن بروز اتجاه يميني انهزامي داخل الحزب الشيوعي في فلسطين ، في الفترة التي اعقبت انعقاد المؤتمر السادس العالمي للاممية الشيوعية لم يكن بعيدا عن هدف الزيارة التي قام بها « شميرال » الى فلسطين .

ـ معلوماتنا عن زيارة « شميرال » الى فلسطين حصلنا عليها من المقال السابق المذكور لـ « جوزيف برغر » . اما المعلومات الخاصة بحياة « شميرال » فقد حصلنا عليها من مجلة « الديمقراطية الجديدة LA DEMOCRATIE NOUVELLE عدد خاص ، اكتوبر ١٩٦٥ ، ص / ٤٦ .

٦ ـ اميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، اصدار المكتبة الشعبية في الناصرة ، ص : ١٦٢ ـ ١٦٤ .

٧ ـ شميرال : « لتنبه اكثر الى حوادث فلسطين والبلدان العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٢ ، ٩ نوفمبر ١٩٢٩ ، ص : ١٥١٢ .

٨ ـ كانت تصدر دوريا مرتين في الاسبوع ، عن قيادة الاممية الشيوعية خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢١ والعام ١٩٣٩ . وكانت تظهر باللغات الالمانية والانكليزية والافرنسية .

كان « موسى خليل » قد اعتمد على مادة هذه المجلة في انجاز بحثه القيم عن « الحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩١٩ـ ١٩٤٨ » (علما باننا لا نشاطره الكثير من استنتاجاته) ، والذي ظهر في العدد (٢٩) من مجلة « شؤون فلسطينية » .

وكم تمنينا لو استطاع كاتب البحث المذكور تحديد مراجعه من مادة المجلة بصورة افضل . فهو كان يورد رقم المجلة وسنة صدورها ورقم الصفحة ، ولكن دون ان يحدد عنوان المقال بحدذاته ، واسم كاتبه والطبعة التي ظهر فيها . لنأخذ مثالا على هذا النقص في تحديد المصادر: يستشهد « موسى خليل » بعدد مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » رقم ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، ص : ١٠٥٨ فيذكر بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد اعتبر اضطرابات البراق « في مراحلها الاولية كمذبحة ضد اليهود ، كما اعتبر العرب جمهور فاشي قرامه فلاحون محمديون ،

ويدر بقيادة رجال دين جهلة ، وزعماء اقطاعيين وعناصر بورجوازية » . (راجع موسى خليل ، المقال المذكور ، في « شؤون فلسطينية » رقم ٣٩ ، تشرين الثاني ١٩٧٤ ، ص : ١١٧) . اطلعنا على العدد ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، من الطبعة الفرنسية للمجلة تاريخ ١٥ حزيران ، وكان يتضمن مقالا عن فلسطين بتوقيع « بوب » عنوانه : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » (سنعود لاحقا ، خلال بحثنا ، لاستعراض محتوى هذا المقال) . وطبعا لم يكن هذا المقال يتعرض لحوادث هبة البراق لانه ظهر قبل اشهر من حدوثها . عند ذلك افترضنا بان كاتب المقال المذكور قد اعتمد على طبعة اخرى من المجلة (غير الطبعة الفرنسية) ، فراجعنا كافة المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة وتطرقت لهبة البراق ، فلم نعثر على اي اثر للاستشهاد الذي اورده كاتب المقال .

٩ ـ خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢٤(تاريخ اعتراف الكومنترن بالحزب الشيوعي في فلسطين) وبداية الثلاثينيات (الفترة التي اعقبت المؤتمر السابع للحزب) كان «جوزيف برغر» هو المراسل الرئيسي لمجلة « المراسلات الصحفية الدولية » في فلسطين . وسنرى خلال مجرى هذا البحث كيف ان هذا « القائد الشيوعي » قد قام بتزييف حقائق تاريخية كان قد اشاد بها ، بل ساهم في صنعها في الماضي ، وذلك بعد ان ارتد على الحزب وارتمى في احضان اجهزة الدعاية الصهيونية .

١٠ ـ المعلومات عن المؤتمر العالمي السادس حصلنا عليها من المراجع التالية :

ـ الاممية الشيوعية ، بحث تاريخي موجز ، صادر عن معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، دار التقدم ، موسكو . (باللغة الاسبانية) .

ـ جورج كونيو : G. COGNIOT الاممية الشيوعية ، EDITIONS SOCIALES باريس ، ١٩٦٩ .

ـ المراسلات الصحفية الدولية ، عدد خاص عن « برنامج الاممية الشيوعية »، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٨ ، رقم ١٤١ .

ـ موضوعات ومقررات المؤتمر السادس للاممية الشيوعية ، مكتب المنشورات ، باريس . (بدون تاريخ) .

١١ ـ ساهم في جلسات هذا المؤتمر ولاول مرة مندوب عن الحزب الشيوعي في فلسطين تحت اسم « حيدر » ، هو « اولف افيرباخ » WOLF AVERBUCH ، او « ابو زياد » . (سنتعرض في بحث لاحق لمساهمة المندوب الفلسطيني في هذا المؤتمر) .

١٢ ـ قدم « كوسنين » امام المؤتمر التقرير الخاص بقضية المستعمرات ، وقد اعترف هذا القائد الشيوعي خلال نقاشات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ،بالطابع الانعزالي لتقييم دور البورجوازية الوطنية من قبل المؤتمر العالمي السادس للاممية. (راجع الاممية الشيوعية ، معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية ، المرجع المذكور ، ص : ٢٨١) .

١٣ ـ ليس في نيتنا رسم صورة شاملة للاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسود في فلسطين خلال تلك الفترة . سنركز فقط على اهم الملامح والخصوصيات التي كانت تميز هذه الاوضاع ، وقد اعتمدنا في ذلك على المراجع التالية :

ـ الدكتور اميل توما : جذور القضية الفلسطينية، المكتبة الشعبية في الناصرة.

ـ عبد القادر ياسين : كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ، ايار ١٩٧٥ .

ـ محمد حافظ يعقوب : نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٤٨ (بحث سوسيولوجي) ، دار الطليعة ، بيروت ، ايلول ١٩٧٢ .

ـ الدكتور عبد القادر الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٧٠ .

ـ ج . ب (J. B.) : « حزب العمال والامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط» في المراسلات الصحفية الدولية رقم ٤٤ ، ٢٩ ايار ١٩٢٩ ، ص : ٦٣٠ .

ـ ا . م (A. M.) : « الافاق الثورية في فلسطين » في الاممية الشيوعية ، رقم ١٩ ، ١ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص : ١٢٧١ ـ ١٢٨٢ .

(كان « جوزيف برغر » يصدر مقالاته على الاغلب بالاحرف الاولى من اسمه : ج . ب) .

١٤ ـ اعتمدنا في تعرفنا على الاوضاع الذاتية للحزب وعلى توجهات سياسته خلال الفترة التي سبقت اندلاع الحوادث على المقالات التالية :

ـ ن . م N. M. يافا : « الكونغرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٣، ١٧ كانون الثاني ١٩٢٩ ، ص : ٣٤ .

بوب (BOB) يافا : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٥٠ ، ١٥ حزيران ١٩٢٩ ، ص : ٧٢٨ .

(لم نتمكن من التعرف على شخصية كاتب المقال) .

ـ ج . ب J. B. القدس : « النضال في سبيل الارض في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٢ ، ٢١ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٦٩ .

ـ بوب (يافا) : « الاول من اب في فلسطين » في المراسلات الصحفية الدولية، رقم ٧٧ ، ٢٨ اب ١٩٢٩ ، ص : ١٠٣٩ .

١٥ ـ « شعارات بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لتاسيس الاممية الشيوعية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢١ ، ٦ اذار ١٩٢٩ ، ص : ٢٥٩ .

١٦ ـ برانتلير : احد قادة الحزب الشيوعي الالماني . كان واحدا من ممثلي الاتجاه اليميني خلال مناقشات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية .

١٧ ـ اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية : « قرار حول اليوم العالمي للنضال ضد الحرب الامبريالية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٤ ، عدد خاص عن الجلسة العاشرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، ٢٨ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٨٢ .

١٨ ـ البراقدا (١٨ اب) : « نتائج اليوم الاحمر العالمي » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٧٩، ٣١ اب ١٩٢٩، ص : ١٠٨٢ .

١٩ ـ اليني ALINI : « حوادث فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٨٠، ٤ ايلول ١٩٢٩ ، ص : ١٠٩٠ ـ ١٠٩١ (لم نتمكن من التعرف على شخصية هذا الكاتب ، الذي كان يرسل مقالاته من القدس) .

٢٠ ـ ج . ب (J. B.) (القدس) : « المذبحة في الارض المقدسة » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٨٤ ، ١١ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٥٥ ـ

١١٥٦ ٠

٢١ – اليفي (القدس : « الاوضـــاع السياسية في فلسطين » في المراســلات الصحفية الدولية ، رقم ١٤،٨٦ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٧٣ – ١١٧٤ ٠

٢٢ – ج ٠ ب (القدس) : « عودة « السـلام » الـى فلسطيـن » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢،٩٨ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص ص : ١٣٤٠ – ١٣٤١ ٠

٢٣ – يوب (يافا) :«الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٩٠٦ ، ١٩ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص : ١٤٦٠ ٠

(لم يحدد كاتب المقال التاريخ الـذي عقد فيه الاجتماع الموسع للجنة الحـزب المركزية ٠ اذا اخذنا بالاعتبار تاريـخ ظهور المقال على صفحـات المجلـة ، بامكاننا الاعتقاد بان اجتماع اللجنـة المركزية قد انعقد في اواخر شهر ايلول او خلال الايام الاولى من شهر تشرين الاول) ٠

٢٤ – ج ٠ ب (القدس) : « مشاغـل وسياط ماكدونالد في فلسطين » ، فـي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٧ ، ٩ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، ص : ١٥١١ ٠

٢٥ – ج ٠ ب (القدس) : « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » ، فـي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٢٤ ، كانون الاول ١٩٢٩ ، ص : ١٦٥٣ ٠

– في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٩ ، سكرتاريا السياسيـة للجنـة الاممية الشيوعية قرارا حـول انتفاضة في عربستـان » ٠ النص والقصود بـلاد وقد ظهر القسم الاول وثيقة في العدد(١١)

من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ، تاريخ ٥ شباط ١٩٣٠ ، ص : ١١٦ ٠ اما القسم الثاني فقد ظهر في العدد (١٢)من المجلة ، تاريخ ٨ شباط ١٩٣٠ ، ص ص ١٢٦ – ١٢٧ ٠ وكان « فواز طرابلسي » قد ترجم قسما هاما من هذا القـرار – الوثيقة ، ولكنه لم يحدد المصدر الـذي اعتمده ٠

(راجع فوازطرابلسي : « الاممية الشيوعية وقضية فلسطين » ، في كتاب المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، كتاب خاص صادر عن مجلة دراسـات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، تمـوز ١٩٧١) ٠

لن يكون في مجال بحثنا هذا تحليـل هذه الوثيقة ٠ سنتعرض فقط لتقييـم قيادة الاممية الشيوعية لـدور الحـزب الشيوعي الفلسطيني خلال احـداث اب ٠

٢٧ – يعتقد بعض الكتاب ان الحـزب الشيوعـي الفلسطينـي كـان قـد اعتبـر احداث اب بمثابـة التعبير عن مذبحة ضهد اليهود ، ولم يعدل موقفه هذا ويعتبر الاحداث بمثابة التعبير عن انتفاضة قومية عربية ،الا بعد ان استلم التوجيهات الصائبة من قيادة الاممية الشيوعية ٠ يكفي لاثبات خطأ هذا الرأي، مراجعة المقالات التي ارسلها قادة الحزب الى مجلة المراسلات الصحفية الدولية بعد ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، وقبل عدة اسابيع من اعلان الموقف الرسمـي لقيادة الاممية الشيوعية ٠

٢٨ – انظر : عبد الوهـاب الكيالي ، المرجع المذكور سابقا ، ص : ٢٤٩ ٠

٢٩ – تحتاج قضية تعريب الحـزب الشيوعي الفلسطيني الى دراسات خاصة ومعمقة ، لا يستوعب لها مجـال هـذا البحث ، خاصة وانها كانت من اهـم

القضايا التي جابهها الحزب طوال فترة العشرينات ٠

يقول مايرفيلنر : « ٠٠ وحقيقة ان الحركة الشيوعية في فلسطين قد بدأت بين العاملين اليهود فقط ، صعبت في البداية الفهم الكامل لمجموعة من المسائل النظرية والسياسية ٠٠ » ٠ (انظر مايرفيلنر : خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي ، منشورات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) ، حيفا ١٩٧٠) ٠

اننا نعتقد بان مسالة التعريب – وهي ضرورة تحويل الحزب الى منظمة قادرة على العمل في وسط الجماهير العربية وخاصة جماهير الفلاحين ، كانت احدى اهم هذه المسائل التي صعب فهمها ، بسبب جملة من العوامل الذاتية والموضوعية ٠

ملاحظة : لقد اعتمدنا على الطبعة الفرنسية من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ٠